

اللائف الولي

وَمَعَاذِي رَسُولَ اللَّهِ وَالثَّلَاثَةَ الْخُلَفَاءَ

لِلْإِمَامِ أَبِي الْبَرَيْقِ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى الْكَلْبِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ

٥٦٥ - ٦٣٤ هـ

تحقيق

مصطفى عبد الواحد

ينشر لأول مرة على نسختي «طلعت» و«التيمورية»

الجزء الأول

النشيد
مكتبة الحاجي بالقاهرة
ومكتبة الهلال ببروت

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م

مطبعة السنة العصرية

١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين

ت ٩٠٦٠١٧

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وبعد . . فهذا كتاب « الاكتفاء بمغازى رسول الله ومغازى الثلاثة الخلفاء » لأبى الربيع سليمان بن موسى الكلاعى الأندلسى ، أقدمه للأمة الإسلامية لأول مرة بعد أن ظل فى طوايا النسيان ثمانية قرون من الزمان . . ولا بد هنا أن نتحدث عن المؤلف قبل أن نتحدث عن كتابه وموضوعه .

الكلاعى^(١) :

هو سليمان بن موسى بن سالم بن حسّان بن سليمان بن أحمد بن عبد السلام الحميرى ، ينتهى نسبه إلى ذى الكلاع يكنى أبا الربيع ويعرف بابن سالم . ولد سنة ٥٦٥ هـ فى بلنسية بالأندلس ، وأصله من ثغورها الشرقية . وقيل : كان مولده بظاهر مرسية فى مستهل رمضان سنة ٥٦٥ ، وسيق إلى بلنسية وهو ابن عامين ونشأ بها .

ثقافته :

كانت بلاد الأندلس فى عصر الكلاعى لا تزال ترفع لواء العلم ،

(١) ترجمته فى تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٩/٤ ط حيدر آباد ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ٥٦/٣ . والديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ١٢٥ ونفع الطيب ٥٠٢/٢ ، ٦٥٩ ، ٧٦٨ ط ليدن والإحاطة فى أخبار غرناطة ، والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار .

وتنموج بألوان الثقافات ، وكانت العلوم الدينية في مقدمة ما يُعنى به الطالبون ، وقد انجبه السكلاعى منذ نشأته إلى علوم الحديث فسمع ببلده أبا العطاء بن نذير وأبا الحجاج بن أيوب وأبا عبد الله بن نوح وأبا الخطاب بن واجب ، وغيرهم . وتجوّل في بلاد الأندلس والعدوة فسمع أبا القاسم بن حُبَيْش وأبا بكر ابن الجلد وأبا عبد الله بن زرقون ، وأبا عبد الله بن الفخار ، وأبا محمد بن عبيد الله ، وأبا محمد بن بونة ، وأبا الوليد بن رشد ، وأبا محمد بن الفرس ، وأبا عبد الله ابن عروس وأبا محمد بن جمهور ، وأبا الحسن بن نجبة ، وخلّقا .

وقد انتفع السكلاعى من هؤلاء الشيوخ ، وصادف ذلك منه ذمّاً حادّاً وذكاءً متقدماً ، فكان حافظاً للحديث مبرزاً في نقده تامّ المعرفة بطرقه ضابطاً لأحكام أسانيده ذا كرام لرجاله .

وقد تميّز بذكره لحياة الرجال وحفظه لأسمائهم وخاصة من تأخر زمانه وعاصره ، حتى تقدم على أهل زمانه في ذلك . .

كل ذلك أدّى بالسكلاعى إلى أن ارتقى منزلة عالية في صناعة الحديث ، فكان بصيراً به عارفاً بالجرح والتعديل ، لا نظير له في الاتقان والضبط ، وعُرف بالعدالة والجلالة ، فكانت إليه الرحلة في عصره للأخذ عنه والسماع منه ، كما يقول عنه ابن الأثير : « وانتفعتُ به في صناعة الحديث كل الانتفاع وأفادنى ما لم يقد أحداً مما كان عنده من الغرائب » ولذلك كان يقال عنه : « بقيةُ الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقى » .

وإلى جانب التبحّر في الحديث والاتساع في فنونه كان السكلاعى أدبياً مبرزاً في الشعر والنثر ، فقد قال عنه ابن الخطيب :

« كان رَبَّانٍ من الأدب كاتباً بليغاً خطيباً بجامع بلنسية » وكان يتميز

بحسن السرد والمساق لما يقول ، ويظهر ذلك في كتابه الذي بين أيدينا ،
مما يدل على ملكة أدبية وحس مرهف ووجدان رقيق .
وقد أهلته هذه الملكة الأدبية إلى أن يكون المتكلم عن الملوك في
مجالسهم والمنبئ عنهم لما يريدونه على المنابر وفي المحافل . .
وذلك يجعلنا نضع الكلاعي في مرتبة الرئاسة في الحديث وفي الكتابة
في عصره . .

أسلوبه :

كان الكلاعي يلتزم في كتابته شارات عصره من السجع والجناس
والطباق وغير ذلك من المحسنات ، فذلك كان الأسلوب المرضي في ذلك
الحين ، ولكنه كان يتميز بحاسة مرهفة في اختيار الكلمات الرقيقة وحسن
الملاءمة بينها في الأسلوب ، وذلك هو مجال التفاضل بين الكتّاب ، ويبدو
ذلك واضحاً في مقدمة كتابه هذا ، فإنك تحس فيه روح كاتب يطاوعه
الأسلوب وتحضره الكلمات المعبرة ، ومع التزمه السجع فلا تجد فيه عبارة
مستكرهة ولا لفظة مجتلبة في غير موضعها مع عاطفة بادية وشعور نابض .
وقد جمع الكلاعي رسائله في ديوان لم يصل إلى أيدينا ، وله كتب أدبية
سند كرها في تراثه .

شعره :

كان الكلاعي ينظم الشعر في مختلف أغراضه ، ومع أنه كان من رجال
الحديث المبرزين فلم يعمقه ذلك عن الإجابة في النظم والجمال في التصوير ،
وقد عبّر في شعره عن نفسه وبثّ خواطره ولم يكن نظاماً مقلداً ولا شاعراً
متصنعاً ، فن شعره في شبابه ما كتب به إلى بحر بن صفوان بن إدريس عقب
انفصاله من بلنسية سنة ٥٨٧ هـ :

أَحِنَّ إِلَى نَجْدٍ وَمَنْ حَلَّ فِي نَجْدٍ
وَقَدْ أَوْطَنُوهاُ وَاذْعِينِ وَخَلَّفُوا
تَبَيَّنَ بِالْبَيِّنِ اشْتِيَاقِي إِلَيْهِمْ
وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَهَا
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا لَاقِيَ مِنَ الْجَوِيِّ
فِيالَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَعُودُ لِنَسَا لِمَنَى
وَلَمْ يَخْتَلَفْ شَعْرُهُ عَنِ هَذِهِ الرَّقَّةِ فِي كِبَرِهِ ، فَظَلَّ جِيَاشَ الْعَاطِفَةِ حَسَنَ
الرَّوَاءِ ، فَمَنْ شَعْرُهُ فِي شَيْخُوخَتِهِ :

تَوَالَتْ لَيْالٍ لِلْعَوَايَةِ جُونُ
رِكَابِ شَهَابٍ أَزْمَعَتْ عَنكَ رِحْلَةً
وَلَا أَكْذَبُ الرَّحْمَنُ فِيمَا أَجْتَهُ
وَمَنْ لَمْ يَحَلِّ أَنْ الرِّيَاءَ يَشِيدُهُ
لَقَدْ رِيَعُ قَلْبِي لِلسَّهَابِ وَقَدَّعَهُ
وَأَلْمَنِي وَخَطَّ الْمَشِيْبِ بِأَلْمَنِي
وَلَيْلُ شَهَابِي كَانَ أَنْضَرَ مَنظَرًا
فَلَيْبِهَا عَلَى عَيْشٍ تَكْدُرُ صَفْوَهُ
وَيَاوِيحُ قَوْدِي أَوْ فَوَادِي كَلْمَا
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي سَكُونٌ بِغَرْقِ

وَوَاقِي صَبَاحٍ لِلرَّشَادِ مَبِينُ
وَجَيْشُ مَشِيْبِ جَهَّزْتَهُ مَنُونُ
وَكَيفَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ جَنِينُ
فَمَنْ مَذْهَبِي أَنْ الرِّيَاءَ يَشِينُ
كَأَنَّ رِيْعَ بِالْمَلِيقِ^(١) الْفَقِيمِ ضَمِينُ
فَخُطِّبْتُ بِقَلْبِي لِلسَّجُونِ فَنُونُ
وَأَنْقَى لَهَا لَا حِظَّتَهُ عَيْوَنُ
وَأَنْسِ خِلَا مِنْهُ صَفَاً وَحَجُّونُ
تَزِيدُ شَيْبِي كَيْفَ بَعْدُ بِكَوْنُ
وَكَيفَ مَعَ الشَّيْبِ الْمَمِضُّ سَكُونُ

وقالوا شباب المرء شعبة جنية فإلى عراني للمشيب جنون
وقالوا شجاك الشيب حدثان ما أنى ولم يعلموا أن الحديث شجون
وهكذا نجد شعر الكلاعي زاخرا بالصور نابضاً بالمعاطفة معبراً عن
أحلامه مصوراً لمراحل حياته .

وقد كانت له مناجاة لربه عذبة الأسلوب صادقة اللمجة ، منها قوله :

أموتلى الموالى ليس غيرك لى موتلى وما أحد يارب منك بذا أولى
تبارك وجهه وجهت نحوه المنى فأوزعها شكراً وأوسعها طولا
وما هو إلا وجهك الدائم الذى أقل حلى عليائه يُخرس القولا
تبرأت من حوتى إليك وقوتى فكأن قوتى فى مطابى وكن الخولا
وهبلى الرضا مالى سوى ذاك مُبتغى ولولقيت نفسى على نيله الهولا

شخصية الكلاعي :

والحق أن أبا الربيع الكلاعي كان نمطاً فريداً فى عصره ، فهو حافظ
محدث وأديب متقن وشاعر رقيق ، أنيق الشارة حسن الزى ، ولكن الأعب
من ذلك أنه كان فارساً مجاهداً يشهد الغزوات ويباشر القتال بنفسه ويُبلى
البلاء الحسن !

ونحن نعلم أن الأندلس شهدت فى عصر الكلاعي معارك بين المسلمين
وبين الأسبان الذين كانوا يحاولون استرداد الأندلس من أيدي المسلمين ،
حتى تم لهم ما أرادوا على حين غفلة من الأمة الإسلامية وتخاذل
أما الكلاعي فقد كان يخرج مع المجاهدين وهو شيخ كبير ليقاتل

في سبيل الله ، وكأنه لم يكفه أن يجاهد بلسانه وقلبه حتى أراد أن يقاتل أيضاً
بسيفه ويحوز شرف الشهادة في سبيل الله !

وقد تحقق له هذا الأمل في آخر غزوة شهدها ، وكان في سن السبعين !
وهي موقعة تسمى « أنيشة » إذ كانت على نحو سبعة أميال منها ، فلم يزل
مقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار مقبلاً على العدو ينادى بالمتهمين :
أعن الجنة تفترون ! حتى قُتل صابراً محتسباً ، غداة يوم الخميس لعشر بقين
من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ .

وقد كان يذكر دائماً أنه عمره ينتهي في سن السبعين ، لرؤيا رآه
في صيفه ، فكان كما قال . .

فأى نمط من الرجال كان الكلاعيّ . . . !

وأية نفس تلك التي كان يحملها بين جنبيه ؟ !

هؤلاء هم العلماء حقاً ، وهؤلاء هم ورثة الأنبياء . . .

وما أجل ما رثاه عبد الله بن الأبار في قوله :

سلامٌ على الدنيا إذا لم يلحُ بها محيياً سليمان بن موسى بن سالم
وهل في حياتي متعةٌ بعد موته وقد أسلمتني للدواهي الدوام
يمانٍ كِلاعيٍّ نَمَاهُ إلى العِلا تمامٌ حَوَاهُ قَبيلَ عَقْدِ التَّمائمِ
أناه رَدَاهُ مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِرٍ ليحظي بإقبالٍ من الله دائمِ
سقى الله أشلاءً بسفحِ أنيشةٍ سوافحُ تزجيهما نِقَالِ الغائمِ
وصلّى عليها أنفسا طاب ذِكْرُها فطَيّب أنفاسَ الرياحِ النّواعمِ
لقد صَبَرُوا فيها كراماً وصابروا ولا غرَوَ أن فازوا بصفو المكارمِ
وما بذلوا إلا نفوساً نفيسةً تحنّ إلى الأخرى حنينَ الروائمِ

فوا أسفاً للدين أعضل داؤه وأياسَ من آسٍ لمسراه حاسم
ويا أسفاً للعالم أقوت ربوعه وأصبحَ مهدودَ الذرى والدعائم
فأى به — غارَ ليس بطالعٍ وأى سناءٍ غاب ليس بقادِم ا

رحمه الله !

كتبه :

يدكر المترجمون للكلاعى أسماء بعض كتبه ، وأغلبها فى علوم الحديث
الذى كان ميدان السكلاعى وشاغله فى عمره الطويل ، فمن ذلك :

١ — مصباحَ الظلم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . نحا به
منحى الشهاب القضاعى .

٢ — الأربعين حديثاً عن أربعين شيخاً ، لأربعين من الصحابة فى
أربعين معنى . جزء مفيد .

٣ — الشبايعات الخرجة من أحاديث أبى على الصدى . ثلاثة أجزاء .

٤ — أحاديث المصاحفة . جزء .

٥ — جزء آخر فى مثل ذلك من حديث أبى بكر بن العربى .

٦ — حلية الأملى فى الموافقات من العوالى — خرجها من حديثه فى

أربعة أجزاء .

٧ — كتاب حافل السابقين وحلية الصادقين المصدقين فى ذكر

الصحابة الأكرمين ومن فى عدادهم بإدراك العهد الكريم من أكابر التابعين

— لم يكمله — ولو فرغ منه لكان ضعيف الاستيعاب لأبى عمر بن عبد البرّ .

٨ — الإعلام بأخبار البخارى الإمام ، ومن بلغت روايته عنه من

الأغفال والأعلام .

٩ — المعجّم في من وافقت كنيته كنيّة زوجته من الصحابة رضی الله عنهم . جزء كبير .

١٠ — تحفة الرواد وتحفة الورد في العوالى البدليّة الإسناد . في أربعة أجزاء .

١١ — المسلسلات من الأحاديث والآثار والإنشادات . جزء كبير .

كما كان له كتب في فنون الأدب منها :

١ — زكوة الأمثال ونفثة السحر الحلال . بنى فيه الكلام على التوشيح بما تضمنه كتاب أبي عبيد من أمثال العرب واضطرار العرب إليها . في سفر غير كبير .

٢ — الجهد النصيح وحظ المنيع من معارضة المعري خطبة النصيح . سفر .

٣ — الامتثال لمثال المبهج في ابتداع الحكم واختراع الأمثال . جزء كبير .

٤ — نتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم . جزء .

٥ — مفارضة القلب العليل ومناجاة الأمل الطويل على طريقة أبي العلاء المعري في ملقى السبيل .

٦ — الصحف المنشرة في القطع المعشرة .

٧ — ديوان رسائله — سفر متوسط

٨ — ديوان شعره — سفر

٩ — جنى الرطب في سني الخطب . جزء جمع فيه خطبه في الجمع والأعياد وغير ذلك . وهي نحو من ثمانين خطبة .

وهذه الكتب تقرأ أسماءها في السكتب التي ترجمت له ولاندرى ما فعل

بها الزمان ! فليس منها شيء مطبوع ولا نهتدى إلى مكانها بين المخطوطات ،
وليت شعري متى تصل أيدينا إلى تراثنا المفقود ، ومتى تتصل حلقات الفكر
الإسلامي ويكتمل صرحه الذي بناه أئمتنا عبر القرون ؟ !

إننا نهييب بحماسة التراث الإسلامي أن يبحثوا عن هذه الكفوز المفقودة
فعلما متوارية في مكتبات الغرب ومتاحفه ، فإنها أمانة تركها لنا الأسلاف
ولا بد أن نصونها لنسلبها إلى الأخراف .

هذا الكتاب :

وكتابتنا الذي نقدمه اليوم للكلاعي هو نمط فريد من كتبه ، ذلك هو
كتاب « الاكتفاء في مغازي رسول الله ومغازي الثلاثة الخلفاء » للكلاعي
لم يكن مؤرخاً ولكنه انبعث إلى كتابة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وذكر
مغازيه بدافع ديني عميق يعبر عنه بقوله في المقدمة : « وكل ذلك يشهد الله
أن المراد فيه بالقصد الأول وجهه الكريم وإحسانه العميم ورحمته التي منها شق
لنفسه أنه الرحمن الرحيم . ثم القصد الثاني متوفّر على إثارة الرغبة في إيناس
الناس بأخبار نبيهم صلى الله عليه وسلم وحمارة خواطرم بما يكون لهم في العاجل
والآجل أفيح وأسلم^(١) . »

وعنده أن رواية أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الأشياء بعد
كتاب الله : « فبالوقوف عليها توجد حلالة الإسلام ويعرف كيف تمهدت
السهل إلى دار السلام^(٢) . »

وإذا استوفى هذا الغرضَ وبلغ منه حاجة نفسه ، فإنه يقبعه بذكر مغازي

(١) الاكتفاء ص ٥ .

(٢) الاكتفاء ص ٦ .

الخلفاء الثلاثة الأول ، أبي بكر وعمر وعثمان ، فتنظم الفائدتان معاً ويجمع الخبر عن مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازي خلفائه . .

فأين نضع هذا الكتاب بين كتب السيرة والمغازي . . ؟

إن ذلك يقتضينا أن نتفهم منهجه وتبين مدى أصالته لنذكر الجديد الذي قدّمه في موضوعه .

لقد بدأ تدوين السيرة والمغازي منذ وقت مبكر ، وأول كتاب في ذلك هو كتاب موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ ثم كتاب محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥٠ هـ الذي اختصره عبد الملك بن هشام . ومن بعد ذلك مغازي الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، ثم طبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ .

والسكلاعي يصرح أنه في كتابه هذا إنما يلخص من كتب أئمة هذا الشأن الذين صرفوا إليه اعتنائهم واستنفدوا فيه آنائهم^(١) ، وخاصة كتاب محمد بن إسحاق وكتاب موسى بن عقبة .

ويذكر أن أعظم تعويله كان على كتاب ابن إسحاق ، إذ قصد إلى تجريده من اللغات وكثير من الأنساب والأشعار ، وجرى على ترتيبه وتجرّمي منزهه ، بحيث نجد كتاب ابن إسحاق مهذباً في خلال كتاب «الاكتفاء» فإن السكلاعي رأى أن كتاب ابن إسحاق قد تخلّله أشياء من غيري المغازي تقدح عند الجور في إمتاعه ، فأراد أن لا يُبقى منه إلا الأخبار الجوردة وخلاصة المغازي ، فنقص منه ليزيده كمالاته .

وقد عوّض السكلاعي ما نقصه من كتاب ابن إسحاق ، فيما نقله عن غيره من الكتب ، فقد اختار مواضع من كتاب موسى بن عقبة ، ونقل جُملاً

(١) الاكتفاء ص ٢ .

من كتاب « المبعث » للواقدي ، واختار نفائس من كتاب أبي عبد الله الزبير بن بكار في أنساب قريش، ومن التاريخ الكبير لأبي بكر بن أبي خيثمة . . وأشياء من غيره هذه الكتب يقدم به الحديث أو يستكمل الفائدة .

تلك هي مصادر الكلاعي في سيرته التي توضح قيمة عمله ، فقد أمكن الكلاعي الذي عاش في القرن السابع أن ينظر في إحاطة إلى ما خلفه السابقون من تراث في المغازي والسير وأن يتأنى في الاختيار والترتيب فيستكمل النقص ويجمع المزاي ، ويحفظ لنا جانباً من تراثنا عدا عليه الزمان .

وقد تجلّت ملكة الكلاعي في التأليف وذوقه الرقيق في الترتيب ، في منهجه الذي التزمه في العرض والتنسيق ، فهو لا يلتزم نسبة كل قول إلى صاحبه ولا ذكر كل مرجع فيما ينقله ، بل يوائم في أغلب الأحيان بين الأقوال ليؤلف منها حديثاً متمسقا وقصة مرتبة ما دامت تسير في اتجاه واحد « ليسكون المساق أبين والاتساق أحسن ^(١) » .

وهو لا يتدخل برأيه إلا عندما تختلف الآراء ليفصل بينها ويرفع الإشكال عنها . .

وربما فصل بين بعض الأحاديث المتشابهة لضرورة موضعها أو حلالة موقعها . . حسب ما تهدي إليه حاسته الجمالية .

ذلك في سيرة رسول الله ومغازيه . .

أما مغازي الخلفاء الثلاثة الأول ، أبي بكر وعمر وعثمان ، فإن الكلاعي بصرح أنه اعتمد فيها على كتاب شيخه الخطيب أبي القاسم بن حُبَيْش وعلى غيره مما يشابهه . . ولم يورد شيئاً عن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب لأنه شغل بمقاومة الفتن ومجابهة المتمردين عن الفتوح والغزو .

(١) الاكتفا ص ٥ .

وبهذا نرى في كتاب الكلاعي مزيتين واضحتين ، تجعلان له أصالة في موضوعه الذي يعرض له :

الأولى : الجمع والإحاطة وحسن النظر فيما سلف من تراث ، والنقل عن كتب لم تصل إلى أيدينا ، كغازي موسى بن عقبة والتاريخ الكبير لابن أبي خيثمة والمبعث للواقدي .

وهذا حفظ لنا « الاكتفاء » جانباً هاماً من تراثنا وأغنيانا عن النظر فيما سواه من كتب المغازي والسيرة .

الثاني : أنه جمع بين مغازي رسول الله صلوات الله عليه ومغازي خلفائه الثلاثة الأول ، وهم الذين تمت أعظم الفتوحات الإسلامية في عصرهم الزاهر ، في كتاب واحد ، بحيث نرى امتداد جهاد الرسول الكريم في جهاد خلفائه وأصحابه ، فنتمثل حركة المد الإسلامي على حقيقتها ، ولا نقطع حلقات هي في حقيقتها متصلة متلاحمة .

وكتاب « الاكتفاء » بهذا الاعتبار عمل جديد بين كتب المغازي تنضح فيه حاسة دقيقة في الترتيب ويشده نظام واحد ، فهو ليس نقلاً أو حشداً للأخبار ، بل هو بناء جديد كان لابد منه لتتم مرحلة النضج في كتب المغازي وتكتمل حلقاتها ، في هذه الصورة الجميلة التي أرادها الكلاعي لكتابه ، الذي تجنب فيه الإسناد والتكرار والحشو وبالغ في الدقة والإحاطة . وهذه الميزة هي التي جعلتني أرى في نشر هذا الكتاب عملاً ضرورياً وواجباً نحو تراثنا وعصرنا على السواء . .

أصول الكتاب :

اعتمدت في إخراج هذا الكتاب على أربع نسخ خطية :

١ — نسخة في مكتبة طلعت بدار الكتب المصرية تحمل رقم ٢٠٧٤

تاريخ في مجلد واحد وهي أقدم النسخ وأوثقها ، إذ كتبت في سنة ٨٦٢ هـ وعدد أوراقها ٢٢٤ ورقة ، في كل صفحة ٤١ سطرأ ، وقد كتبت بخط مشرقى دقيق ، وعلى هوا مشها مراجعات ، وجاء بآخرها :

« تم كتاب الاكتفا من مغازى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازى الثلاثة الخلفاء رضى الله عنهم وحشرنا معهم ، وربنا الحمد لا إله غيره ولا مرجو إلا بركته وخيره ، برسم الفقير الى الله تعالى جمال الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن السابق الحنفى الحوى ، لطف الله تعالى به على يد الفقير لعفو ربه القدير محمد بن خليل بن إبراهيم الحنفى ، عامله الله بلطفه الخفى . وفرغ من كتابته في اليوم المبارك نهار الأربعاء السادس من صفر سنة ستين وثمانمائة أحسن الله عاقبتها . آمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم » وقد قوبلت هذه النسخة في تسعة وثلاثين مجلسا بمكة المكرمة ، آخرها يوم الخميس سابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثمانمائة . كما جاء في آخرها بعد ذلك عدة مقابلات وتعليكات .

٢ - نسخة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية في مجلد واحد ، تحمل رقم ١٥٥٧ تاريخ ، وقد كتبت سنة ١٠٨٩ هـ ، وعدد أوراقها ٣٨٠ وفى كل صفحة ٣٣ سطرأ ، وهي أيضاً بخط مشرقى ، وإليها الإشارة بحرف (ت) ٣ - نسخة بدار الكتب المصرية في جزء واحد تحمل رقم ٢٦٥٣ تاريخ ، في مجلد واحد ، في ٣٠٨ صفحة في كل صفحة ٣٥ سطرأ وقد كتبت بخط مغربى . وفي آخرها ما يفيد أنها كتبت سنة إحدى وسبعين ومائة وألف . وإليها الإشارة بحرف (ا)

٤ - نسخة بدار الكتب المصرية في أربعة مجلدات متوسطة ، تحمل رقم ٥٠٣٦ ، تاريخ ، وهي غير كاملة ، إذ وقفت عند كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى .

وفي الجزء الثاني منها ما يفيد أنها كتبت سنة ثمانية وعشرين وألف من الهجرة ، وقد كتبت بخط مغربي كبير . وإليها الإشارة بحرف (ب)
هذا وقد طُبع من هذا الكتاب جزء يسير في الجزائر سنة ١٩٣١ م بإشراف الأستاذ هنري ماسة الأستاذ بكلية الآداب بالجزائر ، وهو ملء بالتحريف والتصحيح ، وقد أشرت إلى كثير من أخطائه في هذا الجزء ، ثم أمسكت عن ذلك حين رأيت الخطأ يشيع فيه واكتفيت بالإشارة إلى ذلك ، ويبدو أنه طبع على نسخة شائبة .

وقد ورد اسم الكتاب في مقدمة المؤلف : « الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله ومغازي الثلاثة الخلفاء » ولكنني اخترت الاسم الذي ورد في أكثر مراجع ترجمة الكلاعي : « الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء » لإيجازه ووضوحه .

منهج التحقيق :

كان لا بد من مقابلة هذه النسخ الخطية الأربع ، وقد جمعت من نسخة طلعت النسخة الأم لقدمها ودقتها ، وأشرت إلى أهم الفروق بين هذه النسخ ، وأغفلت الإشارة إلى الفروق التي تنشأ عن التحريف وأخطاء الكتابة إذ ليس لها وزن علمي .

وفي هذا الجزء الذي أقدمه اليوم يجد القارئ كثرة الفروق بين الكلاعي وبين ابن هشام ، وقد التزمت الإشارة إلى هذه الفروق في المواضع التي يتضح فيها منهج الكلاعي في الإيراد أو التي تقوم من سيرة ابن هشام التي بأيدينا ، فعمل نسخة الكلاعي منها كانت أصح وأوثق ، أما الأجزاء الباقية فإن هذه المقابلات ستقل ، لتختلفها مقابلات بين الكلاعي وبين المصادر الباقية التي ينقل عنها . .

أما الشرح والتعليق فإني أسير فيه على الخطة التي أرتضيها ، وهي أن يكون ذلك في مواضع الضرورة التي يحتاج إليها فهم النص أو وضوحه ، بحيث تعين القارئ على حسن الاستفادة منه ، حتى لا نزحم النص بشرح يقترب من الحواشي التي طالما نعتينا عليها . أما التصريح فلا أشير إليه إلا في مواضع الخلاف ، وقد يسر السكلاعي الأمر لقارئه فدله على مصادر كتابه التي أشرنا إليها قبل ، فهذه هي المصادر المحدودة التي رجع إليها ، وما بقي منها عدد قليل .

وأرجو أن أستكمل في الأجزاء الباقية جوانب الجهد الممكن في إخراج هذا الكتاب ، ليكون دعوة إلى البحث عن آثار مؤلفه واستنقاذا من يد الفناء ونحن أحوج ما نكون إلى ما فيها من السنا والضياء . .

ولا أملك هنا إلا شكر الأستاذ العالم الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، فقد كان لرغبته إلى في إخراج هذا الكتاب أثر قوى في اتجاهي إليه وبحثي عن أصوله ، حتى وقفني الله إلى البدء فيه منذ خمس سنين ، ثم قامت في سبيله الصعاب ، حتى أراد الله له أن يخرج في هذه الأيام الحاسمة في تاريخ الأمة الإسلامية ليكون حافزاً للجهاد ومذكراً بأجداد الآباء والأجداد . .

وبعد . .

فله الحمد في الأولى والآخرة ، منه نستلهم العون والهداية ، نعم المولى ونعم النصير .

{ شوال سنة ١٣٨٧
القاهرة في { يناير سنة ١٩٦٨

مصطفى عبد الوارث

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٠	إبراهيم يؤذن بالحج	٧ - ١	مقدمة الكتاب
٦١	إبراهيم يتعلم مناسك الحج	٩	ذكر نسب رسول الله
٦٣	وفاة إبراهيم	١١	أولاد عدنان
٦٣	ولاية البيت بعد إسماعيل	١٢	أولاد معد
٦٤	بين جرهم وقطوراء	١٥	» نزار
٦٥	ولاية كنانة وخزاعة	١٩	» مضر
٦٦	تعظيم العرب للمعمر	٢٠	» الياس
٦٩	خروج جرهم من مكة	٢٢	» مدركة
٧١	ولاية خزاعة البيت	٢٢	» خزاعة
٧٢	حديث قصى	٢٣	» كنانة
٧٥	صوفة تجيز للناس بالحج	٢٤	» النضر بن كنانة
٧٩	عود إلى قصى	٢٤	» فهر بن مالك
٨٤	عبد الدار	٢٥	» غالب بن فهر
٨٥	وفاة قصى	٢٥	» لؤى بن غالب
٨٥	بنو عبد مناف وبنو عبد الدار	٢٩	البسلى
٨٨	حلف الفضول	٣١	أولاد كعب بن لؤى
٩١	العرب في جاهليتهم	٣٣	» عبد مناف
٩٢	عمر بن لحي	٣٤	» عبد المطلب
٩٣	بداية الوثنية	٣٤	محمد بن عبد الله
٩٧	اليهودية في بلاد العرب	٣٦	قصيدة أبي عبد الله بن أبي الحصل
١٠٢	من أخبار تبع		في نسب رسول الله
١٠٥	النصرانية في بلاد العرب	٤٥	ذكر أولية بيت الله المحرم
١٠٨	عبد الله بن الثامر وأصحاب الأخدود	٥١	إبراهيم وإسماعيل في موضع البيت
١١٤	ربيعة بن نصر والسكمان	٥٨	بناء إبراهيم للبيت

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٣٣	إنذار يهود النبي	١١٩	شق وسطيح
٣٣٦	حديث سلمان الفارسي	١٢٢	عمرو يقتل حسان
٢٤٤	حديث أمية بن أبي الصلت وأبي سفيان	١٢٤	الخنيسة ذو شنان
٢٥٠	الحنفاء		دخول الحبشة أرض اليمن
٢٦٠	صفة النبي في التوراة	١٢٦	وقصة أصحاب القيل
٢٦٢	ذكر البعث	١٣٩	سيف بن ذى يزن
٢٦٧	بدء نزول القرآن	١٤٥	عود إلى أبناء قصي
٢٧٠	إسلام خديجة	١٥٥	عبد المطلب يحفر زمزم
٢٧١	فترة الوحي	١٦١	نذر عبد المطلب
٢٧٢	فرض الصلاة	١٦٧	ولادة النبي صلى الله عليه وسلم
٢٧٣	إسلام علي بن أبي طالب	١٦٨	من سمى محمداً قبله
٢٧٤	إسلام زيد بن حارثة	١٦٩	الرضاعة
٢٧٧	إسلام أبي بكر	١٧٢	شق الصدر
٢٧٩	الجمهر بالدعوة	١٧٦	وفاة أمة وكفالة جده له
٢٨١	بين قريش وأبي طالب	١٧٨	بشارة سيف بن ذى يزن بالنبي
٢٨٣	إيذاء النبي والمسلمين	١٨٢	وفاة جده
٢٨٥	الوليد بن المغيرة	١٨٨	العباس يلي زمزم
	قصيدة أبي طالب في الدفاع	١٨٩	كفالة عمه أبي طالب
٢٨٦	عن الرسول	١٩٠	رحلته إلى الشام
٢٩٨	قصيدة أبي قيس بن الأسلت	١٩٣	حفظ الله له
٢٩٨	من أذى قريش للرسول	١٩٥	زواجه بخديجة
٣٠١	إسلام حمزة بن عبد المطلب	٢٠٥	بديان قريش للسكبة
٣٠٢	عتبة بن ربيعة يفاوض الرسول	٢٠٨	وضع الحجر الأسود
٣٠٤	وقريش تفاوضه	٢٠٩	كسوة السكبة
٣١٠	وفد قريش إلى أحبار اليهود	٢١٠	أمر الحنس
٣١٣	أول من جهر بالقرآن	٢١٣	ذكر ما حفظ عن الأحبار والرهبان والسكبان من أمر رسول الله

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤١٣	بدء إسلام الأنصار والعقبة الأولى	٣١٣	قريش تستمع إلى قراءة النبي
	إسلام مسعود بن معاذ وأسيد	٣١٦	عدوان قريش
٤١٦	ابن حضير	٣٢٠	الهجرة إلى أرض الحبشة
٤١٩	ذكر العقبة الثانية	٣٢١	ما قيل من الشعر في الحبشة
٤٢٨	الإذن بالقتال	٣٢٤	وفد قريش إلى النجاشي
٤٣٠	بدء الهجرة إلى المدينة	٣٣٤	إسلام عمر بن الخطاب
٤٣٨	مؤامرة قريش	٣٤١	كتابة الصحيفة
٤٤٢	هجرة رسول الله وأبي بكر الصديق	٣٤٣	من إيداء قريش للرسول
٤٤٦	قصة أم معبد	٣٥١	رجوع المهاجرين من الحبشة
٤٥٢	حديث سراقه	٣٥٧	ابن الدخنة ينجير أبا بكر
٤٥٨	دخول النبي المدينة	٣٥٨	نقض الصحيفة
٤٦٤	الإخاء وموادعة اليهود	٣٦٣	حديث الطفيل بن عمرو الدوسي
٤٦٥	وفاة أسعد بن زرارة	٣٦٧	خبر أعشى قيس
٤٦٥	الأذان	٣٧٠	مع أبي جهل وركانة
٤٧١	إسلام عبد الله بن سلام	٣٧٧	إسراء رسول الله
٤٧٢	إسلام مخيريق	٣٨٤	المعراج
٤٧٣	العداوة	٣٨٨	عاقبة المستهزئين
٤٧٨	المنافقون	٣٩٠	وفاة خديجة وأبي طالب
٤٨٥	وفد نصارى نجران	٣٩٥	خروج النبي إلى الطائف
٤٩٣	مرض المهاجرين بالمدينة	٤٠٠	عرض رسول الله نفسه على قبائل العرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْدِمَةُ الْكِتَابِ

الحمد لله الذي منّ علينا بالإسلام ، وأكرمنا بنبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وجعل آثاره الكريمة ضالّتنا المنشودة ، والافتداء بهديّيه الأهدى ، ونوره الأوضح الأبدي ، غايّتنا المقصودة وأمدّتنا المودودة ، وأنعم على قلوبنا بالارتياح لذكراه والاهتزاز عند سماع خبرٍ عنه مصنّده أو إليه مُنتمّاه .

ولأنه لأثر رجاء في هذه القلوب البطالة وأثارة خير يُرْحَى ، أن يذودها عن مَشَارِعِ الجَهَالَةِ ومنازع الضلالة^(١) ، فإن الارتياح لذكرك^(٢) شهادةُ الحُبِّ وأمانةُ المُحِبِّ .

وقد رَوَى عنه صلوات الله عليه نَقَلَةُ السُّنَّةِ أن من أَحَبَّه كان معه في الجنة .

فنسأل الله أن يكتبنا في محبّيه حقيقةً ، ويسلك بنا من الوقوف عند مقتضى^(٣) أوامره ونواهيه طريقةً بالسعادة خليقةً .

فما نزال طالبين ذلك من أكرم مطلوب لديه ، راغبين فيه إلى خير مرغوب إليه . وإن لم نكن أهلاً للإسماف بتقصيرنا في الأعمال ، فإنه جل جلاله أهلُ الجود والإفضال .

(١) المطبوعة : أن يوردها من مَشَارِعِ الجَهَالَةِ الضالة ، وهو تحريف شنيع .

(٢) المطبوعة : لادو ، وهو خطأ .

(٣) ط : مقتضيات .

ونصلى قبلُ وبعْدُ على هذا النبي المبارك الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين وصحبه المتقين^(١) ، خير صحب وخير آل .

وهذا كتاب ذهب فيه إلى إيقاع الإقناع ، وإمتاع النفوسِ والأسماع ، بأساق الخبر عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر نسبه ومولده وصفته ومبعثه ، وكثير من خصائصه ، وأعلام نبوته ومغازيه ، وأيامه من لدن^(٢) مولده إلى أن استأثر الله به وقبض روحه الطيبة إليه ، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

مقدِّماً لذلك ما يجب تقديمه ، ومتمِّماً^(٣) من ذكر أوليَّته المباركةِ بلداً وتحتيداً ، بما يحسن علمه وتعليمه ، ملخِّصاً جميمة من كتب أئمة هذا الشأن الذين صرفوا إليه اعتناءهم ، واستنفذوا فيه آناءهم ، ككتاب محمد بن إسحاق ، الذي تولى عبدُ الملك بن هشام تقريبه^(٤) واختصاره ، وكتاب موسى بن عُقبة ، الذي استحسن الأئمة اقتصاده واقتصاره ، وغيرها من المجموعات التي لا يزيد الإنصافُ فضل^(٥) جامعها ولا يذمُّ الاختبارُ اختصاره .

واسكن عظيمَ المعول بحكم الخاطر الأول على كتاب ابن إسحاق ، إياه أردتُ ، وتجریده من اللغات وكثيرٍ من الأنساب والأشمار قصدتُ ، وعلى ترتيبه غالباً جرَّيتُ ، وتمنَّزَعَه في أكثر ما يخص المغازي تحرَّيتُ .

(١) ط : المتقين .

(٢) المطبوعة : يوم .

(٣) ا ب ت : ومنتها .

(٤) ط : تهذيبه .

(٥) ا ت ط : لا يذمُّ الإنصافُ قصد جامعها ، والمطبوعة : لا يذمُّ ،

فإنه الذى شرب ماء هذا الشأن فأنقع ، وحل كتابه من نفوس الخاص
والعام أجل موقع .

إلا أنه تخلاه ، كما أشرنا إليه قبل ، أشياء من غير المناسبات تقدر عند
الجمهور في إمتائه ، وتقطع بالخواطر المستجمعة لسماعه .

وإن كانت تلك القواطع عريضة في نسب العلم ، وحقيقة بالتقييد والنظم .
فمسي أن يكون لها مكان هو لإيرادها أخص ، إذ لكل مقام مقال لا يحسن
في غيره الإيراد له والنص .

ولذلك نويت فيه أن أحذف ما تخلاه من مشيع الأنساب التي ليس احتياج
كل الناس إليها بالضرورة الحديث ، ونفيس اللغات الموقر اعتراضها اتصال
الأحاديث ، حتى لا يبقى إلا الأخبار المجردة ، وخلاصة المناسبات التي هي في هذا
الجموع المقصودة الممتدة .

فلنأمنى أنه إن أذن الله في تمامه ، وتكفل تعالى بتيسير محاولته وفق المأمول
وتقريب مرآته ، استأنفت النفوس له قبولا وعليه إقبالا ، ولم يزد هذا^(١)
النقص لدى جمهورهم إلا كمالا .

ثم بدأ لي أن أزيد على هذا المقدار ما يحسن في هذا المخار ، وأعوّض
ما حذفت منه من اللغات والأنساب والأشعار ، بما يكون له إن شاء الله منزلة
الاختيار^(٢) ، ويروق عليه رونق الإيثار^(٣) ، مُنتقيا ذلك من الدواوين التي

(١) اب ت : ولم يزد له .

(٢) المطبوعة : الأخبار .

(٣) المطبوعة : الآثار .

طار لها^(١) في الناس طائرُ الاشتهار ، ومُتَخَيَّرًا له من الأماكن التي لا يَسْتَقِيلُ بِمَحْصَرٍ فوائدها وانتقاء فرائدها كلُّ مختار .

ككتاب ابن عُقَيْبَةَ ، وقد سميته ، فإنه وإن اختصره^(٢) جداً فإنه أيضاً أَحْسَنُ العبارة ، وأتى بمواضع من المغازي حذاها بَسْطُهُ وحماها اختصاره . وسأضع على كثير منها ميسمه وأرسمها في هذا المختصر على نحو ما رسمه .

وقد رقتُ على كتاب محمد بن عمر الواقدي ، ولم يحضرنى الآن ، ولكني رأيتُه كثيراً ما يجري مع ابن إسحاق ، فاستغنيت عنه به لفضل فصاحة ابن إسحاق في الإيراد ، وحسن بيانه الذي لا يُعْقَلُ معه استحسانُ الحديث المعاد .

وللواقدي أيضاً كتاب المَبْعَثِ^(٣) ، وهو مُشْبَعٌ في بابه ، مُتَمِّعٌ باستيفائه واستيفائه ، قد نقلت هنا منه جُمَلًا ، تناسب الفرض المسطور ، وتصدُّ المعترض أن يجور .

وكذلك كتاب الزبير بن أبي بكر القاضي^(٤) رحمه الله في أنساب قريش ، وهو كما سمعت شيخنا الخطيب أبا القاسم بن حَبِيشَ رحمه الله ، يَحْكِي عن شيخه أبي الحسن بن مُفَيْثٍ أنه كان يقول فيه : هو كتابٌ عَجَبٌ لا كتابٌ نَسَبٌ .

التقطتُ أيضاً من دُرَرِهِ نَفَائِسَ مُعْجِبَةٍ ، وتخصيرت من فوائده نُحْبَسًا لِمُتَخَيَّرِهَا مُوجِبَةٍ .

(١) ط : بها .

(٢) اب ت : اختصره .

(٣) ذكره ابن النديم في الفهرست ١٥٠

(٤) أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن

الزبير بن العوام ، من أهل المدينة ، نوى بمكة وهو قاض عليها سنة ١٥٦

ومثله التاريخ الكبير لأبي بكر بن أبي خيثمة ، وناهيك به من بحر لا تُكدره
الدَّلاء ، وغَيْرُ لا يُنفِده الأَخْذُ الدَّرَاكُ^(١) ، ولا يستنزفه الوِزْدُ الوِلاء .

وكم شيء أُسْتَحْسِنُه من غير هذه الكتب المسماة فأنظمه في هذا النظام ،
وأضطر إلى الإفاضة به مساق الكلام . إما مُتَمِّحاً لحديث سابق ، وإما مفيداً
بفرض لما تقدمه مُطابق .

فإن لم يكن بينهم في الأحاديث اختلاف يُشعر بنقص ، فكثيراً ما أُدخِل
حديثاً بعضهم في حديث بعض ، ليكون المساقُ أبين والاتساقُ أحسن .
وإن عرض عارضٌ خلافٍ فالفصل حينئذٍ أرفعٌ للإشكال وأدفعُ المقال .

وربما فصلتُ بين بعض أحاديثهم وإن اشتبهت معانيها ، بحسب ما تدعو إليه
ضرورةُ الموضوع ، أو تحمل على إعادته حلوة الموقع .

وكل ذلك يشهد الله أن المرادَ فيه بالقصد الأول وجهه الكريم ، وإحسانه
العميم ، ورحمته التي منها شقُّ لنفسه أنه الرحمن الرحيم .

ثم القصد الثاني متوقِّفٌ على إيثار الرغبة في إيفاس الناس بأخبار نبيهم صلى الله
عليه وسلم ، وعمارته خواطرهم بما يكون لهم في العاجل والآجل أنفعَ وأسلمَ .

وقد عمَّ عليه الصلاة والسلام ببركة دعائه سامعَ حديثه وبلَّغَه ، وقال
صلى الله عليه وسلم : « ما أفاد المسلمُ أخاه المسلمَ أفضلَ من حديث حسن
بلَّغَه فبلَّغَه » .

(١) الغور بمنح الغين وسكون الميم : الماء الكثير ، والأخذ الدراك المتتابع .

ولا أَحْسَنَ بعد كتاب الله الذى هو أَحْسَنُ الْقِصَصِ وَأَصْدَقُ الْقِصَصِ ،
وَأَفْضَلُ الْحِصَصِ ، وَأَجَلَى الْأَشْيَاءِ لِلْفَضْلِ ، من أخبار رسول الله صلى الله
عليه وسلم التى بالوقوف عليها تُوجَدُ حلاوةُ الإسلام ، ويُعْرَفُ كيف تمهدت
الشُّبُلُ إلى دار السلام .

فإنه لا يخلو الحاضرون لهذا الكتاب^(١) من أن يسمعوا ما صنع الله لرسوله
في أعداء^(٢) تنزيله ، فيستعجزوا لثواب الفرح بنصر الله ، أو يستمعوا ما امتحنه
الله به من المحن التى لا يطيق احتمالها إلا نفوسُ أنبياء الله بتأييد الله ، فيعتبروا
بمعظم ما لقيسه من شدائد الخطوب ، ويصطبروا لعوارض الكروب ، تأدباً
بآدابه ، وجرئياً فى الصبر على ما يصيبهم والاحتساب لما يفتونهم على طريقة
صبره واحتسابه .

وتلك غايات لن تبلغ عقوها بمحمدنا ، ولن نصِلَ أدانيتها^(٣) بنهاية ركضنا
وشدنا ، وإنما علينا بذلُ الجهد فى قصد الاهتداء ، وعلى الله سبحانه وتعالى
المعونة فى الغاية والابتداء .

وإذا استوفيتُ بفضل الله طاقَ هذا المعنى كما نويت ، وبَلَغْتُ حاجةَ نفسى
منه وقضيتُ ، فلى نيةٌ ، إن ساعدت المشيئةُ عليها ، فى أن أصلَ هذا الغرض
المتقدم ، من ذكر مغارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بذكر مغازى الخلفاء
الثلاثة الأوّل ، رضى الله عنهم ، مُنتحلاً على رجاء معونة الله أسبابها ، ومُتَخِلاً
من كتاب شيخنا الخطيب أبى القاسم رحمه الله تعالى ، ومن غيره مما هو فى نحو
معناه ، صفوها ولبابها ، لتنتظم الفائدتان معا ، ويكون الخبر عن مغازى

(١) المطبوعة . الطائرون فى هذا الكتاب

(٢) المطبوعة : إعداد ، وهو خطأ

(٣) المطبوعة : أدانها

رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازى خلفائه ، الذين يهتديهم الاتمام ، فى مكان واحد مجتمعا .

وأرجو بحول الله الذى له العلوُّ وبيده القوة والحول ، أن يكون هذا المجموع كافيا فى البابين ، وافيا بالعرضين المنتابين^(١) ، ولذلك ترجمته بكتاب : « الاكتفا بما تضمنه من مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومغازى الثلاثة الخلفاء » .

وفضله جل جلاله نعم السكفيلُ أن يجزى به خيرَ الجزاء ، ويجعله من عددنا النافعة يومَ اللقاء ، فهو عزَّ وجهه الملجأ والمعول ، وبه أستعين وعليه أتوكل ، لا إله إلا هو سبحانه ، هو حسبي وإليه أنيب .

ذِكْرُ نَسَبِ رَسُولِ اللَّهِ

صلى الله عليه وعلى وآله وسلم تسليماً
وكيف طمَّره الله نَفْساً وَخِيّاً^(١) وشرفه حديثاً وقديماً ، وألقى
إلى آبائه الأقدمين من الدلائل على اصطفائه إياه في الآخرين ،
وابتماعه له رحمة للعالمين ، ما صيَّره لديهم قبل وجوده
بطوائل السنين معلوماً

في الصحيح من حديث وائِلة بن الأُسْتَمِق قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى
كِنانة ، واصطفى من بنى كِنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني
من بنى هاشم » .

وفي حديث عن عبد الله بن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لم يزل الله عز وجل ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة ، صَفِيّاً
مُهَذَّباً ، لا تشبُّ شُعْبَتان إلا كنت في خيرهما » .

وخرَّج أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، من حديث المطلب بن أبي وداعة ،
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على المنبر فقال : « من أنا ؟ » فقالوا :
« أنت رسول الله عليك السلام » قال : « أنا محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ،
إن الله خلق الخلق لجمالني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم فرقتين ، فجعلني في خيرهم

(١) الحميم بالكسر : السجية والطبيعة

فِرْقَة ، ثم جعلهم قبائل ، فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً ، فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً .

وفي رواية : « فأنا خيرهم نفساً ، وخيرهم بيتاً ^(١) » .

وصدق صلى الله عليه وسلم ، والصدق شيمته ، وفوق العالمين طراً قدراً الرفيعُ وقيمته ، هو أشرفهم حسباً وأفضلهم نسباً وأكرمهم أمماً وأباً .

هو محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، واسمه عمرو ، بن عبد مناف ، واسمه المغيرة ، بن قصى ، واسمه زيد بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، ابن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمية ، بن مدركة ، ابن ألياس ^(٢) ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

هذا الصحيح الأجمع عليه في نسبه ، وما فوق ذلك مختلف فيه .

ولاختلاف في أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله ، بن إبراهيم خليل الله ، عليهما السلام ، وإنما الاختلاف في عدد من بين عدنان وإسماعيل من الآباء . فمقلِّ ومكثر .

وكذلك من إبراهيم إلى آدم عليهما السلام ، لا يعلم ذلك على حقيقته إلا الله .

رؤى عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انتهى إلى عدنان

(١) ط : من خيرهم بيتاً

(٢) الألب واللام فيه زائدتان وهما داخلتان على المصدر الذي هو اليأس وقد تسهل همزه الثانية فيقال فيه الياس ، ويجوز أن تكون همزه قطعاً كما ذكر ابن دريد في الاشتقاق ، من قولهم : رجل أليس من قوم ليس .

أَمْسَكَ ثُمَّ يَقُولُ : « كَذَبَ النَّسَابُونَ » قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَقُرُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ^(١) » .

ومن عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل .

[أولاد عدنان]

فولد عدنان رجلين : مَعَدٌ بن عدنان ، وَعَكٌّ بن عدنان ، رحمة الله عليهما .
فصارت عكٌّ في دار اليمن ، لأنَّ عَكًّا تزوج في الأشعريين منهم وأقام فيهم ،
فصارت الدار واللغة واحدة .

والأشعريون هم بنو أشعر بن نابت ، بن أدد ، بن زيد بن الهَمَيْسَع ، بن عمرو ،
ابن عَرِيْب ، بن بَشَجُب ، بن زيد ، بن كهلان ، بن سبأ ، بن بَشَجُب بن يعرب ،
ابن قحطان .

وقحطان هو عند جمهور العلماء بالنسب أبو اليمن كلها ، وإليه يجتمع نسبها ،
والعرب كلها عندهم من ولد إسماعيل وقحطان .
وبعض اليمن يقول : قحطان من ولد إسماعيل ، وإسماعيل أبو العرب كلها .
والله أعلم .

وأما مَعَدٌ ، فذكر الزبير بن أبي بكر رحمه الله ، أن بُخْتَنَعَرًا لما أمر بغزو
بلاد العرب وإدخال الجنود عليهم فيها ، وقتل مقاتلتهم لانتهاكهم معاصي الله ،
واستحلالهم محارمه وقتلهم أنبياءه ، وردَّهم رسالاته ، أمر أرميا بن حلقيا ، وكان
فيما ذُكر نبيٌّ بني إسرائيل في ذلك الزمان : أن ائتِ مَعَدٌ بن عدنان الذي من
ولده محمد خاتم النبيين ، فأخْرِجْهُ عن بلاده واحمله إلى الشام ، وتَوَلَّ أمره قبلك .

ويقال : بل المحمولُ عدنان ، والأولُ أكثر .
وفي حديث عن ابن عباس ، أن الله بعث مَلَكين ، فاحتملا مَعَدًّا ، فلما
أذَبَرَ الأمرُ رَدَّاهُ فرجع إلى موضعه من تِهامة ، بعدما دفع اللهُ بأسه عن العرب ،
فكان بمكة ونواحيها مع أخواله من جُرهم ، وبها منهم بقية هم ولاة البيت
يومئذ ، فاقتلط بهم وناكحهم^(١) .

[أولاد معد بن عدنان]

فولد مَعَدُّ بن عدنان نفرأ ، منهم قُضَاعَة ، وكان بِكْرَهُ الذي به يُسَكَنِي
فيما يزعمون ، وقَنْص ، ونزار ، وإياد .
فأما قُضَاعَة فتَيَأَمَنَت إلى خَيْرِ بن سبأ وانتمت إلى ابنه مالك بن خَيْر ، حتى
قال قائل منهم يفتخر بذلك :

نحنُ بنو الشَّيْخِ المِجَانِ الأَزْهَرِ^(٢)
قُضَاعَة بن مالك بن خَيْرِ
النَّسَبُ المَعْرُوفُ غَيْرُ المُنْكَرِ

وأنكر كثير من الناس مقامهم^(٣) هذا ، وجرت بينهم وبين من قال به من
القضاعيين في ذلك أقاويل معروفة وأشعار محفوظة .

قال الزُّبَيْر : ولم يُجْمِع رَأْيُ قُضَاعَة على الانتساب في اليمن ، بل أهلُ العلم منهم
والدِّين مقيمون على نسبهم في مَعَدِّ .

وأما قَنْصُ بن معد ، فهلكت بقيتهم فيما زعموا ، وكان منهم النعمان بن المنذر
ملك الحيرة .

(١) الطبرى وتاريخ ابن خلدون ٢/٢٩٩

(٢) الهجان : الرجل الحسيب . والأزهر : المشرق الوجه

(٣) ت : منتهم

واحتجج من قال ذلك بأن عمر رضى الله عنه حين أتى بسيف النعمان بن المنذر ،
دعا جبيرة بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصي ، فسأله إياه ،
ثم قال : ممن كان يا جبيرة النعمان بن المنذر ؟

فقال : كان من أشلاء^(١) ، فنص بن معد .

وكان جبيرة أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة ، وكان يقول : إنما أخذنا
النسب من أبي بكر الصديق .

وكان أبو بكر رضى الله عنه أنسب العرب .

وقد قيل في نسب النعمان غير ذلك ، مما سيأتى ذكره عند تأدية الحديث إليه .
إن شاء الله تعالى .

* * *

وقد ذكر أيضاً في بنى معد الضحاك بن معد .

ذكر الزبير بإسناد له إلى مكحول قال : أغار الضحاك بن معد على بنى إسرائيل
في أربعين رجلاً من بنى معد ، عليهم دراريع الصوف خاطى خيلهم بحبال
الليف ، فقتلوا وسبوا وظفروا ، فقالت بنو إسرائيل : يا موسى ، إن بنى معد أغاروا
علينا ، وهم قليل ، فكيف لو كانوا كثيراً وأغاروا علينا وأنت بيننا ؟ فاذع
الله عليهم .

فتوضأ موسى وصلى ، وكان إذا أراد حاجة من الله صلى ، ثم قال : يارب إن
بنى معد أغاروا على بنى إسرائيل فقتلوا وسبوا وظفروا ، وسألوني أن
أدعوك عليهم .

(١) الأشلاء : البقايا .

فقال الله : يا موسى لا تدعُ عليهم ، فإنهم عبادى وإنهم ينتهون عند امرى ،
وإن فيهم نبياً أحبه وأحب أمته .

فقال : يارب ، ما بلغ من محبتك له ؟

فقال : أغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال : يارب ما بلغ من محبتك لأمته ؟

قال : يستغفرونى مستغفرهم فأغفر له ، ويدعونى داعيهم فأستجيب له .

قال : يارب فاجعلهم من أمتى

قال : نبينهم منهم .

قال : يارب فاجعلنى منهم .

قال : تقدمتَ واستأخروا .

قال الزبير : وحدثنى على بن المنيرة قال : لما بلغ بنو معدّ عشرين رجلاً
أغاروا على عسكر موسى عليه السلام ، فدعا عليهم فلم يُجِبْ فيهم ، ثم أغاروا ،
فدعا عليهم فلم يُجِبْ فيهم ، ثلاث مرات .

فقال : يارب ، دعوتك على قومٍ فلم تجبني فيهم بشيء .

فقال : يا موسى ، دعوتنى على قومٍ منهم خيرتى فى آخر الزمان^(١) .

* * *

وأما نزار بن معد ، واسمه مشتق من النزر وهو القليل ، فيقال : إن أباه معداً

(١) خيال خصب وضع هذه الأسطورة ، والله لا يهابى قوما على قوم ، وقد كان موسى
عاليه السلام مبشراً بمحمد صلى الله عليه وسلم وعارفاً به ، فكيف يسأل هذا السؤال وكيف
يجاب بهذا الجواب !!

لما وُلد له نظر إلى نور بين عينيه ، ففرح لذلك فرحاً شديداً ، ونحر وأطعم ، وقال : إن هذا كله أنزُرٌ في حق هذا المولود .

وما كان الذي رآه إلا نورَ النبوة ، الذي لم يزلْ ينتقل في الأصلاب ، حتى انتهى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فطبَّق الأرضَ نوراً ، وهدى الله به من أراد سعادته من عباده ، صراطاً مستقيماً .

وكل هذه الأنوار والآثار شاهِدَةٌ له ، عليه السلام ، بمُظيم عناية الله ، وكرم المكانة عنده ، فلم تزلْ بركاتُهُ ، صلى الله عليه وسلم ، متعمِّرةً في آبائه الماضين ، وظاهرةً على أسلافه الأكرمين ، تشير الخبايلُ اللائحة فيهم إليه ، وتدل الدلائل الواضحة في أوليئهم عليه ، صلوات الله وبركاته عليه .

[أولاد نزار بن معد]

فولد نزارُ بنُ معدٍّ مُضَرَ وربيعه وأنماراً وإياداً ، وإليه دفع أبو حجابة السكبية فيما ذكر .

وأمهم سَوْدَةٌ بنتُ هَلَكٍ بنِ عدنان .

وقيل هي أم مُضَرَ خاصة ، وأم إخوته الثلاثة أختها شقيقة ابنة هَلَكٍ بنِ عدنان .

وقد قيل : إن إياداً شقيق مُضَرَ ، أمهما معاً سَوْدَةٌ .

فأنمار هو أبو بَجِيلَةَ وخَنَعَم ، وقد تَيَّامَنَت بَجِيلَةُ لإمان كان منهم بالشام والمغرب فإنهم على نسبهم إلى أنمار بن نزار .

وجريزُ بن عبد الله صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من سادات بَجِيلَةَ وله يقول القائل :

: لولا جريزُ هَلَكْتُ بَجِيلَةَ نعم الفتي وبئست القبيلة

وكذلك تيامنت الدارُ أيضاً بخشمهم ، وهم بنو أقتل بن أنمار ، وإنما خشمهم
جَبَلٌ تحالفوا عنده فسئموا به ، وهم بالسراة على نسبهم إلى أنمار .
وإذا كان بين مضر واليمن فيما هنالك حربٌ ، كانت خشمهم مع اليمن
على مضر .

* * *

ويروى أن نزاراً لما حضرته الوفاة ، قسّم ماله بين بنيه الأربع ، مُضَرَ وربيعَةَ
ولإيادٍ وأنمارٍ .

فقال : هذه القبّة — لقبّة كانت له حراء من آدم — وما أشبهها من المال لمُضَرَ ،
وهذا الخبَاء الأسود وما أشبهه لربيعة . وهذه الخادم — وكانت شمطاء — وما أشبهها
لإياد . وهذه البدرّة والمجلس لأنمار يجلس فيه .

وقال لهم : إن أشكل عليكم الأمرُ في ذلك واختالفتم في القسمة ، فعليكم
بالأفعى الجرهمي . وكان بنجران .

فاختلفوا بعده وأشكل أمرُ القسمة عليهم ، فتوجهوا إلى الأفعى . فبينما هم في
مسيرهم إليه إذ رأى مُضَرَ كلاًّ قد رعى ، فقال : إن البعير الذي رعى هذا لأعور .

فقال ربيعة : وهو أزور . وقال إيادٌ : وهو أبتّر . وقال أنمار : وهو شرود .

فلم يسيرا إلا قليلاً ، حتى لقيهم رجلٌ توضع به راحلته ، فسألهم عن البعير ،
فقال مضر : أهو أعور ؟ قال نعم . قال ربيعة : أهو أزور ؟ قال : نعم . قال إياد :
أهو أبتّر ؟ قال نعم . قال أنمار : وهو شرود ؟ قال : نعم ، هذه والله صفة بعيري ،
دلوني عليه .

فلحقوا له ما رأوه . فلزمهم وقال : كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته ؟

فساروا حتى قدموا بجران ، فنزلوا بالأفعى الجرهمى فنادى صاحب البهير يقول :
بهيرى ، وصنفوا الى صنفته ، ثم قالوا : لم تره !

فقال لهم الأفعى : كيف وصنفتوه ، ولم تره ؟

فقال له مضر : رأيت يرمى جانبا ويدع جانبا فمرفت أنه أعور .

وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر ، فعلت أنه
أفسدها لشدة وطئه لازوراره .

وقال إباد : عرفت بقره باجتماع بقره ، ولو كان ذيباً لاصع^(١) به .

وقال أنمار : عرفت أنه شرود ، أنه كان يرمى فى المكان الملتف نبتة ، ثم
يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبث .

قال الشيخ : ليسوا بأصحاب بهيرك ، فاطلبه .
ثم سألمهم من هم ؟

فأخبروه ، فرحب بهم وقال : تحتاجون إلى وأبتم كما أرى !

فدعا لهم بطعام ، فأكلوا وشربوا وشربوا .

فقال مضر : لم أر كالسيوم خيراً أجود لولا أنها نبتت على قبر .

وقال ربيعة : لما أر كالسيوم لحما أطيب لولا أنه ربي باين كلبة .

وقال إباد : لم أر كالسيوم رجلا سترنى^(٢) لولا أنه ليس لأبيه الذى يدعى له .

وقال أنمار : لم أر كالسيوم كلاماً أنفع فى حاجتنا .

وسمع صاحبهم كلامهم ، فقال : ما هؤلاء ؟ إنهم لشياطين .

(١) مصعت الدابة بذنبها حركته وضربت به .

(٢) ط : أسرى .

. ثم أتى أمه ، فسألها ، فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا يولد له ،
فكرهت أن يذهب الملك ، فأمكننت رجلا نزل بهم من نفسها ، فوطئها ،
فجاءت به .

وقال للقهرمان : الخمر التي^(١) شربناها ما أمرها ؟

قال : من حُبلة^(٢) غرستها على قبر أبيك .

وسأل الراعى عن اللحم ، فقال : شاة أرضعناها من ابن كابة ، ولم يكن
وُلد في النعم غيرها .

فأتاهم ، فقال : قُصُّوا على قصتكم .

فقصوا عليه ما أوصى به أبوم ، وما كان من اختلافهم .

فقال : ما أشبه القبة الجراء من مال فهو لمضر .

فصارت إليه الدنانير والإبل ، وهى سُخر ، فسميت مُضْرُ الجُراء .

قال : وما أشبه الخباء الأسود من دابةٍ ومالٍ فهو لربيعة .

فصارت له الخيل ، وهى دُهم ، فسمى ربيعة الفرس .

قال : وما أشبه الخادم ، وكانت شمطاء ، من مال فيه بَاق ، فهو لإياد .

فصارت له المشاية البلق .

وقضى لأعمار بالدرهم والأرض .

فساروا من عنده على ذلك .

وكان يقال : مضر وربيمة هما العريمان من ولد إسماعيل .

(١) الأصول : الذى

(٢) الحيلة : السكرمة

وروى ميمون بن مهران ، عن عبد الله بن العباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تسبوا مضرَ وربيعة فإنهما كانا مسلمين .

وقال صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه : « إذا اختلف الناس فالحق مع مُضر » .

وسمع عليه الصلاة والسلام قائلًا يقول :

إني امرؤٌ حِمْيَرِيٌّ حِينَ تَنْسُبُنِي لَا مِنْ رَبِيعَةَ آبَائِي وَلَا مُضَرَ

فقال صلى الله عليه وسلم : ذلك أبعدُ لك من الله ومن رسوله .

وبما يؤثر من حكم مُضر بن نزار ووصاياه : من يزرع شرًا يحصد ندامة ، وخير الخير أعجله ، فاحملوا أنفسكم على مكروهاها فيما أصلحكم ، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فَوَاقٍ^(١) .

[أولاد مضر]

فولد مُضر بن نزار رجلين : ألياس بن مضر ، وعَيْلان^(٢) بن مضر .

قال الزبير : وأمهما الخنفاء بنت إباد بن معد .

وقال ابن هشام : أمهما جرهمية .

ولما أدرك ألياس بن مضر ، أنكر على بني إسماعيل ما غيروا من سُنة آبائهم وسيرتهم^(٣) ، وبأن فضله عليهم ولأن جانبته لهم ، حتى جمعهم رأيه ، ورضوا به رِضًا لم يرضوه بأحد من ولد إسماعيل بعد أدد^(٤) .

(١) الفواق : هو الوقت بين الحلبتين .

(٢) هامش ١ : قال بعضهم : ليس في كلام العرب عيلان بالمهملة إلا هذا .

(٣) ط : وسيرهم .

(٤) كذا في ط . وبقية الأصول : بعده . وأدد من أولاد إسماعيل .

فردُّهم إلى سُنين آبائهم ، حتى رجعت سُنتهم قائمة على أولها .
وهو أول من أهدى البُدن إلى البيت ، أو في زمانه .
وأول من وضع الركن للناس بعد هلاكه ، حين غرق البيت وانهدم زمن
نوح عليه السلام .
فكان أول من سقط عليه ألياس ، أو في زمانه ، فوضعه في زاوية
البيت للناس .
ومن الناس من يقول : إنما هلك الركنُ بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما
السلام ، وهو الأشبه ، إن شاء الله .
ولم تخرج العرب تعظيم ألياس بن مضر تعظيم أهل الحكمة ، كلقمان وأشباهه .

[أولاد ألياس بن مضر]

فولد ألياس بن مضر ثلاثة نفر : مُدْرِكة ، وطابخة ، وقمعة .
وأمهم خندف بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، واسمها ليلي ،
واسم مدركة عامر ، واسم طابخة عمرو ، واسم قمعة عمير .
وإنما حالت أسماؤهم إلى الذي ذكرنا أولا عنهم ، فيما ذكروا ، أن أرنبا
أنفرت إبل ألياس بن مضر ، فصاح ببنيه هؤلاء أن يطلبوا الإبل والأرنب .
فأما عمير فاطلع من المظلة ثم قمع . فسمي قمعة .
وخرج عامر وعمرو في آثار الإبل ، وخرجت أمهم ليلي تسمى خلفهم .
فقال لها زوجها ألياس : أين تخندفين ؟ أي أين تسعين . فسميت خندف .
ومر عامر وعمرو بظبي ، فرماه عمرو فقتله ، ويقال : بل رمى الأرنب التي

أنفرت الإبل ، فقال له عامر : اطبخ صبيدك ، وأنا أكفئك الإبل . فطبخ عمرو ، فسمى طابخة .

وأدرك الإبل عامر ، فسمى مذركة .

واشتهر بدو خندف هؤلاء بأسمهم خندف للذي سار من فعلها في الناس . وذلك أنه لما مرض زوجها ألياس وجدت لذلك وجداً شديداً ، ونذرت إن هلك الأتيم في بلد مات فيه ، ولا يُظأها بيتٌ بعده ، وأن تسيح في الأرض . وحرمت الرجال والطيب .

فلما هلك ألياس خرجت سائحةً في الأرض حتى هلكت حزناً .

وكانت وفاته يوم الخميس ، فكانت كلما طلعت الشمس من ذلك اليوم تبكيه حتى تغيب ، فصارت خندف وما صنعت عجباً في الناس ، يتحدثون به ويذكرونه في أشعارهم .

فقبل لرجل من إباد ، أو همدان ، وقد هلكت امرأته : ألا تبكي عليها ؟

فقال : لو كان ذلك يردها لفعلتُ كما فعلت خندف على ألياس .

ثم اندفع يقول :

فلو أنه يُغنى بكيتُ كخندفِ على ألياس حتى ملأها الشرُّ تذبُّ
إذا مؤنسٌ لاحت خراطيمُ شمسه بكتُ غدوةً حتى ترى الشمس تغربُ
ولم تر عينها سوى الدفنِ قبره فساحتُ وما تدرى إلى أين تذهبُ
فلم يُغنى شيئاً طولُ ما بلغتُ به وما ظأها دهرٌ وعيشٌ معذبُ

وفقدت امرأةً من غسان أخاها ثم أباه ، فسكت دهرًا تبكي عليهما ، فهاها

قومها ، فقالت :

تَلْحُونُ سَلَمَى أَنْ بَكَتْ أَبَاهَا
وَقَبْلُ مَا قَدْ تَكَلَّتْ أَخَاهَا
فَخَوَّلُوا الْعَدْلَ إِلَى سَوَاهَا
عَصْتِكُمْ سَلَمَى إِلَى هَوَاهَا
كَمَا عَصَتْ خَيْدِفُ مَنْ نَهَاها
خَلَّتْ بَيْدِهَا أَسْفَا وَرَاهَا
تَهْكِي عَلَى أَلْيَاسَ فَمَا أَتَاهَا

[أولاد مُدْرَكَة]

فولك مُدْرَكَة بن ألياس نفرا^(١) ، منهم خُزَيْمَة بن مُدْرَكَة ، وهُدَيْل بن مُدْرَكَة .

وأمهما امرأة من قُضَاعَة ، قيل هي سلمى بنت سُويْد^(٢) بن أَسْلَم بن الحُفَاف بن قُضَاعَة . وقيل غير ذلك .

[أولاد خُزَيْمَة]

فولك خُزَيْمَة بن مُدْرَكَة كِنَانَة وَأَسَدَا وَأَسَدَة وَالهُون .

وأم كِنَانَة اسمها^(٣) عَوَانَة بنت سعد بن قيس بن عَيْلَان بن مُضَر . وقيل هُنْد بنت عمرو بن قيس بن عَيْلَان . قرأته بخط أحمد بن يحيى بن جابر .

(١) ابن هشام : رجلين خزيمه ...

(٢) ط : بنت سود .

(٣) ط : وأم كنانة منها عوانة .

وأم سائر بنيه برة بنت مرّ أخت تميم بن مرّ بن طابخة .

[أولاد كِنانة]

فولد كِنانة بن خزيمة جماعة منهم : النضر ، وبه كان يُكنى ، ونخير ، ومالك ، ومالكان ، وعمر ، وعامر . وأمهم برة بنت مرّ ، خاف عليها كِنانة بعد أبيه خزيمة ، على ما كانت الجاهلية تفعله ، إذا مات الرجل خاف على زوجته بعده أكبرُ بنيه من غيرها . فنهى الله عن ذلك بقوله : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ^(١) » .

ويقال إن برة هذه ، لما أهديت أولاً إلى خزيمة بن مدركة ، قالت له : إني رأيت في المنام كائناً ولدت غلامين من خلافٍ بينهما سايباء ^(٢) ، فبينما أنا أتأملهما إذا أحدهما أسد يزأر وإذا الآخر قر يندب .

فأتى خزيمة كاهنةً بتهمة ، فقص عليها الرؤيا ، فقالت لئن صدقت رؤياها لتلدن منك غلاماً يكون لولده قلوبٌ بأسلةً ، ثم لتموتنَّ عنها فيخاف عليها ابنٌ لك ، فتلد منه غلاماً يكون لولده عزٌّ وعددٌ وقرومٌ تجدد وعز إلى آخر الأبد .

ثم توفي خزيمة ، فخلف عليها كِنانة بعد أبيه ، فولدت له النضر وإخوته . وإنما سُمي النضر ، لنضارة وجهه وجماله .

وأتى أبوه كِنانة بن خزيمة وهو نائمٌ في الحِجر ، فقبيل له : نخير يا أبا النضر بين الصهيل والهدر وعِمارة الجُدُر وعزّ الدهر .

فقال : كلُّ يارب .

(٢) السائباء : الشيمة التي تخرج مع الولد .

(١) سورة النساء ٢٢ .

فصار هذا كله في قريش .

والنَّضْر هو جماع قريش في قول طائفة من أهل العلم بالنسب ، والأكثر على أن فِهر بن مالك بن النَّضْر هو قريش .

من كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقريشي .
وذكر الزبير أن هذا هو رأي كل من أدرك من نُسَاب قريش .

[أولاد النَّضْر بن كِنانة]

فولَد النَّضْر بن كِنانة مالكا ، ويخلد ، والصَّلت^(١) .

فولَد مالكا فِهر بن مالك . وأمه جندلة بنت الحارث بن جندل بن عامر بن سميد بن الحارث بن مُضاض الجُرهمي . وهو جماع قريش عند الأكثر .

قال الزبير : قد اجتمع النُّسَابُ من قريش وغيرهم أن قريشا إنما تفرقت عن فِهر . ويقال : إن قريشا هو اسمه الذي سمته به أمه ، ولقبه فِهرأ .

[أولاد فِهر بن مالك]

فولَد فِهرُ بن مالك غالبا ومحاربا والحارث وأسدا ، وأختهم جندلة . وأم جميعهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مُدركة .

ولما حضرت الوفاة فِهر بن مالك ، قال لابنه غالب : يا بني ، إن في الحُزن^(٢) إقلاق النفوس قبيل المصائب ، فإذا وقعت المصيبة برُدَّ حرُّها ، وإنما القلق في غَلْيَانها ، فإذا أنا ميتٌ فبرُدَّ حرُّ مصيبتك بما ترى من وقَع المنية أمامك وخلفك ،

(١) لم يذكره ابن هشام واقتصر على الأولين .

(٢) ط : الحذر .

وعن يمينك وعن شمالك ، وبما ترى من آثارها في حُجبي الحياة ، ثم اقتصر على قليلك ، وإن قأت منفعتة ، فقليل ما في يدك أغنى لك من كثير ما أخلق وجهك وإن صار إليك .

[أولاد غالب بن فهر]

فولد غالب بن فهر لُوَيْبًا وَتَيْمًا^(١) ، وهو الأذرم ، كان منقوص الذقن .
ويقال لقومه بنو الأذرم .

وأمهما في قول ابن اسحق ، سلمى بنت عمرو الخزاعي .
وفي قول الزبير عاتكة بنت يخذ بن الغضنر .

وروى أن لُوَيْبًا بن غالب قال لأبيه ، وهو غلام حديث : يا أبت ، من رب معروفه قل إخلاقه ، ونضر ماؤه . ومن أخلقته أخله ، وإذا أخيل^(٢) الشيء لم يُذكر ، وعلى المولى تكبير صغيره ونشره ، وعلى المولى تصغير كبيره وسننه .

فقال له أبوه غالب : إنى لأستدل بما أسمع من قولك على فضلك ، وأستدعي لك به الطول على قومك ، فإن ظفرت بطول فعد على قومك بفضلك ، وكف غرب جهلهم بملك ، وألم شتمهم برفقك ، فإنما تفضل الرجال الرجال بأفعالها ، ومن قايسها على أوزانها أسقط الفضل ولم تعمل به درجة على أحد ، وللعلميا فضل أبدأ على الشفلي .

[أولاد لُوَيْبًا بن غالب]

فولد لُوَيْبًا بن غالب كعبًا ، وعامرا ، وسامة ، وعوفا ، وسعدا ، وخزيمة^(٣) .

(١) زاد ابن هشام : وقيس بن غالب وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعي .

(٢) ط : وإذا أخلق .

(٣) قال ابن هشام : ويقال : والحارث بن لُوَيْبًا .

فدخل بنو خزيمية في شيبان ، ويسمون فيهم بعائذة ، وهي امرأة من الين ،
كانت أم بني عبيد بن خزيمية فنُسبوا إليها .

وكذلك دخل بنو سعد أيضاً في شيبان ، ويسمون فيهم ببُدانة حاضنة
كانت لهم من قضاة ، وقيل من الذمير بن قاسط ، فنُسبوا إليها .

وأما سامة بن لؤمى ، فخرج إلى عُمان ، ويزعمون أن عامر بن أوى أخرجه .
وذلك أنه كان بينهما شيء ، فقفا سامة هين عامر ، فأخافه عامر ، فخرج
إلى عُمان .

في زعمون أن سامة بن لؤمى يدينا هو يسير على ناقته ، إذ وضعت رأسها ترتع ،
فأخذت حية بمشقرها ، فهصرتها حتى وقعت الناقة لشقها ، ثم نهشت ساقه^(١)
فقتلته . فقال سامة حين أحس بالموت ، فيما يزعمون :

عين فابكى لسامة بن لؤمى^(٢) علقته ما بسامة^(٣) العلاقة
لا أرى مثل سامة بن لؤمى^(٤) يوم حلوا به قتيلاً لداقة
بلغاً عامراً وكعباً رسولاً أن نفسى إليهما مشتاقة
إن تكن في عُمان دارى فإنى خالجي^(٥) خرجت من غير فاقه^(٦)
رُب كاس هرفت يابن لؤمى^(٧) حذر الموت لم تكن مهراقه
رُمت دَفَع الحتوف يابن لؤمى^(٨) ما لمن رام ذلك بالحنف طاقه
وخروس السرى^(٩) تركت ردياً^(١٠) بهد جدته وحديث ورشاقته

(١) ابن هشام : سامة .

(٢) الأغاني : علقته ساق سامة .

(٣) ابن هشام : من غير ناقة ، وما هنا أصح .

(٤) خروس السرى : ناقة صموت صابرة .

قال ابن هشام : وبلغني أن بعض ولده أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فانتسب إلى سامةَ بن لؤي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأشاعر ؟ فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله :

رُبَّ كَأْسٍ هَرَقْتَ يَا بَنَ لَوْيَ حذر الموت لم تكن مهراقه

قال : أجل .

* * *

قال ابن إسحاق : وأما عوف بن لؤي ، فإنه خرج فيما يزعمون في ركب من قريش ، حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أبطىء به ، فانطلق من كان معه من قومه ، فأتاه ثعلبة بن سعد^(١) بن ذُبْيَان بن بغيض ابن رَبِث بن غطفان ، فخبسه والتاطه وآخاه وزوجه ، فانتسب بتلك المؤاخاة إلى سعد بن ذُبْيَان أبي ثعلبة .

وثعلبة ، يزعمون ، هو القائل له :

احبسْ عليَّ ابنَ لَوْيَ جَمَلِكُ

تَرَكَكَ القَومُ ولا مَنزَلَكَ^(٢)

ويروى أن عمر بن الخطاب ، رضی الله عنه ، قال : لو كنتُ مُدْعِيًا حَيًّا من العرب أو مُنْجِقَهُم بنا لا دَعَيْتُ بني مُرَّة بن عوف ، إنا لنعرف منهم الأشباه مع ما نعرف من مَوَاقِع ذلك الرجل حيث وقع . يعني عوف بن لؤي .

(١) ابن هشام ، وهو أخوه في نسب بني ديبان .

(٢) ابن هشام ولا منزل .

وهو في نسب غطفان مرةً بن عوف بن سعد بن ذُبْيَان ، وهم يقولون إذا ذُكِر لهم هذا النسب : ما نذكره ولا نمجده ، وإنه لأحبُّ النسب إلينا .

وقيل : إن عمر بن الخطاب قال لرجال من بني مرة : إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه . وكان القوم أشرافا في غطفان هم ساداتهم وقادتهم ، منهم هَرَم بن سِنان بن أبي حارثة ، وأخوه خارجة بن سِنان ، والحارث بن عوف ، والحُصَيْن بن الحُمَام ، وهشام بن حرملة ، قوم لهم صِيت وذِكْرٌ في غطفان وقيس كلها ، فأقاموا على نسبهم .

على أن الحُصَيْن بن الحُمَام قد تحيّر في هذا واختلف رأيه ، فلما سمع قولَ الحارث بن ظالم ، أحد بني مُرّة بن عوف ، حين هرب من النعمان بن المنذر ولحق بقريش :

وما (١) قومي بشعلبة بن سعدٍ	ولا بفزارة الشعر (٢) الرقابا
فقومي (٣) إن سألت بنو لؤمي	بمكة علموا مضرَ الضرابا
سقيهمنا باتباع بني بغيضٍ	وترك الأقربين لنا انتسابا
سفاهة تخاف لما تروى	هراق الماء واتبع السرابا
فلوطوت عمرك كذت منهم	وما الفيت أنتجع السحابا

قال الحصين بن الحُمَام يردُّ عليه وينتمى إلى غطفان :

ألا لستمُ منّا ولسنا إليكمُ برئنا إليكم من لؤي بن غالب

(١) ابن هشام : فإ .

(٢) الشعر : جمع أشعر ، وهو الكثير الشعر .

(٣) ابن هشام : وقوي .

أَقَمْنَا عَلَى عِزِّ الْحِجَازِ^(١) وَأَتَمُّ بِمُتَلَجِ الْبَطْحَاءِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ

يعنى قريشاً

ثم نديم الحُصَيْنِ عَلَى مَا قَالَ ، وَعَرَفَ صَدَقَ الْحَارِثُ^(٢) ، فَأَكْذَبَ
نَفْسَهُ وَقَالَ :

نَدِمْتُ عَلَى قَوْلٍ مَضَى كُنْتُ قُلْتُهُ تَبَيَّنْتُ فِيهِ أَنَّهُ قَوْلُ كَاذِبٍ^(٣)

فَأَيُّ لِسَانِي كَانَ نَصْفَيْنِ مِنْهُمَا

بَيْكِيمٍ وَنِصْفٌ عِنْدَ تَجْرِي الْكَوَاكِبِ

أَبُونَا كِنَانِي بَكَّةَ قَبْرُهُ بِمُتَلَجِ الْبَطْحَاءِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ

لَنَا الرَّبْعُ مِنْ بَيْتِ الْحَرَامِ وَرِاثَةٌ وَرُبْعُ الْبَطْحَاءِ عِنْدَ دَارِ ابْنِ حَاطِبٍ

يعنى أن بنى لؤى كانوا أربعة ، كعباً ، وطامراً ، وسامة ، وعوقفاً .

[الْبَسَل]

وَفِي بَنِي مُرَّةِ بْنِ عَوْفٍ كَانَ الْبَسَلُ^(٤) ، وَذَلِكَ ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ حُرْمٍ لَهُمْ مِنْ كُلِّ
سَنَةٍ مِنْ بَيْنِ الْعَرَبِ ، يَسِيرُونَ بِهِ إِلَى أَى بِلَادِ الْعَرَبِ شَاءُوا ، وَلَا يَخَافُونَ مِنْهُمْ
شَيْئاً ، قَدْ عَرَفُوا ذَلِكَ لَهُمْ لَا يَدْفَعُونَهُ وَلَا يُفَكِّرُونَهُ .

وَكَانَ سَأَرَ الْعَرَبِ إِذَا تَأَمَّنُوا فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ الْأَرْبَعَةِ فَقَطْ .

(١) ط : عر الحجاز .

(٢) ابن هشام : وعرف ما قال الحارث بن ظالم فأتى الى قريش وأكذب نفسه .

(٣) ط : أنه جد كاذب .

(٤) البسل : الحرام والحلال ، ضد للواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

وذكر الزبير عن أبي عبيد ، أنه كانت لقريش في هذا مزية على سائر العرب قاطبة ، وذلك أن العربي لم يكن ليخرج من داره في غير الأشهر الحرم إلا في جماعة ، وكان القرشي يخرج حيث شاء أني شاء ، فيقال : رجل من أهل الله فلا يعرض له عارض ، ولا يرميه أحد بمكروه ، ويعظمه من لقيه أو ورد عليه ، ولذلك قال من قال منهم : القرشي بكل بلد حرام .

* * *

وأما كعب بن لؤي ، وعامر بن لؤي ، فهما أهل الحرم وصريح ولد لؤي .
وكان كعب منهما عظيم القدر في العرب ، وأرخوا بموته إعظاما له ، إلى أن كان عام الفيل فأرخوا به .

وكان بين موته والفيل ، فيما ذكروا ، خمسمائة وعشرون سنة . وكان يوم الجمعة يسمى العروبة ، فسماه كعب الجمعة لاجتماع قومه فيه يخطبهم ويذكرهم .

فيقول فيما يقول :

أيها الناس اسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ونهار ضاح ، والسماء بقاء ، والأرض مهاد ، والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثا فتضربوا عن أمرها صنتحا ، الآخرون كالأولين ، والدار أمامكم ، واليقين غير ظلمكم ، صلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وأوفوا بعهدكم ، وثمروا أموالكم ، فإنها قوام مروءاتكم ، ولا تصونوها عما يجب عليكم ، وعظموا هذا الحرم وتمسكوا به فسيكون له نبي عظيم ، وسيخرج نبي كريم .

ثم ينشد أبياتا منها :

صروف وأنبالا تقلب أهلها لما عقدة ما يستحيل مريرها

على غفلة يأتي النبي محمدٌ فيُخبر أخباراً صدقٌ خبيرٌها

ثم يقول :

يا ليتني شاهدُ فحواءِ دعوته حينَ العشيِّرةُ تبغى الحقَّ خذلاناً
أما والله لو كدتُ ذا سمعٍ وبصرٍ ويدٍ ورجلٍ لتنصبتُ فيها تنصبتَ الفحل ،
ولأزقلتُ فيها إرقالَ الجمل ، فرحاً بدعوته جَذلاً بصرخته .

[أولاد كعب بن لؤي]

فولَد كعبُ بن لؤي مُرَّةً ، وهُصَيْصاً ، وعَدِيًّا .

وأُمهم وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهر بن مالك .
وقيل إن أم عدِي وحده امرأة من فهر ، وهي حبيبة بنت بجالة بن سعد بن
قيس بن عَيْلان بن مُضرب بن نزار .

فولَد مرَّةُ بن كعب كِلَاباً ، وتَيْمًا ، وَيَقْظَةَ .

فولَد كلابُ رجلين : قُصَيًّا وزُهْرَةَ . وأمهما فاطمة بنت سعد بن سَيْل ، أحدُ
الجَدْرَةِ من جُمُئمة^(١) الأزْد من اليمن ، حلفاء في بني الدَّيْل بن بكر بن عبد مناة
ابن كِنانة ، ويقال جُمُئمة^(١) الأسد .

واسم سَيْلٍ خير ، وإنما سُمِّي سَيْلاً لطوله . وسَيْلٌ اسم جبل .

وهو خير بن حَمَّالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر ، بن عمرو بن جُمُئمة^(١)
ابن يَشْكِر ، بن مُبَشَّر ، بن صهيب بن دَهْمَان ، بن نصر ، بن الأزْد .

(١) الأصول : من جُمُئمة الأسد والتصويب من ابن هشام والسميلي .

وسُمي عامر الجادر لأنه بنى جداراً للكعبة ، كان وَهَى مِنْ سَيْلِ أُنَى أَيَّامِ
وِلَايَةِ جُرْهُمِ الْبَيْتِ .

وكان عامر تزوج منهم بنت الحارث بن مُضاض ، وقيل لولده الجَدْرَةَ لذلك .

وذكر الشرق بن القَطَامِي ، أن الحاجَّ كانوا يتمسحون بالكعبة ويأخذون
من طينها وحجارتها تبركا بذلك ، وأن عامراً هذا كان مُوكِلاً بإصلاح ماشعت من
جَدْرُهَا ، فسُمِّي الجَادِرِ . والله أعلم .

وسعدُ بن سَيْلِ جَدُّ قُصَيِّ بنِ كِلَابِ ، هو أولُ من حلَّى السيفَ بالفضة
والذهب ، وأهدى إلى كِلَابِ بنِ مُرَّةٍ مع ابنته فاطمة سيفين مُخْتَلَيْنِ ، فجُمِلَا في
خزانة الكعبة .

وقصى هو الذي جمع الله به قريشاً ، وكان اسمه زيدا ، فسُمِّي مجمعا لما جمع
من أمرها . وسُمِّي قصيا لتقصيه عن بلاد قومه مع أمه فاطمة بعد وفاة أبيه
كِلَابِ بنِ مُرَّةٍ .

وحديثه في ذلك طويل ، وسنذكره إن شاء الله عند ذكر ولايته البيت ،
وهناك نذكر مآثره وعظيم غنائه في إقامة أمر قومه ، إن شاء الله ، فإن
القصد هنا الإيجاز ما أمكن في إيراد هذا النسب المبارك ، لتحصل لسامعه
الفائدة بانتظامه واتصاله ، ولا يضل ذلك عليه بما تحلل أئمنه من القواطع
التي تُبَاعِدُ بَيْنَ أَطْرَافِهِ .

فولَدَ قُصَيِّ بنِ كِلَابِ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَأَمْرَاتَيْنِ .

عَبْدَ مَنَافٍ ، وَعَبْدَ الدَّارِ ، وَعَبْدَ الْعُزَّى ، وَعَبْدًا ، وَتَخْمُرَ ، وَبَرْةً .

وأهمهم جميعاً حُجِّي بنت حُلَيْل بن حَبْشِيَّة^(١) بن سَسْلُول بن كعب بن عمرو الخزاعي .

وساد عبدُ مناف في حياة أبيه ، وكان مطاعاً في قريش ، وهو الذي يُدعى القمرَ لجماله ، واسمه المنيرة .

ذكر الزبير عن موسى بن عُقبة ، أنه وجد كتاباً في حَجْر ، فيه : أنا المنيرة ابن قصي ، أمرُ بتقوى الله وصلة الرحم .

وإياه عني القائلُ بقوله :

كانت قريشُ بيضاءً فتفلقتُ فالحجُ خالصاً لعبد منافٍ

[أولاد عبد مناف]

فولد عبدُ مناف أربعة نفر : هاشماً ، وعبدُ شمس ، والمطلب ، ونوفلاً .

وكلهم لعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج ، بن ذكوان ، بن ثعلبة ، ابن بُهثة ، بن سليم ، بن منصور ، بن عكرمة ، بن خصفة بن قيس بن عيلان ، بن مضر .

إلا نوفلاً منهم ، فإنه لواقدة بنت عمرو المسازنية . مازن بن منصور ابن عكرمة .

فولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة .

(١) وتضبط أيضاً — كما قال ابن هشام — بضم الميم وتسكين الهاء .
(٣ — الاكتفا)

عبد المطلب ، وأسدًا ، وأبا صيفي ، وأنضلة ، والشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ،
ورقية ، وحية .

وأُمُّ عبد المطلب بينهم سُمي بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خديش ، بن
عامر بن غنم بن عدى ، بن النجار .

[أولاد عبد المطلب]

فولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة .

العباس ، وحمزة ، وعبد الله ، وأبا طالب ، واسمه عبد مناف ، والزبير ،
والحارث وهو أكبرهم ، والحجل ، والمقوم ، وضرارا ، وعبد العزى أبالهب ،
وصفية ، وأم حكيم البيضاء ، وعاتكة ، وأميمة ، وأزوى ، وبرّة .

فأمُّ عبد الله وأبي طالب وجميع النساء غير صفية ، فاطمة بنت عمرو ، بن عائذ ،
ابن عمران ، بن مخزوم ، بن يقظة ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤى .

[محمد بن عبد الله]

فولد عبد الله بن عبد المطلب ، محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين
وسيد الأولين والآخرين ، ونخبة الخلق أجمعين ، فنسبه صلى الله عليه وسلم
أشرف الأنساب ، وسببه إلى الله سبحانه باسمطائه إياه واختياره له أفضل
الأسباب ، وبيته في قريش أوسط بيوتها الحرمية ، وأغرق مآذنها السكرمية ،
لم تخل قط مكة من سيد منهم أو سادات ، يكونون خير جيلهم ورؤساء قبيلهم ،
حتى إذا درجوا سماء قسّموا في الجهد الصميم ، وشركاؤهم في النسب الكريم
إلى ذلك المقام ، فمرّجوا فصحبوا على ذلك الزمان .

لواؤهم على من ناراًهم مدصور ، وشؤدُدُ البَطْلِحَاءِ عليهم مقصور ، والعيون
إليهم أيةً سلكوا صور^(١) .

ثم أنى الوادى فطمم على القرى ، وشد الله أركانَ مجدهم العريق العتيق
بهذا اللى الأسمى ، فاحتازوا المجدَّ من آخره ، وغازوا من شرف الدين والدنيا
بما تعجز السنة البُلغَاءُ عن أدنى مفاخره .

وأمه صلى الله عليه وسلم أممة بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زُهرة ،
ابن كلاب ، قسيمةُ أبيه من هذا الأب ، وكريمة قومها أولى المسكان
الديبه والحسب .

وحسبها من الشرف المتين والسكرم المبين والنخز المسكن غاية التمكن ،
أن كانت أمًا نلتهم الديبين ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين .
فكيف ولها من تصاعده الحسب الحسب ، وعتاقة النسب والأصيب ،
ما يقف عند النطاح ، وتمترف له قریشُ البطاح .



فرسول الله صلوات الله وبركاته عليه ، خيرة الخير من كلاً طرفيه .
وقد اهتفى الناسُ بنسبه السكريم نثرًا ونظامًا ، ونقموا عن آبائه الأجداد ،
وأمهاته الطاهرات الميلاذِ أبًا فأبًا وأمًا فأما .

فرادوا من ذلك النخار حسدائق غلبًا ، وسادوا من شرف تلك الآثار
مرآقٍ شهما .

(١) أى : مثله . قبله . سور كبرج مان ، وهو أسور .

وَقَدْ تَقَدَّمَتْ مِنْ ذَلِكَ مُنْبَذٌ مَنْشُورَةٌ أَمْنَاءُ الْكَلَامِ ، وَسَتَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ
مَنْظُومَةٌ مَعَ أَشْكَالِهَا ، تَفُوقُ الْمَقْدَمَ فِي النِّظَامِ ، فِي قِصِيدَةٍ فَرِيدَةٍ مَفِيدَةٍ ،
لَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْخِصَالِ ، خَاتِمَةِ رُؤَسَاءِ الْأَدَابِ ، وَالْعُلَمَاءِ الْمُبْرِزِينَ فِي هَذَا
الْبَابِ ، تَمَّامًا مَعَ رَاجِ الْمَسَاقِبِ ، وَمِنْهَا جِ الْحَسَبِ النَّاقِبِ ، فِي ذِكْرِ نَسَبِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعْجَزَاتِهِ وَمِنَاقِبِ أَصْحَابِهِ ، قَرَأْتُهَا عَلَى شَيْخِنَا
الْخَطِيبِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ حُبَيْشٍ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُورِدَ مِنْهَا هُنَا مَا يَخْتَصُّ بِهَذَا
النَّسَبِ الْكَرِيمِ عَلَى اخْتِصَارٍ ، يَفِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِالْفَرْضِ الْمَرْغُومِ ، إِذِ الْكَلَامُ
الْمَنْظُومُ أَعْدَبُ جَرِيًّا عَلَى الْأَلْسِنِ وَأَهْذَبُ رَأْيًا فِي الْإِفَادَةِ بِالْمُسْتَحْسَنِ .

وأولها :

إِلَيْكَ فَهَمِّي وَالنَّوَادُ بِمِثْرِبِ وَإِنْ عَاقَبِي عَنْ مَطْلَعِ الْوَحْيِ مَغْرِبِي
أَعْلَلُ بِالْأَمَالِ نَفْسًا أَغْرَهَا بِتَقْدِيمِ غَايَاتِي وَتَأْخِيرِ مَذْهَبِي
وَدَيْنِي عَلَى الْأَيَّامِ زَوْرَةً أَحْمَدِي فَمَلْ يَنْقُضِي دَيْنِي وَيَقْرُبُ مَطْلَبِي
وَهَلْ أُرِيدَنَّ فَضْلَ الرَّسُولِ بِطَيْبِي فَيَا بَرْدَ أَحْشَائِي وَيَا طَيْبَ مَشْرَبِي
وَهَلْ فَضَّلْتِ مِنْ مَرْكَبِ الْعَمْرِ فَضْلَةً

ثُمَّ لَغْنِي أَمْ لَا بِلَاغِ لِيَرْكَبِي ؟
أَلَا لَيْتَ زَادِي شَرِبَةً مِنْ مِيَاهِهَا وَهَلْ مِثْلَهَا رِيًّا لِنُفْلَةِ مُذْنَبِي
وَيَا لَيْتَنِي فِيهَا إِلَى اللَّهِ صَائِرٌ وَقَلْبِي عَنْ (١) الْإِيمَانِ غَيْرُ مَقْلَبِي
وَإِنْ أَمْرًا وَارَى الْبَقِيحُ عِظَامَهُ لِنِي زُمْرَةً تُنَاقِي بَسْهَلٍ وَمَرْحَبِي
وَفِي ذِمَّةٍ مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى وَمَنْ يَنْقَلِقُهُ حَبْلُهُ لَا يُعْذَبِي

ومالٍ لا أشري الجنانَ بزمّةٍ
وماذا الذي يثني عنائي وإثني
أفقره؟ فني كفى لله نعمّةٌ
وقد مرّنت نفسي على البعدِ وانطوت
وكم غربةٍ في غير حقّ قطعها
وكم فاز دوني بالذي رُمّتُ فائزٌ
أراه وأهوى فعلة البرّ قاعداً
أمانى قد أفنى الشبابَ انتظارها
وقد كنتُ أشري في الظلامِ بأدمٍ
فمن لي وأنّى لي بريحٍ تحطني
إلى الهاشمي الأبطحي محمد
إلى صفوة الله الأمين لوحيه
إلى ابن الذبيحين الذي صبغ تجده
إلى المنتقى من عهد آدم في الذري
إلى من تولى الله تطهير بيته

يهونُ عليها كلُّ طامٍ وسببٍ^(١)
لجواب آفاقٍ كثيرٍ القلبِ
ويئنُّ؟ فقد فارقتُ قبلُ بني أبي
على مثل حدِّ السّمهرى المدرّبِ
فتلّا لذاتِ الله كان تغرّبي ا
وأخطأني ما ناله من تغرّبِ
فيما قعدى البرّ قمّ وتلبّبِ^(٢)
وكيف بما أعني الشبابَ لأشيبِ
فمأنا أغدو في الصباح بأشهبِ
إلى ذروة البيت الرفيع المطنّبِ
إلى خاتم الرّسلِ المكينِ المقربِ
أبي القاسم الهادي إلى خير مشعبِ
ولمّا تُصغُ شمسٌ ولا بدّرٌ غيظِ
يردّدُ في سيرٍ العريحِ المهذبِ
وعصمته من كلِّ عيصٍ مؤشّبِ^(٣)

فجاء برىء العرضِ من كلِّ وضامةٍ

فما شئتَ من أمّ حصّانٍ ومن أبِ

كروضِ الرّبا كالشمسِ في رَوْنِقِ الضّحى

كفاشيء ماء المزن^(٤) قبل التصوّبِ

(١) السبب : المفازة أو الأرض المستوية البعيدة .

(٢) تلبب : اشمر .

(٣) العيص - بكسر العين : الأصل ، والمؤشّب : المختلط .

(٤) ب : السحب .

عليه من الرحمن عين كلابية
 إذا عرضت أراقه غن قبيلة
 وما عبرت إلا على مَسَلَكِ الهدى
 فمن مثل همد الله خير لدائه
 إذا اتصلت بجاءتك أولاد زهرة
 ولا خال إلا دون سعد بن مالك
 ومن ذال له جد كشيبة ذى الندى
 له سُودْدُ البطحاء نغير مُدْفَع
 أبو الحارث السامى إلى كل ذرورة
 به وبما فى بُرْدِهِ من أمانة
 وأهلك بالطير الأبايل جمعهم
 وفيما رآه شيبه الحمد آية
 وفي ضربه عند القِدَاح مروءة
 وما زال يرمى والسهام تصيبه
 وكانوا أناساً كلما أممهم أذى
 وعاش بنو الحاجات منهم وأخصبوا
 وعمرو المعالي هاشم وثريها
 بمثنى جفان كالجواب مُنِيخَة
 هو السيّد المتبوع والقمر الذى
 بَنَى اللهُ للإسلام عزاً بهمه

تُجَنَّبُهُ لِلسَّامِ كُلِّ مُجَنَّبِ
 فما عرضت إلا لأمرٍ منجيب
 ولا عثرت إلا على كل طيب
 وآمنة فى خير ضن^(١) ومُنْجِبِ
 كأسد الشرى من كل أشوس أغلب
 ولو كان فى علياً معدة ويمرّب
 وساقى الحجيج بين شرق ومغرب
 وحومة ما بين^(٢) الصفا والمحب
 يقصر عن إدراكها كل كوكب
 حتى الله ذاك البيت من كل رهيب
 فيا لهم من عارض غير خائب^(٣)
 تلوح لعين الناظر المتعجب
 ومن يرم بين العين والأنف يرهيب
 إلى أن وقته الكوم^(٤) من نسل أرحب
 تكشف عن صنم من الله مُعْجِبِ
 وإن أصبحوا فى منزل غير مُخْصِبِ
 بمكة يدعو كل أغبر مُجْدِبِ
 ملئن عبيطات السقام المرهب
 على صفحتيه فى الرضا ماء مُذْهَبِ
 إلى مُنْتَهَى الأحياء من آل يثرب

(١) الضن: الأصل.

(٢) ت: حرمة.

(٣) الخاب. المطمخ الخاب. (٤) الكدوم: جمع كوما وهى الناقة العظيمة السنام

وعهدُ منافٍ دوحَةُ الشَّرْفِ التي
مُطاعُ قريشٍ والسكفيلُ بعزمها^(٢)
وزيدٌ ومن زيدٌ؟ قصيُّ بنُ مجيِّع
به اجتمعت أحياءُ فِهرٍ وأحرزتُ
وأصبحَ حَكَمُ اللَّهِ في آلِ بيتِهِ
وما أسلنته عن تراخٍ^(٣) خِزَاعَةٌ
ولا ذتُ قريشٍ من كلابِ بنِ مُرَّةٍ
ومرَّةٌ ذو نفسٍ لدى الحربِ مُرَّةٌ
وكمبٌ عميقُ الجودِ والحلمِ والنهي
خطيبُ لؤمى^(٤) واللواءُ بكفِّه
وأولُ من سُمِّي العرُوبَةَ جُمعةً
وأزخُ آلِ اللهِ دهرًا بموته
وأضحى لؤمى^(٥) غالبًا كلَّ ماجدٍ
وفهرٌ أبو الأحياءِ جامعٌ شملها

تفرَّعَ منها كلُّ أزوَجِ مَحْرَبٍ^(١)
ومائِها من كلِّ ضَمِيمٍ ومَنْهَبٍ
سمعتَ وبلِّغنا وحسبُكَ فاذهبِ
تراثَ أبيها دون كلِّ مُذَبَذَبٍ
فهم حَوَلَه من سادِينَ وحُجَّبٍ
ولسكن كما عَضَّ الهنَاءُ بأجرَبٍ
بجَذَلِ حِكَاكٍ أو بعَذقِ مُرَجَّبٍ^(٤)
وفي السَّلْمِ نفسُ الصَّرْحَدِيِّ المذوَّبِ^(٥)
وذو الحِكمِ الغرُّ المَبشِّرُ بالنبي
لُخْطَبَةٌ نَادٍ أو لُخْطَبَةٌ مِقْتَبٌ^(٦)
وصدْرُ أَمَّا بَعْدُ، يَلْحَى وَيَطِي^(٧)
سَدِينِ سُدِّي يَتَعَبَنُ كَفَّ الحَسْبِ
وَمَنْ غَالِبٌ يَنْمِيهِ المَجْدُ يَغْلِبُ
وكاسِبُها مِن نَحْرِهِ خَيْرٌ مَسْكَسِبِ

(١) الحرب : المنتمس في المروب .

(٢) طب : بهزها .

(٣) ط : تراش .

(٤) الجذل الحسك ، كعظم ، الذي ينصب في العطن لتحتك به الجربى . والمقصود أنه يشتق برأيه ، والعذق يفتح العين النخلة بجماتها ، والترجيب : ضم أعناقها إلى سفقاتها وشدها بالخصوس لئلا تنقضها الريح أو وضع الشوك حولها لئلا يصل إليها آكل ، وفي المثل : أنا جذيلها الحسك وعذيقها المرجب .

(٥) الصرخدي : الشراب .

(٦) ١ : عقب . والمقنب : الجماعة من الجيش .

(٧) يلحى : يلوم . ويطي : يستميل .

تقرش فامتازت قريش^١ بفضله
 وغادره اسماً في الكتاب منزلاً
 ومالك^٢ المزني^٣ على كل مالك
 هو الليث في المهجاء والغيث في الندى
 تردى بفضفاض على الجذ^٤ نسجه
 وللنضر^٥ بالنضر^٦ من كل مشهد
 وأعرض^٧ بهجر من كناية زاخر
 وخدر حكماً في الصمهل أو الرضا
 فلم يقتصر واختار كلاً فخازه
 له البيت محجوجاً وعرة^٨ مخلد
 وخازم^٩ آناف المتساء خزيمة
 عظيم^{١٠} استلمى بنت سويد بن أسلم
 ومذركة^{١١} ذواليمن والشجح عامر
 تراءى مطلاً إذ تقمع صيدوه
 لأم الجبال الشم^{١٢} والقطر والحصى
 والياس ماوى الناس في كل أزمة
 وزاجرم إذ بدلوا الدين ضلة^{١٣}

وسد فسدوا خلة المتأوب^{١٤}
 يمر به في آية كل^{١٥} معرب
 فتى النضر حابته السيادة بل حبي
 وبذر الدياجي حين يسرى ويحتبي
 وليس عليه ، فليجبر^{١٦} ويسحب
 هو الشمس صمد في سناها وصوب
 يساق إلى أواجه كل^{١٧} مذنب
 أو البيت أو عز على الدهر مضحج
 إلى غاية العز^{١٨} المديد الملقب
 وأجرد^{١٩} يعبوب^{٢٠} إلى جنب أصحاب^{٢١}
 فلاذوا بأخلاق الذلول المغرب
 لكل قضاعي^{٢٢} كريم معصب
 وخير^{٢٣} مسمى في العلاء وملقب
 ففاز بقدر^{٢٤} ظافر لم يخيب
 لنجدف إن تستركب الأرض تركب
 ومهزبهم في كل خوف ومهزب
 وأضحوا بلا هاد ولا متحوب^{٢٥}

(١) نأوه : آناه ليلا .

(٢) ت : المدلى .

(٣) ا : الحمد .

(٤) غير ط : ما للنضر وقد سقط هذا البيت من ا .

(٥) ا : وأغوس .

(٦) يعبوب : الفرس السريم الطويل . والأصهب : بعير ليس ، شديد البياض .

(٧) المتحوب : المتأثم الذي يترك الحوب ، وهو الإثم .

وجاءهم بالركن بمد هلاكه

وقد كان في صدع من الأرض أنكب
 وما هو إلا معجز النبوة
 وبُشري وعقبي للبشير المنقب
 وحج وأهدى البذن أول مشير
 لها وفروض الحج لم ترتب
 ولم حكمة لم تسمع الأذن مثلها
 له إن تلح في ناظر العين تكتب
 إلى قنص تميمه سوداه ، نبتة (١)
 كلا طرفيه من معد المنسب
 وفي مضر تاه الكلام وأقبلت
 ما تر شدت كل وجه ومذهب
 بأ كبر منها في العديد وأنقب
 وقيل لهذا سِر ولآخر اركب
 لعلم وحكم ماله من معقب
 على نهج إسماعيل غير منكب
 إليهم ولم ينظر إلى متعقب
 وكان لتبع فاستحال لأتاب (٣)
 تشير إلى منظورها المترقب
 ولم تعرفوا قصد السبيل الملحّب
 إلى مضر تلقوه لم يتنقب
 ومن فاته بدر الحجى لم يؤنب
 متى يأتهم شعب من الدهر يرأب
 بها ثبتت طراً فلم تتقلب
 وكانا شقيقتي نبتة فتفاوتتا
 وما منهما إلا حنيف وهسلم
 وقد سلم الأعمى بنجران حكمه
 رأى فطناً أبدت له عن نجاره
 وتلك علامات النبوة كلها
 وقال رسول الله مهما اختلفتم
 في مضر جرثومة الحق فاعمدوا
 وما سيد إلا نزار يفوته
 قريع معد والذى سد نقه
 أبو أنجر الدنيا وأطوايدها التي

(١) ت : أمه .

(٢) وحيا : أسرعنا

(٣) الأتاب : شجر ، واحده بهاء .

ولم يكفه حتى أعانت معانته
وجاء مَعْدُ وَالسَّمَاءُ شَمُوسَهَا
وبين يديه الأَنجُمُ الزُّهُرُ بِهَا
وَقَدِّمًا تَحْفَى فِي اللَّهِ مِنْ بَحْتِنَصْرِ
وجنَّبه أرضَ التَّوَارِ وَحَازَهُ
وَحَلَّ بِأَرْمِينِيَّةٍ تَحْتِ حَفْظِهِ
فلما تجلَّى الرُّوحُ أُسْرَى بِعَبْدِهِ
وقد كان رَدَّ اللَّهُ عَنْهُمْ كَلِيمَتَهُ
وجاء بنو يعقوب يشكون منهم
فقال له : لا تَدْعُ مُوسَى عَلَيْهِمُ
أَحِبَّهُمْ فِيهِ رِضًا وَأَحِبُّهُ
وأخفر إن يستغفروني ذنوبهم
فقال إذَنْ فاجعلهم رِبُّ أُمَّتِي
فقال همُ فِي آخِرِ الدَّهْرِ صَفْوَتِي
دَعَائِمُ إِيْمَانٍ وَأَرْكَانُ سُودِدِ
وَمَصْعَدُ عَدْنَانَ إِلَى جَنَّةِ آدَمِ
وَنَهَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى وَجُوهَهَا
وإلا فَأَدُّ بْنُ الْهَمَيْسَعِ مَائِلٌ
وواجبه أعراقُ الثرى كلِّ من ترى

بكل عتيقٍ جُرْهُمِيٍّ مَهْدَبِ
وأقارها في ذيله المتسحبِ
على الأرض حتى لا مساغ لأجنبي
به والورى من هالكٍ ومُعْدَبِ
إلى مَعْقِلٍ مِنْ حِرْزِهِ مَتَأَشِبِ (١)
لدى ملكٍ عن جانبيه مُدَبِّ (٢)
إلى حَرَمٍ أَمِنَ لِأَبْنَائِهِ أَجْتَبِي
ليالى يدعو دعوة المتغضبِ
يدادونه هذا قتيلٌ وذا سُجِي
فمنهم نبيُّ أَصْطَفِيهِ وَأَجْتَبِي
كذلك من أحببته يُكْرَمُ وَيُحْتَبِ
ومهما دعا داعٍ أَجِبَهُ وَأَقْرِبِ
فن ترضه ياربُ يُرْضَى وَيُرْغَبِ
يعضون أعدائى ويستنصرون بى
مضت بملاها مَهْدَدٌ بِنْتُ جَلْحَبِ
بِأَبَيْنَ مِنْ قَصْدِ الصَّبَاحِ وَالْحَبِ (٣)
وكان لنا في نَظْمِهَا شِدُّ مُلْهِبِ
وَنَبْتُ بْنُ قَيْدَارٍ سَلَالَةُ أَشْجَبِ (٤)
وَأَسْمَعُ إِسْمَاعِيلَ دَعْوَةَ مُكْتَبِ

(١) أشب الشجر وتأشب : التفت . (٢) مذذب : مدافع .

(٣) الحب : أوضع .

(٤) الأسماء من هنا إلى آخر القصيدة تذكر لدى المؤرخين مختلفة مضطربة ، قال ابن خلدون : ولعل الخلاف جاء من قبل اللغة لأن الأسماء ترجعت من العبرانية .

وقام خليلُ الله يتـالوه آزرُ
إلى الفاجر بن الشارع الغمور يرتقى
ويُعتبر يرميه إلى الجحد شالنجُ
لسام أبي الساميين طراً سما بهم
لإدريس ثم الرائد بن مهلهل
إلى هبة الرحمن شيث بن آدم
ففيه خافنا ثم فيه معادنا
أغر صباحي لأذم غيب
وللداع ثم القاسم الشامخ الأب
إلى الرافد الوهاب برك وطيب
لدوح للسكان العلى لمثوب
لقتينن ثم الطاهر المتطيب
أبي البشر الأعلى لطين لأثلب^(١)
ومنه إلى هدن فسدد وقارب^(٢)

* * *

وهنا انتهى ما يخص المنقمة القلى من هذه الكلمة ، التي فرى ناظمها في الإحسان الفرى الحمد ، فاقصرت منها على ما وقى بالعرض المقصود ، واستوفى رجال النسب الجيد والحسب التليد ، تمجيلاً لقرى المستفيد ، واكتفاء من القلادة بالقدر المحيط بالجيد ، وإنها إن شاء الله لكافية في الباب ، ومقدمة في الكلام اللباب ، وتحفة إنما يعرف قدرها أولو الألباب .
والله يجزى قائلها الحسنى ، وينفعه بمقصده الأسنى .

* * *

وإذ قد اتهمنا إلى ما حسن لدينا إيراده في هذا المعنى وصفاً وذكرراً ، وخدمنا النسب الأشرف نظماً ونثراً ، فلنعرج على ذكر البقعة التي اختارها الله لرسوله الكريم منشأً ، وجعلها لقومه قراراً ومقبواً ، وأولية البيت العتيق الذي جعله الله مثابةً وأمناً للناس ، ورفعنا على أفضل القواعد وأكرم الأساس ، ثم دحا الأرض من تحته رفعاً للشبهة في شرفه والالتباس .

(٢) الأصل : قرب .

(١) الأثلب : الدراب .

ثم نذكر من وِليّهِ من آبائِهِ السُّكْرَامِ ، إذ هم أهلُ الأعلوانِ وأولياؤه الأحمقاء به
الأولون ، وهو ما أثرتهم التي لم يزالوا إياها يُرَاعُونَ ، ومن جرّاءها يُرَاعُونَ ،
وتراث المجد الذي إليهم يُزَيّى وإليه يُغزون ، وبسبب شرفه يُعرفون
وباسمه يُدْعون .

ونشير إلى حرمة العظيمة في الحرمات ، وما أنزل الله تعالى بمن عباه بسوء
أو أتى فيه بأمر مذموم مشتموم من أليم العقوبات وعظيم النعمات .

لنخدم البلدَ كما خدمنا المحتد ، ونقضى حق المسكان الشريف كما قضينا حق
الحسب التقليد والطريف .

نختي نَحْنُ إلى ذكر المولد المبارك الذي منه تتدرج إلى المقصود ، الذي نحن
عليه عاملون ، ولإتمامه آمِلون ، رجاء أن نجد ذلك مذكوراً عند المولى الذي
يضاعف لعبيده الحسنات ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

ذكر أولية بيت الله المحرم .

وركنه المستلم ، ومن تولى ببناءه من ملائكته وأنبيائه

صلى الله على جميعهم وسلم

قال الله العظيم : « إِنَّ أَوْلَى بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِيْتِهِ مَبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ^(١) . » .

وفي الصحيح من حديث أبي ذرِّ الغفاري ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيُّ مسجد وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوْلَى ؟ فقال له : « الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ »
قال : قلت : ثم أي ؟ قال : « ثُمَّ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى » قلت : كم بينهما ؟ قال :
« أَرْبَعُونَ عَامًا » .

وذكر الزبير بن أبي بكر بإسناده إلى جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه قال :
كنت مع أبي محمد بن علي بمكة في ليالي العشر قبل التَّروِيَةِ بيوم أو يومين ، وأبي
قائم يصلي في الحِجْر ، وأنا جالس وراءه ، فجاء رجل أبيض الرأس واللحية ، جميل
المقام بعيد ما بين المنكبين عريض الصدر ، عليه ثوبان غليظان في هيئة مُحْرَم ،
فجلس إلى جنبه ، تخفَّفَ أبي الصلاة ، فسلم ثم أقبل عليه ، فقال له الرجل :
يا أبا جعفر ، أخبرني عن بدء خلق هذا البيت كيف كان ؟

فقال له أبو جعفر محمد بن علي : ممن أنت يرحمك الله ؟ قال : رجل من أهل
الشام . فقال له محمد بن علي : إن أحاديثنا إذا سقطت إلى الشام جاءتنا صحيحا ،
وإذا سقطت إلى العراق جاءتنا وقد زيدَ فيها ونقص .

ثم قال : بدء خلق هذا البيت أن الله تبارك وتعالى قال للملائكة : إني جاعلٌ في الأرض خليفة ، فردوا عليه : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

فغضب عليهم ، فعاذوا بالعرش ، فطافوا حوله سبعة أطواف يسترضون ربهم ، فرضى عنهم وقال لهم : ابنوا لي في الأرض بيتا فيموذ به من سخطت عليه من بني آدم ويطوفون حوله ، كما فعلتم بعرشي ، فأرضى عنهم .
فبنوا له هذا البيت .

فهذا يا عبد الله بدء خلق هذا البيت .

فقال الرجل : يا أبا جعفر ، فما بدء خلق هذا الركن ؟

فقال : إن الله تبارك وتعالى لما خلق الخلق ، قال لبني آدم : ألسنُ بربكم ؟ قالوا : بلى . وأقروا . وأجرى نهراً أحلى من العسل وألذ من الزبد ، ثم أمر القلم فاستمد من ذلك النهر فكتب إقرارهم وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم ألقم ذلك الكتاب هذا الحجر ، فهذا الاستلام الذي ترى إنما هو بيعة على إقرارهم بالذي كانوا أقروا به .

وقال جعفر بن محمد : كان أبي إذا استلم الركن قال : اللهم أمانتي أديتها ، وميثاقي وفيت به ، ليشهد لي عندك بالوفاء .

قال : وقام الرجل فذهب .

قال جعفر بن محمد : فأمرني أبي أن أردّه عليه ، فخرجت في أثره وأنا أراه ، يحول بيني وبينه الزحام ، حتى دخل نحو الصفا ، فتبهرته على الصفا فلم أره ، ثم ذهبت إلى المروة فلم أره عليها ، فجلت إلى أبي فأخبرته فقال لي أبي : لم تسكن لتجده ، وذلك الخضر عليه السلام .

وخرَّج الترمذى من حديث عبد الله بن عباس وصححه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشدُّ بهاضاً من اللبن فسودته خطايا بنى آدم » .

ومن حديث عبد الله بن عمرو ، مرفوعاً وموقوفاً ، قال : إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة ، طمس الله نورهما ، ولو لم يطمس نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب » .

وفي حديث ابن عباس أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحجر : « والله ليبعثنه الله يوم القيامة ، له هيمان يُبهر بهما لسان يطق به ، يشهد على من استلمه بحق » .

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري من حديث عبد الصمد بن مَعْقِل ، أنه سمع وهب بن مُنبه^(١) يقول : إن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض فرأى سبعتها ولم يرفيها أحداً غيره ، قال : يارب أما لأرضك هذه عامرٌ يسبح بحمدك ويقدمك غيري ؟

قال الله تعالى : إني سأجعل فيها من وَلَدِكَ مَنْ يَسْبِحُ بِحَمْدِي ويقدمنى ، وسأجعل فيها بيوتاً تُرْفَعُ لِدِكْرِي ويسبِح فيها سخاى ويذكرون فيها اسمى ، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أخصه بكرامتى وأوتره باسمى ، فأسميه بيتى ، وعليهِ وضعتُ جلالى ، ثم أنا مع ذلك فى كل شىء ومع كل شىء ، أجعل ذلك البيتَ حَرَمًا آمناً ، يتحرَّم بحُرْمَتِهِ مَنْ حَوَّلَهُ وَمَنْ تَحْتَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ ، فَمَنْ

(١) أخبار وهب بن منبه وأمثاله عن هذه القرون المتعاقبة والأخبار العديدة لا يحصى لها أحد صفة أو نبوتاً ، وربما تبرعوا بها أو رويت لهم وصلوات الخلق والبرج وإرضاء للغيال الحسب والاستطلاع البعيد ، فلنفهم على هذا النحو . وشأنها يسير .

حرّمه بحرمتي استوجب بذلك كرامتي ومن أخاف أهله فقد أخفر ذمتي وأباح حرّمتي .

أجمله أول بيت وُضع للناس ببطن مكة مباركا ، يأتونه شعثا غبرا على كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق ، يزجون بالثلبية زجيجا ويثجون تجيجا ، ويثجون بالتكبير مجيجا .

فمن اعتمده لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارني وضافني ، وحق على الكريم أن يُكرم وفّده وأضيافه ، وأن يُسعف كلاً بحاجته .

تعمّره يا آدم ما كنت حيا ، ثم تعمّره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك ، أمة بعد أمة وقرّنا بعد قرن .

وفي حديث غير هذا عن عطاء وقتادة ، أن آدم عليه السلام ، لما أهبطه الله من الجنة وفقد ما كان يسمعه ويأنس إليه من أصوات الملائكة وتسبيحهم ، استوحش حتى شكا ذلك إلى الله تعالى في دعائه وصلواته ، فوجهه إلى مكة ، وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة على موضع البيت الآن .

وقال الله : يا آدم ، قد أهبطت لك بيتا تطوف به ، كما يطّاف حول عرشي وتصلى عنده كما يصلّى عند عرشي .

فانطلق إليه آدم ، فطاف به هو ومن بعده من الأنبياء ، إلى أن كان الطوفان ، فرفعت تلك الياقوتة ، حتى أمر الله إبراهيم عليه السلام ببناء البيت ، فبناه ، فذلك قوله تعالى : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألاّ تُشرك بي شيئا وطهر بيّتي للطائفين والقائمين والركع السجود^(١) » .

وعن ابن عباس ، أن الله أوحى إلى آدم : أن لي حَرَمًا بجبالِ عرشي ، فانطلقُ فابن لي بيتًا فيه ، ثم حُفَّ به كما رأيت ملائكتي يَحْفَهُونَ بعرشي ، فهناك أستجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي .

فقال آدم : أي رب ، وكيف لي بذلك ؟ لستُ أفتوى عليه ولا أهتدى لمكانه .

فقيض الله له ملكًا فانطلق به نحو مكة ، فكان آدم عليه السلام إذا مرَّ بروضة ومكانٍ يعجبه قال لذلك : انزل بنا هاهنا . فيقول له الملك : أمانك .

حتى قديم مكة ، فبنى البيت من خمسة أجنُّب ، من طور سيناء ، وطور زيتا ، ومن لبنان ، والجودي ، وبنى قواعده من حِراء .

فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات ، فأراه المناسك كلها ، التي يفعلها الناس اليوم ، ثم قديم به مكة ، فطاف بالبيت أسبوعًا ثم رجع إلى أرض الهدى فبات بها .

وفي رواية أنه حجَّ من الهدى أربعين حجة على رجليه .

وذكر الواقدي عن أبي بكر بن سليمان بن أبي خيثمة العدوي قال : قالت لأبي جهنم بن حذيفة : يا عم ، حدثني عن بناء البيت ونزول اسماعيل عليه السلام الحرم .

قال : يابن أخى سألني عنه على نشاط مني فإني أعلم في ذلك ما لا يعلمه غيره .

قال : فسكثت شهرًا أذكره المرة بعد المرة ، فيقول مثل قوله الأول ، وكان قد كبر ورقق وضئف ، فدخلت عليه يوما وهو مسرور ، فقال لي : اسمع حديثك الذي سألتني عنه .

إن البيت بناؤه حَرَمٌ في السماء السابعة وفي الأرض السابعة . يعنى أن ما يقابله حَرَمٌ .

وإن آدم عليه السلام أمر بأساسه فبناه هو وحواء ، أسسَاه بصخر أمثال الخَلِيفَات ، يعنى الدوق التى فى بطونها أجنةٌ ، واحدها خَلِيفَةٌ . أذن الله عز وجل للصخر أن يطيعهما .

ثم نزل البيت من السماء من ذهبٍ أحمر ، وكُل به من الملائكة سبعون ألف ملك ، فوضعه على أسِّ آدم عليه السلام ، ونزل الركن ، وهو يومئذ دُرَّة بيضاء ، فوضع موضعه اليوم من البيت ، وطاف به آدم وصلى فيه .

فلما مات آدم عليه السلام وليه بعده ابنه شيث ، فسكان كذلك حتى حجه نوح عليه السلام .

فلما كان القرقي ، يعنى الطوفان ، بعث الله جل ثناؤه سبعين ألف ملك فرفعه إلى السماء ، كي لا يصديه الماء النجس ، وبقيت قواعده ، وجاءت السفينة فدارت به سبعا ثم دُفِرَ البيت ، فلم يحجه من بين نوح وبين إبراهيم أحدٌ من الأنبياء على جميعهم السلام .

وعن غير الواقدي فى غير حديث أبي الجهم ، أن شيث بن آدم عليهما السلام ، هو أول مَنْ بَنَى السكبية ، وأنها كانت قبل أن يبنيها خيمة من ياقوتة حمراء يعطوف بها آدم ويأنس بها لأنها أنزلت إليه من الجنة ، وكان قد حجَّ إلى موضعها من الهند .

وفى الخبر أن موضعها كان غشاء على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض ، فلما بدأ الله خلق الأشياء ، خلق التربة قبل السماء ، فلما خلق السماء وقضاها من سبع سموات ، دحا الأرض ، أى بسطها ، وإنما دحاها من تحت السكبية ، فلذلك سُميت مكة أم القرى .

وذكر ابن هشام أن الماء لم يصل السكبة حين الطوفان ، ولكنه قام حولها ، وبقيت هي في هواء إلى السماء ، وأن نوحاً قال لأهل السفينة ، وهي تطوف بالبيت : إنكم في حرّم الله عز وجل وحول بيته ، فأحرّموا الله ولا يمسّ أحدٌ امرأة . وجعل بينهم وبين النساء حاجزاً ، فتمدى حام ، فدعا عليه نوح بأن يسودّ لونُ بنيه ، فأجابه الله على وفق ما دعاه ، واسودّ كوشُ بن حام وولده إلى يوم القيامة .

وقد قيل في سبب دعوته غير هذا ، فالله أعلم .

ويروى أنه لما نضّب ماء الطوفان ، بقي مكان البيت ربوةٌ من مدّرة ، فخرج إليه بعد ذلك هودٌ وصالح ومن آمن معهما ، وأنّ يمرّب قال لهود عليه السلام : ألا تبنيه ؟ قال : إنما يبنيه نبي كريم يأتي من بعدى ، يتخذهُ الرحمن خليلاً .

[إبراهيم وإسماعيل في موضع البيت]

قال أبو الجهم ، من حديث الواقدي : حتى أراد الله بإبراهيم ما أراد ، فولد له إسماعيل وهو ابن تسمين سنة ، فكان بكرَ أبيه ، فلما أراد الله عز وجل أن يُبويّ لإبراهيم مكان البيت وأعلامه ، أوحى الله إليه يأمره بالمسير إلى بلده الحرام ، فركب إبراهيم البراق ، وحمل إسماعيل أمامه وهو ابن سنتين ، وهاجر خلفه ، ومعه جبريل يدلّه على موضع البيت ومآلم الحرم ، فكان لا يمرّ بقربة إلا قال له إبراهيم : بهذه أمرتُ يا جبريل ؟ فيقول جبريل : لا . حتى قدم به مكة ، وهي إذ ذاك عِضَاهُ وَسَلْمٌ ، وسَمْرٌ^(١) ، والمعاليقُ يومئذ حول الحرم ، وهم أول من نزل مكة ويكونون بعرفة ، وكانت المياه يومئذ

(١) العِضَاهُ : شجر الخبط أو كل ذى شوك ، والسلم والسمر : شجر أيضاً .

قليلة ، وكان موضع البيت قد دثر وهو رُبوة حراء مَدْرَة ، وهو يُشرف على ما حوله ، فقال جبريل حين دخل من كداء ، وهو الجبل الذي يطلقك على الحَجُون والمقبرة : بهذا أمرت . قال إبراهيم : بهذا أمرت ؟ قال : نعم .

فانتهى إلى موضع البيت ، فعمد إبراهيم إلى موضع الحِجْر فأوى فيه هاجرَ وإسماعيلَ ، وأمر هاجرَ أن تتخذ فيه عريشاً ، فلما أراد إبراهيم أن يخرج ، ورأت أم إسماعيل أنه ليس بحضورتها أحد من الناس ولا ماء ظاهر ، تركت ابنها في مكانه وتبعته إبراهيم ، فقالت : يا إبراهيم إلى من تدعنا ؟ فسكت عنها ، حتى إذا دنا من كداء قال : إلى الله عز وجل أدعكم . فقالت : فالله عز وجل أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : فحسبي تركتنا إلى كافٍ .

وانصرفت هاجر إلى ابنها ، وخرج إبراهيم حتى وقف على كداء ، ولا بناء ولا ظل ولا شيء يحول دون ابنه ، فنظر إليه ، فأدركه ما يدرك الوالد من الرحمة لولده ، فقال : « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَاِرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » (١) .

ثم انصرف إبراهيم راجعاً إلى الشام ، وعمدت هاجر فجاءت عريشاً في موضع الحِجْر من سَمُرٍ وثُمَّامٍ ألقته عليه ومعها شئٌ فيه شيء من الماء ، فلما نفذ الماء عطش إسماعيل وعطشت أمه ، فانقطع لبنها ، فأخذ إسماعيلَ كهيئة الموت ، فظننت أنه ميت ، فجزعت وخرجت جزعاً أن تراه على تلك الحال ، وقالت : يموت وأنا غائبة عنه أهونُ عليّ ، وعسى الله أن يجعل لي في تمشأى خيراً .

فانطلقت فنظرت إلى جبل الصفا ، فأشرفت عليه تستغيث ربها عن وجل وتدعوه ، ثم انحدرت إلى المروة ، فلما كانت في الوادي خَبَّتْ^(١) حتى انتهت إلى المروة ، فعلت ذلك سبعَ مرار ، كلما أشرفت على الصفا نظرت إلى ابنها ، هتراء على حاله ، وإذا أشرفت على المروة فمثل ذلك .

فكان ذلك أولَ ما سعى بين الصفا والمروة . وكان من قبلها يطوفون بالبيت ولا يسمون بين الصفا والمروة ، ولا يقفون المواقف ، حتى كان إبراهيم . فلما كان الشوط السابع ويئست سمعت صوتاً ، فاستمعت فلم تسمع إلا الأول ، فظننت أنه شيء عرّض لسمعها من الظمأ والجهد .

فنظرت إلى ابنها فإذا هو يتحرك ، فأقامت على المروة ملياً ، ثم سمعت الصوت الأول ، فقالت : إني سمعت صوتك فأعجبني ، فإن كان عندك خير فأغثنى ، فإنني قد هلكت وهلك ما عندي .

فخرج الصوتُ بصوتٍ بين يديها ، وخرجت تملوه قد قويت له نفسها ، حتى انتهى الصوت عند رأس إسماعيل ، ثم بدا لها جبريلُ ، فانطلق بها حتى وقف على موضع زمزم ، فضرب ببعقه مكان البئر ، فظهر الماء فوق الأرض حين فخص ببعقه ، وفارت بالرّواء ، وجملت أمُ إسماعيل تُحظّر الماء بالتراب خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بشئتها^(٢) ، فاستقت وبادرت إلى ابنها فسقته وشربت ، فجعل يداها يتقطران لبناً ، فكان ذلك اللبن طمأماً وشراباً لإسماعيل ، وكانت تجتزي بماء زمزم ، فقال لها الملك : لا تخافي أن ينفد هذا الماء ، وأبشري ، فإن ابنك سيدشربُ ويأتي أبوه من الشام ، فتبتون هاهنا بيتاً يأتيه عبادُ الله من أقطار الأرضين ملبّين لله جل ثناؤه شعناً غُبراً ، فيطوفون به ويكون هذا الماء شراباً لضيقان الله عز وجل الذين يزورون بيته .

(١) خَبَّتْ : جرت .

(٢) الشئة : القرية الخلق .

فَقَالَتْ : بِشْرِكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ . وَطَابَتْ نَفْسُهَا وَحَمَدَتْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ .

وَيَقْبَلُ غُلَامَانِ مِنَ الْعَمَالِيقِ يَرِيدَانِ بَعِيرًا لَهَا أَخْطَأَهَا ، فَقَدْ عَطِشَا وَأَهْلُمَا
بِعُرْفَةٍ ، فَنظَرَا إِلَى طَيْرٍ تَهْوَى قَبْلَ الْكُمْبَةِ فَاسْتَنْكَرَا ذَلِكَ ، وَقَالَا : أُنَى يَكُونُ
الطَيْرُ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَمَهْلُ حَتَّى نَهْبُذَ ، ثُمَّ نَسْلُكُ
فِي مَهْوَى الطَيْرِ .

فَأَبْرَدَا ثُمَّ تَرَوَّحَا ، فَإِذَا الطَيْرُ تَرَدُّ وَتَصَدَّرُ ، فَاتَّبَعَا الْوَارِدَةَ مِنْهَا حَتَّى وَقَفَا
عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ ، فَنظَرَا إِلَى الْمَاءِ وَإِلَى الْعَرِيشِ ، فَنَزَلَا وَكَلَّمَا هَاجِرًا وَسَأَلَاهَا مَتَى
نَزَلْتَ ؟ فَأَخْبَرْتَهُمَا ، وَقَالَا : لِمَنْ هَذَا الْمَاءُ ؟ فَقَالَتْ : لِي وَلِابْنِي . فَقَالَا : مَنْ حَفَرَهُ ؟
فَقَالَتْ : سُقِيَ اللَّهُ جِلَّ نَدَاؤُهُ .

فَمَرَفَا أَنْ أَحَدًا لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ ^(١) يَحْفَرَ هُنَاكَ مَاءً ، وَعَهْدُهَا بِمَا هُنَاكَ قَرِيبٌ
وَلَيْسَ بِهِ مَاءٌ .

فَرَجَعَا إِلَى أَهْلِهِمَا مِنْ لَيْلَتِهِمَا ، فَأَخْبَرَاهُمْ ، فَتَحَوَّلُوا حَتَّى نَزَلُوا مَعَهَا عَلَى الْمَاءِ
فَأَنْسَتَ بِهِمْ ، وَمَعَهُمُ الدَّرِيَّةُ ، فَنَشَأَ إِسْمَاعِيلُ مَعَهُمْ وَلِدَانِهِمْ .

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَزُورُ هَاجِرَ فِي كُلِّ شَهْرٍ عَلَى الْبُرَاقِ يَغْدُو غَدْوَةً فَيَأْتِي مَكَّةَ ، ثُمَّ
يَرْجِعُ فَيَقْبَلُ فِي مَنْزِلِهِ بِالشَّامِ .

فَزَارَهَا بَعْدُ ، وَنَظَرَ إِلَى مَنْ هُنَاكَ مِنَ الْعَمَالِيقِ وَإِلَى كَثْرَتِهِمْ وَعَمَارَةِ الْمَاءِ ،
فَسُرَّ بِذَلِكَ .

وَلَمَّا بَلَغَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَزْوِجَ امْرَأَةً مِنَ الْعَمَالِيقِ ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ زَائِرًا
لِإِسْمَاعِيلِ ، وَإِسْمَاعِيلُ فِي مَاشِيَةٍ يَرْعَاهَا وَيُخْرِجُ مَتْنَكِبَا قَوْسَهُ ، فَيُرِي الصَّيْدَ

(١) ت : أَنْ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَحْفَرَ .

مع رِعيَّتِهِ ، فجاء إبراهيم عليه السلام إلى منزله ، فقال : السلام عليكم يا أهل البيت .

قال : فسكتت فلم تردّ ، إلا أن تكون ردّت في نفسها ، فقال : هل من منزل ؟ فقالت لا هَيْمٌ اللهُ إذن ، قال : فكيف طعامكم وشرابكم وشاؤكم ؟ فذكرت جهنم ، فقالت : أمّا الطعام فلا طعام ، وأمّا الشاء فإنما نَحْلِبُ الشاةَ بَعْدَ الشاةِ الْمَصْرَ (١) ، وأمّا المساء فعلى ما ترى من الغلظ ، قال : فأين رب البيت ؟ قالت في حاجته .

قال : فإذا جاء فأقرئيه السلام ، وقولي له غير عتبة بيتك .

ورجع إبراهيم إلى منزله ، وأقبل إسماعيل راجعاً إلى منزله بعد ذلك بما شاء الله عز وجل ، فلما انتهى إلى منزله سأل امرأته هل جاءك أحد ؟ فأخبرته بإبراهيم وقوله وما قالت له ، ففارقها وأقام ما شاء الله أن يقيم .

وكانت العماليق هم ولادة الحكم بمكة فضيّعوا حرمة الحرم واستحلوا منه أموراً عظيماً ونالوا ما لم يكونوا يندلون ، فقام فيهم رجل منهم يقال له عمّوق (٢) ، فقال يا قوم أبقوا على أنفسكم ، فقد رأيتم وسمعتم من أهلك من هذه الأمم ، فلا تفعلوا ، تواصلوا ولا تستخفوا بحرم الله عز وجل وموضع بيته .

فلم يقبلوا ذلك منه ، وتمادوا في هلكة أنفسهم .

ثم إن جرهما وقطورا ، وهما أبناء عم خرجوا سياراً من اليمن ، أجدبت البلاد عليهم ، فساروا بذرايرهم وأموالهم ، فلما قدموا مكة رأوا فيها ماء مغيثاً وشجراً ملتقياً ، ونباتاً كثيراً ، وسمة من البلاد ، ودفتاً في الشتاء .

(١) المصر : الحلب بأطراف الأصابع ، وناقعة مصور بطيئة خروج الدر لا تحلب إلا مصراً

(٢) ت : عمالوق .

فقالوا إن هذا الموضوع يجمع لنا ما نريد .

فأجبههم ونزلوا به ، وكان لا يخرج من اليمن قوم إلا ولهم ملك يقيم أمرهم ،
سنة فيهم جرّوا عليها واعتادوها ولو كانوا نفرأ يسيراً .

فكان مُضَاضُ بن عمرو على قومه من جرّهم ، وكان على قَطَوْرَاءِ السَّمَيْدَعِ ،
رجلٌ منهم .

فنزل مُضَاضُ بمن معه من جرّهم أعلى مكة بِقَعْنِيَقِيمَانَ^(١) فما حاز .

ونزل السَّمَيْدَعُ بِقَطَوْرَاءِ أسفل مكة بِأَجِيَادَ^(٢) ، فما حاز .

وذهبت العماليق إلى أن يذازعوم أمرهم فعمّلت أيديهم على العماليق وأخرجوهم
من الحرم كله ، فصاروا في أطرافه لا يدخلونه .

وجعل مُضَاضُ والسَّمَيْدَعُ يُقَطِّعَانِ المنازل لمن ورد عليهما من قومهما فكثروا
وأثروا ، فكان مضاض يَعْشُرُ^(٣) ، كلٌّ من دخل مكة من أعلاها ، وكان
السَّمَيْدَعُ يَعْشُرُ كلٌّ من دخل من أسفلها ، وكلٌّ على^(٤) قومه لا يدخل أحدهما
على صاحبه ، وكانوا قوماً عرباً وكان اللسان عربياً .

وكان إبراهيم يزور إسماعيل ، فلما نظر إلى جرّهم نظر إلى لسان عجيب
وسمع كلاماً حسناً ، ونظر إسماعيل إلى رَعْلَةَ بنت مُضَاضِ بن عمرو ، فأجبهته
نخطبها إلى أبيها فتزوجها .

فجاء إبراهيم زائراً لإسماعيل ، فجاء إلى بيت إسماعيل ، فقال : السلام عليكم

(١) قعنيقان جبل بمكة .

(٢) جبل بمكة .

(٣) عشرهم يعشرون عشرا وعشورا أخذ عشر أموالهم .

(٤) ابن هشام : في قومه .

ورحمة الله وبركاته ، فقامت إليه المرأة فردّت عليه ورحبت به ، فقال كيف عيشكم ولبنكم وماشيتكم ؟ فقالت خيرٌ عيشٍ بحمد الله عز وجل ، نحن في لبن كثير ولحم كثير وماؤنا طيب ، قال هل من حبّ ؟ قالت : يكون إن شاء الله ونحن في نعم . قال : بارك الله لكم .

قال أبو جهم : فكان أبي يقول : ليس أحدٌ ينجى عن اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه ، ولعمري لو وجد عددنا حبّاً لدعا فيه بالبركة فكانت أرض زرع .

ويقال إن إبراهيم قال لها : ما طعامكم ؟ فقالت : اللحم واللبن . قال فما شرابكم ؟ قالت اللبن والماء . قال : بارك الله لكم في طعامكم وشرابكم ، فاللبن طعام وشراب .

قالت : فانزل رحمتك الله فاطعم واشرب . قال : إني لا أستطيع النزول . قالت فإني أراك شعثاً أفلا أغسل رأسك وأذهنه ؟ قال بلى إن شئت . فجاءته بالمقام وهو يومئذ حجر رطب أبيض مثل المهة^(١) ، ملقّى في بيت إسماعيل ، فوضع عليه قدمه اليمنى وقدم إليها رأسه وهو على دابته ففسلت شقّ رأسه الأيمن ، فلما فرغت حوّلت له المقام حتى وضع قدمه اليسرى ، وقدم إليها رأسه ففسلت شقّ رأسه الأيسر ، فالأثر الذي في المقام من ذلك . قال أبو الجهم : فقد رأيت موضع العقب والإصبع .

وعن الواقدي من غير حديث أبي الجهم أن أبا سعيد الخدريّ سأل عبد الله ابن سلام عن الأثر الذي في المقام ، فقال : كانت الحجارة على ما هي عليه اليوم إلا أن الله جل ثناؤه أراد أن يجعل المقام آيةً من آياته .

(١) المهة : الشمس

قال أبو الجهم : فلما فرغت يعنى المرأة ، من غسل رأس إبراهيم عليه السلام قال لها : إذا جاء إسماعيل فقولى له : أثبت عتبة بابك فإن صلاح المنزل العتبة .

فلما جاء إسماعيل قال : هل جاءك أحد بعدى ؟ فأخبرته بإبراهيم وما صنعت به ، ثم قال لها : هل قال لك أن تقولى شيئاً ؟ قالت : قال لى أثبت عتبة بابك فإن صلاح المنزل العتبة .

ففرح إسماعيل وقال لها : أتدرين من هو ؟ قالت : لا . قال : هذا خليل الله إبراهيم أبى ، وأما قوله «أثبت عتبة بابك» فقد أمرنى أن أقرك وقد كنت على كريمة وقد ازددت على كرامة . فصاحت وبكت ، فقال : مالك ؟ قالت : ألا أكون علمت بمن هو فأكرمه وأصنع به غير الذى صنعت ؟ فقال لها إسماعيل : لا تبكى ولا تجزعى فقد أحسنت ولم تسكونى تقدرين أن تفعلى فوق الذى فعلت ، ولم يكن يزيدك على الذى صنع بك .

فولدت لإسماعيل عشرة ذكور أحدهم نابت .

[بناء إبراهيم للبيت]

فلما بلغ إسماعيل ثلاثين سنة وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة ، أوحى الله جل ثناؤه إلى إبراهيم أن ابن لى بيتا . قال إبراهيم : أى رب* أين أبنيه ؟

فأوحى الله إليه : أن اتبع السكينة ، وهى ریح لها وجه وجناحان ومع إبراهيم الملك والعُرد^(١) .

فاتموا بإبراهيم إلى مكة ، فنزل إسماعيل إلى الموضع الذى بوأه الله جل وعز لإبراهيم ، وموضع البيت ربوة حراء مدرة مشرفة على ما حولها .

(١) العرد : طائر ضخم الرأس .

فحفر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وليس معهما غيرهما ، أساس البيت ،
يريدان أساس آدم الأول .

فحفر من ربض البيت ، يمى حوله ، فوجدوا صخرة لا يطبقها إلا ثلاثون
رجلا ، وحفرا حتى بلغا أساس آدم ثم بنى عليه ، وحاتت السكينة كأنها سمحابة ،
على موضع البيت ، فقالت : ابنى على .

فذلك لا يطوف بالبيت أحد أبدا ، كافر ولا جبار ، إلا رأيت عليه السكينة .

فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت ، فجعل طوآه في السماء تسم أذرع ، وعرضه
ثلاثين ذراعا ، وطوآه في الأرض اثنين وعشرين ذراعا ، وأدخل الحجر وهو
سبعة أذرع في البيت ، وكان قبل ذلك زربا لعنهم إسماعيل .

وأما بناء حجارتهم بمضما على بعض ، ولم يجعل له سقفا ، وجعل له بابا وحفر له
بئرا عند بابه خزانة للبيت ، يلقى فيها ما أهدي للبيت وجعل الركن
هنا للناس .

فذهب إسماعيل إلى الوادي يطلب حجرا ، ونزل جبريل بالحجر الأسود ،
وكان قد رفع إلى السماء حين غرقت الأرض ، كما رفع البيت ، فنزل به جبريل
فوضعه إبراهيم موضع الركن ، وجاء إسماعيل بالحجر من الوادي فوجد إبراهيم
قد وضع الحجر ، فقال : من أين هذا ؟ من جاءك به ؟ قال إبراهيم : من لم يكن
إليك ولا إلى حجرك .

وعن الواقدي أيضا ، من غير حديث أبي الجهم ، أن يزيد بن رومان ، قال :
سمعت ابن الزبير يقول : إن إبراهيم عليه السلام ابتنى الحجر ، فذاده من فوق
أبي قبيس : إلا أنا هذا . فرقى إليه إبراهيم فأخذه ، فوضعه موضعه الذي هو
فيه اليوم .

وكان الله جل ثناؤه لما غرقت الأرض استودع أبا قُبَيْسَ الركنَ ، وقال :
إِذَا رَأَيْتَ خَلِيلِي يَبْنِي لِي بَيْتًا فَأَعْطِهِ الركنَ . فَأَعْطَاهُ الركنَ .

وعن غير ابن الزبير أن أبا قُبَيْسَ لذلك كان يسمى في الجاهلية الأمين ، لوفائه
بما استودعه الله إياه .

قال أبو جَهْمٍ : ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت وأدخل الحِجْرَ في البيت ،
جعل المقام لاصمًا بالبيت عن يمين الداخل ، فلما كانت قریش قَهْرُ الخشب
عليهم ، فأخرجوا الحِجْرَ ، وكان ما أخرجوا منه سبعة أذرع .

[إبراهيم يؤذن بالحج]

وأمر إبراهيم بعد فراغه من البناء أن يؤذن في الناس بالحج ، فقال : يا رب ،
وما يبلغ صوتي ؟

فقال الله جل ثناؤه : أذن وعلى التبلاغ .

فارتفع على المقام وهو يومئذ ملصقًا بالبيت ، فارتفع به المقام حتى كان
أطولَ الجبال ، فنادى وأدخل أصبعيه في أذنيه ، وأقبل بوجهه شرقًا وغربًا ،
يقول : أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق ، فأجيبوا ربكم
عز وجل .

فأجابه من تحت البحور السبعة ، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب
من أطراف الأرض كلها : كَتَبْتُكَ اللَّهُمَّ لِي .

أفلا تراهم يأتون يُلبّون ؟

فمن حج من يومئذ إلى يوم القيامة فهو ممن استجاب لله عز وجل .

وذلك قولُ الله جل ثناؤه : « فيه آياتٌ بينات ، مقامُ إبراهيمَ ^(١) » يعنى نداء إبراهيم على المقام بالحج فهمى الآية .

قال الواقدي : وقد روى أن الآية هى أثرُ إبراهيم على المقام .

[إبراهيم يتعلم مناسك الحج]

قال أبو الجهم : فلما فرغ إبراهيمُ من الأذان ذهب به جبريل فأراه الصفا والمروة ، وأعلمه على حدود الحرم ، وأمره أن ينصب عليها الحجارة ، ففعل إبراهيمُ ذلك ، وكان أول من أقام أنصابَ الحرم ، ويريه إياها جبريلُ .

فلما كان اليوم السابعُ من ذى الحجة ، خطب إبراهيمُ عليه السلام بمكة ، حين زاغت ^(٢) الشمس فأما ، وإسماعيل جالس ، ثم خرجا من الغد يشوان على أقدامهما يُبجيان مُحْرَمَيْن ، مع كل واحد منهما إدارة يحملها وهما يتوكأ عليهما ، فسئى ذلك اليومُ يومَ التَّروِيَةِ .

فأتيا مِنى فصاميا بها الظاهر والمصر والمغرب والعشاء والصبح ، وكانا نزلا في الجانب الأيمن ، ثم أقام حتى طلعت الشمس على تبير ، ثم خرج يمشى هو وإسماعيل حتى أتيا عرفة ، وجبريلُ معهما يريهما الأعلام ، حتى نزلا ببئيرة ، وجعل يريه أعلامَ عرفات ، وكان إبراهيمُ قد عرفها قبل ذلك ، فقال إبراهيمُ : قد عرفتُ . فسئيت عرفات .

فلما زاغت الشمس خرج بهما جبريل عليه السلام ، حتى انتهى بهما إلى موضع المسجد اليوم ، فقام إبراهيمُ فتسكلم بكلمات ، وإسماعيل جالس ، ثم جمع بين

(١) سورة آل عمران ٩٧

(٢) زاغت الشمس : مالت ، وذلك إذا ماها الراء .

الظهر والعصر ، ثم ارتفع بهما إلى الهضاب ، فقاما على أرجلهما يدعوان ، إلى أن غابت الشمس وذهب الشعاع ، ثم دَفَعَا من عرفة على أقدامهما ، حتى انتهيا إلى جَمْع فنزلا ، فصلى إبراهيمُ المغربَ والعشاءَ في ذلك الموضع الذي يصلى فيه اليوم ، ثم باتا حتى إذا طلع الفجر وقفَا على قَزَح^(١) ، فلما أسفرا قبل طلوع الشمس دفعا على أرجلها حتى انتهيا إلى مُحَسَّر^(٢) ، فأسرعَا حتى قطعاه ثم عادا إلى مشيهما الأول ، ثم رميا جرة العقبة بسبع حصيات حلالها من جمع ، ثم نزلا من منى في الجانب الأيمن ، ثم ذَبَحَا في المنحَر اليوم ، وحلقا رؤوسهما ، ثم أقاما أيامَ منى يرميان الجمار حين تزيف الشمس ماشيتين ذاهبتين وراجمين ، وصَدَرَا يومَ الصَدَر فصليا الظهر بالأبطح ، وكل هذا يريه جبريلُ عليه السلام .

قال أبو الجهم : فلما فرغ إبراهيمُ من الحج انطلق إلى منزله بالشام ، فكان يبيع البيتَ كلَّ عام ، وحجته سارةُ ، وحجته إسحقُ ويعقوبُ والأسباط ، والأنبياء ، هلم جرا .

وحجته موسى بن عمران عليه السلام .

روى الواقدي بإسناد له عن ابن عباس قال : مرَّ موسى عليه السلام بصيفاح الرُّوحَاء يلبى ، تجاوز به الجبالُ ، عليه عباءتان قطوانيتان من عباء الشام .

وعن جابر بن عبد الله قال : حجج هارون نبيُّ الله البيتَ ، فرَّ بالمدينة يريد الشام ، فمرض بالمدينة فأوصى أن يُدْفَن بأصل أحد ، ولا تُعلم به يهودُ ، مخافة أن يَنْبَشُوهُ ، فدَفَنُوهُ فقَبْرُهُ هناك .

(١) قزح : جبل بالزدلفة .

(٢) موصح بمى .

وعن ابن عباس ، أن الحواريين كانوا إذا بلغوا الحرم نزلوا يمشون حتى يأتوا البيت .

وعن ابن الزبير : أن الحواريين دخلوا نعالهم حين دخلوا الحرم ، إعظاما أن ينتملوا فيه .

[وفاة إبراهيم]

ثم توفى الله خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وجه إليه ملك الموت ، فاستنظره إبراهيم ، ثم أعاده إليه لما أراد الله قبضه ، فأخبره بما أمر به ، فسلم إبراهيم لأمر ربه عز وجل ، فقال له ملك الموت : يا خليل الله ، على أى حال تحب أن أقبضك ؟

قال : تقبضنى وأنا ساجد . فقبضه وهو ساجد ، وصعد بروحه إلى الله عز وجل . ودفن إبراهيم عليه السلام بالشام .

وعاش إسماعيل عليه السلام بعد أبيه ما عاش ، وتوفى بمكة ، فدفن داخل الحِجْر ، مما يلي باب السكبية ، وهناك قبر أمه هاجر ، دفن معها وكانت توفيت قبله .

[ولاة البيت بعد إسماعيل]

ولما توفى إسماعيل عليه السلام ولي البيت بعده ابنه نابت ، ولم يابِه أحد من ولده غيره .

ثم مات فدفن في الحِجْر مع أمه رَقِيلة بنت مُضاض . فولي البيت بعده جدُّه مُضاض بن عمرو ، ثم أخواله من جُرهم ، وقاموا عليه ، فكانوا هم ولاته وحُجَّابه وولاة الأحكام بمكة .

وكان البيت قد دخله السيل من أعلى مكة فأنهدم ، فأعادته جرهم على بناء إبراهيم ، وجعلت له مصراعين وقفلا .

[بين جرهم وقطوراء]

قال ابن إسحق : ثم إن جرهما وقطوراء بنى بعضهم على بعض وتنازسا الملك بها ، ومع مُضاض يومئذ بنو إسماعيل وبنو نابت وإليه ولاية البيت دون السَمَيْدَع .

فسار بعضهم إلى بعض ، فخرج مُضاض من قَمَيْقَمَانَ في كتيبه سائرا إلى السَمَيْدَع ، ومع كتيبه عُدتها من الرماح والدَرَاق والسيوف والجِعب يُتَقَمَع بذلك معه .

فيقال : ما سُمِّي قَمَيْقَمَانَ قَمَيْقَمَانَ إلا لذلك .

وخرج السَمَيْدَع من أجياد ومعه الخيل والرجال .

فيقال : ما سُمِّي أجيادُ أجياداً إلا لخروج الجياد من الخيل مع السَمَيْدَع منه .

وغيرُ ابن إسحق يقول : إنما سُمِّي أجياداً لأن مُضاضاً ضرب في ذلك الموضع أجياداً مائة رجل من العالقة . وقيل : بل أمر بعض الملوك ، غيرُ مسمًى ، بضرب رقابٍ فيه ، فكان يقول لسيّافه : توسّط الأجياد . وهذا ونحوه أصح في تسمية الموضع بأجياد ، مما قال ابن إسحق .

قال : فالتَمَوْا بفاضح ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل السَمَيْدَعُ وفُضحت قَطُوراء . فيقال ما سُمِّي فاضحاً فاضحاً إلا لذلك .

ثم إن القوم تدارعوا إلى الصلح ، فساروا حتى نزلوا المطابِخَ شِعْباً بأعلى مكة ، فاصطلحوا به وأسلموا الأمر إلى مُضاض .

فلما رجع إليه أمرُ مكة فصار مُلكها له ، نحر للناس وأطعمهم ، فأطبخَ الناسُ وأكلوا . فيقال : ما سميت المطابخُ المطابخَ إلا لذلك . وبعض أهل العلم يزعم أنها إنما سميت بذلك^(١) لِمَا كان تُبْعُ نَحَرَ بها وأطعم ، وكانت منزلة .

فكان الذي كان بين مُضاض والسَمَيْدِعِ أولَ بَنِي كان بمكة ، فيما يزعمون .

ثم نشر الله ولدَ إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جُرهم ولاية البيت والحكام بمكة ، لا يَنازهم ولدُ إسماعيل في ذلك ، لثقتهم وقرابتهم ، وإعظاما للحُرمة أن يكون بها بنى أو قتال .

فلما ضاقت مكةُ على ولدِ إسماعيل ، انتشروا في البلاد ، فلا يفاوئون قوما إلا أظهرهم الله عليهم بدِينهم فوطئوهم .

[ولاية كنانة وخزاعة]

ثم إن جُرهم بغوا بمكة ، واستحلوا خلاها من الحُرمة ، فظلموا من دخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال السكينة الذي يَهْدَى لها ، فرقَّ أمرهم .

فلما رأت ذلك بدو بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وغُبْشان من خَزاعة ، أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة ، فأذَنوهم بالحرب .

فاقتتلوا فغلبتهم بدو بكر وغُبْشان ، فدفنهم من مكة .

وكانت مكة في الجاهلية لا تُقرُّ فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبنى فيها أحد إلا أخرجته ، فكانت تسمى الناسة ، ولا يريدها ملك يستعمل حرهتها إلا هلك

(١) ابن هشام : سميت المطابخ .

مكانه . فيقال : ما سميت بِبَسْكَةٍ ، إلا أنها كانت تُبَكُّ^(١) أعناقَ الجبابرة إذا أخذوا فيها شيئاً .

[تعظيم العرب للحرم]

فلم يزل أهلها على وجه الدهر يصونون جفاتها ويحافظون على حرمتها .

يقال : لأنه اجتمع رأى بنى إسماعيل وخيارهم على أن لا يدعوا أحداً أخذت في حرّم الله حدثاً إلا غرّبوه منه ، ثم لم يرجع فيه . ويقال : بل كان ذلك مما سنّ لهم أولهم ، فصارت سنةً فيهم يديرون بها ، ثم خاف من خلف بدمهم على ذلك ، يرون فيه رأيهم ، وتكبر مواقمة الظلم في حرّم الله والتعمدي به في نفوسهم ، ويمتقدون أن الباغي فيه معاقبٌ في دنياه في نفسه وماله ، وأن الخالف عند البيت حائثاً تخوفٌ عليه مما أصاب قبله من فعل فعله ، وأن دعاء المظلوم عنده وخصوصاً في الشهر الحرام مُجّابٌ في ظلمه ، ويؤثرون في ذلك أشياء أراها الله إليهم ، صوّفاً لحرّمه الكريم ، وتنزيهاً لبيت خليله إبراهيم .

ذكر الواقدي من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث ، قال : عدا رجل من بنى كندانة بن هذيل على ابن عم له وظلمه واضطمده فناشده بالرحم وعظم عليه ، فأبى إلا ظلمه ، فقال : والله لألحقن بحرم الله في هذا الشهر ، ولأدعون الله عليك . فقال له ابن عمه مستهزئاً به : هذه ناقتي فلانة ، فأنا أفقرُك ظهرها فاذهب فاجتهد .

فأعطاه ناقة ، وخرج حتى جاء الحرم في الشهر الحرام ، فقال : اللهم إني أدعوك جاهداً مضطراً على ابن عمي فلان ، ترميه بداء لا دواء له .

(١) ت ط: سقطت منها كلمة كانت . ومعنى تبك: تكسر .

ثم انصرف ، فيجد ابن عمه قد رُمى في بطنه فصار مثل الزرق ، فما زال يذئف حتى انشق .

قال عبد المطلب : فحدثت بهذا الحديث ابن عباس ، فقال : أنا رأيت رجلا دعا على ابن عم له بالعمى ، يعنى فى الحرم ، فرأيتة يقاد أكمة العميان .

وعن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب يسأل رجلا من بنى سليم عن ذهاب بعصره . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، كنا فى بنى ضبعاء عشرة ، وكان لنا ابن عم ، فكنا نظلمه ونضطهده ، فكان يذكرنا بالله والرحم ، وكنا أهل بيت نرتكب كل الأمور ، فلما رأى ابن عمنا أننا لا نكف عنه ولا نرُدُّ إليه ظلامته ، أمهل حتى دخلت الأشهر الحرم ، انتهى إلى الحرم فجعل يرفع يديه إلى الله جل ثناؤه ويقول :

لاهم أدعوك دعاء جاهداً اقول بنى الضبعاء إلا واحداً
ثم اضرب الرجل ودعه قاعداً أعنى إذا قيده يعنى القائدا

قال : فمات إخوتى تسمة فى تسعة أشهر ، فى كل شهر واحد ، وبقيت أنا ، فعميت ورماني الله عز وجل فى رجلي ، وكنت فليس يلائمى قائد .

قال ابن عباس : فسمعت عمر يقول : سبحان الله إن هذا هو العجب ا

وسمعت عمر يسأل ابن عمهم الذى دعا عليهم ، فقال : دعوت عليهم كل ليلة فى ليالى رجب الشهر كله بهذا الدعاء ، فأهلكوا فى تسعة أشهر وأصاب الباقى ما أصابه .

قال ابن عباس : وعدا رجل على ابن عم له فاستاق ذودا له ، فخرج يطلبه حتى أصابه فى الحرم ، فقال . ذودى فقال اللص : كذبت ليس لك . قال :

فأحلف . قال : إن ذأحلف . فحلف عند المقام بالله الخالق ربُّ هذا البيت ما هُنَّ لك .

فتميل له : لا سبيل لك عليه .

فقام ربُّ الذَّود بين الركن والمقام باسطا يديه يدعو على صاحبه ، فما برح مقامه يدعو عليه حتى ذلَّه فذهب عقله ، فجمل يصيح بمكة : مالي وللذَّودِ ، مالي ولفلان ربُّ الذَّودِ .

فبلغ ذلك عبدَ المطلب ، فجمع الذَّودَ فدفعها إلى المظلوم نخرج بها ، وبقي الآخر مُدَلَّها حتى تردَّى من جبل فمات فأكلته السباع .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لو وجدتُ قاتلَ الخطاب في الحرم ما هيجتُه .

وكان يقول : لأن أذنب برُكبةٍ سبعين ذنبا أحبُّ إلى من أن أذنب ذنبا واحداً في الحرم .

ورُكبةٌ خارجَ الحرم ، محاذيةٌ لذاتِ عِرْقٍ .

وذكر رضى الله عنه يوماً وهو خليفة ما كان يعاقب به مَنْ حَافَ ظُلماً ، يعنى في الحرم ، زمن الجاهلية ، فقال : إن الناس ليرتكبون ما هو أعظم منها ثم لا يعجل لهم من العقوبة مثل ما كان يعجل لأولئك ، فما ترون ذلك ؟

فقالوا : أنت أعلم يا أمير المؤمنين .

قال : إن الله جلَّ ثناؤه جعل في الجاهلية ، إذ لادينَ ، حُرْمَةً حَرَّمَها وعظَّمها وشرَّفها ، وجعل العقوبة لمن استحل شيئاً مما حَرَّمَ ، أَيْتَسَكَّب عن انتهاك ما حَرَّمَ مخافة تمجيل العقوبة ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أوَّعدهم فيما

اتهمكوا مما حرم الساعة ، نقال : « والساعةُ أذهى وأمرُّ »^(١) .

فأخّر العقابَ إلى يوم القيامة ، وأراهم الله الاستجابة بعضهم لبعض ليقنأهاوا
عن الظلم ، وأخّر أهلَ الإسلام ليوم الجُمع ، ويستجيب الله لمن يشاء ، فاتقوا الله
وكونوا مع الصادقين .

ومن المشهور في هذا الباب أمرُ إسافَ وناثلةَ ، وهما صنمما قريش اللذان
أقاموا على زمزم ينتحرون عندهما . ذكروا أنهما كانا رجلا وامرأة من جُرم ،
إساف بن بغيّ ، وناثلة بنت ديك ، فوقع إساف على ناثلة في السكبة ، فسنخهما
الله حجّرين . ويقال : أحَدَثَا فِيهَا فسنخهما الله . فالله أعلم .

وأمرُّها معدودٌ فيما بلغت إليه جُرم من الاستخفاف بحرمة الحرم^(٢) وقلة
مبالاتهم بالتبغى فيه ، مع ما أراهم الله من عظيم الآية بمسنخهما حجّرين ، فما نهام
ذلك عن قبيح ما كانوا عليه ، حتى أخرجهم الله عن جوار بيته بأيدي آخرين من
عباده ، فكان من أمرهم مع خزاعة ما كان .

[خروج جرم من مكة] .

نخرج عمرو بن الحارث بن مُضاض الجُرهمي بقزآلى السكبة وبمحجر الركن
فدفنها في زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جُرم إلى اليمن ، وحزنوا على ما فارقوا
من أمر مكة ومساكنها حزنا شديداً .

فقال عمرو بن الحارث بن مُضاض في ذلك ، وليس بمضاض الأكبر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا^(٣) أنيسٌ ولم يسْمُرْ بمكة سامرٌ

(١) سورة القمر ٤٦ .

(٢) فخرط : حرمة الله .

(٣) الحجون : جبل بمحلة مكة .

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا^(١) صروفُ اليبالى والجدودُ العوائرُ
وكنا ولاةَ البيتِ مِنْ بَعْدِ نَابِتِ نطوفُ بذلك البيتِ والخيرُ ظاهرُ
ونحنُ وَلِيدَا البيتِ مِنْ بَعْدِ نَابِتِ بعزّةٍ فما يَمْحَى لَدِينَا المَكَاثِرُ
مَلَكْنَا فَعَزَّزْنَا فَأَعْظَمَ بِمَلَكْنَا فليس لِحَى غَيْرِنَا تَمَّ فَأَخِرُ
ألم تُنْكَحُوا^(٢) من خير شخصٍ عَلِمْتَهُ

فأبناؤه مِنَّا ونحنُ الأصاهرُ
فإن تَفَتَّنِ الدنْيَا عَلَيْنَا بِهَا مَا فإنَّ مَا حَالَا فِيهَا التَّشَاجِرُ
فَأَخْرَجْنَا مِنْهَا المَلِيكَ بِمَدْرَةٍ كَذَلِكَ يَاللَّهَاسِ تَجْرِي المَقَادِرُ
أقولُ إِذَا نَامَ انْطَلَى ولمْ أَنْتُمْ أَذَا العَرْشِ لَا يَبْعُدُ سُهَيْلٌ وَعَامِرُ
وَبُدِّلَتْ مِنْهَا أَوْجُهًا لَا أَحِبَّهَا قَبَائِلَ مِنْهَا خَيْرٌ وَيَحَابِرُ^(٣)
وَمِيرْنَا أَحَادِيثًا وَكُنَّا بِمِفْطَلَةٍ كَذَلِكَ عَضَّتْنَا السُّنُونُ النُّوَابِرُ
فَسَحَّتْ دَمُوعُ المِينِ تَبْكِي لِبَلَدَةٍ بِهَا حَرَمٌ أَمْنٌ فِيهَا المِشَاعِرُ
وتَبْكِي لِبَيْتِ لَيْسَ يُؤَدَّى حَمَامَهُ يَطَّلُ بِهِ أَمْنَاً وَفِيهِ المِصَافِرُ
وَفِيهِ وَحُوشٌ لَا تُرَامُ أُبَيْسَةٌ إِذَا خَرَجْتَ مِنْهُ فَلَيْسَتْ تُفَادِرُ
وقال عمرو بن الحارث أيضا يُذَكِّرُ بَكْرًا وَغُبْشَانَ وَسَاكِنِي مَكَّةَ الَّذِينَ
خَلَقُوا فِيهَا بِعَدَمِ :

يا أيها الناسِ سِيرُوا إِن قَصَرَ كُمْ^(٤) أَنْ تُعْبِحُوا ذَاتَ يَوْمٍ لَا تَسِيرُونَا
حُثُوا اللَّطِيَّ وَأَرْخُوا مِنْ أَرْمَتِهَا قَبْلَ المَاتِ وَقَضُوا مَا تُقَضُّونَا
كُنَّا أَناسًا كما كنتم فَنَيرُنَا دهرٌ ، فَأَنْتُمْ كما كُنَّا تَكُونُونَا

(١) ت ط : فأبادنا ؛ وهي رواية ابن هشام .

(٢) ط : ينكحوا .

(٣) ت : ويخامر وهو خطأ . وخبر ويحابر من قبائل اليمن .

(٤) قصركم : نهايتكم وغايتكم .

قال ابن هشام [هذا ما صح له منها]^(١) وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب ، وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن ولم يُسم لها^(٢) قائلها .

[ولاية خزاعة البيت]

ثم إن غُبُشان من خُزاعة وليت البيت دون بني بكر بن عبد مَنَاة .

وغُبُشان لقب ، واسمه الحارث ، وخزاعة يقال إنهم من ولد قَمَعة بن ألياس ابن مُضَر ، وأن أباهم عمرو بن لُحَيّ هو عمرو بن لُحَيّ بن قَمَعة [بن خِنْدَف^(٣)] وخزاعة يَأبُون هذا النَسَب ، ويقولون إنهم من ولد كعب بن عمرو بن ربيعة ابن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن غَسَّان .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُرِيتُ عمرو بن لُحَيّ بن قَمَعة بن خِنْدَف يَجْرُ قُصْبِهِ^(٤) في النار ، فسألته عن بَيْتِي وبينه من الأمم ، فقال : هلكوا » .

فَقِيلَ لَهُ : وَمَنْ عمرو بن لُحَيّ ؟ قال : أبو هؤلاء لُحَيّ من خُزاعة ، وهو أول مَنْ غَيَّرَ الحَبِيبِيَّةَ دِينَ إبراهيم ، وأول من نَصَبَ الأوثان حول الكعبة^(٥) .

فإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا ، فرسول الله أعلم وما قال فهو الحق .

(١) من ابن هشام .

(٢) ابن هشام : لى .

(٣) من ت ط .

(٤) القصب : الأمعاء .

(٥) الذى رواه البخارى الى قوله : « هلكوا » .

وقصىٰ فطيم ، فقدم مكة بعد مهلك كلاب حاجًّا من قضاة فيهم ربيعة بن حرام بن ضئمة بن عبد كبير بن عذرة ، فتزوج فاطمة بنت سمد فاحتلمها إلى بلاده ، فاحتلمت ابنها قصبيا لصيفه ، وأقام زهرة في قومه .

فولدت فاطمة لربيعة رزاحا ، فكان أخا قصى لأمه ، وكان لربيعة بنون ثلاثة من امرأة أخرى ، وهم حنٌّ ومحمود وجلممة ، بنو ربيعة .

وأقام قصى بأرض قضاة لا ينسب إلا إلى ربيعة بن حرام .

فناضل يوما رجلا من قضاة يدعى رفيما ، ففضله قصى ، وهو يومئذ شاب ، فضرب المنضول ، فوقع بينهما حتى تقاولا وتنازعا ، فقال رفيع : ألا تلحق ببلدك وبقومك ، فإنك لست مدا

فرجع قصى إلى أمه ، وقد وجد في نفسه مما قال ، فسألها عن ذلك فقالت : أو قد قال هذا ؟ أنت والله يا بُنيَّ أكرم منه نفسا ووالداً ونسباً وأشرف منزلا ، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي ، وقومك بمكة عند البيت الحرام وفيما حوله ، تفدُّ العرب إلى ذلك البيت ، وقد قالت لى كاهنة رأتك : هذا يلي أمرا جليلا ، فطب نفسا .

فأجمع قصى الخروج إلى قومه واللاحق بهم ، وكره الغربية بأرض قضاة ، وضاق ذرعا بالمقام فيهم ، فقالت له أمه : لا تمجّل حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاج العرب ، فإنى أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس .

فأقام قصى حتى إذا دخل الشهر الحرام وخرج حاجًّا قضاة خرج معهم ،

وهم يظنون أنه إنما يريد الحج ثم يرجع إلى بلاده ، حتى قدم مكة ، فلما فرغ من الحج أقام بها ، وعالجه القضاة على الخروج معهم فأبى .

وكان رجلاً جليلاً نهداً نسيبياً ، فلم ينشب أن خطب إلى حُليل بن حُبشية ابنته حُبي ، فعرف حُليل النسبَ ورغب في الرجل فزوجه ، وحُليل يومئذ يلي أمر مكة والحكم فيها وحجابه البيت .

فأقام قصى معه بمكة ، وولدت له حُبي بنيه عبدَ الدار وعبدَ مناف وعبدَ العزى وعبدًا .

فلما انتشر ولدُ قصى وكثر ماله وعظم شرفه هلك حُليل ، فرأى قصى أنه أنه أولى بالسكينة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر ، وأن قريشا قرعة^(١) إسماعيل ابن إبراهيم عليها السلام وصريحُ ولده .

فكلم رجلاً من قريش وبني كنانة ، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة ، فأجابوه إلى ذلك ، فسكتب عند ذلك قصى إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة ، يدعوهم إلى نُصرتهم والقيام معه ، فخرج رزاح ومعه إخوته لأبيه ، حُنٌّ ومحمود وجُلهممة ، فيمن تبعهم من قضاة في حاج العرب ، وهم يُجمعون لنصر قصى والقيام معه .

فلما اجتمع الناس بمكة وفرغوا من الحج ولم يبق إلا أن يصدر الناس ، كان أول ما تعرض له قصى من المناسك أمرُ الإجازة للناس بالحج .

(١) القرعة : النخبة والخيار

[صوفة تميز للناس بالحجج]

وكان صوفة هي التي تلى ذلك مع الدفع بهم من عرفة ورعى الجمار ، وهم
ولد الفوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر .

والفوث هو أول من ولي ذلك منهم .

وذلك أن أمه كانت امرأة من جرهم ، وكانت لا تلد ، فنذرت لله إن هي ولدت
ولداً أن تصدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت الفوث
فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم ، فولي
الإجازة بالناس من عرفة لمكانه الذي كان به من الكعبة ، وولده من بعده
حتى انقرضوا .

فقال مر بن أد أبو الفوث^(١) لوفاء نذر أمه :

إني جعلت رب من بيديه ربيطة بمكة العمليّة
فباركن لي بها آية^(٢) واجعله لي من صالح البرية

وكان الفوث بن مر ، زعموا ، إذا دفع بالناس قال :

لاهم إني تابع تباعه إن كان إثم فقل قضاعه

وذلك أن قضاة كان منهم أحياء يستحلون الحرمة في الجاهلية ، فكانت
صوفة تدفع بالناس من عرفة ، وتميز^(٣) بهم إذا نفروا من منى ، فإذا^(٤) كان يوم النفر
أتوا لرى الجمار ، ورجل من صوفة يرمى للناس ، لا يرمون حتى يرمى ، فكان

(١) غريب : ابن الفوث .

(٢) الآية : القسم . ويريد بها هنا النذر .

(٣) الأصول : وتميز . وما أتبعه عن ابن هشام . (٤) ط : إذا

ذوو الحاجات التمتعجون يأتونه فيقولون له : قم فإزم حتى نرمى معك . فية قول : لا والله حتى تميل الشمس . فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التمتعيل يرمونه بالحجارة ويستمتعجلونه بذلك ، ويقولون له : ويلك قم فإزم بدأ^(١) . فيأبى عليهم ، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورعى الناس معه .

فإذا فرغوا من رمى الحجار وأرادوا التفر من منى أخذت صوفة بجانب العقبة فخبسوا الناس وقالوا : أحيزي صوفة . فلم يجز أحد من الناس حتى يمشوا ، فإذا نفذت صوفة ومضت خلى سبيل الناس فانطلقوا بعدهم ، فكانوا كذلك حتى انقرضوا .

فورثهم ذلك من بعدهم بالقمعد^(٢) بنو سعد بن زيد مناة بن تميم ، وكانت من بنى سعد في آل صفوان بن الحارث بن شجعة بن عطارد بن عوف بن كعب ابن سعد .

فكان صفوان هو الذى يجيز للناس بالحج من عرفة ، ثم بنوه من بعده ، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام كريب بن صفوان .

وفى ذلك يقول ابن مضاء السعدي :

لا يبرح الناس ما حججوا ممرهم حتى يقال أحيزوا آل صفوانا

فأما قول ذى الإصبع العدواني ، واسمه حُرثان بن عمرو ، وقيل له ذو الإصبع الحية لذعته فى إصبعه فقطعها :

عذير الحى من عدوا ن كانوا حية الأرض

(١) ليست فى ابن هشام .

(٢) أى بقرب النسب . قال الزمخشري : ورثته بالقمعد : صفة للنسب .

بَعَى بَعْضُهُمْ ظُلْمًا فَلَمْ يُرْعَ عَلَى بَعْضٍ (١)
وَمِنْهُمْ كَانَتْ السَّادَاتُ وَالْمُؤَفُّونَ بِالْقَرْضِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُ النَّاسَ بِالسُّنَّةِ وَالْقَرْضِ
وَمِنْهُمْ حَكَمٌ يَقْضِي فَلَا يُنْقِضُ مَا يَقْضِي

فإنما قال ذلك لأن الإفاضة من المزدلفة كانت في عدوان ، وهو عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان ، يقوارثون ذلك كإبراهيم بن كابر ، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام أبو سيارة حميلة بن الأعزل .

قال حويطب بن عبد العزيمى : رأيت أبا سيارة يدفع بالناس من جمع على أنان له عتوق (٢) . وذكروا أنه أجاز عليها أربعين سنة .

قالوا : وكان إذا وقف للناس قال : اتقوا الله ربكم ، وأصلحوا أموالكم ، واحفظوا جيرانكم ، وقتلوا أعداءكم ، اللهم حبب بين نساءنا ، وبعض بين ربائنا ، واجعل أمر الناس بأيدي صلحائنا . ثم يقول : أفيضوا على بركة الله .

وفيه يقول شاعر من العرب :

نحن دفعنا عن أبي سياره وعن مواليه بنى فزاره
حتى أجاز سالما حماره مستقبل القبلة يدعو جاره

قوله : « حَكَمٌ يَقْضِي » يعنى عامر بن ظرب المدوانى ، وكانت العرب لا يكون بينها نائرة (٣) ولا عضلة فى قضاء إلا أسندوا ذلك إليه ثم رضوا بما قضى فيه .

(١) أرعيت عليه : أبيت وترجمته .

(٢) العتوق كعبور : الحامل أو المائل ، ضد ، أو هو على التفاضل .

(٣) النائرة : العداوة والشحناء .

فاختصم إليه ، في بعض ما كانوا يختلفون فيه ، في رجل خُنثى له ما للرجل وله ما للمرأة ، أيجعله رجلاً أو امرأة ؟ ولم يأتوه بأمرٍ كان أعضل .

فقال : حتى أنظرَ في أمرِك ، فوالله ما نزل بي مثلُ هذه منكم يا معشر العرب .

فاستأخروا عنه ، فبات ليلته ساهراً يقلب أمره وينظر في شأنه فلا يتوجه له منه وجه ، وكانت له جارية يقال لها سُخَيْلَة ترعى عليه غنمه ، فسكان يعاتبها إذا سَرَحت فيقول : صَبَّحتِ والله يا سُخَيْل . وإذا راحت عليه يقول ^(١) مَسَّيتِ والله يا سُخَيْل . وذلك أنها كانت تؤخر السرح حتى يسبقها بعض الناس ، وتؤخر الإراحة حتى يسبقها بعض الناس .

فلما رأت سهره وقلة قراره على فراشه قالت : مالك لا أبالك ا ما عراك في ليلتك هذه ؟ ا قال : ويلك دَهِينِي ، أمرٌ ليس من شأنك . ثم عادت له بمثل قولها ، فقال في نفسه : عسى أن تأتي مما أنا فيه بفرَج . فقال : ويحك ، اختصم إلى في ميراث خُنثى ، أاجعله رجلاً أو امرأة ؟ فوالله ما أدري ما أصنع وما يتوجه لي فيه وجه .

فقالت : سبحان الله ا لا أبالك ا أتبيع ^(٢) القضاء آباءل ، أقمِده ، فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل ، وإن بال من حيث تبول المرأة فهو امرأة .

فقال : مَسَّي سُخَيْل بملها أو صَبَّحتي ، فرَجَّتها والله .

ثم خرج على الناس حين أصبح ، فقضى بالذي أشارت عليه .

(١) ا ب : قال

(٢) ت : وجه .

[عَوْدٌ إِلَى قِصَى]

وهذا كله من الخبر معترض قطع اتصال حديث صُوفَةَ وقُصَى ، فنرجع الآن إليه ونصله بموضع انقطاعه .

حيث ذكر أن صوفة هي التي كانت تلى الإجازة للناس من مَنَى والدفع بهم من عرفة ، وأن قُصَيًّا عنزم على انتزاع ذلك من أيديهم والقيام به دونهم ، واستدعى لمظاهرة على ذلك أخاه رِزَاحًا فوصله مع مَنْ ذَكَرَ وصولهم معه .

فلما كان ذلك العام فعلت صُوفَةَ مثلَ ما كانت تفعل ، قد عرفت ذلك لها العرب ، وهو دين في أنفسهم من ^(١) عهد جُرهم وخزاعة .

فأتاهم قُصَى بن معه من قومه من قريش وكِنانة وقضاعة عند العقبة ، فقال : لنحن أولى بهذا الأمر منكم .

فقاتلوه ، فاقْتَبَلَ الناسُ قتالا شديداً ، ثم انهزمت صُوفَةَ وغلبهم قُصَى على ما كان بأيديهم من ذلك .

وانحازت عند ذلك خُزاعة وبدو بكر عن قُصَى ، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صوفة ، وأنه سيحول بينهم وبين السكبية وأمر مكة ، فلما انحازوا عنه بادأهم وأجمع لحربهم ، وخرجت له خزاعة وبدو بكر فالتقوا ، فقاتلوا قتالا شديداً بالأبطح ، حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً ، وفشت الجراح فيهم وأكثر ذلك في خزاعة .

ثم إنهم تداخوا إلى الصلح وإلى أن يحكموا بينهم رجلا من العرب ، فحسبوا يعمُر بن عوف بن كعب بن عامر بن ايث بن بكر بن عبد مناة بن كِنانة بن قُصَى .

(١) ابن هشام : و

فَقَضَى بَيْنَهُمْ أَنْ قُضِيَ أَوْلَى بِالسَّكْبَةِ وَأَمْرٌ مَكَّةَ مِنْ خُزَاعَةَ ، وَأَنْ كُلَّ دَمٍ
أَصَابَهُ قِصَى مِنْ خُزَاعَةَ وَبَنِي بَكْرِ مَوْضِعٍ يَشْدَخُهُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، وَأَنْ مَا أَصَابَتْ
خُزَاعَةُ وَبَنُو بَكْرِ مِنْ قَرِيشٍ وَكِدَانَةَ وَقِضَاعَةَ فَفِيهِ الدِّيةُ مَوْدَاةً ، وَأَنْ يَحُلِّيَ بَيْنَ
قِصَىِّ وَبَيْنَ السَّكْبَةِ وَمَكَّةَ .

فَسُمِّيَ يَعْمَرُ بْنُ عَوْفٍ يَوْمَئِذٍ الشَّدَاخَ ، لِمَا شَدَخَ مِنَ الدَّمَاءِ وَوَضِعَ مِنْهَا ،
وَيُقَالُ الشَّدَاخُ^(١) أَيْضًا .

فَوَلِيَ قِصَىَّ الْبَيْتَ وَأَمَرَ مَكَّةَ ، وَجَمَعَ قَوْمَهُ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَى مَكَّةَ ، وَتَمَلَّكَ عَلَى
قَوْمِهِ وَأَهْلَ مَكَّةَ فَلَمَّكَوهُ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ أَقْرَبَ لِلْعَرَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ
يَرَاهُ دِينًا فِي نَفْسِهِ لَا يَذْبُقُ تَغْيِيرَهُ .

فَأَقْرَبَ آلَ صَفْوَانَ وَعَدَوَانَ وَالنِّسَاءَ وَمُرَّةَ بْنَ عَوْفٍ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ .
حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامَ فَهَدَمَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ كُلَّهُ .

[النِّسَاءُ]

وَبَنُو مُرَّةَ بْنِ عَوْفٍ هُمْ أَهْلُ الْبَسَلِ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ^(٢) .
وَأَمَّا النِّسَاءُ فَهُمْ بَنُو قُفَيْمِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَامِرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ
كِدَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ أَلْيَاسِ بْنِ مُضَرَ .

(١) ضبطه في القاموس بالضم . قال السهيلي : والشداخ بضمها - أي الشين - إنما هو
جهم ، وجائز أن يسمى هو وبنوه بالشداخ ، كما يقال : المناذرة في المنذر وبنيه ، والأشمر
في بني الأشعر .

(٢) تقدم ذلك ص ٢٩

وهم الذين كانوا يَنْسَأونَ الشهورَ على العرب في الجاهلية ، فيُحِلُّونَ الشهرَ من أشهرِ الحُرْمِ ويحُرِّمُون مَكَانَهُ الشَّهْرَ من أشهرِ الحِلِّ ويؤخرون ذلك الشهر ، ففيه أنزل الله سبحانه : « إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ، يُحِلُّونَهُ عَمَّا وُحِّمَ لَهُ وَيُحَرِّمُونَهُ عَمَّا جُزِّمَ لَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » (١) .

وكان أول مَنْ نَسَأَ الشهورَ منهم على العرب ، فأحلت منها ما أحلَّ وحرمت منها ما حرَّم : القَلَسُ ، وهو حذيفة بن عبد بن قُتَيْمِ بْنِ عَدِيٍّ ، وتوارث ذلك بنوه مِنْ بَعْدِهِ ، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام أبو ثَمَامَةَ جُنَادَةَ بْنِ عَوْفِ بْنِ أُمِيَّةِ بْنِ قَلْعِ بْنِ عَبَّادِ بْنِ حَذِيْفَةَ ، وهو القَلَسُ .

قال الزبير : وكان أُنْسَدَمُ ذِكْرًا وَأَطُولَهُمُ أَمْرًا ، يقال إنه نَسَأَ أربعين سنة .

وكانت العرب إذا فرغت من حَجِّهَا اجتمعت إليه ، فحرَّم الأربعة الأربعة : رجب ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، والحرم . فإذا أراد أن يُحِلَّ منها شيئًا أحلَّ الحرم فأحلَّوه ، وحرَّم مكانه صَفْرًا فحرَّموه ، ليواطئوا عِدَّةَ الأربعة الأشهر الحرم .

فإذا أرادوا الصَّدْرَ (٢) قام فيهم فقال : اللهم إني قد أحللتُ أحدَ الصَّغْرَيْنِ ، الصَّغْرَ الأول ، ونَسَأْتُ الآخرَ للعام المقبل .

وفي ذلك يقول حميد بن قيس ، جَذَلُ الطَّعْمَانِ ، أحد بني فِرَاسِ بْنِ عَنَمِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ ، يفتخر بالنسأة على العرب :

(١) سورة التوبة ٣٧ .

(٢) أي الرجوع من مكة .

لقد علمت ممدًا أن قومي
 كرامُ الناس إن لهم كرامًا
 فأى الناس فاتونا بوثرٍ
 وأى الناس لم نُفعلك ليجامًا
 أسنا الناسين على ممدًا
 شهورَ الخيل نجعلها حرّامًا

فهذا كان شأن النساء في الجاهلية ، فأقره قصي على ما كان عليه ، مع سائر ما ذكر إقراره العرب عليه .
 حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله .

فكان قصي أولَ بني كعب بن لؤي أصاب مُذْكَا أطاع له به قومه ،
 فكانت إليه الحجابة والسقاية ، والرّفاذة ، والنذوة ، واللواء . فحاز شرف مكة
 كله ، وقطع مكة رباعا بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة
 التي أصبحوا عليها .

ويزعم الناس أن قريشا هابوا قطعَ الشجر من الحرم في منازلهم ، فقطعها
 قصي بيده وأعوانه .

فسمته قريش مجمعا ، لِمَا جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره ، فما تُنكح
 امرأة ولا يزوّج رجل من قريش ، ولا يشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون
 لواء الحرب قوم غيرهم إلا في داره ، يمقده لهم بعضُ ولده ، ولا يُعذر^(١) غلامٌ إلا في
 داره ، ولا تدّرع جارية من قريش إلا في داره ، يُشقى عليها فيها درعها إذا
 بلغت ذلك ، ثم تدّرعه ثم يُطلق بها إلى أهلها .

(١) يعذر : يحنن

ولا تخرج غير من قريش فيرحلون إلا من داره ، ولا يقدّمون إلا نزلوا
في داره .

فكان أمره في قريش في حياته ومن بعد موته كالذين المتتبع ،
لا يعمل بغيره .

وأخذ لنفسه دارَ الدوة ، وجعل بابها إلى مسجد السكبة ، ففيها كانت قريش
تقضى أمورها .

ولما فرغ قصى من حربه انصرف أخوه رزاح إلى بلاده بمن معه من
قومه ، فلما استقر في بلاده نشره الله ونشر حنّاً ، فهما قبيلاً عُذرة اليوم .

فهذا حديث قصى في ولاية البيت بعد حليل بن حبشية وإخراج خزاعة عنه .
وخزاعة تزعم أن حليلاً أوصى بذلك قصياً وأمره به حين انتشر له من ابنته
من الولد ما انتشر ، وقال : أنت أولى بالسكبة وبالقيام عليها وبأمر مكة . من
خزاعة فعند ذلك طلب قصى ما طلب

قال ابن اسحاق : ولم يُسمع ذلك من غيرهم . قاله أعلم .

وقد ذكر الواقدي الأمرين على نحو ما ذكر ابن إسحاق .

قال : وقد سمعنا في ذلك وجهاً آخر ، ذكر أن أبا عُبْشَانَ رجلاً من خزاعة ،
كان وليّ السكبة فباع حجابتها من قصى بن كلاب بيمماً . وذكر غيره أنه باع
منه مفتاح السكبة بزق خمر . فلذلك قيل : أَخْبَرُ صَفْقَةَ من أبي عُبْشَانَ .

وذكر الواقدي أيضاً بإسناد له ، أن رجلاً من قضاة يقال له أبو الشموس

حدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو خليفة حديث قصى بن كلاب ، وكيف استمان بإخوته على خزاعة ، فاستمع له عمر وتعجب لأول الحديث وقال : ذكركم تنأأ أمرا كان دثر منا ، فالحد لله رب العالمين ، إن الله عز وجل ليصنع لهذا الحى من قريش ، وهم أولى الناس أن يتقوا الله وتحسن سيرة من ولى منهم ، يصنع الله لهم ، جعل فيهم الإمامة وقبيل ذلك النبوة .

[عبد الدار]

قالوا : فلما كبر قصى ورقى ، وكان عبد الدار بكره ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وعبد العزى وعبد ، قال قصى لعبد الدار : أما والله يا بئى لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك .

لا يدخل رجل منهم السكبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يمتد قريش لواء إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الحرم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا فى دارك .

فأعطاه دار الندوة التى لا تقضى قريش أمرا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة .

وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها إلى قصى بن كلاب ، فيصنع به طعاما للحاج فياأكله من لم يكن له سعة ولا زاد .

وذلك أن قصىا فرضاها على قريش ، فقال لهم [حين أمرهم به]^(١) يا معشر

(١) من ابن مشام .

قریش ، إنکم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيفُ الله وزوار بيته ، وهم أحقُّ الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم .

ففعلوا ، فكانوا يُخرجون لذلك كلَّ عام من أموالهم خراجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاما للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام ، ثم جرى في الإسلام إلى يومنا^(١) هذا ، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضى الحج .

فرضى أمر قصى^٢ في عهد الدار ابنه ، وجعل إليه كلَّ ما كان بيده من أمر قومه ، وكان قصى لا يُخالف ولا يُرَدُّ عليه شيء يصنعه .

[وفاة قصى]

ثم إن قصيا هلك ، فأقام أمره في قومه [وفي غيرهم]^(٢) بنوه من بعده . فاخذطوا مكة رباعا بعد الذي كان قصى^٣ قطع لقومه بها ، فكانوا يقطعونها في قومهم وفي غيرهم من حلفائهم ويبيعونها .

فأقامت قريش على ذلك معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع .

[بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار]

ثم إن بنى عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشما والمطلب ونوفل أجمعوا أن يأخذوا ما في يد بنى عبد الدار [بن قصى]^(٣) مما كان قصى جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم ، ففرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة منهم مع بنى

(١) ابن هشام : يومك .

(٢ ، ٣) ابن هشام .

عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار لمكانهم في^(١)
قومهم ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار يرون أن لا يُنزع منهم ما كان قصى
جعل إليهم .

فكان صاحب أمر بنى عبد مناف عبد شمس بن عبد مناف . وذلك أنه
كان أسنهم .

وكان صاحب أمر بنى عبد الدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن
عبد الدار .

وكانت^(٢) بنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو
تيم بن مرة بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر . مع بنى عبد مناف .

وكان بنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو ستم بن عمرو بن هصيص بن كعب
و بنو جهم بن عمرو بن هصيص ، وبنو قدي بن كعب ، مع بنى عبد الدار .

وخرجت عامر بن لؤى ومحارب بن فهر ، فلم يكونوا مع واحد من الفريقين .

فمعد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يُسلم بعضهم بعضاً
ما بل بحر صوفة^(٣) .

فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند
الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتماقدوا [وتماهدوا]^(٤) ثم وحلفواؤهم ، ثم
مسحوا الكعبة بأيديهم . تؤكدوا على أنفسهم ، فسئوا المطيبين .

(١) غيرط : من .

(٢) ابن هشام : فكان .

(٣) أى إلى الأبد .

(٤) من ابن هشام .

وتعاقد بنو عبد الدار [وتماهدوا هم]^(١) وحلفاؤهم عند الكعبة حائفاً ، وكذا على أن لا يتخاذلوا ولا يُسلم بعضهم بعضاً ، فسئموا الأحلاف .

ثم سُوِّد بين القبائل ولزَّ بعضها ببعض ، فُعِبَّتْ^(٢) عبد مناف ابني سهم ، وُعِبَّتْ بنو أسد لبني عبد الدار ، وُعِبَّتْ زهرة لبني جُحج ، وُعِبَّتْ تيم لبني مخزوم ، وُعِبَّتْ بدو الحارث بن فهر لبني عدى ، ثم قالوا : لَتَمُنَّ^(٣) كل قبيلة من أسند إليها .

فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السُّقْيَةَ والرِّفَادَةَ ، وأن تكون الحجابة واللاواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت ، ففعلوا ، ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوا ، حتى جاء الله بالإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان من حالف في الجاهلية فإن الإسلام لم يَزِدْهُ إلا شدة »^(٤) .

فهذا حلف المطَّيِّبين

(١) من ابن هشام .

(٢) سوند : أى قوبل . ولز : شد بعضها بعض . وعبثت : أعدت وجهزت

(٣) ابن هشام : لتفن .

(٤) أى : أحلاف البر والخير ، مثل حلف الفصول الذى قال عنه الرسول : « ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت » وبداهة لا يدخل فيه أحلاف العصبية والبغى ، ولعل الرسول أراد هذا النوع في قوله : « لا حلف في الإسلام »

قال ابن الأنبر : « أصل الحلف المعاينة والمعاينة على التعاضد والتساعد والاتفاق ، لما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات فذلك الذى ورد النهى عنه في الإسلام بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا حلف في الإسلام » ، وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام ، كحلف المطَّيِّبين وما جرى مجراه ، فذلك الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأيما حلف كان في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا شدة » يريد من المعاينة على الخير ونصرة الحق . وبذلك يجتمع الحديثان « انظر لسان العرب ١٠ / ٣٩٩

[حلف الفضول]

وقد كان في قريش حلف آخر بعهده ، وهو حلف الفضول ، تداعت إليه قبائل من قريش ، فاجتمعوا إليه في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تميم بن مرة ، لشرفه وسيدته ، فتماقدوا وتماهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى تُردَّ عليه مظلومه ، فسُمِّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول .

واختلاف في السبب الذي دعا قريشا إلى هذا الحلف ، ولم يسمي^(١) بهذا الاسم .

فأما ما دعاهم إليه ، فذكر الزبير وغيره أن رجلا من أهل اليمن من بني زبيد قدم مكة مُتعمراً ومعه بضاعة له ، فاشتراها رجل من بني ستم ، ويقال : إنه العاص بن وائل ، فلوى^(٢) الرجل بحقه ، فسأله ماله فأبى عليه ، وسأله متاعه فأبى عليه ، فجاء إلى بني ستم يستمد بهم عليه ، فأغلظوا له ، فعرف أن لا سبيل إلى ماله ، فطوف في قبائل قريش يستعين بهم ، فتخاذلت القبائل عنه ، فلما رأى ذلك قام على الحجر ، ويقال : بل أشرف على أبي قبيس حين أخذت قريش مجالسها ثم نادى بأعلى صوته ثم قال :

يا آل فهرٍ لِمَ ظَلُمَ بِضَاعَتَهُ بِيَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ
وَأَشْعَثِ مُحْرِمٍ لِمَ يَقْضِ حُرْمَتَهُ بَيْنَ الإِلهِ وَبَيْنَ الحِجْرِ والحِجْرِ
أَقَامُ مِنْ بَنِي سَتَمٍ بِذَمَّتِهِمْ أَمْ ذَاهِبٌ فِي ضَلَالِ مالٍ مُتَمَرِّمٍ

(١) ت : يسمي .

(٢) لواه دينه : مطله .

فلما سمعت ذلك قريش أعظموه وتكلموا فيه ، فقال المطيبون : والله ائمن
قدنا في هذا لتتقضين الأحلاف ، وقال الأحلاف : والله ائمن تكلمنا في هذا
ليعضين المطيبون . فقال ناس من قريش : تعالوا فلنكن حلفاء فضولاً دون
المطيبين ودون الأحلاف .

فلذلك قيل له حلف الفضول .

فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان ، وصنع لهم طعاماً كثيراً ، وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ معهم قبل أن يوحى إليه ، فاجتمعت
بدوهاشم وبنو المطلب وزهرة وأسد وتيم ، فتحالفوا على أن لا يُظلم بمكة
قريب ولا غريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه ، حتى يأخذوا له بحقه
ويردوا إليه مظالمه من أنفسهم ومن غيرهم ، ثم عمدوا إلى ماء من ماء زمزم
فجعلوه في جفنة ، ثم بعثوا به إلى البيت ففسلت فيه أركانه ، ثم أتوا به
فشربوه ، ثم انطلقوا إلى الرجل الذي تعدى على الرجل المستعصرخ ، العاص
ابن وائل أو غيره ، فقالوا : والله لا نفارقك حتى تؤدّي إليه حقه .

فأعطى الرجل حقه ، فكثروا كذلك لا يُظلم أحد حقه بمكة إلا أخذوه له .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان
حلفاً ما أحب أن لي به حمر البعير ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت » .

وحكى الزبير أيضاً أنه إنما سُمي حلف الفضول لأهم تحالفوا على أن لا يتركوا
لأحد عند أحد فضلاً إلا أخذوه .

وقيل : إنما سُمي بذلك لأنه لما تداعى له من ذكر قبائل قريش كره
ذلك سائر المطيبين والأحلاف بأشهرهم ، وسَمَّوه حلف الفضول ، عقيباً له ،
وقالوا : هذا من فضول القوم .

وقيل : بل كان هذا الحلفُ على مثلِ حلفِ تقدمٍ إليه نفرٌ من جرهم
يقال لهم : الفضلُ وفضالُ والفضيلُ^(٢) ، فسمي لذلك هذا الآخرُ حلفَ الفضولِ .

وأياً ما كان من ذلك ، فهي مأثرةٌ لقريش من مآثرها الكرام ، وآثارها
العظام ، نالتهم فيه بركةُ حضورِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فهو وإن كان
فِعلاً جاهلياً دعتهُم السياسةُ إليه ، فقد صار لحضورِ رسولِ الله صلى الله
عليه وسلم له وما قاله بعد النبوة فيه وأكده من أمره ، حُكماً شرعياً
وفِعلاً نبوياً .

وقد نشأ بين حسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما وبين الوليد بن
عُتْبة بن أبي سفیان زمن معاوية ، والوليدُ يومئذُ أميرُ المدينة من قبله ، منازعةٌ
في مال كان بينهما بذي المروة^(١) ، فكان الوليدُ تحامل على حسين في حقه
لسلطانه ، فقال له حسين : أحلفُ بالله لئن نصفتني من حقي أو لآخذن سيفي
ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون بحلف الفضول .

فقال عهد الله بن الزبير وهو عند الوليد : وأنا أحلف بالله أن دعا به لآخذن
سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً .

وبلغت المسور بن مخرمة الزهري فقال مثل ذلك .

وبلغت عهد الرحمن بن عثمان بن عبید الله التيمي فقال مثل ذلك .

فلما بلغ ذلك الوليد أنصف الحسين في حقه حتى رضى .

ولم تكن بنو عهد شمس دخلت في هذا الحلف .

(١) ذو المروة : قرية بوادي القرى .

(٢) في الروض الأنب : الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، وفضيل بن الحارث .

وقد سأل عهدُ الملك بن مهران عن ذلك محمد بن جبير بن مُطعم إذ قديم عليه حين قُتل ابنُ الزبير ، واجتمع الناس على عهد الملك بن مروان ، وكان محمد بن جبير أعمَ قریش ، فلما دخل عليه قال : يا أبا سعيد ، ألم نكن نحن وأنتم ، يعنى بنى عهد شمس وبنى نوفل ابْنَيْ عهد مناف ، فى حاف الفضول ؟ قال : أنت أعم . قال عهد الملك : لتخبرنى يا أبا سعيد بالحق من ذلك . فقال : لا والله ، لقد خرجنا منه نحن وأنتم . قال : صدقت .

فكان عُثبة بن ربيعة بن عهد شمس يقول : لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عهد شمس ، حتى أدخل فى حاف الفضول .

[العرب فى جاهليتهم]

وكانت قریش أحلام عظام ، كانوا منها فى جاهليتهم على مثل السلطان الضابط ، عناية من الله بهم ومنا منه سبحانه عليهم ، هم سكان الحرم ، وأهل الله وحجاب بيته ، وأهل السقاية والرئاسة واللواء والندوة ومكارم مكة ، وكانوا على إرث من دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما ، من قرى الضيف ويرفد الحاج وتمظيم الحرم ومنعه من البنى فيه والإلحاد ، وقمع الظالم ومنع المظلوم .

إلا أنه دخلت على أرايتهم أحداثٌ غيرت أصولَ الحنيفية عندهم وطال الزمان حتى أفضى ذلك بهم إلى جهالات بشرائع الدين وضلالات عن سنن التوحيد ، فتدارك الله ذلك كله بنبيه صلى الله عليه وسلم ، فمذى من الضلالة وعلم من الجهالة .

[عمرو بن لحي]

فيقال : إنه كان أول من غير الحنيفية دين إبراهيم ونصّب الأوثان حول الكعبة ودعا إلى عبادتها : عمرو بن لحي بن قعدة بن إلياس بن مضر .

روى أبو هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجؤن الخزاعي : « يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحي بن قعدة بن خندف يجره قصبته في النار ، فما رأيت رجلا أشبهه برجل منك به ولا بك منه » .

فقال أكثم : عسى أن يضرنى بشبهه يا نبي الله ^(١) ، قال : « لا ، لأنك ^(٢) مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غير دين إسماعيل ، فنصّب الأوثان وبجر البهيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحى الحامي » .

فالبهيرة عند العرب الناقة تشق أذننها ولا يركب ظهرها ولا يجزّ وبراها ولا يشرب لبنها إلا ضيف ، أرى تصدق به ، وتهمل لأهنتهم .

والسائبة : التي يئذر الرجل إن برى من مرضه أو أصاب أمرا يطلبه أن يسئبها ترعى لا ينتفع بها .

والوصيلة : التي تلد أمها اثنين في كل بطن ، فيجعل صاحبها لأهنته الإناث منها ولنفسه الذكور ، فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن فيقولون : وصات أخاها ، فيسبب أخوها معها فلا ينتفع به .

والحامي : الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حتى

(١) ابن هشام : شبهه يا رسول الله

(٢) ابن هشام : لأنك .

ظهوره ، فلم يُركب ولم يجزَّ وَبَرَه وَخَلَّى فِي إِبْله يَضْرِب فِيهَا ، لا يَنْتَفِع مِنْهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ .

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه : « مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكُذْبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » (١) .

وذكر بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَيَّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قديم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم من ولد عَمَلِاق ، ويقال عَمَلِيق بن لَأَوْد بن سام بن نوح ، رأهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها وَنَسْتَعْمُرُهَا فَتَعْمُرُنَا وَنَسْتَنْصُرُهَا فَتَنْصُرُنَا .

فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنما فأسيرَ به إلى أرض العرب فيعبدوه (٢) ؟

فأعطوه صنما يقال له « هُبَل » فقديم به مكة ، فنصّبته وأمر الناس بعبادته وتمظيمه .

[بداية الوثنية]

قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسيح (٣) في البلاد ، إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطافوا بهم بالسكبية .

(١) سورة المائدة ١٠٣ .

(٢) الأصل : فيعبدونه .

(٣) ابن هشام : الفسح .

حتى نسلخ ذلك بهم^(١) إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوه من الحجارة ،
[وأهجمهم]^(٢) حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين
إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم
من الضلالات .

وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت
والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهذى البذن والإهلال
بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك
لك ، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك » .

فيوحّدونه بالتأبية ، ثم يدخلون منه أصنامهم ، ويحملون ملكها بيدها

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وما يؤمن أكثرهم
بالله إلا وهم مُشركون »^(٣) ، أي ما يوحّدونني بمعرفة^(٤) حتى إلا جملوا معي
شريكا من خلقي .

وقد كانت لقوم نوح أصنام عكفوا عليها ، قصّ الله تبارك وتعالى خبرها
على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وقالوا : لا تذرُنْ آلمتكم ولا تذرُنْ ودا
ولا سواعا ، ولا يفتوث وَيُفوقَ ونسراً ، وقد أضلوا كثيراً »^(٥) .

(١) أي أدى بهم .

(٢) من ابن هشام .

(٣) سورة يوسف .

(٤) ابن هشام : لمعرفة ، وما هنا أوضح .

(٥) سورة نوح ٢٣ ، ٢٤ .

وذكر الواقدي بإسناد له عن أبي هريرة أن أول ما عُبدت الأصنام في زمن نوح عليه السلام ، وأن وَدًا وسُوَاعًا وَيَعُوثَ وَيَهُوقَ ونَسْرًا كانوا رجالا صالحين من قوم نوح ، أهل عبادة وفضل ، فاتوا فوجدَ عليهم أهلهم وتوحَّش^(١) الناس لقدمهم ، فقال لهم رجل : ألا أصوِّرهم لكم صوراً من خشب فتتظرون إليهم وتَسْكُنون إلى رؤيتهم ؟ قالوا : بلى إن قدرت ، قال : أنا أقدر على تصويرهم ، ولا أقدر أن أنفخ الريح فيهم .

فجاء بالصوِّر كهيئةهم أحياء ، فأخذ أهل كل بيت صورة صاحبهم فوضعوها في منزلهم ينظرون إليها ، فأذهب ذلك بعض حزنهم .

فكانوا على ذلك ما شاء الله ، حتى هلك ذلك القرن ، ثم خلف قرن آخر ثم ثالث بعده ، فكانوا على ما كان عليه القرن الأول حتى هلكوا .

ثم خلف القرن الرابع ، فقالوا : لو أننا عبدنا هؤلاء لقرَّبونا إلى الله وشفعوا لنا عنده ، ولا يزيدوننا إلا خيراً إنما نريد ما يقربنا منه ، فعبدوها حتى هلكوا ، وعبدها من بعدهم .

فلما غرقت الأرض زمن نوح عليه السلام غرقت تلك الأصنام ، فكثرت ما شاء الله أن تمسك ، ثم استخرجها عمرو بن لُحَيّ ففرَّقها في القبائل . فالحمد لله تعالى أعلم .

وقد خرَّج البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس موقوفاً عليه في التفسير نحو ما ذكره الواقدي مختصراً ، أن وَدًا وسُوَاعًا وَيَعُوثَ وَيَهُوقَ ونَسْرًا أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشياطين

(١) ت : وبتقد .

إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها أنصبا وسموها بأسمائهم،
فعلوا ، فلم تُعبَد ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبدت .

قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد
الرجل منهم سَفَرًا تَمَسَّحَ به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين
يتوجه إلى سفر ، وإذا قَدِمَ من سفره تَمَسَّحَ به ، فكان أول ما يبدأ به قبل أن
يدخل على أهله .

فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوحيد قالت قريش : « أجبَل
الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجائب » .^(١)

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تَهْظُمُها كَتَبٌ عَظِيمٌ
الكعبة ، لها سَدَنَةٌ وَحُجُبٌ ، وَتُهْدَى إليها^(٢) كما تُهْدَى للكعبة ، وتطوف
بها كطوافها ، وتندحر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها قد عرفت
أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده .

وسيمر في تضاعيف هذا الكتاب بعض أخبار هذه الطواغيت وكيف جادل
الله عاقبة أمرها خُسْرًا ، فأزهق الحق باطلها وعفى الإسلام آثارها ،
وأكمل الله تعالى ديدنه ، وتمم نوره ونعمته ، ونعمر دين الهدى والحق ، فأظهره
على الدين كله .

(١) سورة من • • .

(٢) ابن هشام : لها .

[اليهودية في بلاد العرب]

ومع إصفحاق^(١) العرب مُضَرَّها وَيَمَنُّها على هذا الضلال ، فقد كان وقع إلى بعضهم^(٢) باليمن دينُ اليهودية فدانوا به ، ووقع أيضاً دينُ النصرانية بنَجْران من أرض العرب على ما نذكره .

فأما موقع اليهودية باليمن فن جبهة تُبَّع الآخر ، وهو تِهَانُ أسد أوكرب ابن كلسكي^(٣) كرب بن زيد ، وهو تُبَّع الأول بن الأول بن عمرو ذى الأذعار ابن أبرهة ذى المنار^(٤) .

وتِهَانُ أسد هو الذى قدِم المدينة وساق الخُبْرَيْنِ من يهود إلى اليمن ، وعمر البيت الحرام وكساه .

وكان قد جعل طريقه حين أقبل من المشرق على المدينة ، وكان قد مرَّ بها في بدائته فلم يهيج أهلها وخلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلةً ، فقدمها وهو مُجمَع لإخرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها .

فجع له هذا الحى من الأنصار ، ورئيسهم عمرو بن طلحة^(٥) أخو بنى النجار . وقد كان رجل من بنى عدي بن النجار يقال له أحر^(٦) ، عدَا على رجل من أصحاب تُبَّع ، حين نزل بهم ، فقتله . وذلك أنه وجدته في عَدَق له يجده^(٧) ، فضر به بمينجَله فقتله ، وقال : إنما التمر لمن أبره^(٨) . فزاد ذلك تُبَّعاً حَتَقاً عليهم .

(١) أصفقوا على أمر واحد انفقوا عليه .

(٢) ت : لبعضهم .

(٣) ابن هشام : كلبي كرب .

(٤) تذكر المراجع عللا بعض هذه الأسماء والألقاب لم أر فائدة في إثباتها لها فيها من

تحمل وبعد . انظر الاشتقاق لابن دريد وشرح السيرة لأبى ذر .

(٥) كذا في ابن هشام . وفي الأصل : طلة بالطاء المعجمة المضمومة .

(٦) و ط : أحمد .

(٧) المذقة : النخلة . ويجده : يقطعه .

(٨) أبره : لقمه .

فَاتَّبَعُوا ، فَتَزَعَمَ الْأَنْصَارُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَهُ بِالنَّهَارِ وَيَقْرُونَهُ بِاللَّيْلِ ! فِيمَجِبُهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَيَقُولُ : وَاللَّهِ إِنْ قَوْمَنَا كَرِهُوا .

فَبَيْنَمَا تُتَّبَعُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حَرَبِهِمْ^(١) إِذْ جَاءَهُ حَبْرَانُ مِنْ أَحْبَابِ يَهُودٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ عَالِمَانِ رَاسِخَانِ ، حِينَ سَمِعَا بِمَا يَرِيدُ مِنْ إِهْلَاكِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِهَا ، فَقَالَا لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ : لَا تَفْعَلْ ، فَإِنَّكَ إِنْ أَبَيْتَ إِلَّا مَا تَرِيدُ حِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا ، وَلَمْ نَأْمَنْ عَلَيْكَ عَاجِلَ الْعُقُوبَةِ . فَقَالَ لَهَا : وَلِمَ ذَلِكَ ؟ قَالَا : هِيَ مُهَاجِرَةٌ نَبِيٌّ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْحَرَمِ مِنْ قُرَيْشٍ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، تَكُونُ دَارَهُ وَقَرَارَهُ .

فَتَنَاقَشَا وَرَأَى أَنْ لَهَا عِلْمًا ، وَأَعْجَبَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُمَا ، فَانصَرَفَ عَنِ الْمَدِينَةِ وَاتَّبَعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا .

وهذا الحى من الأنصار يزعمون أنه إنما كان حنقاً تتبع على هذا الحى من يهود ، الذين كانوا بين أظهرهم ، وإنما أراد هلاكهم ففندوهم منه ، ثم انصرف^(٢) عنهم ، ولذلك قال في شعره :

حَنَقًا عَلَى سَيْبَتَيْنِ حَالًا يَثْرِبَا
أُولَى لَهُمْ بِعَقَابِ يَوْمِ مُنْصِفِ

وذكر ابن هشام أن الشعر الذى فيه هذا البيت مصنوع .

* * *

وكان تتبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها ، فوجه إلى مكة وهى طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عسفان^(٣) وأمّج أتاها نفر من هذيل بن مدركة فقالوا

(١) ابن هشام : من قتالهم .

(٢) ابن هشام : حتى انصرف .

(٣) عسفان : نهاية من ساهل الطريق بر الحنفة ومكة . وأمّج : بلد من أعراض المدينة .

له : أيها الملك : ألا ندلك على بيت مالٍ دائرٍ أغفلته الملك قبلك ، فيه الأثاؤُ والزُّرُّجد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا بيتٌ بمكةٍ يعبدُه أهله ويصلُّون عنده .

وإنما أراد المُذَلِّيون هلاكه بذلك ، ليأكَ عرفوا مِن هلاك من أرادَه من الملوك وبقي عنده .

فلما أجمع ليأ قالوا أرسل إلى الحَبْرَيْن ، فسألها عن ذلك ، فقالا له : ما أراد القومُ إلا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتاً لله اتخذَه في الأرض لنفسه غيرَه ، وإنهم فعلت ما دَعَوُكَ إليه لتَهْلِكُن ولتَهْلِكُن من معك^(١) جميعاً .

قال : فماذا تأمراني أن أصنع إذا قَدِمْتُ عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله ، تطوف به وتمنَّاه وتسكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذلل^(٢) له حتى تخرج من عنده .

قال : فما يعمركما أنما من ذلك ؟ قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله ، وبالدماء التي يُهْرِيَقُونَ عنده ، وهم نجسٌ أهلُ شرك . أو كما قالا له .

فمرف نصحبهما وصدقَ حديثهما ، فقرب النَّقْرَ من هُدَيْلٍ ففقطع أيديهم وأرجلهم .

ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ، فيما يذكرون ، ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويستقيم المسلم .

(١) كذا في ابن هشام ورواية الأصل : لتَهْلِكُن ولتَهْلِكُن جميعاً .

(٢) ابن هشام : ونذل .

وأرى في المنام أن يكسو البيت فكساه الخِصَف^(١) ، ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه المعافر^(٢) ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه الملاء والوصائل^(٣) .

فكان تُبَّعَ فيما يزعمون أول من كسا البيت .

وأوصى به ولاته من جرهم ، وأمرهم بتطهيره ، وأن لا يُقربوه دماً ولا مميقةً ولا مثلاة ، وهي المحائض ، وجعل له باباً ومفتاحاً .

ثم خرج موجهاً إلى اليمن بمن معه من جنوده والخيبريين ، حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه ، فأبوا عليه ، حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمن .

ويقال : إنه لما دنا من اليمن ليدخلها حالت خَيْرَ بيده وبين ذلك ، وقالوا لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا .

فدعاهم إلى دينه وقال : إنه خير من دينكم .

قالوا : فما كُفِّمْنَا إلى النار . قال : نعم .

وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن ، نارٌ تحسُّمُ بينهم فيما يختلفون فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم .

فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم ، وخرج الخبيران بمصاحفهما في أعناقهما متقلدَيها ، حتى قعدوا للنار عند نحر جها الذي تخرج منه ، فخرجت النار عليهم ،

(١) الخِصَف : جمع خِصْفَة وهي شيء ينسج من الخوص والليف ، وهو أيضاً ثياب غلاظ .

(٢) المعافر : ثياب تنسج إلى قبيلة من اليمن .

(٣) الملاء : جمع ملاءة وهي الملحفة ، والوصائل ثياب موصلة من ثياب اليمن وأحديتها وصيلة .

فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهاجوها ، فذمهم^(١) من حضرهم من الناس وأمرهم بالصبر لها . فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قرَّبوا معها ، ومن حمل ذلك من رجالٍ خَيْرٍ .

وخرج الخبران بمصاحفها تمرق جباههما لم تضرها .

فأصفت عند ذلك حمير على دينه .

فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن اسحق : وقد حدثني محدث أن الخبرين ومن خرج من خَيْرٍ إنما اتبعوا النار ليردوها وقالوا من ردها فهو أولى بالحق . فدنا منها رجال خَيْرٍ بأوثانهم ليردوها ، فذنت منهم لتأكلهم ، وحادوا عنها ولم يستطيعوا ردها ، ودنا منها الخبران بعد ذلك ، وجعلا يتلوان التوراة فتدسَّس^(٢) [عنهما] حتى ردها إلى تخرجها الذي خرجت منه .

فأصفت عند ذلك خَيْرٌ على دينهما . فالله أعلم أى ذلك كان .

وكان رثامُ بيتنا لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون^(٣) منه إذ كانوا على شركهم ، فقال الخبران لتبع : إنما هو شيطان يفتنهم تغلُّ بيننا وبينه . قال : فشانسكأ به . فاستخرجا منه ، فيما يزعم أهل اليمن ، كلباً أسوداً ، فذبحاه ، ثم هدمنا ذلك البيت .

قال ابن إسحاق : فبقاياها اليوم ، كما ذكر لي ، بها آثار الدماء التي كانت

تهراق عليه .

(١) ذمهم : حضهم .

(٢) من ابن هشام .

(٣) ابن هشام : ويكلمون .

[من أخبار تُبَّع]

وتُبَّع هذا هو أحد الملوك الذين وطئوا البلاد ودوخوا الأرض ودانت لهم الممالك .

ويقال : إنه المسعى في قوله تعالى : « أَمْ خَيْرٌ أُمَّ قَوْمٍ تُبَّعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، أَهْلُ كِنَانِم »^(١) .

وذلك لأنه لما آمن في آخر عمره ووحد ، خالفته خيرة ففرقوا عنه ، فانتقم الله منهم .

وحكى الحسن بن أحمد التَّمَدَانِي أنه أول ملك بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به ، وهورتبب الملوك وأبناء الملوك من قومه في قبائل العرب والمعجم ومدائنهما وأمصارها ، وكان لسكن قبيلة من العرب ولسكن حى من المعجم ملك من قومه ، إما خيري وإما كهلاني يُسمع له ويطاع .

ويذكر أنه جمع الملوك وأبناء الملوك والأقوال وأبناء الأقوال من قومه ، وقال لهم :

أيها الناس : إن الدهر نَفَدَ أكثره ولم يَبْقَ إلا أقلُّه ، وإن الكثير إذا قلَّ إلى النقصان أَجْرَى منه إلى الزيادة سارعوا^(٢) إلى المسكارم ، فإنها تقربكم إلى الفلاح ، واعملوا^(٣) ، على أنه مَنْ سَلِمَ مِنْ يَوْمِهِ لم يَسْلَمْ مِنْ غَدِهِ ، ومن سلم من الغد لا يسلم مما بعده ، وإنسكمتوا وبون مآب الآباء والأجداد وتصيرون إلى

(١) سورة الدخان ٣٧ .

(٢) ت : فسارعوا .

(٣) ت : واعملوا .

ما صاروا إليه ، والموتُ كلُّ يومٍ أقرب إلى المرء من حياته فيه ، ولكلُّ زمان أهلٌ ، ولكلُّ دائرة سببٌ ، وسببُ عُطلان^(١) هذه الفترة التي من عندها بزَّ من هودونه ، ظهورُ نبيِّ يُعزِّزُ اللهُ به دينه ويخصه بالكتاب المبين ، على يأس من المرسلين ، رحمةً للمؤمنين وحُجَّةً على الكافرين ، فليكن ذلك عندكم وعند أبنائكم بعدكم وأبناء أبنائكم قرَّنا فقرنا وجيلاً فجيلاً ، ليتوقَّعوا ظهوره وليؤمنوا به وليجتهدوا في نصره على كافة الأحياء ، حتى في الناس له إلى أمر الله .

وأنشد له :

شهدتُ على أحمدٍ أنه
رسولٌ من الله باري النَّسمِ
فلو مُدَّ دهرى إلى دهره
لكنتُ وزيراً له وابنَ عمِّه
وأزمتُ طاعته كلَّ مَنْ
على الأرض من عَرَبٍ أو عَجَمِ
ولكنَّ قولى له دائماً^(٢)
سلامٌ على أحمدٍ في الأئمِّ

في أبيات ذكرها ، وأشعار غير هذا أثبت في « إكليله » كثيراً منها .

قال : وذكروا أن الملوك وأبناء الملوك من خير وكنهان لم تزل تتوقع ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وتبشِّرُ به ، وتوصي بالطاعة له والإيمان به والجهاد معه

(١) ت : الآن وهو خطأ .

(٢) ط : دائماً .

والتقيام بنصره ، منذ ذلك العصر إلى أن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فبما كانوا بذلك حين بُعث من أحرص الناس على نصره وطاعته .

فمنهم من سمع له وأطاع وآمن به قبل أن يراه ، ومنهم من وصل إليه كتابه
فسمع وأطاع وآمن وصدق ، ومنهم من آواه ونصره وأيده وجاهد في سبيل
الله دونه .

نطق بذلك الكتاب المنير في قوله : « والذين تبوءوا الدارَ والإيمانَ مِن
قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون
على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (١) .

وقوله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف
يأني الله بقومٍ يحبهم ويحبونه ، أدلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين
يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء
والله واسعٌ عليم » (٢) .

قال التّمذاني : عن أبي الحسن الخزازي يقال : لهم تمّذان .

ثم أشار إلى ذكر سيف بن ذى يزن للنبي صلى الله عليه وسلم وما ألقاه من
أمره إلى جده عهد المطلب عند وفادته عليه .

قال : وذكروا أنه لم يكن لسيف بن ذى يزن ذلك العلمُ في قصة النبي صلى الله
عليه وسلم إلا من جهة تُتبع ، وما تنهاه إليه مما كان ألقاه إليهم وعرفهم به من
خبر النبي صلى الله عليه وسلم .

وسنذكر خبر سيف هذا في موضعه إن شاء الله .

(١) سورة الحشر الآية ٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ٥٤ .

[النصرانية في بلاد العرب]

وأما موقع النصرانية في أرض^(١) العرب ، فقد كان بتجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم على الإنجيل ، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأس يقال له عبد الله بن الثامر ، وكان موقع أصل ذلك الدين بتجران ، وهي بأوسط أرض العرب في ذلك الزمان ، وأهلها وسائر العرب كلها أهل أوثان يعبدونها أن رجلا من بقايا أهل ذلك الدين يقال له « فيميون » وقع بين أظهرهم فحملهم عليه فدانوا به .

فحدث وهب بن منبّه : أن فيميون كان رجلاً صالحاً مجتهداً زاهداً في الدنيا بحجاب الدعوة ، وكان سائحاً ينزل [بين]^(٢) القرى ، لا يعرف في قرية إلا خرج منها إلى قرية لا يعرف بها ، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ، وكان بناءً يعمل الطين ، وكان يعظم الأحاد ، فإذا كان يوم الأحد لم يعمل فيه شيئاً ، وخرج إلى فلاة من الأرض ، فصلى فيها حتى يمسي .

قال : وكان في قرية من [قرى]^(٢) الشام يعمل عمله ذلك مستخفياً ، فظن لشأنه رجل من أهلها يقال له صالح ، فأحبه صالح حباً لم يحب شيئاً كان قبله مثله ، فكان يتبعه حيث ذهب ولا يقطن له فيميون ، حتى خرج مرة في يوم الأحد إلى فلاة من الأرض كما كان يصنع ، وقد اتبعه صالح ، وفيميون لا يدري ، فجلس صالح منه منظر العين مستخفياً منه لا يجب أن يعلم بمكانه ، وقام فيميون يصلي ، فبينما هو يصلي إذ أقبل نحوه القدين ، الحية ذات الرؤوس السبعة ، فلما

(١) ط : بأرض .

(٢) من ابن هشام .

رآها فيميون دعا عليها فانت ، ورآها صالح ولم يذر ما أصابها تخافها^(١) عليه
[فَمِيلَ عَوَّلُهُ]^(٢) فصرخ : يا فيميون التنينُ قد أقبل نحوك .

فلم يلتفت إليه وأقبل على صلاته حتى فرغ منها .

وأُتسى فانصرف وعرف أنه قد عُرف ، وعرف صالح أنه قد رأى مكانه ،
فقال له : يا فيميون تعلم والله أنى ما أحببت شيئاً قط حببتك ، وقد أردتُ صحبتك
والسكينة معك حيثما كنت .

قال : ماشئتَ ، أمرى كما ترى ، فإن علمت أنك تقوى عليه فنعيم .

فلزمه صالح ، وقد كاد أهل القرية يفتنون لشأنه ، وكان إذا ما جاءه^(٣) العبدُ
به الضرب دعا له فشفي ، وإذا دُعي إلى أحد به ضرباً لم يأتَه .

وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير ، فسأل عن شأن فيميون ، فقيل له
إنه لا يأتي أحداً دعاه ، ولكنه رجل يعمل للناس البنيان بالأجر ، فعمد الرجل
إلى ابنه ذلك فوضعه في حجرتَه وألقى عليه ثوبا ، ثم جاءه فقال : يا فيميون ، إنى
قد أردت أن أعمل في بيتي عملاً ، فانطلق معى حتى تنظر إليه فأشار طك عليه .

فانطلق معه حتى دخل حجرتَه ، ثم قال له : ما تريد أن تعمل في بيتك هذا ؟
قال : كذا وكذا . ثم انتشط الثوب^(٤) عن الصبي وقال : يا فيميون : عبُدْ بن
عباد الله أصابه ما ترى فادعُ الله له .

(١) ط : تخاف .

(٢) من ابن هشام ومعناها : غلب على صبره .

(٣) ابن هشام : « فاجأه » وما هنا أصبح .

(٤) اللشط : نزع به سرعه وى ت : اللشط الرجل .

فدعا له فيميون فقام الصبي ليس به بأس .

وعرف فيميون أنه قد عُرف ، فخرج من القرية ، واتبعه صالح ، فبيدا هو يمشى في بعض الشام إذ سرَّ بشجرة عظيمة فناداه منها رجل فقال : يا فيميون ما زلت أنتظرك وأقول : متى هو جاء ، حتى سمعتُ صوتك فعرفت أنك هو ، لا تبرح حتى تقوم عليّ ، فإنى ميت الآن .

قال : فمات . وقام عليه حتى وراه .

ثم انصرف ومعه صالح ، حتى وطئا بعضَ أرض العرب ، فاختطفتها سيارةٌ من بعض العرب ، فخرجوا بهما حتى باعوها بنجران ، وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعمدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد في كل سنة ، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كلُّ ثوب حسن وجدوه وحلى النساء ، ثم خرجوا إليها فمكفوا عليها يوما .

فابتاع فيميون رجلٌ من أشرفهم ، وابتاع صالحاً آخرٌ ، فسكان فيميون إذا قام من الليل يصلى في بيت أسكنه إياه سيده ، استسرج له البيت نوراً حتى يصبح ، من غير مصباح ، فرأى ذلك سيده فأعجبه ما يرى منه ، فسأله عن دينه فأخبره به ، وقال له فيميون : إنما أنتم في باطل ، إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ، ولو دعوتُ عليها إلهى الذى أعبدُ أهلَكها ، وهو الله وحده لا شريك له ، فقال له سيده : فافعل ، فإنك إن فعلتَ دخلنا في دينك وتركنا ما نحن عليه .

فقام فيميون فتطهر وصلى ركعتين ، ثم دعا الله عليها ، فأرسل الله ريحا فجَمَعَتْهَا^(١) مِنْ أَصْلِهَا فَأَلْقَتْهَا .

فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه ، فعلمهم على الشريعة من دين عيسى

* (١) ائتمتها .

ابن مريم عليه السلام ، ثم دخلت عليهم الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرضٍ ، فمن هنالك كانت النصرانية بنجران ، فيما ذكر وهب بن منبه في حديثه هذا .

[عبد الله بن الثامر وأصحاب الأخدود]

وأما محمد بن كعب القرظي ، وبعض أهل نجران ، فذكروا أن أهل نجران كانوا أهل شرك ، يعبدون الأوثان ، وكان في قرية من قراها ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلما قميميون - ولم يسمه محمد بن كعب ولا شركاؤه في الحديث ، قالوا : رجل نزلها - ابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر ، فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر ، فبعث الثامرُ ابنه عبد الله مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مرَّ بصاحب الخيمة أحجبه ما يرى من صلواته وعبادته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم فوحد الله وعبده ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يعلمه ، فسكته إياه ، فقال : يا ابن أخي لن إنك تحمله أخشى [عليك]^(١) ضعفك عنه .

والثامرُ أبو عبد الله بن الثامر ، لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان .

فلما رأى عبدُ الله أن صاحبه قد ضنَّ به عنه وتخوَّف ضعفه فيه ، عمد إلى قِدَاحٍ فجَمَعَهَا ، ثم لم يُبْقِ لَهِ اسْمًا يَعْلَمُهُ إِلَّا كَتَبَهُ فِي قِدَاحٍ^(٢) ، لكيلا اسم

(١) من ابن هشام .

(٢) القِدَاح : السهم .

قِدْح ، حتى إذا أحصاها أوقد لها ناراً ، ثم جعل يقذفها فيها قِدْحًا قِدْحًا ، حتى إذا مرَّ بذلك الاسم الأعظم قذف فيها بقِدْحه فوثب القدح حتى خرج منها لم تضره شيئاً ، فأخذه ثم أتى صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الذي كتمه ، فقال : وما هو ؟ قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع ، قال : أي ابن أخي ، قد أصبته فأمسك على نفسك وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضراً إلا قال له : يا عبد الله ، أتوحد الله وتدخل في ديني فأدعو^(١) الله فيما فيك مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويسلم ، ويدعوه فيشفي .

حتى لم يبق بنجران أحد به ضراً إلا أتاه فاتبعه على أمره ودعاه فعوفي .

حتى رُفِع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال : أفسدت على أهل قريتي وشالفت ديني ودين آبائي ، لأمتن بك .

قال : لا تقدر على ذلك .

فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ليس به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحورٍ لا يقع أحد فيها إلا هلك ، فيلبقى فيها فيخرج ليس به بأس .

فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : إنك والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سلطك الله على^(٢) ، فقتلتني^(٣) .

(١) ابن هشام : وأدعو .

(٢) ابن هشام : سلطت على .

(٣) ت : فتقتلني .

فوحّد الله ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثم ضربه بمصا في يده
فشجّه شجرة غير كبيرة فقتله ، وهلك^(١) الملك مكانه .

واستجّمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وعلى ما جاء به عيسى بن
مريم من الإنجيل وحُكّمه ، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث .

فن هبلك كان أصل النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظي وبعض أهل نجران
عن عبد الله بن الثامر ، فالله أعلم أي ذلك كان .



وحديث عبد الله بن الثامر هذا قد ورد في الصحيح مرفوعا إلى النبي صلى الله
عليه وسلم من طرق ثابتة ، خرّجه مسلم بن الحجاج من حديث صهيب ، وبينه
وبين حديث ابن إسحاق اختلاف ، وفيه مع ذلك زوائد تحسّن لأجلها
إعادة الحديث .

فروى عبد الرحمن بن أبي لبدي ، عن صهيب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : « كان ملكٌ فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني
قد سكبرت ، فابعث إلى غلاما أعلمه السحر .

فبعث إليه غلاما يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقمع إليه
وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى

(١) ابن هشام : ثم هلك .

الساحرَ ضربه فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحرَ فقل :
حبسني أهلي ، وإذا خشيتَ أهلكَ فقل : حبسني الساحر .

فبينما هو كذلك ، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناسَ ، فقال : اليوم
أعلمُ الساحرُ أفضلُ أم الراهبُ أفضل .

فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك من أمرِ الساحر
فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس .
فرماها فقتلها ، ومضى الناس .

فأتى الراهبَ فأخبره ، فقال له الراهب : أي بني ، أنت اليوم أفضل مني ،
قد بلغ من أمرِكَ ما أرى وإنك ستُبدلُ ، فإن ابتليت فلا تدلَّ علي .

وكان الغلام يبرىء الأكمة والأبرص ويداوى الناسَ سائرَ الأدواء ، فسمع [به]
جليسٌ للملك ، وكان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما هاهنا لك أجمعُ إن
أنت شفيتني .

قال : إني لا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله ، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك .
فآمن بالله ، فشفاه الله .

فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من ردَّ عليك بصرك ؟
قال : ربي ، قال : ولك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله .

فأخذه فلم يزل يمزجه حتى دلَّ على الغلام ، فقال له الملك : أي بني ، قد
بلغ من سحرِكَ ما يبرىء الأكمة والأبرص وتفعل وتفعل . فقال : إني لا أشفي
أحداً ، إنما يشفي الله .

فأخذه فلم يزل يمزجه حتى دل على الراهب .

فجىء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه .

ثم جىء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع في مفرق رأسه ، فشقه به حتى وقع شقاه .

ثم جىء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغت ذروتة ، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به ، وصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا .

وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال كفناهم الله .

فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور^(١) فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقتلوه ، فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفت بهم السفينة ففرقوا وجاء يمشى إلى الملك .

فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال : كفناهم الله .

إنك لست بمقاتلي حتى تفعل ما أمرك به .

قال : وما هو ؟

قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصاليني على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنفاتي ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : باسم الله رب الغلام ، ثم ارمى ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني .

(١) القرقور السفينة : الطويلة

لجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهمًا من كنفائه ،
ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه ، فوقع
السهم في صدغه ، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات .

فقال الناس : آمَنَّا بِرَبِّ الغلام ، آمَنَّا بِرَبِّ الغلام .

فأنى الملك فقيل له : رأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حَذْرُكَ ،
قد آمن الناس .

فأمر بالأخدود بأفواه السكك فحُذَّت وأضرَم النيران ، وقال : من لم يرجع
عن دينه ، يعنى فأقحموه فيها . أوقيل له : اقتحم .

ف فعلوا ، حتى جاءت امرأة ومعهما صبي لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها
الغلام : يا أمه ، اصبرى فإنك على الحق ١١ .

فهذا حديث مسلم عن عبد الله بن الثامر وأهل نجران ، وإن وقعت
الأسماء فيه مُبْهَمَةٌ ، فقد فسرها العلماء بما ورد من ذلك مبيِّنًا في حديث
ابن إسحاق وغيره ، وجعلوا ذلك كله حديثًا واحدًا .



وذكر ابن إسحاق أنه لما كان من اجتماع أهل نجران على دين عبد الله
ابن الثامر ما تقدم الحديث به ، سار إليهم ذو نُوَاس بجنوده ، فدعاهم إلى
اليهودية ، وخيَّرهم بينها وبين القتل ، فاختاروا القتل ، فخذلهم الأخدود ،
فحَرَّقَ بالنار ، وقتلَ بالسيف ، ومثَّلَ بهم ، حتى قتل منهم قريبًا من
عشرين ألفًا .

ففي ذى نُوَاس وجنده ذلك أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :
(٨ — الاكتفا)

« قُتِلَ أصحابُ الأَخْدُودِ ، النارُ ذاتِ الوُقُودِ ، إذْ هُمُ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وهم على ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ »^(١) إلى آخر الآيات .

والأخدود هنا هو الحُفْرُ المستطيل في الأرض ، كالخندق والجُدول ، ويقال أيضاً لأثر السيف والسيوط والسكين ونحوه في الجِلْد : أخدود .

قال ابن إسحاق : ويقال : كان فيمن قَتَلَ ذُو نُؤَاسِ عَبْدُ اللَّهِ بنِ الثَّامِرِ وَأَسْهُمَ وإمامهم .

وحدَّث عن عبد الله بن أبي بكر أنه حدَّث أن رجلاً من أهل نجران حفر خِرْبَةً من خِرَابِ نَجْرَانَ في زمن عمر بن الخطاب ، فوجدوا عبدَ اللَّهِ بنِ الثَّامِرِ تحت دَفْنٍ منها قاعداً واضعاً يده على خِرْبَةٍ في رأسه ممسكاً عليها بيده ، فإذا أَخْرَجَتْ يده عنها تَنَعَّبَتْ^(٢) دماً ، وإذا أرسلت يده رَدَّها عليها فأمسك دمه ، في يده خاتم مكتوب فيه : رَبِّي اللَّهُ . فسكتب فيه إلى عمر ، فسكتب إليه : أن أفرِّوه على حاله وردُّوا عليه الدفن الذي كان عليه . ففعلوا^(٣) .

[ربيعة بن نصر والسكمان]

وذو نُؤَاسِ هذا هو زُرْعَةُ بنِ تَيْمَانَ أسعد أبي كرب ، وهو تُبَّعُ الأَخْر ، وقد تقدم خبره ، وابنه زُرْعَةُ ذو نُؤَاسِ هذا كان من صغار بنيهِ ، وصار إليه مُلْكُ اليَمَنِ ، وأمر خَيْرُ بَعْدَ أَبِيهِ بزمان .

(١) سورة البروج .

(٢) تنعبت : تفجرت .

(٣) القصة خرافية لا تصح .

وذلك أنه ملكَ اليمنَ بين أضماف ملوك التبابعة ، ربيعةُ بن نعر بن أبي حارثة ابن عمرو بن عامر ، وكان من سادات اليمن وأهل الشرف منهم . وهو صاحب الرؤيا التي يعرف من تأويلها استيلاء الحبشة على اليمن ، والبشارةُ بظهور النبي صلى الله عليه وسلم .

وذلك أنه رأى رؤيا هالته وفتّيح بها^(١) ، فلم يدعُ كاهنًا ولا ساحرًا ولا عائمًا ولا منجمًا من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتي وفتّيتُ بها ، فأخبروني بها وتأويلها . قالوا : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها . قال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، إنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها .

فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطِيح وشِقِّ ، فإنه ليس أحد أعلمَ منهما ، فهما يخبرانها بما سأل عنه .

فبعث إليهما ، فقدم عليه سَطِيح قبل شِقِّ ، فقال : إني قد رأيت رؤيا هالتي وفتّيتُ بها ، فأخبرني بها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها .

فقال : أفعَل . رأيتَ حُمَمَةً^(٢) خرجت من ظلمة فوقت بأرضِ تَهْمَةٍ^(٣) فأكلت منها كلَّ ذاتِ جُجْمَةٍ .

فقال له الملك : ما أخطأتَ منها شيئًا يا سَطِيح ، فما عندك في تأويلها ؟

فقال : أحلف بما بين الحرِّ تَيْنِ من حَنَشٍ ، ليهبطنَّ أرضكم الحَبَشَ ، فأَيُّما كُنَّ ما بين أَيْينَ إلى جُرَشِ^(٤) .

(١) فطلع بها ، كعلم ، أفرغته واشتدت عليه .

(٢) أي حمة مشتعلة .

(٣) التهمة : الأرض المتصوبة في البحر كالتهم ، كما أنهما مصدران من تهامة .

(٤) أي بين وجرش : مخلافان من مخاليف اليمن .

فقال الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لفائظ مَوْجِع ، ففتى هو كائن ؟
أفى زمانى أم بعده ؟

قال : لا بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين .

قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم يقطع ؟

قال : بل يقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يقتلون^(١) ويخرجون منها هاربين .

قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم^(٢) بن ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن فلا يترك منهم

أحداً باليمن .

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم يقطع ؟

قال : بل يقطع .

قال : ومن يقطعه ؟

قال : نبي زكى ، يأتيه الوحي من قبل العلي .

قال : ومن هذا النبي ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه

إلى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ويشقى

فيه المسيئون .

قال : أحق ما تخبرنى ؟

قال : نعم ، والشقق والغسق ، والقمر^(٣) إذا أتسق ، إن ما أنبأتك لحتى .

(١) ت : يقتلون و ا : يقتلون وهى رواية ابن هشام .

(٢) (ب) : والفلق . (٣) المعروف فيه : سيف بن ذى يزن ، ولكنه عدل إلى إرم ،

لتشبيهه بعاد إرم فى القوم .

ثم قدِم عليه شق ، فقال له كقوله لَسَطِيح ، وكَتَمَه ما قال سَهِيح ، اي: نَظَر
أَيْتَمَقَان أم يَحْتَلِفَان .

قال : نعم رأيتَ مُحَمَّةَ خَرَجَت من ظِلْمَةِ فَوْقَمَت بين رَوْضَةٍ وَأَكَمَةٍ فَأَكَلَت
مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ نَسَمَةٍ .

فلما قال له ذلك عرف أن^(١) قد اتفقا وأن قولهما واحد ، إلا أن سَطِيحًا قال :
« بَارِضٍ تَهَمَّةٌ ، فَأَكَلَت مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ جِجَمَةٍ » ، وقال شق : « وَقَمَت بين
رَوْضَةٍ وَأَكَمَةٍ فَأَكَلَت مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ نَسَمَةٍ » .

فقال له الملك : ما أخطأت يا شقُّ منها شيئًا ، فما عندك في تأويلها ؟

قال : أحلف بما بين الحَرَّين من إنسان ، ليهبطنَّ أرضكم السودان ، فليَئِنَّا بِنَّ
على كل طَفْلَةٍ^(٢) اللَّبَنَان ، وليلسكن ما بين أبين إلى تَجْرَان .

فقال له الملك : وأبيك يا شقُّ إن هذا لنا لغائظ مَوْجِع ، فتي هو كائن ؟
أفي زمانى أم بعده ؟

فقال : لا ، بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيمٌ ذوشان ، ويذيقهم
أشدَّ الهوان .

قال : من هذا العظيم الشأن ؟

قال : غلامٌ ليس بدنى ولا مُدَن^(٣) يخرج من بيت ذى يَزَن .

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

(١) ابن هشام : أنهما .

(٢) الطفلة : الناعمة لرخصة .

(٣) المدن : المقصر في الأمور . ورواية النهاية : مزن . أى منهم .

قال : بل ينقطع برسولٍ مرسلٍ يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ،
يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل .

قال : وما يوم الفصل ؟

قال : يومٌ يجرى فيه الولاة ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء
والأموات ، ويجمع فيه الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات .

قال : أحق ما تقول ؟

قال : إى ورب السماء والأرض وما بينهما من رَفَعٍ وَخَفَضٍ ، إن ما أنبأتك
لحقٌ ما فيه أمضٌ^(١) .

فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قال ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما
يصلحهم ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور [بن خُرزاد^(٢)]
فأسكنهم الحيرة .

فمن بقية ولد ربيعة بن نصر فيما يزعمون ، النعمان بن المنذر ، فهو في نسب
اليمين وعلمهم : النعمان بن المنذر بن النعمان بن عمرو بن عدى بن ربيعة بن
نصر ، ذلك الملك .

وقد تقدم قول من قال من العلماء أن النعمان من ولد قنص بن معد . وقد قيل
أيضاً إن النعمان من ولد الساطرون صاحب الحضر ، وهو حصن عظيم كالمدينة
كان على شاطئ الفرات ، وهو الذي ذكره عدى بن زيد في قوله :

(١) لال ابن هشام : أمض بمعنى شكاً ، هذا بلفظ حير ، وقال أبو عمرو : أمض : أى باطل .
(٢) من ابن هشام .

وأخو الخضر إذ بناه وإذ دجلة تُجبي إليه والخابورُ
شاده مرةً مرةً وجملته كلساً فلا طير في ذراه وكورُ
لم يهيمه ريبُ المُنون فباد الملكُ عنه فبابه مهجورُ.

[شِقٌّ وَسَطِيحٌ]

وأما شِقٌّ وَسَطِيحٌ ، فإن شِقًّا هو ابن صعب بن يشكر من بني أنمار بن نزار
أبي بجيلة وحشمهم .

وكان شِقٌّ إنسانٍ فيما زعموا ، إنما له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ،
ولذلك سُمِّي بشِقِّ .

وسَطِيحٌ هو ربيع بن ربيعة بن ذئب بن عدى^(١) بن مازن بن غسان ، وكانت
العرب تسميه الذبيبي ، وإياه عَنَى ميمون بن قيس الأعشى بقوله :

ما نظرتُ ذاتُ أشفارٍ كَنظَرِها
حقاً كما نطقُ الذبيبي إذ سَجَعَا

وإنما قيل له سَطِيحٌ ، لأنه كان جسداً ملقياً له رأس وليس له جوارح ، فيما
ذكروا . وكان لا يقدر على الجلوس ، فإذا غضب انتفخ .

وذكر أنه قيل له : أنى لك هذا العلم ؟

فقال لي صاحب من الجن استمع أخبارَ السماء من طور سيناء ، حين كلم
الله منه موسى عليه السلام فهو يؤدّي إلى من ذلك ما يؤديه .

(١) ت ط : من بي ذيبان .

وعاش سَطِيح بعد هذا الحديث زمناً طويلاً ، حتى أدرك مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فذكر الخطابي وغيره من حديث هاني بن هاني الخزومي ، وأتمت عليه مائة وخمسون سنة ، أنه لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى فسقط منه أربع عشر شُرْفَةً ، وفاضت بحيرة ساوة ، وفاض وادي السماوة ، وخذت نار فارس ولم تخذ قبل ذلك ألف عام . وأرى الموبدّان إبلاً صماباً تقود خيلاً هراً^(١) ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها .

فلما أصبح كسرى أفزع ذلك فصبر عليه تشجماً ، حتى إذا عيل صبره رأى ألا يدخر ذلك عن قومه ومرازبته ، فلبس تاجه وقعد على سريرته ، ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده قال :

أتدرون فيم بعثت فيكم ؟ قالوا : لا ، إلا أن يخبرنا الملك .

فبينما هم كذلك ، إذ ورد عليه كتابٌ بخمود النار ، فازداد غمّاً إلى غمه ، ثم أخبر بما رأى وما هاله من ذلك . فقال الموبدّان : وأنا أصلح الله الملك قد رأيت في هذه الليلة رؤيا . ثم قصّ عليه رؤياه في الإبل . فقال : أي شيء يكون هذا يا موبدّان ؟ قال : حدّث يكون من ناحية العرب . وكان أعلمهم في أنفسهم .

فكتب عند ذلك كسرى إلى النعمان بن المنذر أن يوجّه إليه برجلٍ عالم بما يريد أن يسأله عنه . فوجّه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن بَقِيْلَةَ النَّسَّانِي .

فاقدم عليه قال له الملك : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال ليخبرني الملك عما أحبّ ، فإن كان عندي منه علم وإلا أخبرته بمن يتعلمه .

(١) الخيل العرب : خلاف البراذين .

فأخبره الذي وجه إليه فيه . فقال له : علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام ، يقال له سَطِيح . قال : فأنته فسئل عما سألتك عنه ، ثم اتفنى بتفسيره .
فخرج عبد المسيح حتى أتى إلى سَطِيح وقد أشفى على الموت ، فسلم عليه وكلمه ، فلم يرد عليه سَطِيح جواباً ، فأنشأ عبد المسيح يقول :

أَصَمَّ أَمْ يَسْمَعُ غِطْرِيْفُ الْيَمَنِ
أَمْ فَادَ فَازَلَمَ بِهِ شَأْوُ الْعَمَنِ^(١)
يا فاصلَ الخَطَّةِ أَعَيْتُ مَنْ وَمَنْ
أَتَاكَ شَيْخُ الْحَىِّ مِنْ آلِ سَنَّ
وَأُمُّهُ مِنْ آلِ ذَنْبِ بْنِ حَجَنْ
أَبْيَضَ فَضْفَاضَ الرِّدَاءِ وَالْبَدَنْ
رَسُولُ قَبِيلِ الْمُجَمِّ يُنْمَى لِلْوَسَنِ
لَا يَرْهَبُ الْوَعْدَ وَلَا رَبَّ الزَّمَنِ
يَجُوبُ بِي الْأَرْضَ عَلَنَدَاةٌ شَزَنْ
تَرْفَعِي وَجَنًا وَتَهْوِي بِي وَجَنْ^(٢)

(١) فاد : مات . قال :

رعى خريزات الملك عشرين حجة وعشرين حتى فاد والشيب شامل
وازم : ذهب مسرعا . والأصل فيه ازلام فحذفت الهمزة تخفيفاً ، وقيل : أصلها ازلام ،
كاشهاب ، فحذفت الألف تخفيفاً أيضاً . وشأو العمن : اعتراض الموت على الخلق وقيل :
ارلم قبض والعمن : الموت ، أى عرض له الموت فقبضه وقد تصحفت الرواية في النهاية . أن فار .
انظر النهاية ١٣٩/٢ .

(٢) العنداة : القوية من النوق . والشزن : التي تسمى من نشاطها على جانب ، شزن
فلان إذا نشط ، وقيل : الشزن المعنى من الحفاء .
والوجن بفتح فسكون ، وبفتحتين : الأرض الغليظة الصلبة ويروى بالضم ، جمع وجين .

حتى أتى عارى الجأحي والقطن
تلفه في الريح بؤغاه الدمن^(١).

فلما سمع سَطِيحُ شِعْرِهِ رفع رأسه يقول : عبدُ المسيح ، أتى إلى سَطِيحٍ ، على
جبل مُشِيحٍ ، وقد أوفى على الضريح ، بعنك ملك بني ساسان ، لارتجاس الإيوان
وخمود الديران ، ورؤيا الموبدآن ، رأى إبلاً صماباً تقود خيلاً عرّاباً قد قطعت
دجلة وانتشرت في بلادها .

عبدُ المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب المِراوة ، وفاض وادي
السماوة ، وفاضت بحيرة ساوة ، وخذت نار فارس ، فليست الشام لسَطِيحٍ شاماً ،
يملك منهم ملوكٌ وملكاتٌ على عدد الشرفات ، وكل ماهوآتٍ آت .

ثم قضى سَطِيحٌ مكانه .

فلما قدم عبدُ المسيح على كسرى أخبره بمقالة سَطِيحٍ . فقال : إلى أن يملك
منا أربعة عشر ملكاً قد كانت أمور .

فلما منهم عشرة إلى أربع سنين وملك الباقيون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه .

[عمرو يقتل حستان]

فلما هلك ربيعةُ بن نصر رجع ملك اليمين كله إلى حستان بن تَبان أسعد
أبي كَرِبٍ ، فسار بأهل اليمين يريد أن يطأ بهم أرضَ العربِ وأرضَ الأعاجمِ .

(١) الجأحي : جمع جوجو ، وهو عظام الصدر والقطن بفتح الطاء أسفل الظهر . وقيل :
الصواب : القطن بكسر الطاء جمع قطنة ، وهي ما بين الفخذين .
والبؤغاء . التراب الناعم . والدمن ما تدمن منه أى تجمم وتلبد . وبشهاد له الرواية الأخرى :
تلفه الريح ببؤغاء الدمن . النهاية .
وقد وردت هذه القصة في البداية والنهاية ٢/٢١٩ ، ولسان العرب ٣/٣١٢ باختلاف
وربادة ونقص . قال الأزهري : وهو حديث حسن قريب .

حتى إذا كان بأرضِ العراقِ كرهتِ خَيْرٌ وقبائلِ اليمنِ السيرَ معه وأرادوا الرجعةَ إلى بلادهم وأهلهم ، فَكَلَّمُوا أَخَا لَهُ يُقَالُ لَهُ عَمْرُو وَكَانَ مَعَهُ فِي جَيْشِهِ فَقَالُوا لَهُ : اقْتُلْ أَخَاكَ حَسَّانَ وَنَمْلِكَ عَلَيْنَا وَتَرْجِعْ بِنَا إِلَى بِلَادِنَا . فَأَجَابَهُمْ .

فاجتمعوا على ذلك إلا ذُرْعَيْنِ الحِمَيْرِيِّ ، فإنه نهاه عن ذلك فلم يقبل منه .
فقال ذُرْعَيْنِ الحِمَيْرِيُّ :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِي سَهْرًا بِنَوْمٍ أ
سَعِيدٌ مَنْ يَبِيْتُ قَرِيرَ عَيْنٍ
فَإِنَّمَا خَيْرٌ غَدَرْتُ وَخَانْتُ (١)
فَمَعْدِرَةٌ إِلَهَ لَدَى رُعَيْنِ

ثم كتبهما في رقعةٍ وختم عليهما ثم أتى بها عمراً فقال له : ضَعْ لِي هَذَا السِّكِّتَابَ عِنْدَكَ . ففعل .

ثم قتل عمرو أخاه حَسَّانَ وَرَجِعَ بِمَنْ مَعَهُ إِلَى الْيَمَنِ .

فلما نزل اليمنَ مُنِعَ مِنْهُ النَّوْمُ وَسُلِّطَ عَلَيْهِ السَّهْرُ ، فَلَمَّا جَهَّدَهُ ذَلِكَ سَأَلَ الْأَطْبَاءَ وَالْحَزَاةَ (٢) مِنَ السَّكَّانِ وَالْعَرَّافِينَ عَمَّا بِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا قَتَلَ رَجُلٌ أَخَاهُ أَوْ ذَا رَحِمِهِ بِنَفْسٍ عَلَى مِثْلِ مَا قَتَلْتَ أَخَاكَ عَلَيْهِ إِلَّا ذَهَبَ نَوْمُهُ وَسُلِّطَ عَلَيْهِ السَّهْرُ .

فلما قيل له ذلك جعل يقول كلُّ مَنْ أَمَرَهُ بِقَتْلِ أَخِيهِ حَسَّانَ مِنْ أَشْرَافِ الْيَمَنِ حَتَّى خَلَّصَ إِلَى ذِي رُعَيْنِ .

(١) رواية البيت في الاشتقاق ٥٢٥ : فإن تك حير غدرت وخانت .

(٢) الحزاة : جمع حاز ، وهو الذي ينظر في النجوم ويعمل بها .

فقال له ذو رعين : إن لي عندك براءة . قال : وما هي ؟ قال : الكتاب الذي دفعتُ إليك .

فأخرجته فإذا فيه البيتان ، فترَّكه ورأى أنه قد نصَّحه

[لَخْنِيمَةُ ذُو شَنَاتِر]

وهلاك عمرو فمرَّج^(١) أمرُ حمير عند ذلك وتفرقوا ، فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة ، يقال له لَخْنِيمَةُ يدوف ذُو شَنَاتِر^(٢) ، فقتل خيارهم وهبث ببيوت أهل المملكة منهم ، فقال قائل من حمير :

تُقْتَلُ أَبْدَانُهَا وَتَنْفِي سَرَاتِهَا وَتَبْنِي بِأَيْدِيهَا لَهَا الذِّلَّ جَمِيرُ
تَدْمُرُ دُنْيَاهَا بِعَلِيْشِ حُلُومِهَا وَمَا ضِيَعَتْ مِنْ دِينِهَا فَهِيَ أَكْثَرُ
كَذَلِكَ الْقُرُونُ قَبْلَ ذَلِكَ بِظَلَمِهَا وَإِسْرَافِهَا تَأْتِي الشُّرُورَ فَتُخَسِّرُ

وكان لَخْنِيمَةُ امرأة فاسقة يعمل عمل قوم لوط ، فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه في مشربة^(٣) له قد صنعها لذلك لثلاثيَّاتٍ بعد ذلك ، ثم يطلع من مشربته تلك إلى حرسه وجنده قد أخذ مشوا كما فعله في فيه علامة للفراغ من خبيث فعله .

حتى بعث إلى زُرْعَةَ ذِي نُوَّاسٍ ، بنِ تَبَّانِ أَسْعَدٍ ، أخِي حَسَانَ ، وكان صبياً صغيراً حين قُتِلَ حَسَانَ ، ثم شبَّ غلاماً جميلاً وسيماً ذا هيئة وعقل ، فلما أتاه رسوله عرف ما يريد به ، فأخذ سكيناً حديداً لطيفاً نجفأه بين قدميه ونعله ،

(١) مرج : اضطرب واختلط .

(٢) المعروف فيه : الخيمة بغير نون ، كما قال ابن دريد ، وهو مأخوذ من اللحم ، وهو اسرشاء اللحم . والشناتر : الأصابع بلغة حمير .

(٣) المشربة : العرفة المرتفعة .

ثم أتاه فلما خلا معه وثب إليه ، فوائبه ذُو نُؤَاس فوجأه حتى قتله ، ثم حَزَّ رأسه فوضعه في السكوة التي كان يشرف منها ، ووضع مسواكه في فيه ثم خرج على الناس ، فسألوه فأشار لهم إلى الرأس فنظروا فإذا رأس الخنيفة مقطوعٌ ، فخرجوا في إثر ذِي نُؤَاس حتى أدركوه ، فقالوا : ما ينبغي أن يملكنا غيرك إذ أرحمتنا من هذا الخبيث .

فلما كوه ، واجتمعت عليه جَمِير وقبائل اليمن ، فكان آخرَ ملوك حمير ، ويسمى يوسف ، فأقام في مُلْكِهِ ستين .

قال ابن قُتَيْبَةَ : ثمانيا وستين سنة .

إلى أن كان منه في أهل نجران ما تقدم ذكره ، فكان ذلك سبباً لاستئصال ملكه واستيلاء الحبشة على اليمن .

ذكر دخول الحبشة أرض اليمن

واستيلائهم على مُلْكها ، وذكر السبب في ذلك
مع ما يتصل به من أمر الفيل

ولما انتهى زُرْعة ذُو نُؤاس إلى ما انتهى إليه بأهل نجران من التحريق
والقتل ، أفلت منهم رجل من سبأ يقال له دَوْسٌ ذُو ثَعْلَبَانِ على فرس له ،
فسلك الرملَ فأهجزهم ، ففضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصرَ صاحبَ الروم ،
فاستنصره على ذِي نُؤاس وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم ، فقال له : بئدت
بلادك منا ، ولكني سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين ،
وهو أقرب إلى بلادك .

فكتب إليه يأمره بنصره والطلبِ بثأره .

فقدم دَوْسٌ على الفجاشي بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعمين ألفاً من الحبشة ،
وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له أزياط ، ومعه في جنده أبرة الأثرم ، فركب
أزياطُ البحرَ حتى نزل بساحل اليمن ومعه دَوْسٌ ، فسار إليه ذُو نُؤاس في حَيْر ،
ومن أطاعه من قبائل اليمن ، فلما اتقوا انهزم ذُو نُؤاس وأصحابه ، فلما رأى
ذُو نُؤاس ما نزل به وبقومه وجه فرسه إلى ^(١) البحر ، ثم ضر به فدخل به ،
نخاض به ضِحْضَاحٍ ^(٢) البحر حتى أنفضى به إلى غمره فأدخله فيه ، فسكان
آخِرَ العهد به .

(١) ابن هشام : في .

(٢) الضحضاح من الماء : الذي يظهر منه القمر ، وكان أصله من الضح وهو حر الشمس
كأن الشمس تداخله لقلته فقلبت فيه إحدى الحاءين ضادا كما قالوا في ثرة : ثرارة وفي تملل : تملل .

ودخل أرياطُ اليمنَ ، فملكها .

[بين أرياط وأبرهة]

فأقام بها سدين في سلطانه ذلك ، ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهةُ الحبشى ، حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فأنحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ، ثم سار أحدهما إليهم الآخر ، فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط أنك لا تصنع بأن تلتقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفديها شيئاً ، فأبرز لى وأبرز لك ، فأبدا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده . فأرسل إليه أرياط : أنصفت .

فخرج إليه أبرهة ، وكان رجلاً قصيراً لحيماً^(١) ، وكان ذا دين في النصرانية ، وخرج إليه أرياط ، وكان رجلاً عظيماً جميلاً طويلاً ، وفي يده حرباً له ، وخلف أبرهة غلام له يقال له عتودة^(٢) يمتع ظهره ، فرفع أرياطُ الحربة فضرب أبرهة ، يزيد يافوخه ، فوقمت الحربة على جهة أبرهة ، فشرمت حاجبه وأذنه وعينه وشفته ، فبذلك سمي أبرهة الأشرم .

وجعل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله .

فانصرف جدد أرياط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ، وودى^(٣) أبرهةُ أرياطاً ،

فلما بلغ ذلك النجاشي غضب غضباً شديداً وقال : عدداً على أميري فقتله بغير أمري ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطا بلاده ويجز ناصيته .

فخلق أبرهة رأسه وملاً جراباً من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشي ،

(١) أى سمينا .

(٢) قال السهيلي : العتودة : الشدة في الحرب .

(٣) وداه : أدى ديبته .

وكتب إليه : أيها الملك إنما كان أرباط عبّدك ، وأنا عبّدتك ، اختلافنا في أمرك ، وكل طاعته لك ، إلا أنى كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس منه وقد حلقت رأسي كله حين بلغنى قسم الملك ، وبمشت إليه بجراب من تراب أرضي ليضعه تحت قدميه ، فيبترّ قسمه في .

فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضى عنه ، وكتب إليه : أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى .

فأقام بها .

ثم إن أبرهة بنى القليس بصنعاء ، فبنى كنيسة لم يُرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْنَ مثلها لك كان قبلك ، ولست بمقتدٍ حتى أصرف إليها حجّ العرب .

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من النساء^(١) أحد بنى فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، فخرج حتى أتى القليس فأحدث فيها ، ثم لحق بأرضه ، فأخبر بذلك أبرهة ، فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : رجل [من العرب]^(٢) من أهل هذا البيت الذي تمجج العرب إليه بمكة ، لما سمع قولك « أصرف إليها حجّ العرب » [غضب فجاء ففقد فيها]^(٣) أى أنها ليست لذلك بأهل .

فغضب عند ذلك أبرهة ، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه .

(١) سبق الحديث عن النساء من ٨٠

(٢) من ابن هشام .

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم ساروا^(١) وخرج معه بالفيل .
وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ،
حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام .

ففرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو أنف ،
فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله ،
وما يريد من هدمه وإخراجه .

فأجابه من أجابه إلى ذلك ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو أنف وأصحابه ،
وأخذ له ذو أنف فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو أنف : أيها الملك
لا تقتلني ، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى .

وكان أبرهة رجلاً حليماً ، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم
عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم : شهبران وناهس ، ومن تبعه
من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة ، وأخذ له نفيل أسيراً فأتى به ، فلما تم
بقتله قال نفيل : أيها الملك لا تقتلني فإنى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى
لك على قبيلتي خثعم ، شهبران وناهس ، بالسمع والطاعة .

فخلى سبيله وخرج به معه يده .

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن ممتب بن مالك الثقفى في رجل
مقيف ، فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس

(١) ابن هشام : سار .

عندنا لك خلاف ، وليس يبقنا هذا البيت الذي تريد . يعنون اللات ،
إنما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه .

فتجاوز عنهم . واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ،
فبعثوا معه أبارغال يدلّه على الطريق إلى مكة .

نفرج أبرهة ومعه أبارغال ، حتى أنزله الممّس^(١) ، فلما أنزله به
مات أبارغال هنالك ، فرجت قبره العرب ، فهو القبر الذي يرمم
الناس بالممّس .

فلما نزل أبرهة بالممّس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود
على خيل له حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش
وغيرهم ، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير
قريش وسيدها .

فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنه
لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة حنظلة الحميري إلى مكة وقال له : سل عن سيّد أهل هذا
البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آتٍ لحربكم ،
إنما جئت لهذا البيت ، فإن لم تعرّضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم .
فإن هو لم يرّض حربى فائتني به .

فلما دخل حنظلة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له :
عبد المطلب بن هاشم .

(١) موضع بطريق الطائف على ثلثي فرسخ من مكة . ويضبط بفتح الميم الثانية وكسرهما .
انظر الروس الأنف ١ / ٤٣ .

فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربته وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم . أو كما قال : فإن يمدحه مِنْهُ فهو بيته وحرمة ، وإن يُخَلِّ بِيدِهِ وبيته ، فوالله ما عندنا دَفْعٌ عنه .

فقال حنظلة : فانطلق إليهِ ، فإنه قد أمرني أن آتية بك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيهِ ، حتى أتى المسكِرَ فسأل عن ذى نَفر ، وكان له صديقاً ، حتى دخل عليه في تحبسه فقال له : يا ذا نَفر هل عندك من غنَاءٍ فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نَفر : وما غنَاء رجل أسير في أيدي ملك^(١) يَنتظر أن يقتله غُدواً أو عَشِيماً^(٢) ما عندى غنَاء في نفسى مما نزل بك ، إلا أن أنيساً سائس النَبل صديق لى فسأرسِل إليهِ فأوصيه بك وأُعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمهُ بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . قال : حسبي .

فبعث ذو نَفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عير مكة يطعم الناس بالسَّهل والوحوشَ في رموس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير ، فاستأذن له عليه وانعمه عنده بما استطعت . قال : أفعَل .

فكلم أنيس أبرهة قال له : أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، فأذن له فليكلمك في حاجته .

ووصفه له بما وصفه ذو نَفر لأنيس .

(١) ابن هشام : بيدي ملك .

(٢) ابن هشام : ما عندنا ، وما هنا أولى .

فأذن له أبرهة ، وكان عبد المطلب أوْسمَ الناس وأَجَلَه وأَعْظَمَه^(١) ، فلما رآه أبرهة أَجَلَه وأَكْرَمَه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان . فقال : حاجتي أن يردَّ عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبُني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ! أتسكمني في مائتي بعير أصبَتْها لك ، وتترك بيتاً هو دينُك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تسكمني فيه ! ! .

قال عبد المطلب : [إني]^(٢) أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه . قال : ما كان ليمنع مني . قال : أنت وذاك .

ويزعم بعض أهل العلم أنه كان ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة يَمْتَرُ بنُ نُفَاقَةَ بنِ عَدَى بنِ الذُّثَلِ بنِ بَكْرِ بنِ عَبْدِ مَنَافَةَ بنِ كِنَانَةَ ، وهو يومئذ سيد بني بكر ، وخويلد بن وائلة المذلي ، وهو يومئذ سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة . تلك أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم . فالله أعلم ، أكان ذلك أم لا .

فردَّ أبرهةُ على عبد المطلب الإبلَ التي أصاب له ، فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّزَ في شَمَفِ الجبال والشعاب ، تخوفاً عليهم من مَعَرَّةِ الجيش .

(١) ذكر سيديويه هذا الكلام محكيًا عن العرب ، ووجهه عندهم أنه محمول على المعنى ، فكأنك قلت : أحسن رجل وأجمل ، فأفرد الاسم المضر التناقياً إلى هذا المعنى ، ويصح حمله على الجنس ، كأنه حين ذكر الناس قال : هو أجمل هذا الجنس من الخلق .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش
يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة [وجنده]^(١) .

فقال عبد المطلب وهو آخذٌ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَاَمْنَعُ حِلَالَكَ^(٢)
لَا يَنْفِلِينَ صَالِيَهُمْ وَنَحْنُ غَدَاؤُا مَحَالِكَ^(٣)

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش
إلى شتف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعلٌ بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تهباً لدخول مكة وهيئاً فيله وعبي جيشه . وكان اسم الفيل
محمودا ، وأبرهة يُجمعُ لمذم البيت والانصراف^(٤) إلى اليمن ، فلما وجهوا الفيل
إلى مكة قام نفيل بن حبيب إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال له : ابرك
وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك
الفيل وخرج نفيل يشهد حتى أصعد في الجبل .

وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوه في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ،
فأدخلوا محاجن لهم في مرقاه فبزغوه^(٥) بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن
فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل
مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك .

(١) من ابن هشام .

(٢) اللال جمع حلة بكسر الهمزة ، وهي جماعة البيوت وتطلق على القوم المجتمعين .

(٣) المحال : القوة ، وغدوا : غدا ، استعمل تاما ولا يستعمل كذلك إلا في الشعر .

(٤) ابن هشام : ثم الانصراف .

(٥) الطبرزين : آلة من حديد كالقأس ، والمحاجن جمع محجن : وهي عصا موهجة ،

والمران : مارق من البطن ولان ، وبزغوه : أدموه .

فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخَطَّاطِيفِ والبَّاسَانَ^(١) مع كل طائر
منها ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره وحجران في رجليه ، أمثال الخَطَّاطِيفِ والعدس
لا تصيب أحدا منهم إلا هلك ، وليس كلُّهم أصابت .

وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا ويسألون عن نفييل بن
حبيب ليدهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفييل حين رأى ما أنزل الله بهم
من نعمته :

أين المفرُّ والإله الطالبُ
والأشرمُ المقلوبُ ليس الغالبُ !

وقال نفييل أيضا :

ألا حَيِّيتِ عِنا يا رُدَيْنا
نَعَمِنَا كَمِ مع الإصباحِ عَيْنَا
رُدَيْنَةَ لو رأيتِ ولا تَرَيْتِ
لدى جَنبِ الحَصْبِ ما رأينا
إذا لَمَذَرْتِني وحمَدتِ أَمْرِي
ولم تَأْتِي عِلى ما فاتِ بَيْنَنَا^(٢)
حمَدتُ الله إذ أبصرتُ طيراً
ونخفتُ حجارةً تُلْقِي عَلَيْنَا
وكلُّ القومِ يَسْأَلُ عَن نُفَيْيلِ
كَأَن عِلىَّ لَلْحُبُشَانِ دَيْنَا

(١) الخطاطيف جمع خطاف وهي طيور سوداء ، والبلسان كما نقل ابن الأثير : يظن
أنها الزرازير .

(٢) بينا : نصب نصب المصدر المؤكد لما قبله إذ كان في معناه ولم يكن على لفظه .

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهاكون [بكل متهلك^(١)] على كل منهل ،
وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، كلما سقطت أنملة
منها أتبعها مِدَّة تمث^(٢) قبيحا ودما ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ،
فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، فيما يزعمون .

ويقال إنه أول ما رُئيت الحَصْبَة والجُدْرَى بأرض العرب ذلك العام ، وإنه
أول ما رُئى بها مرأى الشجر الحرْمَل والحَنْظَل والعُشْر ذلك العام .

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم كان مما يعذُّ الله على قريش من نعمته
عليهم وفضله ، ما ردَّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال تبارك
وتعالى : « ألم ترَّ كيفَ فعلَ ربُّك بأصحاب الفيل ، ألم يجعلْ كيدَهُمْ
في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيلٍ فجعلهم
كمنصفٍ ما كول » .

وقالت عائشة رضی الله عنها : لقد رأيتُ قائد الفيل وسائسه بمكة أحميين
مُتعددين يستطمان .

قال ابن إسحاق : فلما ردَّ الله الحبشة عن مكة وأصابهم ما أصابهم به من
الدمعة ، أعظمت العربُ قريشا ، وقالوا : هم أهل البيت ، قاتل الله عنهم وكفاهم
مؤنة عدوهم ، فقالوا في ذلك أشعاراً يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما ردَّ
عن قريش من كيدهم ، فقال عبد الله بن الزُّبَيْرِ السَّهْمِي :

(٢) تمث : ترشح .

(١) من ابن هشام

تَدَّكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ لِأَنَّهَا
كَانَتْ قَدِيمًا لَا يُرَامُ حَرِيمُهَا
لَمْ تُخْلَقِ الشُّعْرَى لِيَالِي حُرْمَتِ
إِذْ لَا عَزِيزَ مِنَ الْأَنَامِ يَرُومُهَا
سَائِلِ أَمِيرِ الْجَيْشِ^(١) عَنْهَا مَا رَأَى
وَلَسَوْفَ يُنْبِئِي الْجَاهِلِينَ عَلَيْهِمُهَا
سَتُونَ أَلْفًا لَمْ يُؤُوبُوا أَرْضَهُمْ
بَلْ لَمْ يَمِيشْ بِمَدِّ الْإِيَابِ سَقِيمُهَا
كَانَتْ^(٢) بِهَا عَادٌ وَجُرْمٌ قَبْلَهُمْ
وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ الْعِبَادِ يَقِيمُهَا

وقال أبو قيس بن الأسَدَاتِ الأنصاري ثم الخطمي ، من قصيدة سيأتي
ذكرها بجملة ما :

فَقُومُوا فَصَلُّوا رَبَّكُمْ وَتَمَسَّحُوا
بِأَرْكَانِ هَذَا الْبَيْتِ بَيْنَ الْأَخْشَابِ
فَعَنْدَكُمْ مِنْهُ بِلَا مَعْدَقٍ
غِدَاةَ أَبِي يَكْسُومِ هَادِي الْكُتَابِ
كَدَيْبَتُهُ بِالسَّهْلِ تَمَشِي وَرَجُلُهُ
عَلَى الْقَاذِفَاتِ فِي رَعُوسِ الْمُنَاقِبِ

(١) ابن هشام : أمير الجيش .

(٢) ابن هشام : دانت .

فلما أناكم نصرُ ذى العرش ردم
جنودُ المليك بين سافٍ وحاصبٍ^(١)
فولوا سراعا هاربين ولم يؤب
إلى قومه ملجئش غيرُ عصابٍ

وقالت سُبَيْعَةُ بنت الأَحَبِّ بن زُبَيْبَةَ من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن
ابن منصور ، لابنها خارجة بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة ،
تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغى فيها وتذكر تبعاً وتذللها ، والغيل
وهلاك جيشه عندها :

أُبْنَى لا تَظْلِمَ بِمَكَّةَ لا الصَّغِيرَ ولا الكَبِيرَ
واحفظ محارمها بُنَى ولا يفرِّك الفُرُورَ
أُبْنَى من يَظْلِمَ بِمَكَّةَ يَبْقَى أطرافَ الشرورِ
أبْنَى يُضْرَبُ وجْهُهُ وَيُلْعَجُ بِخَدَيْهِ السَّمِيرُ
أبْنَى قد جَرَّبَتْهَا فوجدتُ ظالمها يَبُورُ
اللهُ آمَنَهَا وما بنيتُ بعرضتها قصورُ
واللهُ آمَنَ طيرها والمُصَّمَّ^(٢) تَأْمَنُ في تَبِيرِ
ولقد غزاهما تَبِعٌ فكسا بِنْدِيَّتِهَا الحَبِيرُ
وأذلَّ ربى مُلْكَهُ فيها فأوثقَ بالفُذورِ
يمشى إليها حافياً بفنائها ألفا بعير
ويظلُّ يُطْعِمُ أهلها لَحْمَ المَهَارَى^(٣) والجَزُورِ

(١) الساقى الذى يرمى بالتراب ، والحاصب : الذى يرمى بالحصاب .

(٢) المعصم : الوعول ، وشير جبل بمكة .

(٣) المهارى : جمع مهريه ، لابل منسوبة لى مهرة بن حيدان .

يسقيهمُ العسلَ المصنوعَ والرحيضَ من الشعير
والفيلَ أَهْلَكَ جَيْشَهُ يُرْمَوْنَ فِيهَا بالصخور
والمَلَكُ فِي أَقْصَى الْبِلَادِ وَفِي الْأَعْجَامِ وَالْجَزِيرِ^(١)
فاسمع إذا حَدَّثَتْ وَأَفْسَهُمْ كَيْفَ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ

ولم يزل شعراء أهل الجاهلية يذكرون ذلك في أشعارهم معتدّين بصنع الله
فيه ، وقد جرى على ذلك شعراء الإسلام ، فقال الفرزدق بن غالب التميمي ،
يمدح سليمان بن عهد الملك بن مروان ويعرض^(٢) للحجاج بن يوسف ، ويذكر
الفيلَ وجيشه :

فلما طَمَعَنِي الْحَجَّاجُ حِينَ طَأَنِي بِهِ
غِيَتِي قَالَ إِنِّي مُرْتَقِي فِي السَّلَامِ
فَكَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ فَوْحٍ سَأَرْتَقِي
إِلَى جَبَلٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَاءِ عَاصِمِ
رَمَى اللَّهُ فِي جُثْمَانِهِ مِثْلَ مَارِي
عَنِ الْقَبِيلَةِ الْبَيْضَاءِ ذَاتِ الْحَارِمِ
جَنُودًا تَسُوقُ الْفَيْلَ حَتَّى أَعَادَمِ
هَبَاءً وَكَانُوا مُطْرَخِي^(٣) الطَّرَاخِمِ
فُهِرْتِ كَنْهَرِ الْبَيْتِ إِذْ سَاقَ فِيهِ
إِلَيْهِ عَظِيمُ الْمُشْرِكِينَ الْأَعْجَامِ

* * *

(١) الجزيرة: يحتمل أن تكون جمع جزيرة بلاد العرب. وتروى: والجزير. أمة من العجم.
(٢) ابن هشام: ويهجو الحجاج.
(٣) الطرخم: المتلىء كبرا وغضبا وجمه الطراخم.

قال ابن إسحاق : فلما هلك أبرهة مَلَكَ الحبشة ابنُه يَكْسوم بن أبرهة ،
وبه كان يُكنى ، فلما هلك يكسوم مَلَكَ اليمنَ في الحبشة أخوه مسروق
ابن أبرهة .

[سيف بن ذى يزن]

فلما طال البلاء على أهل اليمن ، خرج سيفُ بن ذى يزن الحِمْيَري حتى قدم
على قيصر ملك الروم ، فشكا إليه ما هم فيه ، وسأله أن يخرجهم عنه ، ويلبهم
هو ، ويبعث إليهم مَنْ شاء من الروم . فلم يُشْكِهِ .

نفرج حتى أتى النعمان بن المنذر ، وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من
أرض العراق ، فشكا إليه أمرَ الحبشة ، فقال له النعمان : إن لى على كسرى وفادةً
في كل عام ، فأقيم حتى يكون ذلك . ففعل .

ثم خرج معه فأدخله على كسرى ، وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي
فيه تاجه ، وكان تاجه مثل القنقل^(١) العظيم ، فيما يزعمون ، يُضرب فيه الياقوت
والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة ، معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقه في
مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجه ، إنما يُستر بالثياب حتى يجلس في مجلسه
ذلك ، ثم يدخل رأسه في تاجه ، فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب ،
فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا بَرَكَ هيبةً له .

فلما دخل عليه سيفُ بن ذى يزن بَرَكَ . وقيل إنه لما دخل عليه طأطأ
رأسه ، فقال الملك : إن هذا لأحق أن يدخل على من هذا الباب الطويل ثم
يطأطأ رأسه !

(١) القنقل : المسكيات .

فقيل ذلك لسيف ، فقال : إنما فعلت هذا لعمى ، لأنه يضيق عنه كل شيء .
ثم قال : أيها الملك ، غلبنا على بلادنا الأخرية .
فقال كسرى : أي الأخرية ؟ الحبشة أم السند ؟
قال : بل الحبشة ، فحياتك لقد صرنا ويكون ملك بلادى لك .
قال : بمدت بلادك مع قلة خيرها ، فلم أكن لأورط جيشا من فارس بأرض
العرب ، لا حاجة لى بذلك .
ثم أجازته بعشرة آلاف درهم وافر ، وكساه كسوة حسنة .
فلما قبض ذلك سيف خرج فجعل يذتر تلك الورق للناس .
فبلغ ذلك الملك فقال : إن لهذا لشأنا .
ثم بعث إليه فقال : عمدت إلى حياء الملك تذتره للناس !
فقال : وما أصنع بهذا ؟ ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهب وفضة .
يرغبه فيها .
فجمع كسرى مرازبته^(١) فقال : ماذا ترون فى أمر هذا الرجل وما جاء له ؟
فقال قائل : أيها الملك إن فى سجونك رجالا حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم
معه ، فإن يهلكوا كان ذلك الذى أردت ، وإن ظفروا كان ملكا ازددته .
فبعث معه كسرى من كان فى سجونه ، وكانوا ثمانمائة رجل ، واستعمل عليهم
[رجلا منهم يقال له^(٢)] وَهْرَزُ وَكَانَ ذَائِنًا فِيهِمْ وَأَفْضَلُهُمْ حَسْبًا وَبَيْتًا ، فخرجوا
فى ثمان سفائن ففرقت سفينتان ووصلت إلى ساحل عدن ست سفائن .

(١) مرازبته : وزراءه .

(٢) من ابن هشام .

. فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه وقال له : رجلى مع رجلك حتى
تموت جميعاً أو نظفر جميعاً . قال له وهرز : أنصفت .

وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن وجمع إليه جاوذه ، فأرسل إليهم
وهرز ابناً له ليقاتلهم فيختبر قتالهم ، فقتل ابن وهرز ، فزاده ذلك حنقاً عليهم .

فلما تواقف الناس على مصافهم قال وهرز : أروني تليكم . قالوا له : أنرى
رجالاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه ، بين عينيه ياقوتة حمراء ؟

قال : نعم . قالوا : ذلك تليكم . قال : أتركوه .

فوقفوا طويلاً ثم قال : علام هو ؟ قالوا : قد تحول على الفرس . قال :

أتركوه .

فوقفوا طويلاً . ثم قال : علام هو ؟ قالوا : على البقلة . قال وهرز : بنت
الحمار ا ذلّ وذللّ مذكّه ، إني سأرميه ، فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى
أوزنكم ، فإنى قد أخطأت الرجل ، وإن رأيتم القوم قد استداروا ولائوا به^(١)
فقد أصبت الرجل ، فاحملوا عليهم .

ثم أوتر قوسه ، وكانت فيما يزعمون لا يُوترها غيره من شدتها ، وأمر
بجانبه فمصبأه ، ثم رمى فصبك الياقوتة التي بين عينيه فتغلغلت النشابة في
رأسه حتى خرجت من قفاه ؟ ونكس عن دابته ، واستدارت الحبشة ولائت به ،
وحملت عليهم الفرس وانهمزوا فقتلوا وهربوا في كل وجه .

وأقبل وهرز ليدخل صنعاء ، حتى إذا أتى بابها قال : لا تدخل رايقي منكسة
أبداً ، اهدموا الباب . فهدم ، ثم دخلها ناصباً رايقه .

(١) أى التفوا حوله .

وقال في ذلك أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ، وتروى لابنه أمية بن
أبي الصلت :

يَطْلُبُ الوِثْرَ أمثالُ ابنِ ذِي يَزَنِ
رِيمٌ في البَحْرِ^(١) للأَعْدَاءِ أَحْوالاً
يَمِّمَ قَيْصَرَ لِمَا حَازَ^(٢) رِحْلَتَهُ
فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ بَعْضَ الَّذِي سَأَلَ
حَتَّى أَتَى بِنِي الأَحْرَارِ يَحْمَلُهُمْ
إِنَّكَ عَمْرَى لَقَدْ أَسْرَعْتَ قَلْقَالاً^(٣)
لِلَّهِ دَرُّهُمْ مِنْ عَضْبَةٍ خَرَجُوا
مَا إِنْ أَرَى لَهُمْ فِي النَّاسِ أمثالاً
بَيْضاً مَرَازِبَةً غُلْباً أَسَاوِرَةً
أَشْدَّ تَرْتِيبُ فِي الغَيْضَاتِ أَشْبَالاً
أَرْسَلَتْ أَشْدَّ عَلَى سُودِ الكَلَابِ فَقَدْ
أَضْحَى شَرِيدُهُمْ فِي الأَرْضِ فُلَّالاً^(٤)

(١) كذا في ابن هشام وأكثر النسخ : ريم في البحر . وقد شرحها السهيلي بقوله :
ريم في البحر أي أقام فيه وذكر اشتقاقه فقال : « وريم ليس من رام وإنما هو من الريم وهو
الدرج ، أو من الريم الذي هو الزيادة والفضل ، أو من رام يريم إذا برح ، كأنه يريد : فاب
زمانا وأحوالا ثم رجع للأعداء أو ارتقى في درجات المجد أحوالا ، إن كان من الريم الذي هو
الدرج . ووجدته في غير هذا الكتاب : خيم » .

وفي ط : مذ أم في البحر . ولعل بما يساعد عليها قوله بعد : يمم قيصر .

(٢) ابن هشام : لما حان .

(٣) القفال : شدة الحركة .

(٤) فللا : منهزمين .

فأشرب هديئاً عليك التاجُ مرتفعاً^(١)
في رأسِ عُمدان^(٢) داراً منكٍ محلاً لا
وأشرب هديئاً فقد شالتُ نعماتهم
وأَسْبَلِ اليومَ في بُردَيْكِ إسبالاً
تلك المكارمُ لا قعبان من لبن
شيباً بماه فعاداً بعدُ أبوالاً^(٣)

وأقام وهرزُ والقرسُ باليمن ، فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء^(٤)
الذين باليمن اليوم .

وكان مُلك الحبشة باليمن منذ دخلها أرباط إلى أن أخرجتهم الفرس
عنها اثنتين وسبعين سنة ، وفق ما ذكره سَطِيحٌ وشِقٌّ في تأويل رؤيا ربيعة
ابن نصر .

ثم مات وهرز ، فأمر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن ، ثم مات المرزبان
فأمر كسرى ابنه التَّيْمُجَان^(٥) بن المرزبان ، ثم مات فأمر كسرى ابن التَّيْمُجَان ،
ثم عزله وولى باذان ، فلم يزل عليها حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغ مَنبَعُهُ^(٦) كسرى كتب إلى باذان : إنه بلغني^(٧) أن رجلاً من قريش
خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فسر إليه فاستتبه ، فإن تاب وإلا قابعث إلى برأسه .

(١) ابن هشام : مرتفعاً .

(٢) عُمدان : قصر كان باليمن بناه يشرح بن يصب .

(٣) نسب ابن هشام هذا البيت للناطقة الجعدى ونفاه عن أبي الصلت .

(٤) قالو النهاية : ويقال لأولاد فارس الأبناء ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيوف بن ذى يزن .

(٥) في الطبري طبع أوربا : التيمجان .

(٦) في السير أن الرسول صلوات الله عليه أرسل إلى كسرى كتناً ، وخزره مشهور .

(٧) ط : بائنه .

فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد وعدني أن يُقتل كسرى في يوم كذا من شهر كذا .

فلما أتى باذان الكتابُ توقّف ينظر وقال : إن كان نبيا فسيكون ما قال .
فقتل الله كسرى على يد ابنه شيرويه في اليوم الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال الرسل من الفرس : إلى من نحن يا رسول الله . قال : أتممنا وإليها أهل البيت .

قال الزهري : فمن ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلّمنا من أهل البيت .



وكل هذه الأخبار وإن قطعت بعض ما كنا بسبيله من أمر بني قُحَيّ فلما أيضا من الإفادة بنحو ما قصدناه وحسن الإمتاع^(١) بالشأن المناسب لما اعتمدناه ما يُحسّن اعتراضها ويُنظّم في سلك واحدٍ مع ما مرّ من ذلك أو يأتي ، أغراضها .

وعليها بمعونة الله في تجويد الترتيب لذلك كله تطبيقي المنفصل وردّه هذه

(١) ت : الإمتاع .

الأحاديث المتفرقة في حكم الحديث المتصل ، فنطيل ولا نُملِّ ، ونُقصر فلا نخِل .
كل ذلك بركة المختار الذي يَمُنَّا تخليداً أو ليقته ، وتُيَمِّنا بخدمة آثاره وسيرته ،
صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأكرمين وصحابتهم

[عَوْدٌ إِلَى أَبْنَاءِ قُصَيٍّ]

وكنا اتهمنا من شأن بني قُصَيٍّ بمداه ، إلى ما تراضوا به بينهم من الصلح على
أن تكون السُّقَايَةَ والرفادة لبني عبد مناف ، وتسكون حِجَابَةُ البيت واللاواء
والغدوة لبني عبد الدار ، على نحو ما جعله قُصَيٌّ إلى أبيهم .

فولى السُّقَايَةَ والرفادة هاشمُ بن عبد مناف .

وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سفاراً قلماً يقيم بمكة ، وكان مُقللاً ذا ولد
كثير ، وكان هاشم موسراً ، وكان فيما يزعمون ، إذا حضر الحجُّ قام صبيحة
هلال ذى الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيحضر قومه على
رفادة الحاجِّ التي سنَّها لهم قُصَيٌّ ، ويقول لهم في خطبته :

يا معشر قريش ، أتم سادة العرب ، أحسنها وجوهاً ، وأعظمها أحلاماً ،
وأوسط العرب أنساباً ، وأقرب العرب للعرب أرحاماً .

يا معشر^(١) قريش ، إنكم جيران بيت الله ، أكرمكم الله بولايته وخصمكم
بجواره دون بني إسماعيل ، حَفِظْ مِنْكُمْ أَحْسَنَ مَا حَفِظَ جَارٌ مِنْ جَارِهِ ،
وإنه يأتىكم في هذا الموسم زُوراً اللهُ ، يعظّمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله ،
وأحق للضيف بالكرامة ضيفه ، فأكرموا ضيفه وزواره ، فإنهم يأتون شُعُفًا

(١) لم يذكر ابن هشام ما سبق من أول الخطبة إل هنا . وهنا زيادة عما ذكره
ابن هشام .

غُيْرًا مِنْ كُلِّ بِلَادٍ عَلَى ضَوَائِرِ كَالْقِدَاحِ (١) ، وَقَدْ أَرْحَفُوا وَأَرْمَلُوا (٢) فَاقْرُؤْهُمْ وَأَعِينُوهُمْ ، فَوَرَبُّ هَذِهِ الْبَيْدِيَّةِ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ يَحْمِلُ ذَلِكَ لَكَفَيْتُكُمْوه ، وَأَنَا مُخْرَجٌ مِنْ طَيِّبٍ مَالِي وَحَلَالِهِ ، مَا لَمْ تُتَقَطَّعْ فِيهِ رَحِمٌ ، وَلَمْ يُوْخَذْ بِظَلْمٍ ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِيهِ حَرَامٌ فَوَاضِعُهُ ، فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فَعَلِهِ . وَأَسْأَلُكُمْ بِحَرَمَةِ هَذَا الْبَيْتِ أَلَّا يُخْرَجَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مِنْ مَالِهِ لِكِرَامَةِ زَوَارِ بَيْتِ اللَّهِ وَمَعْوَتِهِمْ إِلَّا طَيِّبًا لَمْ تُتَقَطَّعْ فِيهِ رَحِمٌ ، وَلَمْ يُوْخَذْ غَصْبًا .

فَكَانَتْ بَدُو كَعْبِ بْنِ لَوْيٍ وَسَائِرِ قُرَيْشٍ يَحْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ وَيَتَرَاذِلُونَ عَلَيْهِ ، وَيُخْرِجُونَ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى يَأْتُوا بِهِ هَاشِمَ بْنَ عَبْدِ مَنَافٍ فَيَضَعُوهُ فِي دَارِهِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَهْلُ الْبَيْتِ لِيُرْسَلُونَ بِالشَّيْءِ الْيَسِيرِ عَلَى قَدْرِهِمْ . وَكَانَ هَاشِمٌ يُخْرِجُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَالًا كَثِيرًا . وَكَانَ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَهْلَ يَسَارٍ ، رُبَّمَا أُرْسِلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ بِمِائَةِ مِثْقَالٍ هِرَقْلِيَّةٍ .

وَكَانَ هَاشِمٌ يَأْمُرُ بِحِيَاضٍ مِنْ أَدَمٍ ، فَتَجْعَلُ فِي مَوْضِعٍ زَمَزَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحْفَرُ ، ثُمَّ يُسْتَقَى فِيهَا مِنَ الْبِيَارِ الَّتِي بِمَكَّةَ ، فَيَشْرَبُ الْحَاجُّ .

وَكَانَ يَطْعَمُهُمْ أَوَّلَ مَا يَطْعَمُهُمْ بِمَكَّةَ قَبْلَ التَّزْوِيَةِ بِيَوْمٍ ، ثُمَّ بِنْتَى ، وَيَجْمَعُ وَعُرْفَةَ ، يُثْرِدُ لَهُمُ الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ ، وَالْخُبْزَ وَالسَّمْنَ ، وَالسُّوْيُقَ وَالقَمْرَ ، وَيَحْمِلُ لَهُمُ الْمَاءَ ، فَيَطْعَمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ حَتَّى يَصْدُرُوا .

وَكَانَ اسْمُ هَاشِمٍ عَمْرًا ، وَيُقَالُ لَهُ عَمْرُو الْعَلَا . وَإِنَّمَا سَمِيَ هَاشِمًا لِهُشْمِهِ الْخُبْزَ بِمَكَّةَ لِقَوْمِهِ ، وَهُوَ فِيمَا يَذْكُرُونَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّحْلَتَيْنِ لِقُرَيْشٍ ، رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُ شُعْرَائِهِمْ :

(١) القداح : جمع قدح ، وهو السهم .
(٢) أرحفوا : أعيوا . وأرملوا : نفد زادهم .

عَمُرُوا الْعُلَا^(١) هَاشِمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ
قَوْمِ بَمَكَةَ^(٢) مُسْنِنَتَيْنِ عَجَافٍ
سُنَّتْ إِلَيْهِ الرَّحْلَتَانِ كِلَاهِمَا
سَفَرُ الشِّتَاءِ وَرِحْلَةُ الإِصْيَافِ

وذلك أن قريشاً كانوا قوماً تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ،
إنما يقدم الأعاجم بالسلع فيشترون منهم ويتبايعون فيما بينهم ، ويبيعون
من حولهم من العرب .

فلم يزالوا كذلك حتى ذهب هاشمٌ إلى الشام ، فكان يذبح كل يوم شاةً ،
فيصنع جفنةً ثريد ، ويدعو من حوله فيأكلون .

وكان هاشمٌ من أحسن الناس وأجملهم ، إلى شرف نفسه وكرمِ فماله .
فذكرَ قيسرَ قيصر فدعا به فلما رآه وكنهه أعجب به وأدناه منه .

فلما رأى هاشمٌ مكانه منه ، طلب منه أماناً لقومه ليقدّموا بلاده بتجاراتهم .
فأجابهُ إلى ذلك . وكتب لهم قيسرَ كتابَ أمانٍ لمن أتى منهم .

فأقبل هاشمٌ بذلك الكتاب ، فكلما مرَّ بجيٍّ من أحياء العرب أخذ من
أشرافهم إبلاً فألقاه لقومه يأمنون به عندهم وفي أرضهم من غير حافٍ ، إنما هو
أمانُ الطريق .

واستوفى أخذ ذلك من بين مكة والشام ، فأتى قومه بأعظم شيء أتوا به
قط بركةً ، فخرجوا بتجارةٍ عظيمة ، وخرج هاشمٌ معهم ليوفيهم إبلاً ففهم

(١) ابن هشام : عمرو الذي .

(٢) ويروى : ورجال مكة مسنتون عجاف . والمسنتون : الهديون .

الذي أخذ لهم من العرب ، فلم يزل يوفيههم إياه ، ويجمع بينهم وبين العرب حتى قدم بهم الشام .

فهلك هاشم في سفره ذلك بغزاة من أرض الشام .
وكان أول بني عبد مناف هُلكاً .

وخرج المطلبُ بن عبد مناف ، وهو يسمّى الفيضَ اسماً حقيقته وفضله ، إلى اليمن ، فأخذ من ملوكهم أماناً لمن تجرّ من قومه إلى بلادهم ، ثم أقبل يأخذ لهم الإيلاف من كان على طريقه من العرب ، كما فعل أخوه هاشم ، حتى أتى مكة ، ثم رجع إلى اليمن . فمات بِرَدْمَانَ .

وخرج عبدُ شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة ، فأخذ منه أماناً كذلك لمن تجرّ من قريش إلى بلاده ، ثم أخذ الإيلاف من العرب الذين على الطريق إليها حتى بلغ مكة . وتوفى بها فقبره بالْحِجُونَ .

وخرج نوفلُ بن عبد مناف ، وكان أصغرَ ولدِ أبيه إلى العراق ، فأخذ عهداً من كسرى لتجارة قريش ، ثم أقبل يأخذ الإيلاف ممن مرّ به من العرب حتى قدم مكة . ثم رجع إلى العراق فمات بسَلْمَانَ من ناحية العراق .

فجبرَ الله قريشاً بهؤلاء النفر الأربعة من بني عبد مناف ، ففتمت أموالهم ، واتّسمت تجارتهم ، فكان بنو عبد مناف يسمّون لأجل ذلك المُجْبِرِينَ^(١) ، والعرب تسميهم أقداح النُّضَار ، لطيب أحسابهم وكرم فعالهم .

وقال مطرودُ بن كعب الخزاعي يُبَيِّكِيهِمْ جميعاً حين أتاه نعتُ نوفل منهم ،
وكان آخرهم هُلكاً :

(١) ط ت : الهجيزين .

يا ليلة هيجت ليلاني إحدى ليالي القسيات
وما أفاسى من هموم وما عاجت من رزم المنيات
إذا تذكرت أخى فوفاً ذكرنى بالأولييات
ذكرنى بالازر الحمر والأردية الصفرة القشيبات
أربعة كلهم سيد أبنائه سادات لسات
ميت بردمان وميت بسمان وميت بغزات^(١)
وميت أشكن أهداً لدى المحجون^(٢) شرق البنيات
أخلصهم عبد مناف فهم من لوم من لام بمنجاة
إن المغيرات وأبنائها من خير أحياء وأموات
وإنما سماهم المغيرات لأن عبد مناف أباهم كان اسمه المغيرة .

فقيل لمطروود - فيما يزعمون - : لقد قلت فأحسنت ، ولو كان أفحل مما هو
كان أحسن .

قال : أنظروني ليالي . فكث أياماً ثم قال :
يا عين جودي وأذري الدمع وانهمري
وابكى على السر من كعب المغيرات
يا عين واستغفري^(٣) بالدمع واحتفلي
وابكى خبيثة نفسى فى ألدات
وابكى على كل فياض أخى ثقة
ضخم الدسيعة^(٤) وهاب الجزيلات

(١) ابن هشام : عند فزات .

(٢) ابن هشام : لدى المحجوب .

(٣) استغفري : استكثري .

(٤) ضخيم الدسيعة : جزيل العطاء .

تَحْضِرُ الضَّرِيْبَةَ عَلَى الْمَهْمِ مُخْتَلِقِ
جَلْدِ النَّحِيْبَةِ^(١) نَاءِ بِالْعِظَامِ
صَعْبِ الْبَدِيْهِةِ لَا نِيْكَسِ^(٢) وَلَا وَكِيْلِ
مَاضِي الْمَرْزِيْمَةِ مِثْلَافِ الْكَرِيْمَاتِ
صَقْرِ تَوْسَطَ مَنْ كَمَبَ إِذَا نُسِيْهُوا
بِجَبُوْحَةِ الْمَجْدِ وَالشُّمِّ الرَفِيْعَاتِ
ثُمَّ انْدَبِي الْفَيْضَ وَالْفَيْضَ مُطْلَبًا
وَاسْتَخْرَطِي بِمَدِّ فَيَاضِ بِجَمَاتِ^(٣)
أَمْسِي بَرْدْمَانَ عِنَا الْيَوْمَ مِنْتَرَبًا
يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْهِ بَيْنَ أَمْوَاتِ
وَابْكِي ، لَكِ الْوَيْلُ ، إِمَّا كُنْتِ بَاكِئَةً
لَعِبْدِ شَمْسٍ بِشَرْقِ الْبَنِيَّاتِ
وَهَاشِمِ فِي ضَرْيَحِ وَسَطَ بَلْقَمَةِ
تَسْفِي الرِّيَاحُ عَلَيْهِ بَيْنَ غَزَاتِ
وَنُوفَلِ كَانَ دُونَ الْقَوْمِ خَالِصَتِي
أَمْسِي بِسَلْمَانَ فِي رَمْسِ بِمَوَاقِ^(٤)
لَمْ أَلْقَ مِثْلَهُمْ عَجْمًا وَلَا عَرَبًا
إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِهِمْ أَدَمُ الْمَطِيَّاتِ^(٥)

(١) الضريبة والنحيزة : الطبيعة . وناء متحمل .

(٢) النكس : الجبان الذئب .

(٣) استخرط في البكاء : لج واشتد . والجات : الماء المجتمع ويريد به الدم ، وفي ابن هشام :

بعد فيضات بجمات .

(٤) موماة : ففر .

(٥) الأدم : الإبل المشربة سودا أو بياضا ، أو هي البيضاء الواضحة البياض .

أُمِّتْ دِلَارَهُمْ مِنْهُمْ مَعْظَلَةٌ
وَقَدْ يَكُونُونَ زَيْنًا فِي السَّرِيَّاتِ
أَفْنَامُ الدَّهْرِ أَمْ كَلَّتْ سَيُوفُهُمْ
أَمْ كُلُّ مَنْ عَاشَ أَزْوَادُ الْمَنِيَّاتِ
أَصْبَحْتُ أَرْضَى مِنَ الْأَقْوَامِ بِمَدْمُ
بَسْطَ الْوَجْهِ وَالْإِقْدَاءِ التَّحِيَّاتِ
يَا عَيْنَ وَابِكِي أبا الشُّعْثِ الشُّجِيَّاتِ
يَبْكِيهِ حُسْرًا مِثْلَ الْبَلِيَّاتِ (١)
يَبْكِينَ أَكْرَمَ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
يُغْوِلُنَهُ بِدَمْعٍ بَعْدَ عَقَبَاتِ
يَبْكِينَ شَخْصًا طَوِيلَ الْبَاعِ ذَا فَجْرٍ (٢)
أَبِي الْمَضِيْمَةِ فَرَّاحِ الْجَلِيْمَاتِ
يَبْكِينَ عَمْرَوُ الْعَمَلَاءِ إِذْ حَانَ مَصْرَعُهُ
تَمَحَّحَ السَّجِيَّةِ بِسَامِ الْعَشِيَّاتِ
يَبْكِيهِ مَسْتَكِينَاتٍ عَلَى حَزَنِ
يَا طَوْلَ ذَلِكَ مِنْ حُزْنٍ وَعَوَّلَاتِ
يَبْكِينَ لَمَّا جَلَّاهُنَ الزَّمَانُ لَهُ
خُضِرَ الْخُلُودِ كَأَمْثَالِ الْحَمِيَّاتِ (٣)

(١) البليات : جمع بلية وهي الناقة التي كانت تعقل عند قبر صاحبها إذا مات حتى تموت
جوفا وعطشا . وكانوا يظنون أنه يحشد عليها .
(٢) الفجر : العطاء .
(٣) الحميات : الإبل التي تمنع من الماء .

مُحْتَرَمَاتٍ عَلَى أَوْسَاطِهِنَّ لِمَا
جَرَّ الزَّمَانَ مِنْ أَحْدَاثِ الْمَصِيبَاتِ
أَيْتُ لَيْلِي أُرَاعِي النُّجُومَ مِنَ الْمِ
أَبِيكِ وَتَبِكِي مَعِيَ شَجْوَى بُنْيَانِي
مَا فِي الْقُرُومِ لَهُمْ عِدْلٌ وَلَا خَطَرٌ
وَلَا لِمَنْ تَرَكَوْا شَرَّوِي بَقِيَاتِ (١)
أَبْدَانُومَ خ—— يَرُؤُا أَبْدَاءَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ
خَيْرُ النُّفُوسِ لَدَى جَهْدِ الْآلِيَّاتِ
كَمْ وَهَبُوا مِنْ طَيْرٍ سَاحِحِ أَرْنِ
وَمِنْ طَيْرٍ نَهَبِ فِي طَيْرَاتِ (٢)
وَمِنْ سِيُوفٍ مِنَ الْهِنْدِيِّ مُخْلِصَةٍ
وَمِنْ رِمَاحِ كَاشِطَانِ الرَّكِيَّاتِ (٣)
وَمَنْ تَوَابَعُ مَا يُفَضِّلُونَ بِهَا
عَدَدَ الْمَسَائِلِ مِنْ بَدَلِ الْعَطِيَّاتِ
فَلَوْ حَسَبْتُ وَأَحْصَى الْحَاسِبُونَ مَعِيَ
لَمْ أَحْصِ (٤) أَفْعَالَهُمْ تِلْكَ الْهَنْيَّاتِ
هُمْ الْمُدَلُّونَ إِمَّا مَعِشْرَةٌ نَفَرُوا
عِنْدَ الْفَخْرِ بِأَنْسَابِ نَقِيَّاتِ

(١) القروم : السادات . والعدل : المثل . والمروى أيضا : المثل .
(٢) الطمر : الفرس الخفيف ، والأرن : النشيط .
(٣) الأشطان : الحبال ، والركيان : الآبار .
(٤) ابن هشام : لم أفض .

زَيْنُ الْبَيْوتِ الَّتِي خَالُوا مَسَاكِنَهَا
فَأَصْبَحَتْ مِنْهُمْ وَخَشَا خَلِيَّاتِ
أَقُولُ وَالْمَيْنُ لَا تَرْتَقَا مَدَامَعُهَا
لَا يُبْعَدُ اللَّهُ أَصْحَابَ الرِّزِيَّاتِ

وكان هاشم بن عبد مناف قد قدم المدينة فتزوج بها سلمى بنت عمرو أحد بنى
عدى بن النجار ، وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح فيما ذكر ابن اسحق .
قال : وكانت لا تنكح الرجال لشرفها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إن
كرهت رجلا فارتقه .

فولدت لها هاشم عبد المطلب فسمته شيبه ، فتركه هاشم عندها حتى كان
وصيفاً^(١) أو فوق ذلك .
ثم خرج إليه عمه المطلب ليقبضه فيلحقه ببلده وقومه ، فقالت له سلمى :
لست بمرسلة معك .

فقال لها المطلب : إنى غير منصرف حتى أخرج به معى ، إن ابن أخى قد بلغ
وهو غريب فى غير قومه ، ونحن أهل بيت شرف فى قومنا نلى كثيراً من أمرهم ،
ورهنه وعشيرته وبلده خير له من الإقامة فى غيرهم . أو كما قال .

وقال شيبه لعمه المطلب ، فيما يزعمون ، لست بمفارقة إلا أن تأذن لى .
فأذنت له ودفعته إليه ، فاحتمله فدخل به مكة مرديفه على بعيره ، فقالت
قريش : عبد المطلب ابتاعه .

(١) الوصيف : الذى بلغ حد الخدمة .

فبها سُمِّي شَيْبَةُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ .

فَقَالَ الْمَطْلَبُ : وَيَحْكُمُ إِنَّمَا هُوَ ابْنُ أَخِي هَاشِمٍ قَدِمْتُ بِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ .
وَذَكَرَ الزُّبَيْرُ أَنَّ شَيْبَةَ إِنَّمَا سُمِّيَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، لِأَنَّ عَمَّهُ الْمَطْلَبَ لَمَّا قَدِمَ بِهِ مِنْ
يَثْرِبَ وَدَخَلَ بِهِ مَكَّةَ ضَخْوَةً مُرْدِفَةً خَلَقَهُ وَالنَّاسُ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ ، قَامُوا
يُرْحَبُونَ بِهِ وَيَقُولُونَ : مَنْ هَذَا مَعَكَ ؟ فَيَقُولُ : عَبْدٌ لِي ابْتَعْتَهُ بِيَثْرِبَ ، فَلَمَّا كَانَ
الْعِشِيَّةَ أَلْبَسَهُ حُلَّةً ابْتَاعَهَا لَهُ ، ثُمَّ أَجْلَسَهُ فِي مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَأَخْبَرَهُمْ خَبْرَهُ ،
فَجَمَلَ بَعْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ فِي تِلْكَ الْحَلَّةِ فَيَطُوفُ فِي سَكَاكِ مَكَّةَ ، وَكَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ ،
فَيَقُولُونَ : هَذَا عَبْدُ الْمَطْلَبِ . لَقَوْلِ الْمَطْلَبِ فِيهِ ذَلِكَ ، فَاجَّأَ اسْمُهُ عَبْدَ الْمَطْلَبِ ،
وَتُرِكَ شَيْبَةُ .

وَكَانَ يُقَالُ لِعَبْدِ الْمَطْلَبِ شَيْبَةُ الْحَدِّ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ شَيْبَةَ لِأَنَّهُ كَانَ فِي ذَوَابِتِهِ
شَعْرَةٌ بِيضَاءَ .

ثُمَّ وَلِيَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ بَنَ هَاشِمِ السَّقَايَةَ وَالرِّقَادَةَ بِعَدِّ عَمِّهِ الْمَطْلَبِ ، فَأَقَامَهَا لِلنَّاسِ
وَأَقَامَ لِقَوْمِهِ مَا كَانَ آبَاؤُهُ يَقِيمُونَ لِقَوْمِهِمْ مِنْ أَمْرِهِمْ قَبْلَهُ ، وَشَرَّفَ فِي قَوْمِهِ شَرَفًا
لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ آبَائِهِ ، وَأَحْبَبَهُ قَوْمُهُ وَعَظَّمُوا خَطْرَهُ فِيهِمْ .

وَيُقَالُ : كَانَ يَعْرِفُ فِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ نُورَ النَّبُوَّةِ وَهَيْبَةَ الْمَلِكِ .

قَالَ الزُّبَيْرُ : وَمَكَارِمُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ أَحِيطَ بِهَا ، كَانَ سَيِّدَ قُرَيْشٍ
غَيْرَ مَدَافِعِ نَفْسًا وَأَبَا وَبَيْتًا وَجَمَالًا وَبِهَاءٍ وَفَمَالًا وَكَلَالًا .

فَصَلَّى اللَّهُ عَلَى الْمُنتَخَبِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، الْخُصُوصِ بِأَوْلَادِ الْفَخْرِ وَأَخْرِيَّتِهِ ، وَعَلَى
آلِهِ الْأَكْرَمِينَ وَعَهْرَتِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

ذكر حفر عبد المطلب زمزم

وما يتصل بذلك من حديث

مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قد تقدم الخبر عن زمزم أنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام التي سقاه الله حين ظمياً وهو صغير .

وكانت جُرْم دفنتها حين ظمفوا من مكة بين صتمى قريش إساف وناثلة عند مَنحَر قريش ، فبقي أسرها كذلك إلى أن أمر عبدُ المطلب بن هاشم بحفرها .

فذكر ابن إسحق وغيره من حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : قال عبد المطلب : إني لفأثم في الحجر إذ أتاني آت فقال : احفر طيبة . قلت : وما طيبة ؟ ثم ذهب عني .

[فلما كان الند رجعت إلى مضجعي ففتمتُ فيه ، فجاءني فقال احفر برّة . قلت : وما برّة ؟ ثم ذهب عني]^(١) .

فلما كان الند رجعت إلى مضجعي ففتمتُ فيه ، فجاءني فقال : احفر المضمونة . قلت : وما المضمونة ؟ ثم ذهب عني .

فلما كان الند رجعت إلى مضجعي ففتمتُ فيه فجاءني فقال : احفر زمزم . قلت : وما زمزم ؟

(١) من ابن هشام .

قال : لا تُنزف أبداً ولا تُنذَم^(١) ، تُسقى الحبيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل^(٢) .

فلما بين له شأنها ودلّ على موضعها وعرف أنه قد صدق ، غداً بمعه وابنه الحارث ، ليس له يومئذٍ ولدٌ غيره .
فلما بدأ لعبد المطلب الطيُّ كَبُرَ .

فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه ، فقالوا يا عبد المطلب ، إنها بئراً بيدنا لإسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها .

قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر خُصِصت به دونكم وأعطيته من بينكم .

قالوا له : فأنصفنا ، فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها .

قال : اجعلوا بعني وبينكم من شئتم نحاكم إليه .

قالوا : كاهنةُ بني سعد بن هُذَيم^(٣) ، قال : نعم . وكانت بإشراف

الشام .

فركب عبد المطلب ومن نفر من بني أبيه من بني عهد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر . قال : والأرضُ إذ ذاك مفاوِزُ .

قال : فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوِز بين الحجاز والشام فني ماء عبد المطلب وأصحابه ، فظموا حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم ، وقالوا : إننا بمفارة ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم .

(١) لا تنزف : لا يفرغ ماؤها ، ولا يذم لا يقل ماؤها .

(٢) ذكر السهيلي في الروض الأنف تعليلاً لهذه الأوصاف ومناسبتها لمزم وأوصافها .

(٣) في الطبري : سعد هذيم .

فلما رأى عبدُ المطلب ما صنع القومُ وما يتخوفُ على نفسه وأصحابه قال :
ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأينا إلا تَبِعْ رأيتك ، فمَرْنَا بما شئت .

قال : فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حُفْرته لنفسه بما بكم الآن من القوة ،
فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلاً
واحداً ، فضيعةُ رجل واحد أيسرُ من ضيعةِ ركِبِ جميعاً .

قالوا : نَعِم ما أمرتَ به ، فقام كل رجل منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا
ينتظرون الموت عطشاً .

ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا الموت
لا نضرب في الأرض ولا نبتئى لأنفسنا لَمَجْزُ ، فحسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض
البلاد ، ارتحلوا .

فارتحلوا ، حتى إذا فرغوا ، ومَن معهم من قبائل قريش ينتظرون إليهم ما هم
فاعلون ، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجرت من
تحت حُفْمِهَا عَيْنٌ من ماء عَذْبٍ ، فسكَبَ عبد المطلب وكبَّر أصحابه ، ثم نزل
فشرب وشرب أصحابه واستَقَوْا حتى ملأوا أَسْقِيَتِهِمْ .

ثم دعا القبائل من قريش ، فقال : هَلُمُّوا إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا
واستَقُوا .

فجاءوا فشرَبوا واستَقُوا ، ثم قالوا : قد والله قُضِيَ لك علينا يا عبد المطلب ،
والله لأنما حَجَّجُكَ في زمزم أبداً ، إن الذى سقاك الماء بهذه الفلاة أهو الذى سقاك
زمزم ، فارجع إلى سقايتهك راشداً .

فرجع ورجعوا معه ولم يَصِلُوا إلى السكاهة وخلقوا بيده وبينها .

وفي غير حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أن عبد المطلب قيل له حين أمر بحفر زمزم :

ثم ادعُ بالساء الرّوي غير السكدر
بِسُقَى حَبِيبِجِ اللَّهِ فِي كُلِّ مَبْرَةٍ
ليس يُخَافُ مِنْهُ شَيْءٌ مَا عَمَرَ

فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش ، فقال : تتلمّوا أني قد أمرت أن أحفر لكم زمزم ، فقالوا : فهل بُيِّنَ لك أين هي ؟ قال لا . قالوا : فارجم إلى مضجعتك الذي رأيت فيه ما رأيت فإن يك حقاً من الله يبيّن لك ، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك .

فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه فأتي فقييل له :
احفر زمزم ، إنك إن حفرتها لم تندم ، وهي تراث من أبيك الأعظم
لا تنزف أبداً ولا تُندم ، نسق الحبيج الأعظم ، مثل نعام حافل^(١) لم يُقسم ،
ينذر فيها ناذرٌ لمنعم ، تكون ميراثاً وعقداً مُحكم ، ليست كبعض ما قد تتعلم ،
وهي بين الغرث والدم .

فزعوا أنه حين قيل له ذلك قال : وأين هي ؟ قيل : عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غداً .

فذا عبد المطلب ومعه ابنة الحارث وليس له يومئذ ولد غيره ، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها ، بين الوثنيين إساف ونائلة اللذين كانت قريش تفحّر عندهما ذبائحهم .

(١) حافل كثير . :

فجاء بالمعول وقام ليحفّر حيث أمر ، فقامت إليه قريش حين رأوا جده ،
فقالوا : والله لا نتركك تحفر بين وئذينا هذين اللذين ننحرف عندهما .
فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذُبّ عنى فوالله لأمضين^(١) إِمّا أمرت به .

فلما عرفوا أنه غير نازع دخلوا بيده وبين الحفر وكنفوا عنه ، فلم يحفر إلا يسيراً
حتى بداه الطىء ، فكبر وعرف أنه قد صدق ، فلما تمادى به الحفر وجد فيها
غزالين من ذهب ، وهما الفزالان اللذان دفنت جرم فيها حين خرجت من مكة ،
ووجد فيها أسيفاً قديمية^(٢) وأدراعاً .

فقات له قريش : يا عبد المطلب لنا معك فى هذا شريكٌ وحقّ ، قال :
لا ، ولكن هلموا إلى أمرٍ نصفِ بينى وبينكم ، نضرب عليها بالقِداح .
قالوا : وكيف نصنع ؟ قال : أجعل للكعبة قِدحين ولى قِدحين ولكم قِدحين ،
فمن خرج قِدحاه على شىء فهو له^(٣) ومن تخلف قِدحاه فلا شىء له ،
قالوا : أنصفت .

فجعل قِدحين أخضرين للكعبة ، وقِدحين أسودين لعبد المطلب ، وقِدحين
أبيضين لقريش .

ثم أعطوا القداح [صاحب القداح الذى]^(٣) يضرب بها عند هُبَل ، وهُبَل صنم
فى جوف الكعبة ، وهو أعظم أصنامهم ، وهو الذى عنى^(٤) أبو سفيان بن حرب
لَمّا نادى^(٤) يومَ أحد : اعلُ هُبَل ، أى ظهر دينك^(٤) .

(١) نسبة إلى القلعة ، بلد بالهند .

(٢) ابن هشام : كان له . (٣) من ابن هشام

(٤) ابن هشام : يعنى ، قال ، أظهر .

وقام عبد المطلب يدعو الله ، وضرب صاحبُ القِدَاحِ ، نَجْرَجَ الأصفرانِ
على الغزالين ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب ، وتختلف
قِدْحًا قريش .

فضرب عبد المطلب الأسيافَ بابا للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين من
ذهب ، فكان أولَ ذهبِ حُلَيْيْتِه الكعبةُ ، فيما يزعمون .

وذكر الزبير أن عبد المطلب لما أنبَطَ المساء في زمزم حفرها في القرار ثم
بَحَرَها حتى لا تنزِفَ ، ثم بنى عليها حوضا فطفق هو وابنه يَنزِعَانِ عليها
فيملآن ذلك الحوضَ ، فيشرب منه الحاج .

وكان قومٌ حَسَدَةً من قريش لا يزالون يكسرون حوضه ذلك بالليل ويفتسلون
فيه ، فيصُلِحُه عبد المطلب حين يصبح .

فلما أكَثَرُوا فساده دعا عبدُ المطلب ربّه ، فقيل له في المنام : قل :
اللهم إني لا أُحِلُّها لمفتسل ، وهى لشاربِ حِلٍّ وبلٍّ .

فقام عبد المطلب في المسجد فنادى بالذى أرى ، ثم انصرف فلم يكن يفسد
حوضه ذلك عليه أحد من قريش أو يفتسل فيه إلا رُئِيَ في جسده بداء ، حتى
تركوا حوضه ذلك وسقايته فَرَقًا .

وذكر الزبير أيضاً أن عبد المطلب لما حفر زمزم وأدرك منها ما أدرك وجدت
قريش في أنفسها مما أعطى ، فلقية خويلد بن أسد بن عبد العزى ، فقال : يا بن
سلى لقد سقيت ماء رَغْدًا ونفثت عادية حُتْدًا^(١) ، قال : يا بن أسد ، أما إنك

(١) نثلت: حفرت. والمعادية : القديمة كأنها منسوبة إلى عاد ، والمتد : التي لا يجف ماؤها

تشارك في فضائها ، والله لا يساعفني أحدٌ عليها بهر ولا يقوم معي بأزر إلا بذات
له خيراً لصيهر .

فقال خويلد بن أسد :

أقول وما قولي عليهم بسُنَّةِ
إليك ابن سلمي أنت حافرُ زمزمِـ
حفيرة إبراهيم يوم ابن آجرِـ
وركضة جبريل على عهد آدمِـ

فقال عبد المطلب : ما وجدتُ أحداً ورث العلمَ الأقدم غير خويلد بن أسد .

ثم إن عبد المطاب أقام سقايةً زمزم للحجاج ، وكانت قريش تقبل حفر زمزم
قد احتفرت بئارا بمكة ، وكانت خارجا من مكة آبار حفائر قديمة من عهد مرة بن
كعب وكلاب بن مرة وكبراء قريش الاول ، منها يشربون ، فقمت زمزم على
تلك البئار التي كانت قبلها يسقى عليها الحاج .

وانصرف الناس إليها لمكاتها من المسجد الحرام ، وفضلها على ماسواها من
المياه ، ولأبها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وافتخرت بها بنو عبد مناف
على قريش كلها وعلى سائر العرب .

[نذر عبد المطلب]

وكان عبد المطلب فيما يزعمون ، والله أعلم ، قد نذر حين لقي من قريش ما لقي
عند حفر زمزم : لئن وُلِدَ له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى ينعوه ، لينحرن أحدهم
لله عز وجل عند الكعبة .

. فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء به ، فأطاعوه وقالوا : وكيف نصنع ؟
قال : لياخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب اسمه فيه ثم ائتوني ففعلوا ، ثم أتوه فدخل بهم على هيكل في جوف الكعبة ، وكان على بئر في جوف الكعبة ، فيها يُجمع ما يهدى للكعبة ، وكان عند هُبَلٍ قِدَاحٍ سبعةٌ بها يضربون على ما يريدون ، إلى ما تخرج به القداحُ ينتهون في أمورهم .

فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بَنِي هُؤَلاء بقداحهم هذه .
وأخبره بنذره الذي نذر ، وأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه . وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب بني أبيه إليه ، فيما يزعمون ، فكان عبد المطلب يرى أن المسهم إذا أخطأه فقد أشوى^(١) .

فلما أخذ صاحبُ القِدَاحِ القِدَاحَ ليضرب بها ، قام عبد المطلب عند هُبَلٍ يدعو الله ، ثم ضرب صاحبُ القِدَاحِ ، فخرج القِدَاحُ على عبد الله ، فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أنديةها وقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه . فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذِرَ فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه فما بقاء الناس على هذا ؟!

وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وكان عبد الله ابن أخت القوم أمه وأم أخويه الزبير وأبي طالب فاطمة بنت عمرو بن عائد بن عبد بن عمران ابن مخزوم : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذِرَ فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

(١) أشوى بشين معجمة : يقال : رمى فأشوى إذا لم يصب المقتل . وقال الحسني : يقال أشويت في الطعام إذا أبقيت منه .

وقالت له قريش وبدوه : لا تفعل وانطلق إلى الحجاز فإن بها عرفاً لها تابع ، فأسألهما
ثم أنت على رأس أسرك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك وله فيه
فرج قبلته .

فانطلقوا حتى قدموا المدينة ، فوجدوها فيما يزعمون ، بخيبر ، فركبوا حتى
جاءوها فسألوها ، وقص عليها عهد المطلب خبره وخبر ابنه وما أراد به ونذره فيه
فقال له : ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تآبى فأسأله .

فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبدالمطلب يدعو الله ، ثم غدوا عليها
فقال لهم :

قد جاءنى الخبر ، كم الهدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل ، وكانت كذلك
قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرة من الإبل ،
ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل
حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فامحروها عنه فقد رضى ربكم
ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا ذلك من الأمر قام عبد المطلب
يدعو الله ، ثم قربوا عهد الله وعشراً من الإبل ، وعهد المطلب عند هبل
يدعو الله ، ثم ضربوا نفرج القدح على عهد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ،
فبلغت الإبل عشرين ، وقام عهد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا نفرج القدح
على عهد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، وما زالوا كذلك يزيدون عشراً فعشراً
من الإبل ويضربون عليها ، كل ذلك يخرج القدح على عهد الله ، حتى بلغت
الإبل مائة من الإبل ، وقام عهد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا نفرج القدح على
الإبل ، فقالت قريش : قد انتهى ، رضى ربك يا عهد المطلب .

فزعموا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ،
فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدهو الله ، فخرج القِدْحُ
على الإبل ، ثم عادوا الثانية والثالثة وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فخرج القِدْحُ
في كليهما على الإبل .

فَنُحِرَتْ ، ثم تركت لا يُصَد عنها إنسان ولا يُبْمَع .

ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله ، فرأى به ، فيما يزعمون ، على
امرأة من بني أسد بن عبد العزى ، وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد ، وهى
عند الكعبة .

قال الزبير : وكان عبد الله أحسنَ رجل رُئى في قريش قط ، فقالت له
حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله . قال : مع أبى . قالت : لك مثل
الإبل التى نُحِرَتْ عنك رَقَعٌ على الآن ، قال : أنا مع أبى ولا أستطيع
خلافه ولا فراقه .

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب
ابن مرة ، وهو يومئذ سيد بني زهرة سِنًا وشرفًا ، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب
وهى يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا .

فزعموا أنه دخل عليها حين أمليكما مكانه فوقع عليها فحملت برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرّضت عليه ما عرضت ،
فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما عرضت بالأمس ، قالت له : فارتك
النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ، وقد كانت

تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ، وكان تنصّر وتبع الكتّاب ، أنه كان في هذه الأمة نبي^(١) .

ويقال إن عبد الله إنما دخل على امرأة كانت له مع أمّة ابنة وهب ، وقد عمل في طين له وبه آثار من الطين ، فدعاها إلى نفسها ، فأبطأت عليه لِمَا رأت به من آثار الطين ، فخرج من عندها ، فتوضأ وغسل ما كان به من ذلك ، ثم خرج عائداً إلى أمّة ، فرمّت تلك المرأة فدعته إلى نفسها فأبى عليها ، وعمد إلى أمّة فدخل عليها فأصابها ، فحملت بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رمّت بامرأته تلك فقال لها : هل لك ؟ قالت : لا ، مررت بي وبين عينيك غرة فدعرتك فأبيت ، ودخلت على أمّة فذهبت بها .

فزهوا أن امرأته تلك كانت تحدّث : أنه مرّ بها وبين عينيه مثل غرة الفرس ، فدعوته رجاء أن تسكون تلك بي ، فأبى على ودخل على أمّة فأصابها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّسط قومه نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، من قبل أبيه وأمه صلى الله عليه وسلم .

ويزعمون فيما يتحدث الناس ، والله أعلم ، أن أمه كانت تحدّث أنها أتيت حين حملت به ، فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فتولى :

(١) هذه الرواية لا تؤدي الهدف الذي قصده واضعوها ، والمعروف أن آباء النبي لم يكن فيهم من يرضى بالرنا أو يتوق إليه كما دلت عليه أحاديث صحيحة ، والمعروف أن النبوة لم تسكن لارتنا من عبد الله لمحمد صلى الله عليه وسلم .

أعوذ به بالواحد من شر كل حاسدٍ

ثم سميّه محمداً .

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك وأمه حامل به .

هذا قول ابن إسحاق . وخالفه كثير من العلماء ، فقالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان في المهدي حين توفي أبوه . ذكره الدولابي وغيره . وذكر ابن أبي خيثمة أنه كان ابن شهرين ، وقيل أكثر من ذلك . والله أعلم .

ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورنة حين أنزلت
فاتحة الكتاب ا

قال ابن إسحق : فلما وضعت أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك
غلام ، فأنته فانظر إليه . فأتاه ونظر إليه ، وحدثته بما رأته حين حملت به ،
وما قيل لها فيه ، وما أمرت أن تسميه .

فيؤمنون أن عبد المطلب أخذه فدخل به الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له
ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها .

ويروي أن عبد المطلب إنما سماه محمدا لرؤيا رآها .

زعموا أنه أرى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في
السماء وطرف في الأرض وطرف في المشرق وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها
شجرة على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها .

فقصها فعبّرت له بمولود يكون من صلبه يتقبّله أهل المشرق والمغرب ويحمده
أهل السماء والأرض . فلذلك سماه محمداً ، مع ما حدثته أمه .

[من سُمّي محمداً قبله]

ولا يعرف في العرب أحد تسمى بهذا الاسم قبله ، سوى نفر سُموا به من أجله
منهم محمد بن سفيان بن مجاشع النيمى ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ، وآخر
من ربيعة .

وكان آباؤهم قد وفدوا على بعض الملوك ممن كان عنده علم بالكتاب الأول ،
فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وتقرّب زمانه ، وباسمه ، وكان كل واحد
منهم قد خلف امرأته حاملاً ، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر أن يسبويه مجلباً .

ف فعلوا ذلك زجاء أن يكونه .

والله أعلم حيث يجعل رسالاته .

وقد وقع في مواضع أخرى أن هؤلاء النفر كانوا أربعة ، ولم يذكر فيهم محمد بن أبي حنيفة ، وحديثهم مخالف لما ذكرناه خلافاً يسيراً .

روينا من حديث عبد الملك بن أبي سوية عن أبيه عن جده قال : سألت محمد بن عبد الله بن ربيعة : كيف سماك أبوك محمداً ؟ فقال : سألت أبي عما سألتني عنه ، فقال : خرجت رابعَ أربعة من بني تميم أنا فيهم ، وسفيان بن مجاشع بن دارم وأسامة بن مالك بن خندف ويزيد بن ربيعة ، نريد ابن جفنة ملك غسان فلما شارفنا الشام نزلنا إلى غدير عليه شجرات وقربه شخصٌ ناه ، فتحدثنا فاستمع كلامنا وأشرف علينا فقال : إن هذه لغة ما هي لغة أهل هذه البلاد . فقلنا : نحن قومٌ من مضر قال : من أي المضمرين ؟ قلنا : من خندف . قال : أما إنه يُبعث فيكم وشيكا نبي خاتم النبيين فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا .

فقلت له : ما اسمه ؟ قال : محمد فرجعنا من ابن جفنة فولد لكل رجل منا ابن سماه محمداً .

[الرضاعة]

والتَّمَسَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرضعاء ، فاسترضع له من امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها حليلة بنت أبي ذؤيب .

وكانت تحدث أمها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها ترضعه ، في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء . قالت : وفي سنة شهباء لم تُبقِ لنا شيئاً .

قالت : فخرجتُ على أتان لي قمرًا معنا شارف^(١) لنا ، والله ما تبيض^(٢) بقطارة ولا نعام^(٣) ليلقنا أجمعَ من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ، ما في تدي ما يفنيه وما في شارفنا ما يفذيه ، ولكننا نرجو الغيث والفرج .
فخرجتُ على أتاني تلك ، فلقد أذمتُ بالرَّكْب^(٤) حتى شقَّ ذلك عليهم ، ضعفاً ومجفناً .

حتى قدمنا مكة فلتمس الرضماء ، فامنا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يقيم ، وذلك أننا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يقيم ما عسى أن تصنع أمه وجدُّه .
فكنا نكرهه لذلك .

فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري .
فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إنى لأكره أن أرجع من بين سواحبي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه .
قال : لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .
قالت : فذهبتُ إليه فأخذته ، وما حماني على أخذِهِ إلا أنى لم أجد غيره .
فلما أخذته رجعت به إلى رَحلي ، فلما وضعت في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى . ثم ناما وما كنا ننام معه^(٥) قبل ذلك . وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لعمّافل ، فحلب منها ما شرب وشربتُ حتى اتھينا ريباً وشبعا .

(١) القمراء : التي يعيل لونها إلى الخضرة . والشارف : الناقة المسنة .

(٢) ما تبيض : ما ترشح .

(٣) ابن هشام : وما .

(٤) أى تأخرت بهم .

(٥) تريد أنها الرضع الذي نحدث عند قبل .

فبتنا بخير ليلة ، يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليلة لقد أخذت
نَسمةً مباركةً اقلت : والله إنى لأرجو ذلك .

ثم خرجنا ، وركبت أتانى وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ، ما يقدر
على شيء من حيرهم ، حتى إن صواحي ليقطن : يا بنت أبي ذؤيب ويحك ا
اربعي علينا ا أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ ا فأقول لمن :
بلى والله إنها لمي . فيقطن : والله إن لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بني سعد ، ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجذبَ
منها ، فسكانت غمى تروح على حين قدمنا به معها شباهاً لبناً ، فنحلب ونشرب
وما يحلب إنسان قطرة ابن ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضر^(١) من قومنا
يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب .
فتروح أغنامهم جياها ما تبيضُ بقطرة ابن وتروح غمى شباهاً لبناً .

فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتان وفصلته .

وكان يشبُّ شباهاً لا يشبُّه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان
غلاماً جَمراً^(٢) .

قدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا ، لِمَا كنا نرى
من بركته .

فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بني عدي حتى يغلظ ، فإني أخشى عليه
وباء مكة .

(١) ابن هشام : الحاصرون .

(٢) الجهر الغليظ الحديد .

فلم نزل بها حتى رددته معنا ، فرجعنا به .

[شقُّ الصدر]

فوالله إنه بعد مَقدَمنا به بأشهر مع أخيه لني بهم^(١) لذا خاف بيوتنا إذ أتانا
أخوه يشتدُّ ، فقال لي ولأبيه : ذاك أخى القُرشي قد أخذ رجلا ن عليهما ثياب
بيض فأضجماه فشقنا بطنه فهما بسوطانه^(٢) .

قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما ممقما وجهه .

قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا : مالك يا بني ؟

قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجما نى فشقنا بطني فالتسا فيه
شيئا لا أدري ما هو .

قالت : فرجعنا به إلى خبائنا وقال لي أبوه : يا حليلة لقد خشيتُ أن
يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به .

قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت : ما أقدمك به يا غائر^(٣) ولقد
كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟

قلت : قد بلغ الله بابني ، وقضيتُ الذي عليّ ، وتخوفت الأحداث عليه ،
فأدبته عليك كما تحبين .

قالت : ما هذا شأنك ، فأصدقيني خبرك .

(١) البهم : الصغار من النعم

(٢) يسوطانه : يخالطانه .

(٣) الغائر : الخائنه للرصة

قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها .

قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم .

قالت : كلاً والله ما للشيطان عليه سبيل ، وإن لبني لشأنا ، أهلاً أخبرك خبره قلت : بلى .

قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام .

ثم حملتُ به ، فوالله ما رأيت من حملٍ قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لو اضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء .
دعيه عنك وانطلقى راشدة .

ويروى أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له :
يا رسول الله : أخبرنا عن نفسك .

قال : « نعم : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بن مريم ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر .

بينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهنماً لنا ، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطأست من ذهب مملوءة ثلجاً ، فأخذاني^(١) فشقا بطني ثم استخرجا قلمي فشقا فاستخرجا منه علقمة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلمي وبطني بذلك الثلج حتى أنزياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بمشرة من أمته^(٢) فوزنتهم . ثم قال زنه بمائة من

(١) ابن هشام ثم أخذاني .

(٢) ابن هشام : فوزني بم

أمته . فوزني بهم فوزتهم . ثم قيل : زنه بألف من أمته . فوزتهم . فقال :
دَعَه عنك ، فلو^(١) وزنته بأمته لوزنها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من نبي إلا وقد رعى الغنم . قيل :
وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا .

وكان يقول لأصحابه : أنا أغربُكم ، أنا قرشي واسترضيت في بني سعد
ابن بكر .

وزعم الناس فيما يتحدثون ، والله أعلم ، أن أمه السعدية لما قدمت به مكة
أضائها في الناس وهي مقبلة به نحو أهله ، فالتسته فلم تجده ، فأتت عبد المطلب
فقالت له : إني قدمت بمحمد هذه الليلة فلما كنت بأعلى مكة أضاني ، فوالله
ما أدري أين هو .

فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده ، فيزعمون أنه وجدته ورقة
بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به عبد المطلب فقالا : هذا ابنك وجدناه
بأعلى مكة . فأخذه عبد المطلب فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يموّذه
ويدعوه . ثم أرسل به إلى أمته .

وذكر بعض أهل العلم أن مما هاج أمه السعدية على رده ، ما ذكرت لأمه
ما أخبرتها عنه ، أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد
فطامه ، فنظروا إليه وسألوها عنه ، وقلّبوه ، ثم قالوا لها :
لناخذن هذا الغلام فلنذهب به إلى مدينتنا وبلدنا ، فإن هذا غلام كأن له
شأن ونحن نعرف أمره . فلم تكذبنا فقلت به منهم .

وذكر الواقدي أن أمه حليلة السعدية بعد أن رجعت به من عند أمه حضرت

(١) ابن هشام : فوالله لو .

به سوق ذى الحجاز ، وبها يومئذ عرف من هوازن يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم ، فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الحجر في عينيه وإلى خاتم النبوة ، صاح : يا معشر العرب فاجتمع إليه أهل الموسم ، فقال : اقتلوا هذا الصبي . وانسلت به حليلة . فجعل الناس يقولون : أى صبي هو ؟ فيقول : هذا الصبي . فلا يرون شيئاً ، قد انطلقت به أمه ، فيقال له : ما هو ؟ فيقول : رأيت غلاماً ، وآلته ، ليغلبن أهل دينكم وليكسرن أصدانكم وليظهن أمره عليكم . فطلب به كما ظلم يوجد .

ورجعت به حليلة إلى منزلها ، فكانت بعد هذا لا تعرضه لأحد من الناس .

ولقد نزل بهم عرف ، فأخرج إليه صبيان أهل الحاضر ، وأبت حليلة أن تخرجه إليه ، إلى أن غفلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج من المظلة فرآه العراف فدعاه فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل الخيمة ، فجهد بهم العراف أن يخرج إليه فأبت . فقال : هذا نبي .

وقد عرضه عمه أبو طالب على عائف من لئب ، كان إذا قدم من مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم ، فأتاه به أبو طالب وهو غلام مع من يأتيه ، قال : فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شغله عنه شيء فقال : الغلام على به . فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه ، فجعل يقول : ويلسكم ردوا على الغلام الذى رأيت آنفاً ، فوالله ليكون له شأن .

وانطلق به أبو طالب .

وكانت حليلة بعد رجوعها به من مكة لا تدعه أن يذهب مكاناً بعيداً . فنفلت عنه يوماً في الظهيرة ، فخرجت تطلبه حتى تجده مع أخته . فقالت : فى هذا

الحر ؟ فقالت أخته : يا أمه ، ما وجد أخى حرّاً ، رأيت غمامة تظل عليه . إذا
وقف وقفت وإذا سار سارت ، حتى انتهى إلى هذا الموضع .

تقول أمها : أحقّ يا بنية ؟ قالت : إى والله . قال : تقول حلّيمة : أعود بالله
من شر ما يُحذّر على ابني .

فكان ابن عباس يقول : رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين .

وكان غيره يقول : رجع إليها وهو ابن أربع سنين .

هذا كله عن الواقدي .

[وفاة أمه وكفالة جده]

قال ابن إسحق : فكان النبي صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة وجده عبدالمطلب
في كلاءة الله وحفظه ، يُنبّهه الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته .

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه بالأبواء بين
مكة والمدينة .

وكانت قد قدمت به إلى أخواله من بنى عدى بن النجار تُزيّره إياهم ، فماتت
وهي راجعة به إلى مكة .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبدالمطلب .

وكان يوضع لعبدالمطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول
فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجاس عليه أحد من بنيهِ لإجلاله . فكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفّر حتى يجاس عليه ، فيأخذه
أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبدالمطلب إذا رأى ذلك منهم : دَعُوا ابني فوالله
إن له لشأناً .

ثم يُجَدِّسُه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسرُّه ما يراه يضع .

قالوا : وكانت أمُّ أيمن تحدِّث تقول : كنت أحضن رسول الله صلى الله عليه وسلم فغفلت عنه يوماً فلم أدِّرِ إلا بعهد المطلب قائماً على رأسي يقول : يا بَرَكة ، قلت : لبيك ، قال : أتدرين أين وجدت ابني ؟ قلت : لا أدري . قال : وجدتته مع غلمان قريباً من السُدرة ، لا تغفلي عن ابني ، فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبيُّ هذه الأمة ، وأنا لا آمن عليه منهم .

وكان لا يأكل طعاماً إلا قال : على بابي . فيؤثي به إليه .

وحدِّث كعب بن مالك عن شيوخ من قومه أنهم خرجوا عمَّاراً ، وعهد المطلب يومئذ حتى بمكة ، ومعهم رجل من يهود تيماء ، صجهم للتجارة يريد مكة أو اليمن ، فنظر إلى عهد المطلب ، فقال : إنا نجد في كتابنا الذي لم يبدل أنه يخرج من ضَيْضِي^(١) هذا نبيُّ يقتلنا وقومه قتل عاد .

وجلس عهد المطلب يوماً في الحِجْر وعنده أسقف نجران ، وكان صديقاً له ، وهو يحادثه وهو يقول : إنا نجد صفة نبي يَبْقَى من ولد إسماعيل ، هذه مولده ، من صفته كذا وكذا .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الحديث ، فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدميه ، فقال : هو هذا . فقال : الأسقف : ما هذا منك ؟ قال : ابني . قال الأسقف : لا ، ما نجد أباه حياً . قال عهد المطلب : هو ابن ابني مات أبوه وأمه حبلت به . قال : صدقت . قال عهد المطلب : تحفظوا بابن أخيك ، ألا تسمعون ما يقال فيه ؟ !

(١) الضَيْضِي : الأصل .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً يلعب مع الغلمان حتى بلغ الرّدم ،
فراه قوم من بني مُدَلج فدَعَوْهُ ، فنظروا إلى قدميه وإلى أثره ، ثم خرجوا
في طلبه حتى صادفوا عبدَ المطلب قد لقيه فاعتنقه ، فقالوا لعبد المطلب : ما هذا
مذك ؟ قال : ابني . قالوا : فاحتفظ به ، فإننا لم نَرَ قدماً قط أشبهَ بالقدم الذي
في المقام من قدمه .

فقال عبد المطلب لأبي طالب : اسمع ما يقول هؤلاء . فكان أبو طالب
يحتفظ به .

وقد روى أبو داود السجستاني من حديث ابن عباس ، قال : أتى
نفر من قريش امرأةً كاهنةً ، فقالوا : أخبرينا بأقربنا شبيهاً بصاحب
هذا المقام .

قالت : إن جرّتم على السّهلة عبادةً ومشيتم عليها أنبأتكم بأقربكم
شبيهاً به .

فجرّوا عليها عبادةً ، ثم مشوا عليها ، فرأت أنّ قدم محمد صلى الله عليه وسلم ،
فقالت : هذا والله أقربكم شبيهاً به .

قال ابن عباس : فكثروا بعدُ عشرين سنةً ، ثم بعث محمد صلى الله
عليه وسلم .

[بشارة سيف بن ذى يزن بالنبى]

ولما ظهر سيفُ بن ذى يزن على الحبشة ، وذلك بعد مولد النبي صلى الله
عليه وسلم أتته وفودُ العرب وأشرافها وشعراؤها يهنئونه ويمدحونه ويذكرون
من حسن بلائه وطلبه بثأر قومه .

فأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم في أناس من وجوه قريش ،
فقدّموا عليه صنما فأذن لهم ، فلما دخلوا عليه دنا عبد المطلب منه
فاستأذنه في الكلام ، فقال : إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد
أذنتك لك .

فقال عبد المطلب : إن الله قد أحلك أيها الملك تحلاً رفيماً صعباً مغيماً ،
شامخاً باذخاً ، وأندبتك مندبتاً طابت أرومته وعزّت جُرثومته ، وتبّت أصله ،
وبسقى فرعه ، في أكرم موطن ، وأطيب معدن .

وأنت أيها الملك رأسُ العرب الذي به تفقاد ، وعودها الذي عليه العماد ،
ومعقلها الذي يلجأ إليه العماد ، سلفك لك خير سلف ، وأنت لنا فيه خير
خلف ، فلم يتحمل من أنت سلفه ، وإن يهلك من أنت خلفه ، نحن أيها الملك
أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجتنا بكشف السكر الذي
قدحنا ، فنحن وفد التهينة لا وفد المرزئة .

فقال له سيف : وأيّهم أنت أيها المتكلم ؟ فقال : أنا عبد المطلب بن هاشم .
قال : ابن أختنا ؟ قال : نعم . قال : أذنتك ، فأذناه .

ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال لهم : مرحباً وأهلاً ، قد سمع الملك مقالتيكم
وعرف قرابتكم وقبيل وسيلتكم ، وأنتم أهل الليل والنهار ، فاسمكم السكرامة
ما أقتم والجهاء إذا ظعنتم .

ثم أنهبوا إلى دار الضيافة والوفود ، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن
لهم بالانصراف .

ثم انقبه لهم انقباهة فأرسل إلى عبد المطلب ، فقال له : إني مفوض إليك

من سَفِيٍّ على أمرًا لو يكون غيرك لم أَبْحُ له به ، ولكنى رأيتك مَعْدِنَه
فأطلمتلك عليه ، فليكن عندك مكنونا حتى يأذن الله فيسه ، فإن الله
بالغُ أمره .

إني أجد في السكباب المسكونون والعلم الخزون الذي اختزنناه لأنفسنا واجتبيناه
دون غيرنا خبرا عظيما وخطرا جسيما ، فيه شرفُ الحياة وفضيلة الوفاة ، للناس عامة
ولرطقتك كافة ، وللك خاصة .

فقال له عبد المطلب : مثلك أيها الملك سَرٌّ وِبَرٌّ ، فما هو ؟ فذاك أهلُ الوبر
زُمرًا بعد زُمر .

فقال : إذا ولدَ بتهامة غلام بين كنفه شامة ، كانت له الإمامة والسك به
الزعامة إلى يوم القيامة .

فقال له عبد المطلب : لقد أبتُ بخير ما آبَ بمثله وافد ، ولولا هيبة الملك
وإجلاله وإعظامه لسألته من سارّه إلهي ما أزداد به سرورا .

فقال له ابن ذى يزن : هذا حبيته الذي يولد فيه ، أوقد ولد ، اسمه محمد ،
يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه ، قد ولدناه مرارا^(١) والله باعته جهارا
وجاعل له منا أنصارا يعزُّ بهم أوليائه ويذل بهم أعداءه ، يضرب بهم الناس
عن عُرض ، ويستهبج بهم كرائم الأرض ، ويكسر الصلابان ويخمد الأديان
ويعهد الرحمن ويدحر الشيطان ، قوله فَصْلٌ وحكمه عَدْلٌ ، يأمر بالمعروف
ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

(١) يريد أن العرب جميعا ولدوا رسول الله ، أى أن له فيهم قرابة كلهم .

فقال له عبد المطلب : عزَّ جدُّك وعلا كعبك ودام مُلكك وطال همرك ،
فهل الملك سارٌّ بإفصاح ، فقد أوضح لي بعض الإيضاح .

فقال له ابن ذى يزن : والبيت والحُجُب ، والعلامات والنُّصُب ، إنك يا عبد
المطلب لجده غيرُ الكذب .

نفرَّ عبد المطلب ساجداً ، فقال له : ارفع رأسك تُلجج صدرك وعلا أمرك ،
هل أحسست بشيء مما ذكرت لك ؟

فقال عبد المطلب : كان لي ابن ، وكنت عليه رفيقاً ، فزوجته كريمةً من
كرائم قومه ، فجاء بغلام فسميته محمداً ، فمات أبوه وأمه ، وكفأته أنا .

فقال له ابن ذى يزن : إن الذى قلتُ لك كما قلتَ ، فاحتفظ بأهلك واحذر
عليه اليهود ، فإنهم أعداؤه ، ولن يجعل الله عليه سبيلاً ، وأطو ما ذكرتُ لك
دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لا آمن أن تدخلهم القماسة من أن تكون
لكم الرياسة ، فيطلبون له الفوائل وينصبون له الحبائل ، وهم فاعلون وأبناؤهم ،
ولولا أنى أعلم أن الموت يُختري قبل مَبْعَثِهِ لَسِرْتُ بِخَيْلى وَرَجِلى حتى أصير
بيئرب دارِ مُلكه ، فإنى أجد فى الكتاب الفائق والعلم السابق أن بيئرب
استحكاهُ أمره وأهلُ النصره له ، وموضع قبره ، ولولا أنى أخاف عليه الآفات
وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حدائته سنة بذِكره ، ولكفى صارفٌ ذلك
إليك ، من غير تقصير بمن معك .

ثم أمر لكل رجل من القوم بعشرة أعْبُدٍ وعشر إماء ، وحِاسٍ من البرود ،
ومائة من الإبل ، وخمسة أرطال ذهب ، وعشرة أوطال فضة ، وكرشٍ^(١)
مملوءة عذيراً .

(١) الكرش : لى الخف والظلف كاللمدة للانسان .

وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك كله ، وقال له : إذا حال الحَوْلُ فأتقني .

فأت ابنُ ذِي يَزَنَ قبل أن يَحُولَ الحَوْلُ ، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : يا معشر قريش ، لا يغبطني أحدكم بجزيل عطاء الملك وإن كثُر ، فإنه إلى نفاق ، ولكن ليَغْبِطُنِي بما يبقى لي ولتَقِي من بعدى ذِكْرُهُ ، ونفْرُهُ وشرفه .

فإذا قيل له : فما ذاك ؟ قال : ستعلمون نباه ولو بعد حين .

وحدث سيف بن ذِي يَزَنَ هذا عن غير ابن إسحق^(١) وهو عندنا بالإسناد ، وقد تقدم ما ألقاه تُبَّعُ الآخر إلى ملوك حمير وأبنائهم من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن عِلْمَ سيفٍ بذلك إنما كان من تلك الجهات . والله أعلم .

[وفاة جده]

ثم إن عبد المطلب بن هاشم هلك عن سنِّ عالية مُخْتَلَفٍ في حقيقتها . أدناها فيما انتهى إلىَّ ووقفت عليه ، خمسٌ وتسعون سنة . ذكره الزبير .

وأعلاها فيما ذكر الزبير أيضاً عن نوفل بن عمارة قال : كان عبيدُ بن الأبرص تزوّجَ عبد المطلب ، وبلغ مائةً وعشرين سنة ، وبقي عبدُ المطلب بعده عشرين سنة .

وقال محمد بن سعيد بن المسيَّب : لما حضرت وفاة عبد المطلب وعرف أنه

(١) وهو في دلائل النبوة لأبي نعيم ٥٦ ، وفي تاريخ ابن عساكر ٣٦١/١ .

ميت جمع بناته وكن سبتا ، صافية ، وبرة ، وعائكة ، وأم حكيم البيضاء ، وأميمة وأزوى ، فقال لمن : أبكين على حتى أسمع ما تقولن قبل أن أموت .

فقات كل واحدة منهن شعرا تراثيه به وأنشدته إياه ، فأشار برأسه ، وقد أصمت : أن هكذا فابكيني .

وذكر ابن إسحق تلك الأشعار .

وقال ابن هشام : إنه لم ير أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها .

قال ابن إسحق : قال حذيفة بن غانم أخو بني عدي بن كعب يهكي عبداً المطلب بن هاشم ، ويذكر فضله ، وفضل قصى على قريش وفضل ولده من بعده عليهم :

أَعْيَنِي جُودًا بِالدمِوعِ عَلَى الصَدْرِ
وَلَا تَسَامَا ، أَسْقَيْتُمَا سَبَلَ القَطْرِ^(١)
وَجُودًا بدمِعي وَاشْفَحَا كُلَّ شَارِقِ
بِكَاءِ امرئٍ لَمْ يُشَوِّهِ^(٢) نَائِبِ الدهْرِ
وَسُحَا وَجْمًا وَاسْجُمًا مَا بَقِيَتَا^(٣)
عَلَى ذِي حَيَاءٍ مِنْ قَرِيشٍ وَذِي سِتْرِ
عَلَى رَجُلٍ جَلَدٍ القَوِي ذِي حَفِيظَةٍ
جِيلِ المَحَيَّا غَيْرِ نِكْسِ^(٤) وَلَا هَذِرِ

(١) السبل محرّكة : المطر .

(٢) لم يشوه : لم يخطئه .

(٣) سحًا : صبا . وجما : أجمًا . واسجما : أسيلًا . (٤) النكس : الجبان .

على المساجد البهلولِ ذى البأس والفدى
ربيعِ لؤىِّ في التحوطِ وفي العُسرِ^(١)
على خيرِ حافٍ من مَعَدَّةٍ وناهلِ
كريمِ المساعى طيبِ الخليمِ والدُّجْرِ^(٢)
على شيبةِ الحمدِ الذى كان وجهه
يضىءُ سوادَ اللَّيْلِ كالقمرِ البدرِ
وساقى الحبيجِ ، ثم للخيرِ هاشمِ
وعهدِ منافِ ذلك السيدِ الفهرى
طوى زمزماً عند المقامِ فأصبحت
سِقَايَتُهُ فخرًا على كلِّ ذى فخرِ
ليتكِ عليه كلُّ عابِ بكُرْبَةٍ
وآلُ قُصَى من مُقِلِّ وذى وفْرِ
بنوهِ سَرَاةٍ كُتُهاهم وشبابهم
تَفَلَّقَ عنهم بيضةُ الطائرِ الصقرِ
تُى الذى عادى كدانةً كلَّها
ورابطَ بيتَ اللهِ فى العُسرِ والبُسرِ
فإن تكُ غالتَهُ المنى ايا وصرفُها
فقد عاش ميمونَ النقيبةِ والأمرِ

(١) من ابن هشام .

(٢) الخليم : السجية . والنجر : الأصل .

وَأَبَقَى رَجَالًا سَادَةً غَيْرَ هُزَلٍ
مصاليت أمثال الرديفة الشعر^(١)

أبو عتبة الملقب إلى حباه
أغرى هجان اللون من نفر^(٢)

وحزة مثل البدر يهتز للندى
نقى الثوب والدمام من الغدر

وعبد مناف ماجد ذو حفيظة
وصول لذي القربى رحيم بذي الصهر

كهمهم خير الكهول ونسلهم
كندل الملوك لا تبور ولا تحرى^(٣)

متى ما تلاق منهم الدهر ناشئا
تجده بإجريا أوائله يجرى^(٤)

هم ملأوا البطحاء تجدا وعزة
إذا استبق الخيرات في سالف العصر

وم حضروا والناس باد فريقهم
وليس بها إلا شيوخ بني عمرو

بقوها دياراً جمة وطووا بها
بثارا تسح الماء من تبحر بحر

(١) الرديفة : الرمح .

(٢) الهجان : الأزهر .

(٣) لا تحرى : لاتنفس .

(٤) الإجريا : الوجه الذي تأخذ فيه وتجرى عليه .

لِيَكُنْ يَشْرَبُ الْحُبَّاجُ مِنْهَا وَغَيْرُهُمْ
إِذَا ابْتَدَرُوا صُبْحَ تَابِعَةِ الْقَحْرِ
ثَلَاثَةَ أَلَامٍ تَظِلُّ رِكَبَهُمْ
مُحْبَسَةً بَيْنَ الْأَخَاشِبِ وَالْحِجْرِ
وَقَدْ مَا غَدِينَا قَبْلَ ذَلِكَ حِقْبَةً
وَلَا نَسْتَقِي إِلَّا بِخَمٍّ أَوْ الْحَفْرِ^(١)
مُ^(٢) يَغْفِرُونَ الذَّنْبَ يُنْقَمُ دُونَهُ
وَيَعْمُونَ عَنِ قَوْلِ السَّفَاهَةِ وَالْهَجْرِ
أَخَارِجِ^(٣) إِمَّا أَهْلِيكَنَّ فَلَا تَزَلْ
لَهُمْ شَاكِرًا حَتَّى تُغَيَّبَ فِي الْقَبْرِ
وَلَا تَنْسَى مَا أَسْدَى ابْنُ لُبَيْبٍ فَإِنَّهُ
قَدْ أَسْدَى يَدًا مَحْقُوقَةً مِنْكَ بِالشُّكْرِ
وَأَنْتَ ابْنُ لُبَيْبٍ مِنْ قَوْمٍ إِذَا انْتَمَوْا
بِحَيْثُ انْتَهَى قَصْدُ الْفَوَادِ مِنَ الصَّدْرِ
وَأَمَّاكَ سِيرٌ مِنْ خِزَاعَةِ جَبَّوَهَرٍ
إِذَا حَصَلَ الْأَنْسَابَ يَوْمًا ذُو الْخُبْرِ
إِلَى سَبِيلِ الْأَبْطَالِ تُنْمَى وَتُنْقَمَى
وَأَكْرَمَ بِهَا مَنْسُوبَةٌ فِي ذُرَى الدَّهْرِ^(٤)

(١) خم والحفر : بئران من آبار مكة .

(٢) ابن هشام : وهم .

(٣) ابن هشام : بخارج .

(٤) ابن هشام : في ذرى الزهر .

ابن لُئبى هو^(١) أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب ، وهو أبو عتبة الذى ذكره قبل فى هذا الشعر .

وكانت أمه امرأة من خزاعة اسمها لُئبى بنت هاجر . ولذلك قال :
« وَأَمَلِكُ سِيرٌ مِنْ خَزَاعَةَ » .

وتمأها إلى سبأ الأبطال بناء على ما قدمناه من انتهاء خزاعة إلى عمرو بن عامر ، من غسان وانتفأهم من المخزمية .

واليدُ التى ذكر هذا الشاعر أنها ترتبت عليه لأبى لهب : ذكر ابن إسحاق أنه كان أخذ بقرم أربعة ألف درهم بمكة ، فوقف بها ، فرأه أبو لهب فافتكه .

ونسب الزبيرُ هذا الشعرَ إحذافة بن غانم ، ودليله قوله فيه :

« أَخَارَجَ إِمَّا أَهْلَكَنَّ الْبَيْتِ . . »

فإن خارجة هو ابن حذافة .

وحذيفة الذى نسب ابن إسحاق إليه الشعرَ هو أخو حذافة ، ولا يعرف له ابن يسمى خارجة ، وإنما هو والد أبى جهنم بن حذيفة ، واسمُ أبى جهنم عبيد ، وهو الذى بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخطيصة ذات الأعلام التى ألتهه عن صلواته ، وأمر أن يؤتى بأبجانبية^(٢) .

(١) ت ط : هذا .

(٢) الأبنجانية : كساء . من الصوف له خمل ولا علم فيه ، ينسب إلى منبج على غير قياس

[العباس يلى زمزم]

ولما هلك عهدُ المطلب ، ولى زمزم والسقاية عليها ابنُه العباس وهو يومئذ
من أحدث إخوته سناً ، فلم تزلْ إليه حتى قام الإسلام وهى بيده ، فأقرها
رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما مضى من ولايته ، وكان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يُجمله لإجلال الولدِ الوالد .

يقول كريب [مولى ابن عباس ^(١)] : وما ينبغى لرسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يجلَّ إلا والداً وعمًّا ، فضيلةٌ خص الله بها العباس دون
من سواه .

وقال صلى الله عليه وسلم : احفظونى فى عمى العباس ، فإن عمَّ الرجل
صينوْأبيه .

وطلع يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا العباس أجودُ
قريش كفاً وأوصالها .

ولم يزل العباس سيداً فى الجاهلية والإسلام ، يمنع الجارَ ويبذل المالَ ويعطى
فى الدوائب .

قال الزبير : وكان يقال : كان للعباس بن عبد المطلب ثوبٌ لعارى بنى
هاشم ، وجفنةٌ لجائهم ، ومقطرةٌ لجاهلهم . والمقطرة : خشبة ذات سائلة
يُنْبَس فيها الناس .

وفى ذلك يقول إبراهيم بن على بن هرمة :

وكانت لعماسٍ ثلاثٌ زَمَدُها
إذا ما جَنَابُ الحَيِّ أصبحَ أشهباً^(١)
فسلسلةٌ تنهى الظلومَ وجفنةٌ
لعمارٍ ضَرِيكٍ^(٢) ثوبه قدتمهداً بآ

وقال ابن شهاب : لقد جاء الله بالإسلام وإن جفنة العباس لتدور على فقراء
بنى هاشم ، وإن قيده وسوطه كمد لسفهاءهم .

قال : فكان ابن عمر يقول : هذا والله الشرفُ ، يطعم الجائعَ
ويؤدب السفية ا .

وكان أبو بكر وعمر في ولايتهما لا يلتقي العباسَ واحدٌ منهما وهو راكبٌ
إلا نزل عن دابته وقادها ومشى مع العباس حتى يبلغ منزله أو مجلسه
فيفارقه .

[كنفالة عمه أبي طالب]

وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مَهْلِكِ جده عبد المطلب مع عمه
أبي طالب .

وكان عبد المطلب يوصيه به فيما يزعمون .

وذلك أن عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا طالب أخوان لأب
وأم ، فكان أبو طالب هو الذي يلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جده ،
فكان إليه ومعه .

(٢) الضريك : هو الصغير ، وهو الفقير

(١) الأشهب : المجذب

وذكر الواقدي أن أبا طالب كان مُقِلًا من المال ، وكانت له قطعة من الإبل بِعُرْفَةٍ (١) ، فيهدو إليها فيكون فيها ، ويؤتى بلبنها إذ كان حاضرا بمكة .

فكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعا وفُرَادَى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا .

فكان أبو طالب إذا أراد أن يمشيهم أو يغديهم يقول : كما أنتم حتى يأتي ابني .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فيُفَضِّلون من طعامهم ؛ وإن كان لبنا شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم ، ثم يناول العيال القَعْبَ فيشربون منه فيروون من عند آخرهم من القعب الواحد ، وإن كان أحدهم ليشرب قَمْبًا !

فيقول أبو طالب : إنك لم تُبارك ! .

وكان الصبيان يصبحون شُعْمًا رُمُضًا ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دَهِيًّا كَحَيْلًا .

وقالت أم أيمن ، وكانت تحضنه : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم شَكًّا جوعًا قط . ولا عطشا ، وكان يندو إذا أصبح فوشرب من ماء زمزم ثربة ، فربما عرضنا عليه الغذاء فيقول : لا أريده أنا شبعان .

[رحلته إلى الشام]

قال ابن إسحق : ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام ، فلما

(١). عرفة : واد بمذاهعرفات .

تهباً للرحيل صبَّ^(١) به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون ، فرق له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدا . أو كما قال .

نخرج به معه ، فلما نزل الركبُ بُصرى في أرض الشام ، وبها راهب يقال له بَحِيرى في صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهبٌ إليه يصير عليهم عن كتاب منها ، فيما يزعمون ، يتوارثونه كابرًا عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العام ببَحِيرى وكانوا كثيرًا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يمرض لهم ، حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريبًا من صومعته صنع لهم طعامًا كثيرًا ، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته ، يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب حين أقبلوا وغمامةٌ تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبًا منه ، فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهصرت أغصانُ الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بَحِيرى نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ، ثم أرسل إليهم فقال : إني قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش وأحب أن تحضروا كلكم صفيركم وكبيركم وعبدكم وحرركم .

فقال رجل منهم : والله يا بَحِيرى إن لك اليوم لشأنًا ! ما كنت تصنع هذا بقا ، وقد كنا نمر بك كثيرًا ، فما شأنك اليوم ؟ قال له بَحِيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ولست بكم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعامًا فتأكلوا منه كلكم .

(١) صب به : تعلق وتروى : ضبث . أى لزمه .

فاجتمعوا إليه وتخلّف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم، فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويحدّ عنده، فقال: يا معشر قريش لا يتخلّفن أحد منكم عن طعامى .

قالوا له: يا بحيرى ما تخلّف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سنًا، فتخلّف في رحالهم . قال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم . فقال رجل من قريش: والللات والمزى إن كان لؤلؤماً^(١) بنا أن يتخلّف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا . ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظًا شديدًا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يحدّها عنده في صفة .

حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى فقال له: يا غلام أسألك بحق اللات والمزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحملون بهما . فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تسألنى بالللات والمزى شيئًا، فوالله ما أبفضتُ شيئًا قط بنفسهما . فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه قال له: سنّنى عما بدالك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، ويخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفة . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفة التي عنده .

(١) ابن هشام: للؤم

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب ، فقال : ما هذا الغلام منك ؟ قال :
ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حُبلى به .

قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن
رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبْتُغُنَّهُ شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ،
فأسرعُ به إلى بلاده .

نفرج به عمه أبو طالب سريماً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته
بالشام .

فزعوا أن نقرأ من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله
عليه وسلم مثل ما رأى ببحري في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب ،
فأرادوه فردم عنه ببحري ، وذكروا الله وما يجدون في الكتاب من ذكره
وصفاته ، وأنهم إن أجمعوا لياً أرادوا لم يتخلصوا إليه ، حتى عرفوا ما قال لهم
وصدقوا بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه .

[حَفِظُ اللهُ لَهُ]

فشب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ويكأوه اللهُ ويحفظه ، ويحوطه من
أقذار الجاهلية لياً يريد به من كرامته ورسالته .

حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم
حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حملاً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ،
وأبمدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال ، تنزهاً وتكرهماً .

حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين ، لياً جمع الله فيه من الأمور الصالحة .
(١٣ — الاكتفا)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عما كان الله يحفظه به في صدره وأمر جاهليته ، أنه قال : لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تمرى وأخذ إزاره فجعله على رقبتة يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك وأذير إذ لكنتى لا كم ما أراه لكمة وجيمة ، ثم قال : شدّ عليك إزارك .

قال : فأخذته فشدّ ذنّه على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزاري على من بين أصحابى .

وذكر البخارى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما هممت بسوء من أمر الجاهلية إلا مرتين .

وروى غيره أن إحدى المرتين كان في غنم يرعاها هو وغلّام من قريش ، فقال لصاحبه : اكفنى أمر الغنم حتى آتى مكة ، وكان بها عرس فيه لهو ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك ألقى عليه النوم ، فنام حتى ضربته الشمس ، عصمة من الله له ا

والمرّة الأخرى مثل الأولى سواء .

وذكر الواقدي عن أم أيمن قالت : كانت بوانة صنما تخضره قريش وتمظّمه وتمنّسك له وتملّق عنده وتعكف عليه يوماً إلى الليل في كل سنة ، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ويكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معهم فيأبى ذلك .

قالت : حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عمامته غضين يومئذ أشد الغضب ،

وجمان يقان : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا . ويقان : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تُكثر لهم جماعاً ؟

فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعوباً فزعاً ، فقلن له : مادهاك ؟ قال : إني أخشى أن يكون بي لم (١) .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذي رأيت ؟

قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه .

قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نجي صلوات الله عليه وعلى آله .

[زواجه بخديجة]

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد ، فيما ذكره غير واحد من أهل العلم .

وذكر الواقدي بإسناد له إلى نفيسة بنت منية بنت ميمونة ، وقد رويها أيضاً من طريق أبي علي بن السكن ، وحديث أحدهما داخل في حديث الآخر مع تقارب اللفظ ، وربما زاد أحدهما الشيء اليسير ، وكلاهما يُندى إلى نفيسة .

قالت : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خمساً وعشرين سنة وليس له بمكة اسمٌ إلا الأمين ، لما تكاملت فيه من خصال الخير ، قال أبو طالب :

(١) المطبوعة لي وهو خطأ .

يا بن أخي أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان عليّ وألحّت علينا سدون منكرة ،
وليست لنا مادة ولا تجارة ، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ،
وخديجة بنت خويلد تبهث رجالا من قومك في غيرها فيتجرون لها في مالها
ويصيبون منافع .

فلوجئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك ، لئلا
بلغها عندك من طهارتك ، وإن كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك
من يهود ، ولكن لا تجد من ذلك بُدًا .

وكانت خديجة رضى الله عنها امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة
تبعث بها إلى الشام ، فيكون غيرها كعامة غير قريش ، وكانت تستأجر الرجال
وتدفع لهم المال مضاربة .
وكانت قريش قوما تجارا ، ومن لم يكن تاجرا من قريش فليس
عندهم بشيء .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلعلها ترسل إليّ في ذلك .

فقال أبو طالب : إني أخاف أن تولى غيرك ، فتطلب أمرا مُدبرا .

فافترقا ، وبلغ خديجة ما كان من محاوره عنده له ، وقبّل ذلك ما قد بلغها من
صدق حديثه ، وعظم أمانته وكرم أخلاقه ، فقالت : ما علمت أنه يريد هذا .

ثم أرسلت إليه فقالت : إنه دعاني إلى البيعة إليك ما باغني من صدق حديثك
وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك .

فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقى أبا طالب وذكر له ذلك ، فقال :
إن هذا لرزق ساقه الله إليك .

نفرج مع غلامها مَيْسِرَةَ حتى قَدِمَ الشام ، وجعل عمومتُه يوصون به أهلَ العَير ، حتى قَدِمَ الشامَ فنزلاً في سوقِ بُصْرَى في ظلِ شجرةٍ قريبةٍ من صومعةِ راهبٍ يقال له نسطورا .

فاطَّلع الراهبُ إلى مَيْسِرَةَ وكان يعرفه فقال : يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟

فقال ميسرة : رجل من قريش من أهل الحوم .

فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي^(١) .

ثم قال له : في عينيه حمرة ؟

قال ميسرة : نعم لا تفارقه .

فقال الراهب : هو هو ، وهو آخر الأنبياء ، ويا ليت أرى أدركه حين يؤمر

بالخروج . فوعى ذلك ميسرة .

ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوقَ بُصْرَى ، فباع سلعةً التي خرج بها واشترى سلعةً ، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة ، فقال الرجل : احلف بالللات والعزيمى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بهما قط . فقال الرجل : القولُ قولك .

ثم قال لميسرة ، وخلاً به : يا ميسرة ، هذا نبيٌ ، والذي نفسي بيده إنه لو ، تجده أحبارنا ممنوعاً في كتبهم .

فوعى ذلك ميسرة .

ثم انصرف أهل العَير جميعاً .

(١) يريد : ما نزل الآن وإلا فلم يخل أن يجلس تحتها كثير من الناس غير أنبياء .

وكان ميسرة يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانت الهجرة واشتد الحر، يرى ماسكين يُظِلُّونه من الشمس وهو على بعيره .

قال : وكان الله عز وجل قد ألقى على رسول الله صلى الله عليه وسلم الهبة من ميسرة ، فكان كأنه عبدٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما رجعوا وكانوا بمرّ الظهران تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة ، وخديجة في عليّة^(١) لها ، معها نساء فيهن نفيسة بنت منية ، فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل وهو راكبٌ على بعيره ، وملكٌ يُظِلُّان عليه ، فأرته نساءها ، فمجبين لذلك .

ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخيرها بما رجعوا ، فسرت بذلك . فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت ، فقال لها ميسرة : قد رأيتُ هذا منذ خرجنا من الشام . وأخبرها بقول الراهب نسطورا ، وقول الآخر الذي خالفه في البيع .

قالوا : وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارتهما ، فربحت ضمف ما كانت تريح ، وأضمت له ما سمّت له .

فلما استقرَّ عندها هذا ، وكانت امرأة حازمة شريفةً نبيلةً ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظم من شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، وكلُّ قومها كان حريصاً على نكاحها لو يقدر عليه ، عرضت عليه نفسها .

فقال له فيما يزعمون : يا بن عمي ، إني قد رغبتُ فيك لقربتك

(١) العلية : الحجر .

وصيبتك^(١) في قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصديق حديثك .
فلما قالت له ذلك ، ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب ،
رحمهم الله تعالى ، حتى دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها إليه فتزوجها .
هكذا ذكر^(٢) ابن إسحاق ، وذكر الواقدي وغيره من حديث نفيسة ، أن
خديجة أرسلت إليه ديسياً ، فدعته إلى تزوجها .

فلما أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد
فخضر ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في محرمته فزوجه أحداهم .

وقال عمرو : هذا الفحل لا يُقدحُ أنفه .

قال ابن هشام : وأصدقها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عشرين بَكْرَةً .

وكانت أول امرأة تزوجها ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

قال ابن إسحاق : فولدت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولده كلهم ،
إلا إبراهيم : القاسم ، وبه كان يُكنى صلى الله عليه وسلم ، والطاهر ، والطيب ،
وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية .

وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام ، فأسلمن وهاجرن معه .

هذا قول ابن إسحاق في ذكور البنين ، أنهم هلكوا في الجاهلية .

وقال الزبير بن بكار ، وهو من أئمة هذا الشأن : ولدت له القاسم ، وعبد الله

وهو الطاهر والطيب ، وُلِدَ بعد النبوة ومات صغيراً .

(٢) المطبوعة : قال .

(١) ط : ووسطك .

وفي مسند الفريابي ، ما يدل على أنه مات قبل أن تتم رضاعته وبعد النبوة^(١) .

وذلك أن خديجة دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت القاسم وهي تبكي عليه فقالت : يا رسول الله ، لو كان عاش حتى تستكمل رضاعته لهوّن على . فقال : إن له مريضاً في الجنة نستكمل رضاعته . فقالت خديجة : لو أعلم ذلك لهوّن على . فقال رسول الله : إن شئت أسمعتك صوتته في الجنة . فقالت خديجة : بل أصدق الله ورسوله .

قال ابن هشام : وأما إبراهيم فأمه منارية سُريّة النبي صلى الله عليه وسلم التي أهداها إليه المقوقس من حنّ من كورة أنصياء^(٢) .

وهي قبطية من قبط مصر ، وهذا هو الصهر الذي ذكره لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « الله الله في أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء الشحيم الجماد ، فإن لهم نسباً وصهراً » .

قال مولى غفرة : نسبهم أن أمّ إسماعيل النبي منهم ، وصنهرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرّر فيهم .

وفي حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمةً ورّحماً » .

(١) أي القاسم

(٢) هي مدينة بنواحي الصعيد على شرف النيل .

قال ابن إسحاق : وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد ابن العزى ، وكان ابن عمها^(١) وكان نصرانيا قد تدبّع الكتب وعلم من علم الناس ، ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يُظللانه .

فقال ورقة : لئن كان هذا حقا يا خديجة إن عمدا لبي هذه الأمة ، قد عرفتُ إنه كائنٌ لهذه الأمة نبيٌ يُنتظر ، هذا زمانه . أو كما قال .

فجعل ورقة يستبطن الأمر ويقول : حتى متى ؟ ! وقال في ذلك :

بَلَّجْتُ وَكُنْتُ فِي الذِّكْرِ لَجُوجًا .
لِيَهْمٌ طَالَمَا بَعَثَ النَّشِيحَا
ووصف من خديجة بعد وصف
فقد طال انتظاري يا خديجًا
ببطن المسكين^(٢) على رجائي
حديثك أن أرى منه خروجًا
بما خبرتنا من قول قس
من الرهبان أكره أن يموجًا
بأن عمداً سيُسود يوماً
ويُخيم من يكون له حبيبًا

(١) المطبوعة : عمه وهو خطأ .

(٢) يريد بالمسكين : جانباً مكة ، أو بطاها وظواهرها .

ويُظهر في البلاد ضياء نور
يقيم به البرية أن تموجاً
فيلقى من يحاربه خساراً
ويلقى من يسأله فوجاً^(١)
فياليتي إذا ما كان ذاكم
شهدتُ فكنت أولهم ولوجاً
ولوجاً في الذي كرهت قريش
ولو هجت بمكنتها عجيجاً
أرجى بالذي كرهوا جميعاً
إلى ذي المرش إن سفلوا عروجاً
وهل أمرُ السفاهة^(٢) غير كُفرٍ
بمن يختار^(٣) ، من سمك البروجاً
فإن يبتقوا وأبق تكُن أمور
يضيح الكافرون لها ضجيجاً
وإن أهلك فكل فتى سياتي
من الأقدار متلفة حروجاً^(٤)

(١) أي طهوراً ونجاحاً .

(٢) ابن هشام : السفالة .

(٣) المطبوعة : تختار .

(٤) أي مهلكة واسعة التصرف .

وقال ورقة بن نوفل أيضاً ذلك وهو ما رواه يونس بن بكير عن
ابن إسحاق :

أَتَبَكَّرُ أَمْ أَنْتِ الْعَشِيَّةُ رَأْحُ
وَفِي الصَّدْرِ مِنْ إِضْمَارِكَ الْحَزْنَ قَادِحُ
لِفِرْقَةٍ قَوْمٍ لَا أَحَبُّ فِرَاقَهُمْ
كَأَنَّكَ عَنْهُمْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ نَازِحُ
وَأَخْبَارِ صِدْقٍ خَبَّرْتُ عَنْ مُحَمَّدٍ
يَحْتَبِرُهَا عَنْهُ إِذَا غَابَ نَاصِحُ
فَتَاكِ الَّذِي وَجَّهْتِ يَا خَيْرَتِ حُرُوقُ
بِغَدَوٍ وَبِالذُّجْدَيْنِ حَيْثُ الصَّحَاصِحُ^(١)
إِلَى سُوقِ بُعْرَى فِي الرِّكَابِ الَّتِي غَدَّتْ
وَهُنَّ مِنَ الْإِعْمَالِ قُعُصٌ دَوَالِحُ^(٢)
نَجَّيْنَا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ بَعْلَهُ
وَاللَّحِقُ أَبْوَابُ لَهْنٍ مَفَاتِحُ
بِأَنَّ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَحَدًا مُرْسَلُ
إِلَى كُلِّ مَنْ ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْأَبَاطِحُ
وَعَطَّنِي بِهِ أَنْ سَوْفَ يُبْعَثُ صَادِقًا
كَمَا أُرْسِلَ الْعَبْدَانِ هُودُ وَصَالِحُ

(١) الصحاح: الأرس المستوية .

(٢) أى ثقيلات خطو منقبضات .

وموتى وإبراهيمُ حتى يُرى له
بهاءً ومنشورٌ من الذكر واضحُ
ويَتَّبِعُهُ حَيًّا لُوَيْ* بن غالبِ
شَبَابُهُمُ وَالْأَشْيَبُونَ الْجَحَاجِحُ
فإنَّ أَبَقَ حتى يدرك الناسَ دهره
فإني به مستبشرُ الودِّ فارحُ
وإلا فإني يا خديجةُ فاعلمى
عن أرضك في الأرضِ العريضةِ سائحُ

ذکر بنیان قریش الکعبة

مع ذکر ما أحدثوه فی المذاسک

ولما بَلَغَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خمسًا وثلاثين^(١) سنة ، اجتمعت قریش لبُنیان الکعبة .

قال موسى بن عُقبة : وإنما حَمَلَ قریشًا على ذلك^(٢) أن السَّيْلَ كان أتى من فوق الرِّدْمِ الذى صنعوا فَأَخْرَبَهُ ، فحافوا أن يدخلها الماء ، وكان رجلٌ يقال له مُلَيْحٌ سرق طيب الکعبة .

فأرادوا أن يشيّدوا بنیانها ، وأن يرفعوا بابها ، حتى لا يدخلها إلا من شاءوا وأعدّوا لذلك نفقة ، وعمالاً ، ثم عمدوا إليها ليهدموها على شَفَقٍ وحَذَرٍ من أن يمنعهم الله الذى أرادوا .

قال ابن إسحاق : وكانوا يهشّون بذلك [ليُسْقِفوها]^(٣) ويهابون هدمها ، وإنما كانت رَضَمًا^(٤) فوق القامة ، فأرادوا رَفْعَها وتسقيفها ، وذلك أن نفراً سرقوا كنز الکعبة ، وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الکعبة .

قال : وكان الذى وُجِدَ عنده الكنزُ دُوَيْكٌ مولى لبني مُلَيْحِ بن عمرو ، من خزاعة [قال ابن هشام :] فقطعت قریش يده .

(١) المطبوعة : خمسًا وعشرين ، وهو خطأ .

(٢) المطبوعة : على بنیانها .

(٣) من ابن هشام

(٤) أى حجارة تصد بعضها على بعض من غير ملاط

وتزعم قريش أن الدين سرقوه وضموه عند دؤيك .

قال : وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جُدَّة لرجل من تجار الروم فتحطمت
فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها ، وكان بمكة رجل قبطي نجَّار ، فتهياً لهم
في أنفسهم بعض ما يصلحها .

وكانت حية تخرج من بئر السكمة التي كان يُطرح فيها ما يُهدى لها ،
فتشرقي^(١) على جدار السكمة ، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها
أحدٌ إلا احزألت^(٢) وكشَّت وفتحت فها ، فسكانوا يهابونها . فبينما هي يوماً
تشرقي على جدار السكمة كما كانت تصنع ، بعث الله إليها طائراً فاخطفها ،
فذهب بها .

فقال قريش : إنا لندرجو أن يكون الله قد رضى بما أَرَدْنَا ، عندنا عاملٌ رفيق
وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية .

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها ، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ
ابن عمران بن مخزوم ، فتناول من السكمة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى
موضعه ، فقال : يا معشر قريش ، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً ،
لا تدخلوا فيها مهر^(٣) بغي ولا بيع رباً ، ولا مظالمه أحد من الناس .

والناس يفعلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر
ابن مخزوم .

(١) تشرقي : تبرز للشمس .

(٢) احزألت : رفعت رأسها . وكشَّت : صوتت من جلدها لا من فيها .

(٣) لى ط : مقر ، وفى هامشها : فى السيرة : مهر .

ثم إن قريشاً تجزأت^(١) الكعبة ، فكان شِيقُ البابِ لبني عبد مناف
وزهرة ، وكان ما بيني الرُّكنُ الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من
قريش انضبتوا إليهم ، وكان ظمُرُ الكعبة لبني جُمح وبني سُهْم ، وكان شِيقُ
الحِجْر لبني عبد الدار بن قُصَي ، ولبني أسد بن عبد العزى^(٢) بن قصي ، ولبني
عدي بن كعب رهوُ الحطيم^(٣) .

ثم إن الناس هابوا هَدْمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم
في هَدْمها ، فأخذ المِعْوَل ، ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم تُرْعِ^(٤) . ويقال :
لم تُرْعِ . اللهم إنا لا نريد إلا الخير .

ثم هَدَم من ناحية الركنين ، فتربص الناسُ تلك الليلة ، وقالوا : انظر ،
فإن أصيبَ لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يُصبه شيء ، فقد
رضى الله ما صنعنا .

فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناسُ معه ، حتى إذا
انتهى الهدمُ بهم إلى الأساس ، أساس إبراهيم عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة
خضِر ، كالأسنة^(٥) آخذٍ بعضها بعضاً .

قال ابن إسحاق : فحدثني بعض من يروي الحديث : أن رجلاً من قريش ممن
كان يهدمها ، أدخل عَقْلَةً بين حجرتين منها ليقلع بها أحدهما ، فلما تحرك الحجر
تنقضت مكةُ بأثرها ، فاتتهوا عن ذلك الأساس .

(١) ابن هشام : جزأت .

(٢) ابن هشام : ابن العزى .

(٣) رهو : ما اطمأن من الأرض وارتفع ما حوله .

(٤) أي لم تفزع الكعبة .

(٥) ط : كالأسنة

قال : وَحُدِّثْتُ أَنْ قَرِيْشًا وَجَدُوا فِي الرُّكْنِ كِتَابًا بِالسَّرْيَانِيَّةِ ، فَلَمْ يَدْرُوا مَا هُوَ حَتَّى قَرَأَهُ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ ، فَإِذَا هُوَ : أَنَا اللَّهُ ذُو بَرْكَةٍ ، خَلَقْتُهَا يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَصَوَّرْتُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَحَفَفْتُهَا بِسَبْعَةِ أَمْلاكٍ حُفَّاءَ ، لَا تَزُولُ حَتَّى يَزُولَ أَخْشَبَاهَا^(١) ، مَبَارَكٌ لِأَهْلِهَا فِي الْمَاءِ وَاللَّيْلِ .

وَحُدِّثْتُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا فِي الْمَقَامِ كِتَابًا فِيهِ : مَكَّةَ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا مِنْ ثَلَاثِ سُبُلٍ ، لَا يُحِلُّهَا أَوْلَى مِنْ أَهْلِهَا^(٢) .

وَزَعِمَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ أَنَّهُمْ وَجَدُوا حَجْرًا فِي الْكَعْبَةِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ، إِنْ كَانَ مَا ذَكَرَ حَقًّا ، مَكْتُوبًا فِيهِ : مَنْ يَزْرَعْ خَيْرًا يَحْصِدْ غَيْبَةً ، وَمَنْ يَزْرَعْ شَرًّا يَحْصِدْ نَدَامَةً ، تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، وَتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتِ ۝ ۱۱ أَجَلٌ كَمَا [لَا] يُجْتَنَى مِنَ الشُّوكِ الْعَذَابُ .

[وَضِعَ الْحَجَرِ]

قال ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش ، جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تجاوزوا وتحالفوا ، وأعدوا للقتال ، فقررت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسقوا آفة الدم .

فكثرت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد ، فنشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية ، أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله

(٢) أى أن أهلها هم الذين يبتدئون بإحلالها .

(١) أخشباها : جبالها .

ابن عمر بن مخزوم ، وكان عامئذٍ أسنَّ قريش كلَّها ، قال : يا معشر قريش اجعلوا
بيدكم فيما تختلفون فيه ، أوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ يَقْضِي بَيْنَكُمْ . ففعلوا .
فكان أوَّلَ دَاخِلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَأَوْهُ ، قَالُوا : هَذَا
الْأَمِينُ ، رَضِينَا ، هَذَا مُحَمَّدٌ .

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم : هلمَّ إلىَّ ثوبًا .
فأتى به ، فأخذ الركنَ فوضعه فيه بيده ثم قال لِنَتَّأْخِذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِدَاحِيَةِ مِنَ الثُّوبِ
ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا . ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده صلى الله
عليه وسلم ، ثم بُني عليه .

[كسوة السكبة]

وكانت السكبة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثمانى عشرة ذراعًا ، كانت
تُكْسَى الْقَبَائِطِيُّ^(١) ، ثم كسيت البرودَ .

وأول من كساها الديباجَ ، الحجاجُ بن يوسف . هذا قول ابن اسحاق .

وقال الزبير : بل أول من كساها الديباجَ عبدُ الله بن الزبير .

وذكر جماعة سواهما منهم الدارقطني : أن نُتَيْلَةَ بنت جناب ، أمَّ العباس
ابن عبد المطلب ، كانت قد أضلَّت العباسَ وهو يومئذ صغير ، فنذرت إن هي
وجدته أن تكسو السكبة الديباجَ ، ففعلت ذلك حين وجدته .

وذكر الزبير أن الذى أضلَّته نُتَيْلَةُ بنت جناب إنما هو ابنها ضرار بن

(١) ثياب بيض كانت تصنع بمصر .

عهد المطلب [شقيق العباس^(١)] ، ونذرت أن تكسو البيت إن وجدته ،
فكسوته حين وجدته ثياباً بيضاً ، قاله تعالى أعلم .

[أمرُ الحُمس]

قال ابن إسحاق : وكانت قريش ، لا أدري أقبَلَ الفيل أم بعده ، ابتدعت
أمرَ الحُمس ، رأياً رأوه وأداروه .

فقالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحُرمة وولاية البيت ، وقاطنُ مكة وساكنها ،
فليس لأحد من العرب مثل حَقَّنَا ، ولا مثل منزلتِنَا ، ولا تعرف له العرب مثل
ما تعرف لنا ، فلا تعظّموا شيئاً من الحِلِّ كما تعظّمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم
ذلك استخفّت العربُ بحرمّتكم ، وقالوا : قد عظّموا من الحِلِّ مثل ما عظّموا
من الحرم .

فتركوا الوقوفَ على عرفة والإفاضة منها وهم يعرفون ويقرّون أنها من
الشّاهر والحجّ ودين إبراهيم ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها ،
وأن يفيضوا منها ، إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم ، فليس ينبغى لنا أن
نخرُج من الحرم ، ولا نعظّم غيرها كما نعظّمها ، نحن الحُمس ، والحُمس
أهل الحرم .

ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحِلِّ والحرم مثل الذي لهم
بولدتهم إياهم ، يحلّ لهم ما يحلّ لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم .

وكانت كفاية وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك .

ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لهم ، حتى قالوا : لا ينبغى للحُمس أن

(١) من الطبوعة .

يَأْتَقِطُوا الْأَقِطَ^(١) ، ولا يسألوا السمن وهم حرّم ، ولا يدخلوا بيوتا من شعير ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرّما .

ثم رفعوا في ذلك فقالوا : لا يذنبى لأهل الحِلِّ أن يأكلوا من طعامهم .
جاءوا به معهم من الحِلِّ إلى الحرم إذا جاءوا حُجَّاجًا وَعُمَرَاءَ ، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أوّل طوافهم إلا في ثياب الخمس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عُرَاةً ، فإن تسكّرتم منهم متسكّرتم من رجل أو امرأة ، ولم يجد ثياب أحسن فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحِلِّ ، ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً . فكانت العرب تسمّى تلك الثياب اللقي^(٢) .

فحملوا على ذلك العرب فدانت به ، فوقفوا على عرفات وأفاضوا منها ، وطافوا بالبيت عُرَاةً ، أما الرجال فيطوفون عرّاة ، وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلّها إلا ثوباً^(٣) مفرّجاً عليها ، ثم تطوف فيه .

فكانوا كذلك حتى بعث الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عليه حين أحكم له دينه وشرع له سنن حجّه : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ »^(٤) ، يعنى قریشاً ، والناس العرب . فرفعهم في سنّة الحجّ إلى عرفات والوقوف عليها والإفاضة منها .

وأنزل عليه فيما كانوا حرّما على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت ،

(١) الأقط : شيء متخذ من الخيض النعمى .

(٢) اللقي : الشيء الملقى .

(٣) ابن هشام : درعا .

(٤) سورة البقرة ١٩٩ .

حين طافوا عند البيت عُرَاةً وحرّموا ما جاءوا به من الحِلِّ من الطعام :
« يا بني آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا
إنه لا يحبُّ المُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ
من الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ
نُفَعِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (١) .

فوضع الله أمرَ الحُجَمَسِ ، وما كانت قريش ابتدعت منه على الناس ، بالإسلام
حين بعث الله رسوله .

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموافقِ قومه على تغيير مشاعر الحجِّ
والعدول عن مواقف الناس .

قال جَبْرِ بن مُطِيم : لقد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قبلَ أن ينزل
عليه الوحي ، وإنه لواقفٌ على بعيره بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع
معهم ، توفيقاً من الله له .

وقد تقدّم ما أحدثوه من النسيء ، وما أبطلَ الله من حُكْمِهِ بقوله سبحانه :
« إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَمَّا وَاعَدُوا اللَّهَ
عَمَّا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سِوَا أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » (٢) .

فأغنى ذلك عن إعادته .

(١) سورة الأعراف : ٣١ ، ٣٢ .

(٢) سورة التوبة ٣٧ .

ذكر ما حفظ عن الأحرار والرهبان

والسكّان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبْلَ مَبْعَثِهِ ،
سوى ما تقدم من ذلك ، مع ذكر شيء مما سُمِعَ
من ذلك عند الأصنام أو هتفت به المواتف^(١)

قال ابن إسحاق : وكانت الأحرار من يهود ، والرهبان من النصارى ،
والسكّان من العرب ، قد تحدّثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبْلَ مَبْعَثِهِ
لمياً تقارب من زمانه .

أما الأحرار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فعمّا وجدوا في كتبهم من
صفتهم وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه .

وأما السكّان من العرب فأتيتهم به الشياطين فيما تَسْتَرِقُ من السمع ، إذ
كانت لا تُحْجَبُ^(٢) عن ذلك ، وكان الكاهن والكاهنة ، لا يزال يقع منهما
ذكرُ بعض أموره لا تُتَلَقَى العربُ لذلك فيه بالآ ، حتى بعثه الله ووقعت تلك
الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها .

فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثه ، حُجِبَتِ الشياطين
عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها لاستراقه^(٣) ، فرؤوا
بالذجوم ، فعرفت الجنُّ أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد .

(١) يعترض على الاستدلال بقول السكّان في إثبات النبوة بأن الإسلام قد أبطل السكّانة .
قال الماوردي : « فعنه جوابان : أحدهما : أنه تأويل رؤيا تحققت خرج بها عن حكم السكّانة
الثاني أنه علمها بنقل الجن : كهتوف الجن . »

وعلى كل ، لما أغنى الإسلام عن هتاف الجان وقول السكّان :
(٢) ابن هشام : وهي لا تُحْجَبُ . (٣) ابن هشام : لاستراق السمع فيها .

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حين بعثه يقص عليه خبر الجن إذ حُجِبُوا : « قُلْ : أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا . وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُمَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا . وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يُعْوِذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ، وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْبَغَتْ إِلَهُ أَحَدًا . وَأَنَا لَمُسَمَّا السَّمَاءِ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا وَأَنَا لَا تَذَرِي أَشْرًا أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » (١) .

فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما مُنعت من السمع قبل ذلك لئلا يُشكّل الوحيُ بشيء من خبر السماء فيلْبَسَ (٢) على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه ، لوقوع الحجّة وقطع الشبهة ، فأمنوا وصدّقوا . ثم « وأَوْأَى إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا : يَا قَوْمِنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا آتَيْنَا بِهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ » (٣) .

وقولُ الجن (٤) : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يُعْوِذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا » هو أن (٥) الرجل من العرب من قریش وغيرهم كان إذا

(١) سورة الجن ،

(٢) ابن هشام : فيلبس .

(٣) سورة الأحقاف .

(٤) ابن هشام : وكان قول

(٥) ابن هشام : أنه كان .

سافر فنزل بطن وادٍ من الأرض ليبيت فيه قال : إني أعود بعزير هذا الوادي من الجن الليلية من شر ما فيه .

وذكر أن أول العرب فزع للرّمي بالنجوم ، حين رمى بها ، ثقيف^١ ، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية ، أحد بني عِلاج ، وكان أذى العرب وأنكرها^(١) رأياً فقالوا له : يا عمرو ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم ؟

قال : بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء ، لمّا يصلح الناس في معايشهم ، هي التي يرمى بها فهو والله على الدنيا ، وهلاك هذا الخلق الذي فيها .

وإن كانت نجومًا غيرَها ، وهي ثابتة على حالها ، فهذا لِأمرٍ أراد الله به هذا الخلق . فما هو ؟

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه ل نفر من الأنصار : ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به ؟

قالوا : يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها يرمى بها : مات ملكٌ ، مُلكٌ ، مُلكٌ وُلِدَ مولودٌ ، مات مولودٌ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس ذلك كذلك ، ولكن الله تبارك تعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه حملة العرش فسبحوا ، فسبح من تحتهم

(١) أنكرها : من النكر بفتح النون ، وهو الدماء .

للسبيحهم ، فسبح من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فسبحوا . ثم يقول بعضهم لبعض : ممّ سبّحتم ؟ فيقولون : سبّح من فوقنا فسبّحنا لتسبيحهم . فيقولون : ألا تسألون من فوقكم ممّ سبّحوا ؟ فيقولون مثل ذلك ، حتى يذهبوا إلى حلة العرش ، فيقال لهم : ممّ سبّحتم ؟ فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا . للأمر الذي كان . فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا ، فيتحدّثوا به ، فتستترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف ، ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدّثونهم فيخطئون ويصيبون ، فتحدّث به الكهان فيخطئون بعضاً ، ويصيبون بعضاً .

ثم إن الله حجب هذه الشياطين بهذه النجوم التي يُقدّفون بها ، فانقطعت السكّهانة اليوم ، فلا كهانة .

وذكر أبو جعفر العقيلي بإسناد له ، إلى كهيب بن مالك اللّهي^(١) . قال : حضرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده السكّهانة ، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم ، وذلك أننا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك ، وكان شيخاً كبيراً ، قد أتت عليه مائة سنة وثمانون سنة ، وكان من أعلم كهاننا ، فقلنا : يا خطر ، هل عندك علم بهذه النجوم التي يُرمى بها ؟ فإننا قد فزعنا لها وخفنا سوء عاقبتها .

فقال : اتقوني بسحر ، أخبركم الخبر ، أخيراً ضرر ، أو أمن أو حذر .

قال : فاتصرفنا عنه يومئذ ، فلما كان من غد في وجه السحر أتينا ، فإذا هو

(١) بنو لهب : قوم من الأزد

قَامَ عَلَى قَدَمَيْهِ شَاخِصٌ^١ فِي السَّمَاءِ بَعَيْنَيْهِ ، فَهَادِيذَاهُ : يَا خَطَرَ يَا خَطَرَ . فَأَوْمَأَ إِلَيْنَا
أَنْ أَمْسِكُوا . فَأَمْسَكْنَا .

فَانْقَضَ^٢ نَجْمٌ عَظِيمٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَصَرَخَ السَّكَّانُ رَافِعًا صَوْتَهُ : أَصَابَهُ أَصَابَهُ ،
خَاطَرَهُ عِقَابُهُ ، عَاجَلَهُ عَذَابُهُ ، أَخْرَقَهُ شِهَابُهُ ، زَايَلَهُ جَوَابُهُ ، يَا وَيْحَهُ^(١)
مَا حَالُهُ ، بَلْبَاهَهُ بَلْبَاهُكَ ، هَارَدَهُ خَبَالُهُ ، تَقَطَّعَتْ حَبَالُهُ ، وَغُيِّرَتْ أَحْوَالُهُ .

ثُمَّ أَمْسَكَ طَوِيلًا وَقَالَ : يَا مَعْشَرَ بَنِي قَعْقَطَانَ ، أَخْبِرْكُمْ بِالْحَقِّ وَالْبَيَانِ ،
أَقْسَمْتُ بِالْكَعْبَةِ وَالْأَرْكَانِ ، وَالْبَلَدِ الْمُؤْتَمِنِ السُّدَّانِ ، لَقَدْ مَنَعَ السَّمْعَ عِتَاةُ الْجَانِ ،
بِثَاقِبِهِ بِأَمْرِ ذِي سُلْطَانِ ، مِنْ أَجْلِ مَبْعُوثِ عَظِيمِ الشَّانِ ، يُبْعَثُ بِالتَّنْزِيلِ
وَالْقُرْآنِ ، وَبِالْهُدَى وَفَاصِلِ الْفِرْقَانِ ، تَبْطُلُ بِهِ هِبَادَةُ الْأَوْثَانِ .

قال : فقلت : يا خطر ، إنك لتذكر أمراً عظيماً فإذا ترى لقومك ؟
قال :

أرى لقومي ما أرى لنفسي
أن يتتبعوا خيراً بنى الإنسي
برهانه مثل شعاع الشمس
يُبَيِّتُ فِي مَكَّةِ دَارِ الْخُمْسِ
بِمُحْكَمِ التَّنْزِيلِ غَيْرِ اللَّبْسِ

فقلنا له : يا خطر ، ومن هو ؟

فقال : والحياقير والمعيش ، إنه لمن قرئش ، ليس في حيلته^(٢) طيش ولا في خلقه

(١) المطبوعة : ياويله .

(٢) المطبوعة : في حكمه .

هَيْش^(١) يَكُونُ فِي جَيْشٍ وَأَمَى جَيْشٍ ۱ مِنْ آلِ قَحْطَانَ وَآلِ أَيْشٍ . فَقَالُوا لَهُ :
بَيْنَ لَدَا مِنْ أَمَى قَرِيْشٍ هُوَ ؟

فَقَالَ : وَالْبَيْتُ ذِي الدِّعَاءِ ، لِأَنَّهُ لَمَنْ تَجَلَّ هَاشِمٌ ، مِنْ مَشْرِئِ أَكْرَامٍ ، يَهْمُ
بِالْمَلَأِ حَمٍ ، وَقَتْلِ كُلِّ ظَالِمٍ .

ثُمَّ قَالَ : هَذَا هُوَ الْبَيَانُ ، أَخْبَرَنِي بِهِ رَأْسُ الْجَانِ .

ثُمَّ قَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ ، وَانْقَطَعَ عَنِ الْجِنِّ الْخَبْرُ .

ثُمَّ سَكَتَ وَأَغْمَى عَلَيْهِ ، فَمَا أَفَاقَ إِلَّا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : سَبَّحَانَ اللَّهِ ، لَقَدْ نَطَقَ عَنْ مِثْلِ نَبْوَةٍ ،
وَلِأَنَّهُ لِيَهْمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحِدَةً .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي سَتِّمْ يَقَالُ لَهَا
الْقَيْطَلَةُ ، كَانَتْ كَاهِنَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، جَاءَهَا صَاحِبُهَا لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فَانْقَضَتْ تَحْتَهَا ،
ثُمَّ قَالَ : بَدْرٌ مَا بَدْرٌ^(٢) ، يَوْمٌ عَقَرٌ وَنَحْرٌ .

فَقَالَتْ قَرِيْشٌ حِينَ بَلَغَهَا ذَلِكَ : مَا تَرِيدُ ؟

ثُمَّ جَاءَهَا لَيْلَةٌ أُخْرَى فَانْقَضَتْ تَحْتَهَا ، ثُمَّ قَالَ : شُؤْبٌ مَا شُؤْبٌ^(٣)
تُضْرَعُ فِيهِ كَعْبٌ مُجُؤْبٌ .

(١) الهَيْشُ : الْإِنْسَادُ

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : أَدْرُ مَا أَدْرُ . وَمَا هُنَا أَوْصَحُ .

(٣) شُؤْبٌ هُنَا بَضْمُ الشَّيْنِ وَكَأَنَّهُ جَمْعُ شَعْبٍ ، وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ يَدُلُّ عَلَيَّ هَذَا حِينَ

قَالَ : فَلَمْ يَدْرَ مَا قَالَتْ حَتَّى قَتَلَ مَنْ قَتَلَ بِيَدْرِ وَأَحَدًا بِالشَّعْبِ .

فلما بلغ ذلك قريشا ، قالوا : ماذا يريد ؟ إن هذا لأمرٍ هو كائن
فانظروا ما هو .

فما عرفوه حتى كانت وقعةٌ بَدْرٍ وأحدٌ بالشَّعبِ ، فعرفوا أنه الذي كان
جاء به إلى صاحبه .

قال : وحدثني هلى بن نافع الجُرَشِيُّ أن جَنَبًا بَطْنًا من اليمن ، كان لهم
كاهن في الجاهلية ، فلما ذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر
في العرب قالت له جَنَبٌ : انظر لنا في أمر هذا الرجل . واجتمعوا له
في أسفل جَبَلِهِ .

فنزل عليهم حين طلعت الشمس فوقهم لهم قائما متمكنا على قوس له ، فرفع
رأسه إلى السماء طويلا ، ثم جعل ينزو ثم قال : أيها الناس ، إن الله أكرم
محمداً واصطفاه ، وطهر قلبه وحشاه ، ومُكِّنَهُ فيكم أيها الناس قليل . ثم اشتد
في جبهه راجعا من حيث جاء^(١) .

قال : وحدثني مَنْ لا أتهم ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بينما هو جالس
في الناس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبل رجل من العرب يريد
عمر ، فلما نظر إليه عمر قال : إن الرجل لَمَلَى شِرْكَه ما فارقه بعدد ، أو لقد كان
كاهنا في الجاهلية .

فسلم عليه الرجل ، ثم جلس ، فقال له عمر : هل أسلمت ؟ قال : نعم يا أمير
المؤمنين ، قال : فهل كنت كاهنا في الجاهلية ؟ فقال له الرجل : سبحان الله

(١) ط : ثم أسند في جبهه راجعا من حيث شاء .

يا أمير المؤمنين ! لقد خِلْتُ فيَّ واستقبلتني بأمر ما أراك قلبه لأحد من رعيقتك منذ وليت .

فقال عمر : اللهم غَفراً ، قد كُنا في الجاهلية على شرٍّ من هذا ، نمبد الأصدام ونعتق الأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام .

قال : نعم ، والله يا أمير المؤمنين لقد كنتُ كاهناً في الجاهلية .

قال : فأخبرني بما جاءك به صاحبك .

قال : جاءني قبيل الإسلام بشعر أو شَيْعِهِ^(١) ، فقال : ألم تر إلى الجن وإبلاسهما وإياسهما من دينها ، ولحوقها بالقبلاص وأحلاسها !

قال ابن هشام : هذا الكلام سَجَع وليس بشعر وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر :

عجبتُ للجنِّ وإبلاسهما وشدَّها العيسَ بأحلاسها .
تهوى إلى مكة تَبْنِي المُدَى ما مؤمنُ الجن كَأَنْجاسها

فقال عمر رضي الله عنه عند ذلك ، يحدث الناس : والله إنى لعند وثني من أوثان الجاهلية في نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب هجلاً ، فنحن ننتظر قسمة ليقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل صوتاً ما سمعت قط أنفدَّ منه ، وذلك قبيل الإسلام بشعر أو شَيْعِهِ يقول : يا ذريح أمرٌ نجيح ، رجل يصيح يقول لا إله إلا الله .

قال ابن هشام : ويقال : رجل يصيح باسان فصيح يقول لا إله إلا الله .

وهذا الرجل الذي ظن به عمر رضى الله عنه ما ظن ، هو سواد بن قارب
الدؤسى ، وكان يتسكن في الجاهلية .

وقد ذكر خبره غير ابن إسحق ، فساقه سياقة أحسن من هذه وأتم ، وذكر
فيه أنه كان قائماً على جبال من جبال السمرات ليلة من الليالي ، فأتاه آت ،
فضربه برجله وقال :

قُم يا سواد بن قارب ، أتاك رسول من أومى بن غالب .

قال : فرفعت رأسى وجلست فأدبر وهو يقول :

عَجِبْتُ لِلجَنِّ وتَطْلَأُ بِهَا
وَشَدَّهَا العَيْسَ بِأَقْتَابِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَنْبِيءِ الهُدَى
مَا صَادِقُ الجَنِّ كَكذَابِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
لَيْسَ قَدَامَاهَا كَأَذْنَابِهَا

وأناه في الليلة الثانية ، فضربه برجله ، وقال : قم يا سواد بن قارب ، أتاك
رسول من لوى بن غالب . قال : فرفعت رأسى وجلست ، فأدبر وهو يقول :

عَجِبْتُ لِلجَنِّ وَأَخْبَارِهَا
وَرَحْلِهَا العَيْسَ بِأَسْكَوَارِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَنْبِيءِ الهُدَى
مَا مُؤْمِنُوهَا مِثْلُ كَفَّارِهَا

فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
لَيْسَ قَدْ أَمَامَا كَادِبَارَهَا

وَأَتَاهُ فِي اللَّيْلَةِ الثَّلَاثَةِ بَعْدَ مَا نَامَ ، فَضْرَبَهُ بِرِجْلِهِ وَقَالَ : قِمِ يَا سَوَادُ بْنُ قَارِبٍ أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لَوْيَ بْنِ غَالِبٍ قَالَ : فَرَفَعْتَ رَأْسِي وَجَلَسْتَ ، فَادْبِرْ وَهُوَ يَقُولُ :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَإِبْلَاسِهَا
وَرَحَلَهَا الْعَيْسَ بِأَحْلَاسِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي التُّهْدَى
مَا مَوْمَنُوهَا مِثْلُ أَرْجَاسِهَا

فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
وَارْمِ بِعَيْنَيْكَ إِلَى رَأْسِهَا

قَالَ : فَلَمَّا أَصْبَحَتْ اقْتَمَعْتُ بِمَيْرِي فَأَتَيْتُ مَكَّةَ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ظَهَرَ ، فَأَخْبَرْتَهُ الْخَبْرَ وَبَايَعْتَهُ .

وَفِي بَعْضِ طَرُقِ حَدِيثِهِ أَنَّهُ أَنْشَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِعْرًا مِثْلَهُ فِي مَعْنَى مَا جَاءَ بِهِ رِثِيهِ :

أَتَانِي رِثِيٌّ بَعْدَ هَذِهِ وَرَقْدَةٍ^(١)
وَلَمْ يَكُ فِيمَا قَدْ بَلَوْتُ بِكَادِبٍ

(١) ط : ومجبة .

ثلاثَ ليالٍ قوله كلَّ ليلةٍ
أناك رسولٌ^(١) من لؤيِّ بنِ غالبٍ
فرفعتُ أذيانَ الإزارِ وشممتُ
بِالعِرمِيسُ الوَجْداءِ وسَطِ السَّباسبِ^(٢)
فأشهدُ أنَّ اللهَ لا رَبَّ غَيره
وأناك مأمونٌ على كلِّ غائبٍ
فمرُّنا بما يأتيناك من وَحيِ ربِّنا
وإنَّ كانَ فيما حِئتِ شَيْبُ الذَّوائِبِ
وكن لي شفيعاً يومَ لاذو شفاعَةٍ^(٣)
بمُنِّي فتَيْبِلا عن سَوادِ بنِ قاربِ

ولسواد بن قارب هذا مقام حميد في قومه دؤس ، حين بلغهم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يثبَّتْهم في الدين ويحضِّمهم على التمسك بالإسلام ، سندكره إن شاء الله مع نظائره بعد استيفاء الخبر عن وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكر الواقدي بإسناد له قال : كان أبو هريرة يحدث أن قوماً من خثعم كانوا عند صنم لهم جلوساً ، وكانوا يتحيا كونه إلى أصنامهم ، فيقال لأبي هريرة : هل كنت أنت تفعل ذلك ؟ فيقول : قد فعلتُ فأكثر ، فالجد لله الذي أنقذني^(٤) بمحمد صلى الله عليه وسلم .

(١) المطبوعة : نى .

(٢) العرميس : الناقة الصلبة . وتروى : الذعلب . والسباسب : جمع سباسب وهي الفلاة

(٣) ط : ذو قرابة . (٤) ط : تنقذنى .

قال أبو هريرة : فبينما الخثعميون عند صنمهم إذ سموا هاتفاً يهتف :

يا أيها الناس ذوو الأجسام-

ومسندو الحكم- إلى الأصنام-

أكلتكم أوزة كالكمهم^(١)-

ألا ترون ما أرى أمامي

من ساطع- يجلو دجى الظلام-

ذاك نبي^٢ سيّد الأنام-

من هاشم- في ذروة السّمام-

مستعمل^٣ بالبلد الحرام-

جاء يهدم^(٢) الكفر بالإسلام^(٢)-

أكرمته الرحمن من إمام-

قال أبو هريرة : فأمسكوا ساعة حتى حفظوا ذلك ثم تفرقوا ، فلم تمض بهم ثلاثة حتى فجأهم خبرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد ظهر بحكة . قال : فما أسلم الخثعميون حتى استأخروا إسلامهم ورأوا عبيراً عند صنمهم .

وذكر الواقدي أيضاً أن رجلاً من الأنصار حدث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : انطلقت أنا وصاحبان لي نريد الشام ، حتى إذا كنا بعفرة من الأرض نزلنا بها ، فبينما نحن كذلك إذ لحقنا راكب ، فكنا أربعة وقد أصابنا سحاب شديد ، والتفت فإذا أنا بظبية عَضَّها ترتع قريباً مني فوثبتُ إليها .

(١) الأوره : الأحمق .

(٢) المطبوعة : جاء يهدم الكفر بالإسلام .

فقال الرجل الذي هنا : خلّ سبيلها ، لا أبالك ، والله لقد رأيتها ونحن نسالك
هذا الطريق ونحن عشرة أو أكثر فيُخْتَطَفُ بَعْضُنَا ، فما هو إلا أن كانت
هذه الظبية فما يُهاجُ بها أحد .

فأبَيْتُ وقلت : لا لَعَمْرُ اللَّهِ لا أخليها .

فارتحلنا وقد شدتها معي ، حتى إذا ذهب سَدَفٌ من الليل إذا هاتف
يهتف بنا ويقول :

يا أيها الركبُ السَّرَّاعُ الأربعةُ
خلوا سبيلَ النّافِرِ^(١) المَفْرَعةُ
خولوا عن اللَّعْضَاءِ في الوادي سَمَّةُ
لا تَذْبَحُنَّ الظبيَّةَ المروعةُ
فيها لأيتام صغار مدفعةُ

قال : نغليت سبيلها ، ثم انطلقنا حتى أتينا الشام ، فقضينا حوائجنا ، ثم أقبلنا
حتى إذا كنا بالمكان الذي كنا فيه هتف بنا هاتف من خلفنا :

إياك لا تعجل وخذها من ثقبه
فإن شرَّ السَّيرِ سَيْرُ الحَمَاحَةِ^(٢)
قد لاحَ نجمٌ فأضاء مَشْرِقةُ
يُخْرِجُ مِنْ ظُلْمِهَا عَسُوفٍ مُوبِقَةٍ

(١) ط : الباقد .

(٢) الحمحة : أرفع السير وأتمبه للظهر أو اللجاج في السير .

ذاك رسولٌ مُفْلِحٌ مَن صَدَّقَهُ اللهُ أَعْلَى أَمْرِهِ وَحَقَّقَهُ
قال الرجل : فَأَتَيْتُ مَكَّةَ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو
إِلَى الْإِسْلَامِ .

فَقَالَ عَمْرٌ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَنَا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ورويدها عن أبي المنذر هشام بن محمد الكلبي بإسناد متصل إليه ، قال : لقد
لقيتُ شيوخنا من شيوخ طَيِّبِءِ الْمُقَدِّمِينَ ، فسألتهم عن قصة مازن ،
يعني مازن بن النضوبة الطائي ، وسبب إسلامه ووفوده على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وإقطاعه أرضَ عُحْمَانَ ، وذلك بِمَنْنِ اللهِ وَفَضْلِهِ .

وكان مازن بأرض عُحْمَانَ بقريّة تدعى سَدَابِيلِ . قال مازن : فَعَتَرْتُ ذَاتَ
يَوْمٍ عَتِيرَةَ ، وهى الذبيحة ، فسمعت صوتا من العنم يقول : يَا مَازِنُ أَقْبِلْ أَقْبِلْ ،
فاسمع مالا تَجْهَلُ ، هذا نبيٌّ مُرْسَلٌ ، جاء بحق مُنْزَلٍ ، فَأَمِنَ بِهِ كَيْ تَعْزَلَ ،
عن حرّ نارٍ تُشْعَلُ ، وقودها بالجندل .

قال مازن : فقلت إن هذا والله لعجب ، ثم عتريتُ بعد أيام عتيرة أخرى ،
فسمعت صوتا أْبَيْنَ مِنَ الْأَوَّلِ ، وهو يقول : يَا مَازِنُ اسْمِعْ تُسَرِّ ، ظهر خيرٌ و بطن
شر ، بُعث نبيٌّ من مُهَمَّرٍ ، بدين الله الأكبر^(١) ، فدعّ نحيتا من حجر ، تسلّم
من حرّ سقر .

قال مازن : فقلت إن هذا والله لعجب وإنه لخير يراد بي ، وقدم علينا رجل
من أهل الحجاز فقلنا : ما الخبر وراءك ؟ قال : خرج بتهمة رجل يقول لمن
أنا : أجيّبوا داعي الله ، يقال له أحمد .

(١) هذه رواية المطبوعة . وفى ط : بدين لله الأكبر . وفى ا : بدين الله الأكبر

فقلت : هذا والله نبؤ ما سمعت .

فنزتُ إلى الصنم فسكسرتُه بجدّ اذا وشددت راحلتى ورحلت ، حتى
أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرح لى الإسلام فأسلمت ،
وأنشدت^(١) أقول :

كسرتُ يا جِرُّ أجدّ اذا وكان لنا
ربّاً نُطِيفُ به ضللاً بتضلال^(٢)
بالمأشمة هداًنا من ضلالتنا
ولم يكن دينه منّا على بالِ
يا راكباً بِلانِّن تمراً وإخوتها
أنى لمن قال ربى يا جِرُّ قالى

وقلت : يا رسول الله انى امرؤ مولى بالطرب وبشرب الخمر وبالملك إلى
النساء ، وألحت علينا^(٣) السنون ، فأذهبن الأموال وأهزلن الذرارى والرجال ،
وايس لى ولد ، فادع الله أن يُذهب عنى ما أجد ويأتينى بالحياء ، ويهب
لى ولدا .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن ، وبالحرّام
الحلال ، واثقه بالحياء ، وهب له ولدا .

قال مازن : فأذهب الله عنى كل ما أجد ، وأخصبتُ عُمان ، وتزوجتُ

(١) ط : ما أنشأت .

(٢) الطائوسه : ضلالتضلال .

(٣) ط : هلى .

أربع حرائر، ووهب الله لى حيان^(١) بن مازن ، وأنشأت أقول :

إليك رسول الله سُقْتُ مَطِيَّتِي
تجوبُ الفيافي من مُحَمَّانِ إِلَى الْعَرَجِ^(٢)
لَتَشْفَع لى يا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ النَّرى
فِيغْفِر لى رَبى فَأَرْجِعْ بِالْفَلَجِ^(٣)
إلى معشرٍ خالفتُ فى الله دينَهُمْ
فلا رأيتُهم رأى ولا شَرَجَهُمْ شَرَجى^(٤)
وكنت امرأ باللهو والحمر مُولِماً
شبابى حتى أذن الجسم بالنهيج
فأصبحت همى فى جهادٍ ونيق
فله ما صَوَّى اللهُ ما حَبَّى^(٥)

* * *

ومما يلحق بهذا الباب من حسان أخبار السكمان وإن كان بعد المبعث بزمان
ولسكنه يجمع مع الأحاديث السابقة فى الدلالة على صدق الرسول ، والإعلام
بالغيب المجهول ، والإرشاد إلى سواء السبيل ، ما ذكره أبو على إسماعيل بن القاسم
فى أماليه^(٦) بإسناد له إلى ابن السكبي عن أبيه قال :

(١) المطبوعة : حبة .
(٢) العرج : موضع بين مكة والمدينة .
(٣) الفلج بفتح الفاء الظفر والاسم منه الفلج بالضم .
(٤) المرج : المثل والنوع
(٥) هذه رواية المطبوعة ، وفى ط : بالزعب وهو الجماع وفى بالعب .
(٦) الأمالى ١ / ١٣٢ - ١٣٤

كان خنّاف بن التّوام الخنّيري كاهنا ، وكان قد أوتى بسطةً في الجسم وسعة في المال ، وكان عاتياً ، فلما وفدت وفود اليمن على النبي صلى الله عليه وسلم [وظهر الإسلام] أظار هلى إبل لمراد فاكتسحها ، وخرج بأهله وماله ولحق بالشّحر لخالف جوّدان بن يحيى^(١) [الفرضي^(٢)] ، وكان سيّدا منيما^(٣) ، ونزل بوادي من أودية الشّحر مخصب كثير الشجر من الأيكة والمرين .

قال خنّاف : وكان رئي في الجاهلية لا يغيّب عنى^(٤) ، فلما شاع^(٥) الإسلام فقدته مدة طويلة وسامنى ذلك ، فبينما أنا ليلة بذلك الوادى نائما إذ هوّى هوىّ العقاب ، فقال خنّاف ؟ فقات شصار ؟ فقال : اسمع أقل . قلت : قلّ اسمع . فقال : همّ تنم ، لسكل مدة نهاية وكل ذى أمد إلى غاية . قلت : أجل . فقال : كل دولة إلى أجل ثم يتاح لها حول ، اندهخت الدحل ورجعت إلى حقائقها الملل ، إنك سيجير موصول^(٦) والصبح لك مهذول ، إنى آنت بأرض الشام نفرا من أهل العزّام^(٧) حكاما على الحكام يذبرون^(٨) ذا رونق من الكلام ، ليس بالشعر المؤلف . ولا بالسجع المتكلف ، فأنت فزجرت ، فعاودت فظلمت^(٩) ، فقلت : همّ تهيمون وإلام تعزون ؟ فقالوا خطاب كهار جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضاع الآثار تنبج من أوار النار .

(١) ط : بن يحيى . وضبطها بضم التاء وفتح الحاء بالقلم .

(٢) من الأمل .

(٣) ط : منيما .

(٤) الأمل : لا يكاد يغيّب عنى .

(٥) ١ : شرع .

(٦) السجير : الصديق .

(٧) المرّام : قبيلة من اليمن .

(٨) ال : ذبرت الكتاب إذا قرأه وذرته إذا كتبه ، وقالوا : ذرته وذبرته بمعنى

واحد إذا كتبه . وى ط : يذرون .

(٩) طلعت : منعت .

قلت : وما هذا الكلام ؟ قالوا : فرقان بين الكفر والإيمان ، رسول من مضر ، من أهل المدر ، ابتمت فظهر ، نجاء بقول يينهر ، وأوضح نهجاً قد دثر ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن ازدجر ، ألف بالآى الكبر .

قلت : ومن هذا اليعوث من مضر ؟ قالوا : أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشبر^(١) ، وإن خالفت أصليت سقر .

فآمنت يا خذاقر ، وأقبلت إليك أبادز ، فجانب كل نجس كافر ، وشايح كل مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراق لا عن تلاق^(٢) .

قلت : من أين أبغى هذا الدين ؟

قال : من ذات الإحرين^(٣) والنقر اليمانيين أهل المساء والطين .

قلت : أوضيغ . قال : الحق بيثرب ذات النخل ، والحرمة ذات النمل^(٤) ، فهذالك أهل الطول والفضل والمواساة والبذل .

ثم أمّس عنى فبت مذهوراً أراعى الصباح ، فلما برق لى النور امتطيت راحلتى وآذنت^(٥) أعبدي واحتملت بأهلى ، حتى وردت الجوف فرددت الإبل على أربابها بمحولها وسقائها^(٦) ، وأقبلت أريد صنعاء ، فأصبت بها

(١) الشبر : يسكون الباء الخير ، وحرك للسجع ، كما قال العجاج :

الحمد لله الذى أعطى الشبر موالى الخير إن المولى شكرك

(٢) فى غير المطبوعة : عن لا .

(٣) لال الأصمى جمع الحرمة : حرار وحرور وأحرون .

(٤) النمل : المسكان الغليظ من الحرمة .

(٥) آذنت : أعلمت .

(٦) الحول : جمع حائل ، وهى الأنثى فى أولاد الإبل . والسقاب : جمع سقب ،

وهو الذكر .

معاذ بن جبل أميراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبايعته على الإسلام ، وعلمني
من القرآن ، فن الله علي بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة ، وقامت
في ذلك :

ألم تر أن الله عادَ بفضله
فأنقذَ من كَفحِ الزَّخِيخِ خُفَافاً^(١)
وكشف لي عن حَجْمَتِي عَمَامَا
وأوضح لي نَهْجِي وقد كان دائراً^(٢)
دعاني شِسَارٌ لاقى لو رفضتُها
لأصليتُ بَجْرًا من أظلي الهَوْبِ واهراً^(٣)
فأصبحتُ والإسلامُ حشُو جِوَانِحِي
وجانبتُ مَنْ أَمْسَى عن الحقِّ نَائراً^(٤)
وكان مُضِلِّي مَنْ هُدَيْتُ بِرُشْدِهِ
فله مُنَوِّرٌ عادَ بِالرُّشْدِ آمراً
نَجْوَتُ بِحَمْدِ اللهِ من كل قَبْحَةٍ
تَوَرَّتْ هُنْكَأَ يَوْمَ شَايَعْتُ شَاصِراً^(٥)

(١) الزخبيخ : بانه أهل الين النار .

(٢) الحجمتان : الدينان بانه أهل الين . قال شاعرهم ، وأكل أمه الذئب :

فيا حَجْمَتَا بَيْكِي عَلَى أُمِّ وَاهَبِ

أَكِيلَةَ قَلْبُوبِ بِيَهْمِضِ الْمَذَانِبِ

(٣) الهوب : النار ، باعتمهم والواهر : الساكن مع شدة الحر .

(٤) النَّائِرُ : النَّارُ .

(٥) القحمة : الشدة .

فقد أمنتني بعد ذلك يُحابرُ
بما كنتُ أغشى المُندياتِ يُحابرُ
فَعَنْ مُبَلِّغٍ فَتِيحَانِ قَوْمِي أَلُوكةِ
بِأَنِّي مِنْ أَقْتَالِ مَنْ كَانَ كَافِرًا^(١)
عليكم سواء القصد لأفل حدكم
فقد أصبح الإسلام للشرك قاهرا

وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم حدثه ، أنه كان لمرّ داس أبي العباس بن
مرّ داس السلمي وثنّ يعبده ، وهو حجرٌ يقال له ضمّار ، فلما حضر مرّ داساً
الموت^(٢) قال للعباس : أي بُنَى اعبُدْ ضمّار ، فإنه ينفَعُك ويضُرُّك . فهيدا العباس
يوماً عند ضمّار ، إذ سمع في جوف ضمّار منادياً يقول :

قُلْ لِلقَبَائِلِ مِنْ سُلَيْمٍ كَلِمَاتُهَا
أَوْدَى ضَمَّارٍ وَعَاشِ أَهْلَ الْمَسْجِدِ
إِنَّ الَّذِي وَرِثَ النَّبِيَّةَ وَالْمُهْدَى
بعد ابن مريمٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَهْتَدَى
أَوْدَى ضَمَّارٍ وَكَانَ يُعْبَدُ مَرَّةً
قَبْلَ الْكِتَابِ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
فخرق العباس ضمّار ، وخلق بالنبي صلى الله عليه وسلم فأسلم .

(١) الألوكة : الرسالة ، والأقتال : الأعداء .

(٢) غير المطبوعة : فلما حضر مرّ داس .

والأخبار في هذا الباب مما نُقِلَ من ذلك عن السُّكَّانِ ، أو سُمِعَ عند الأصنام ، أو هتفت به هواتفُ الجانِّ كثيرةٌ جداً ، وقد أثبتنا منها ما استحسناه ممَّا ذكره ابن إسحاق ، أو ذكره سواه .

[إنذار يهود بالذي]

قال ابن إسحاق: وحديثي حاصمُ بن عمر بن قنادة ، عن رجال من قومه قالوا: إن ما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله لنا وهُداه ، لَمَّا كُنَّا نسمع من أخبار يهود .

كنا أهلَ شركٍ أصحابِ أوثان ، وكانوا أهلَ كتابٍ عندهم علمٌ ليس لنا ، وكانت لا تزالُ بيننا وبينهم شرورٌ ، فإذا نلنا منهم بعضَ ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقاربَ زمانُ نبيِّ يُبْعَثُ الآنَ ، نقتلكم معه قتلَ عادٍ وإرمَ .

فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم .

فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أحببناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فأمنَّا به وكفروا به .

ففيما وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة « ولَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَمِئَةً اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ » (١) .

قال : وحديثي صالح بن إبراهيم ، عن محمود بن لبيد ، عن سلمة بن سلامة بن وئش وكان من أصحاب بدر قال : كان لنا جارٌّ من يهود في بني عبد الأشهل ، نخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث

والحساب والميزان والجنة والنار ، فقال ذلك لقومٍ أهلِ شِرْكَ وأصحابِ أوْثانٍ ، لا يرون أن بَعَثْنَا كَأَنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ .

فقالوا له : ويحك يا فلان أتري هذا كائناً ، أن الناس يُبْتَعَثُونَ بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنةٌ ونارٌ ، يُجَزَّوْنَ فيها بأعمالهم .

قال : نعم والذي يُخَلِّفُ به : وَلَوْ أَنَّ لَه بِحِظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنْوِيرٍ فِي الدَّارِ يُحْمَوْنَ ثُمَّ يَدْخُلُونَهُ إِيَّاهُ فَيَطِئُونَهُ عَلَيْهِ ، بَأَن يَنْجُو مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا .

فقالوا له : ويحك يا فلان ، وما آية ذلك ؟

قال : نبيٌّ مبعوثٌ من نحو هذه البلاد ، وأشار بي—إيده إلى مكة واليمن .

قالوا : ومتى نراه ؟

قال : فنظروا إلىَّ ، وأنا أحدثهم شيئاً ، فقال : إن يستنفذ هذا الغلام عُمرَه يُدْرِكُه .

قال سَلَمَةُ : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وهو حىٌّ بين أظهرنا ، فأماناً به وكفر به بُقِيًّا وحسداً .

فقلنا له : ويحك يا فلان ! أأنت بالذي قلتَ لنا فيه ما قلتَ ؟ !

قال : بلى ولكن ليس به !

قال : وحدثني عاصم بن عمر عن شيخ من بني قريظة . قال : قال لى : هل تدري عمَّ كان إسلامُ نعلبة بن سَعْمِيَّةِ وأَسَيْدِ بن سَعْمِيَّةِ وأَسَدِ بن عبيد ، نفر من هَذَلِ إخوةِ بني قريظة كانوا معهم في جاهليتهم ، ثم كانوا ساداتهم في الإسلام ؟ قال : قلت : لا .

قال : فإن رجلا من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهبيّان ، قدم علينا قبل الإسلام بسدين ، فخلّ بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلّي الخمس أفضل منه .

فأقام عندنا ، فسكننا إذا قحط عنا المطر قلنا له : أخرج يا ابن الهبيّان فاستسقى لنا . فيقول : لا والله حتى تقدموا بين يديّ تخرجكم صدقة . فيقول له : كم ؟ فيقول : صاعاً من تمر ومُدّين من شعير .

فدخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرّنا فيستسقى لنا ، فوالله ما يبرح مجلسه حتى تمر السحاب وأنسقى .

قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ، ثم حضرته الوفاة عندنا . فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ، ما ترون أنه ^(١) أخرجني من أرض الخمر والخير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قلنا : أنت أعلم .

قال : فإنما قدمت هذه البلدة أتوكف ^(٢) خروجَ نبي قد أظلم زمانه ، وهذه البلدة مُهاجرة ، فسكنت أرجو أن يُبعث فاتمه ، وقد أظلمكم زمانه ، فلا تُسبِقن إليه يا معشر يهود ، فإنه يُبعث بسفك الدماء وسبّي الدراري والنساء من خالفه ، فلا يمددكم ذلك منه .

فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر بني قريظة قال هؤلاء الفتيّة ، وكانوا شباباً أصدائنا : يا بني قريظة والله إنه للنبي الذي عهد إليكم

(١) المطبوعة : ما ترونه .

(٢) أتوكف : أنتظر .

فيه ابن الهيثبان ، قالوا : ليس به . قالوا : بلى والله ، إنه لهو بصفته .
فنزلوا وأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهلهم .

قال ابن إسحاق : فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود^(١) .

[حديث سلمان الفارسي]

قال : وحدثني عاصم بن محمود^(٢) عن ابن عباس رضی الله عنه قال : حدثني
سلمان الفارسي من فيه ، قال :

كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان ، من أهل قرية يقال لها جبي ،
وكان أبي دهنان^(٣) قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، لم يزل به حبه
إيأى حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدت في الجوسية حتى
كنت قطن^(٤) النار الذي يوقدها ، لا يتركها تحبو ساعة .

وكانت لأبي ضيعة عظيمة ، فشغل في بنيان له يوماً ، فقال لي : يا بُني إني
قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي ، فاذهب إليها فاطلها . وأصرني فيها
ببعض ما يريد ، ثم قال لي : لا تحبس عني ، فإنك إن احتبست عني كنت
أهم إلي من ضيعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري .

فخرجت أريد ضيعة التي بعثني إليها فدرت بكديسة من كنائس النصارى ،
فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدري ما أمر الناس ،
لجس أبي إيأى في بيته .

(١) الطبوعة : من أخبار يهود .

(٢) الطبوعة : عاصم بن محمود ، وهو خطأ .

(٣) الدهقان : زعيم فلاحي المقيم أو رئيس الإقليم .

(٤) أي خادمها .

فلما سمعت أصواتهم ، دخلتُ عليهم^(١) أنظروا ما يصنعون ، فلما رأيتهم
أهجمتني صلاتهم ، ورغبتُ في أمرهم رقلتُ : هذا والله خيرٌ من الذي نحن عليه .
فوالله ما برحيتهم حتى غربت الشمس ، وتركتُ ضيعة أبي فلم آتيتها ، ثم قلتُ
لهم : أين أصلُ هذا الدين ؟ قالوا : بالشام .

فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته
قال : أي بُني أين كنت ؟ ألم أكن عهدتُ إليك بما عهدتُ ؟ قلتُ :
يا أبت مررتُ بأناس يصلون في كنيسة لهم فأهجمتني ما رأيت في دينهم ، فوالله
ما زلتُ هددم حتى غربت الشمس .

قال : أي بُني ليس في ذلك الدين خيرٌ ، دينك ودين آبائك
خيرٌ منه

فقلتُ له : كلاً والله ، إنه خيرٌ من ديننا .

قال : نغافى ، فجعل في رجلى قيلاً ثم حبسني في بيته .

وبعثتُ إلى النصارى ، فقلتُ لهم : إذا قدم عليكم ركبٌ من الشام
فأخبروني بهم ، فقدم عليهم [ركب من الشام]^(٢) تجار من النصارى ،
فأخبروني . فقلتُ لهم : إذا قضاوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم ،
فأذِنوني بهم .

قال : فلما أرادوا الرجعة أخبروني بهم ، فألقيت الحديدَ من رجلى ، ثم
خرجتُ معهم حتى قدمتُ الشام .

(١) الملبوعة : إليهم .

(٢) من ابن مشام .

فلما قدمتها قلتُ مَنْ أفضلُ أهل هذا الدين علماً ؟ قالوا : الأستاذُ
في السكينة . فخبتهُ فقلتُ له : إني قد رغبتُ في هذا الدين ، وأحببتُ
أن أكون معك وأخدمك في كنيسةك ، وأتعلم منك ، وأصلي معك .
قال : ادخل .

فدخلتُ معه ، فكان رجلٌ سوءٌ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا
جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبعَ قِلالٍ من
ذهب وورق .

فأبغضتهُ بُغضاً شديداً لِمَا رأيته يصنع .

ثم مات . واجتمعت النصارى ليدفنوه ، فقلتُ لهم : إن هذا كان رجلٌ
سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم^(١) فيها ، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه
ولم يعط المساكين منها شيئاً .

فقالوا لي : وما عليك بذلك ؟ قلتُ : أنا أدلكم على كنزهِ فأريتهم
موضعه فاستخرجوا سبعَ قِلالٍ مملوءة ذهباً وورقاً ، فلما رأوها ، قالوا : والله
لا ندفعه أبداً .

فصلبوه ورجموا بالحجارة .

وجاءوا برجلٍ آخر فجلوه مكانه ، فما رأيتُ رجلاً لا يصلّي الخمس ، أرى
أنه كان أفضل منه ، أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ، ولا أدأبَ
ليلاً ونهاراً منه ، فأحببتهُ حباً لم أحببه شيئاً قبله ، فأقت منه زماناً ، ثم حضرته

(١) المطبوعة : يأمرهم ويرغبهم .

الوفاة ، فقلتُ له : يا فلان إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بي ، وبِمَ تأمرني .

فقال : أي بنيّ والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنتُ عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنت عليه [فالحق به]^(١) .

فلما مات وعُيِّب لحقتُ بصاحب الموصل فقلتُ له : يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره . فقال : أقيم عندي .

فأقمتُ عنده ووجدته خيراً رجلاً على أمر صاحبه .

فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلتُ له : يا فلان إن فلاناً أوصى بي^(٢) إليك ، وأمرني باللاحق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بي ؟ وبِمَ تأمرني ؟ قال : يا بنيّ والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنتُ عليه إلا رجلاً بتحصيين^(٣) ، وهو فلان فالحق به .

فلما مات وعُيِّب لحقتُ بصاحب تحصيين ، فأخبرته خبري ، وما أمرني به صاحبي فقال : أقيم عندي .

فأقمتُ عنده ، فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمتُ مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضرتهُ قلتُ له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصى بي : وبِمَ تأمرني .

(١) من ابن هشام

(٢) المطبوعة : أوصاني إليك . وهو تعريف .

(٣) مدينة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل في الموصل إلى الشام .

قال : يا بنىّ والله ما أعلمه بقى أحدٌ على أمرنا آمرك أن تأتيه ، إلا رجلاً بمُورِيّة من أرض الرُّوم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأْتِه .
فلما مات وغيّب ، لحقتُ بصاحب عموريّة ، فأخبرته خبري ، فقال :
أقمْ عندي .

فأقتُ عند خير رجل على هذى أصحابه وأمرهم ، واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمات ، ثم نزل به أمر الله ، فلما حُضِر قلت له : يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصى بي ؟ وبم تأمرني ؟

قال : أى بنىّ والله ما أعلمه أصبح على مثل ما كنّا عليه أحدٌ من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنّه قد أظلم زمانٌ نبىّ مبعوثٌ بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مُهاجرُهُ إلى أرضٍ بين حَرَّتَيْنِ بينهما نخْلٌ ، به علامات لا تخفى ، يأكل المدينة ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد ، فافعل .

ثم مات وغيّب .

فحكمت بممورية ، ما شاء الله أن أمكث ، ثم مرّ بي نفرٌ من كُأبِ تِجَارٍ .
فقلت لهم : احلوني إلى أرض العرب وأعطيتكم بقراتي هذه وغنيتي هذه .
قالوا : نعم . فأعطيتهموها وحلوني معهم ، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني ، فباعوني من رجل يهودى عبداً ، فكنت عنده فرأيتُ النخل ، فرجوتُ أن يكون البلد الذى وصف لي صاحبي ، ولم يَحِقْ في نفسي .

فبينما أنا عنده إذ قدِم عليه ابنُ همّ له من بني قريظة من المدينة ،

فابتاعني منه ، فاحتمانني إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيته فعرفتها بصفتي
صاحبي فأقت بها .

وَبِعِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ لَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرِ ،
مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرَّقِّ .

ثم هاجر إلى المدينة ، فوالله إنني لفي رأس عذقي لسيتدي أعمل له فيه بعض
العمل ، وسيتدي جالس تحتي ، إذ أقبل ابن عمّ له حتى وقف عليه . فقال :
يا فلان قاتل الله بنى قيلة^(١) ، والله إنهم الآن ليجتمعون بقباء على رجل قديم
عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي .

فلما سمعتها أخذتني المرّواء^(٢) حتى ظننت أني سأسقط على سيدي ، فنزلت
عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ فغضب سيدي فلم يكني
لسكّمة شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا أقبل على مالك . فقلت : لا شيء إنما
أردت أن أستنبهه عما قال .

وقد كان عندي شيء جمعه ، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو بقباء ، فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغني أنك رجل
صالح ، وممك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء كان عندي للصدقة ،
فرأيتكم أحقّ به من غيركم ، فقرّبتّه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لأصحابه : كلوا . وأمسك يده فلم يأكل .

(١) قبيلة بنت كامل بن عنزة بن سميد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحلاف بن قضاة
أم الأوس والخزرج .

(٢) المرّواء : الرعدة من الرد والانتعاش ، فإن كان مع ذلك عرق فهو الرخضاء .
(١٦ — الاكتفا)

فقلت في نفسي : هذه واحدة .

ثم انصرفتُ عنه ، فجمعت شيئاً ، وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم جئته به ، فقلت : إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمك بها . فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأمر أصحابه فأكلوا معه .

فقلتُ في نفسي هاتان ثنتان .

ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببيتهم الفرقد^(١) قد تبع جنازة من أصحابه ، على شملتان لي وهو جالس في أصحابه ، فسلمتُ عليه ثم استدرتُ أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي ؟ فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استديرُ به ، عرف أني استثبتتُ في شيء وصف لي ، فألقى الرداء عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكبتُ عليه أقبلته وأبكي . فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحول . فتحولتُ فجلستُ بين يديه ، فقصصتُ عليه حديثي كما حدثتُك يا ابن عباس .

فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه . ثم شغل سلمان الرِقْ ، حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر واحد .

قال سلمان : ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : كاتبُ يا سلمان . فكانتُ صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحبيها له بالفقير^(٢) وأرهبين أوقية .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعينوا أخاكم . فأعانوني بالنخل ، الرجل

(١) الفرقد : مقبرة أهل المدينة .

(٢) أي بالحفر والنرس .

بثلاثين وُدِيَّةً^(١) ، والرجل بعشرين وُدِيَّةً ، والرجل بخمس عشرة والرجل بعشر ، يُعِين الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ إِلَى ثَلَاثِمِائَةِ وُدِيَّةٍ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اذْهَبْ يَا سَلْمَانَ فَفَقَّرْ لَهَا فَإِذَا فَرَّغْتَ فَاتَّقِنِي ، أَكُنْ أَنَا أَضْمَعُهَا بِيَدِي .

فَفَقَّرْتُ وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي حَتَّى إِذَا فَرَّغْتُ جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَخَرَجَ مَعِيَ إِلَيْهَا ، فَجَعَلْنَا نَقْرَبُ إِلَيْهِ الْوُدِيَّةَ وَيَضَعُهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ حَتَّى فَرَّغْتَ . فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ ، مَا مَاتَتْ مِنْهَا وُدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ .

فَأَدَيْتُ النَّخْلَ وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَسَالُ فَآتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ بَعْضِ الْمَعَادِنِ ، فَقَالَ : مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمَسْكَاتِبُ فَدَعَيْتَ لَهُ فَقَالَ : خَذْ هَذِهِ فَأَدِّهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانَ . قُلْتُ : وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَيَّ ؟ قَالَ : خَذْهَا فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي بِهَا عَلَيْكَ . فَأَخَذْتُهَا فَوَزَنْتُ لَهَا مِنْهَا ، وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ ، أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً ، فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ مِنْهَا ، فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَلْدِقَ حَرًّا . ثُمَّ لَمْ يَفْقِنِي مَعَهُ مَشْهُدًا .

وَعَنْ سَلْمَانَ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ : لَمَّا قُلْتُ وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ مِنَ الَّذِي عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ أَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَهَا عَلَى لِسَانِهِ . ثُمَّ قَالَ : خَذْهَا فَأَوْفَيْتُهُمْ مِنْهَا . فَأَخَذْتُهَا فَأَوْفَيْتُهُمْ مِنْهَا حَقَّهُمْ كُلَّهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً .

وَعِنْدَهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَخْبَرَهُ خَبْرَهُ : إِنْ صَاحِبُ عُمُورِيَّةٍ قَالَ لَكَ : آيَةُ كَذَا وَكَذَا فِي أَرْضِ الشَّامِ ، فَإِنْ بِهَا رَجُلَانِ بَيْنَ غَيْضَتَيْنِ ، يَخْرُجُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِنْ هَذِهِ الْغَيْضَةِ إِلَى هَذِهِ الْغَيْضَةِ مُسْتَجِيزًا ، يَمْتَرِضُهُ ذَوُو الْأَسْقَامِ

(١) الودية : واحدة الودي وهو فراخ النخل الصنلر .

فلا يدعو لأحد منهم إلا شُفِي ، فسئلَ عن هذا الدين الذي تبتغى ، فهو
يخبرك عنه .

قال سلمان : تخرجت حتى جئتُ حيث وُصف لي ، فوجدتُ الناس قد
اجتمعوا بمرضاهم هناك ، حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزاً من إحدى الفيضتين
إلى الأخرى ، فغشيه الناس بمرضاهم ، لا يدعو لمريض إلا شُفِي ، وغلبوني
عليه ، فلم أخلصُ إليه حتى دخل الفيضة التي يريد أن يدخل ، إلا مَدِكِبُهُ
فبدولتُهُ فقال : من هذا ؟ والفتت إلى قلتُ : يرحمك الله أخبرني عن الحنيفية دين
إبراهيم . قال : إنك لتسأل عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم ، قد أظلك
زمان نبيٍّ يُبَعَث بهذا الدين من أهل الحرم ، فائتته فهو يحملك عليه . ثم دخل .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كنت صدقتني يا سلمان ، لقد لقوت
عيسى بن مريم ^(١) .

[حديث أمية بن أبي الصلت وأبي سفيان]

ومن حديث غير ابن إسحاق ، عن أبي سفيان بن حرب قال : خرجتُ
أنا وأمّية بن أبي الصلت ، وآخر سقط اسمه في كهابي ، تجاراً إلى الشام .
قال أبو سفيان : فسكّما نزلنا منزلاً أخرج أمّية سِفْراً يقرأ علينا ، فسكنا كذلك
حتى نزلنا بقرية من قوى النصارى ، قال : فرأوه وعرفوه وأهدوا له فذهب
معهم إلى بيوتهم ، ثم رجع في وسط النهار ، فطرح ثوبيه ، واستخرج ثوبين
أسودين ، فلبسهما ثم قال : يا أبا سفيان هل لك في عالم من علماء النصارى إليه
انتهى علمُ الكُتُب تسأله عما بدالك ؟ . قلت لا أربّ لي فيه ، والله أمن
حدثني ما أحبّ لا أثق به ، ولئن حدثني ما أكره لأوجبنّ منه .

قال : وذهب يخالفه شيخ من النصارى ، فدخل علينا فقال - يعني له

(١) هذا الخبر ضعيف جدا كما قال ابن كثير . وفيه مناقلة تاريخية .

والآخر الذى كان معه : ما منعكما أن تذهبا إلى هذا الشيخ ؟ قلنا : لسنا على دينه . قال : وإن ، فإنكما تسممان مجبأ وتريانه . قال : قلنا : لا أرب لنا فى ذلك . قال أئمة قياتنا ؟ قلنا : لا ولسكن من قريش . قال : فما منعكما من الشيخ ، فوالله إنه ليحببكم ويوصى بكم .

وخرج من عدنا ، ومكث أمتية عنا حتى جاءنا بعد هدأة من الليل ، فعارح ثوبيه ثم انجدل على فراشه ، فوالله ما قام ولا نام حتى أصبح . قال : فأصبح كشيبيها حزينا ، ساقطاً غبوقه على صبوحة ما يكلمنا ، ثم قال : ألا ترحلان ؟ قلنا . وهل بك من رحيل ؟ قال : نعم فارحلا .

فرحلنا فسيرنا بذلك ليلتين فى همه وبته . ثم قال ليلة : ألا نتحدث يا أبا سفيان ؟ قلت : وهل بك من حديث الفوالله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك . قال : أما إن ذلك شيء لست فيه إنما ذلك شيء رجعت به من مُنْقَلَبِي فقلت : وهل لك من مُنْقَلَبِي ؟ قال : إى والله لأموتن ولأحاسبن قات : فهل أنت قابل أمانى ؟ قال : وعلى ماذا ؟ قلت : على أنك لا تبعث ولا تحاسب . فضحك ثم قال : بلى والله يا أبا سفيان لنبهئن ولأحاسبن ، ولأيدخان فريق فى الجنة وفريق فى النار قلت : فى أيتهما أنت أخبرك صاحبك . قال : لا علم لصاحبى فى ذلك فى ولا فى نفسه .

فكنا فى ذلك ليلتنا ، يعجب منا ونضحك منه ، حتى قدمنا غرطة ديشق وإياها كذا نريد ، فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين ، ثم ارتحلنا حتى نزلنا بتلك القرية من قرى الدصارى ، فلما رأوه جاءوه وأهدوا له ، وذهب معهم إلى بيعتهم ، حتى جاءنا مع نصف النهار ، فلبس ثوبيه الأسودين ، فذهب ولم يذعنا إليه كما دعانا أول مرة ، حتى جاءنا بعد هدأة من الليل ، فعارح ثوبيه ،

ثم رمى بنفسه على فراشه فوالله ما نام ولا قام ، فأصبح مبهوثاً حزيفاً ، لا يكلمنا ولا نكلمه ثم قال لى : ألا ترحلان ؟ قلت : بلى إن شئت . قال : فارحلا .

فرحلنا فسيرنا كذلك من بته وحزونه لىالى . ثم قال لى ليلية : يا أبا سفيان هل لك فى المسير ؟ وتختلف هذا الغلام يستأنس بأصحابنا ويستأنسون به ؟ قلت له : ما شئت . قال : سير . فسرنا حتى برزنا . قال : هى يا صخرأ . قلت : مالك ؟ . قال : هى عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المحارم والمظالم ؟ قلت : لى والله . قال : ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : نعم ويصل الرحم ويأمر بصلتها . قال : وكريم الطرفين ، واسط فى المشيرة ؟ قلت : كريم الطرفين واسط فى المشيرة . قال : فهل تعلم قرشياً أشرف منه ؟ قلت : لا ما أعلم . قال ومُحوجٌ هو ؟ قلت : لا بل ذو مال . قال : فكم أتى له ؟ قلت : هو ابن سبعمين نظر إليها قد قاربها ، هولها ، هو ابنها . قال : السن والشرف أزرأيا به قلت : وما لهما أزرأيا به ؟ لا والله بل هما زاداه خيراً . قال : هو ذاك هل لك فى المبيت ؟ قلت : هل لك فيه حاجة ؟ قال : فاضطجعتنا . حتى مرّ الثقل فسيرنا حتى نزلنا فسكرنا فى المنزل وبتنا .

ثم رحلنا ، فلما كان الليل قال : يا أبا سفيان . قلت : لتبيك قال : هل لك فى البارحة ؟ قلت : هل لى . قال : فسرنا على ناقتين ناجيتين ، حتى إذا برزنا قال : يا صخرأ ليه عن عتبة . قلت : ليه عنه قال : أيجتنب المحارم والمظالم ؟ ويأمر بصلة الرحم ويصلها . قلت : ويفعل . قال : ومحوج ؟ قلت : ومحوج .

قال : هل تعلم قرشياً أسودَ منه ؟ قلت : والله ما أعلمه . قال : وكم أتى له ؟ قلت : سبعمون هولها هو ابنها قد واقمها . قال : فإن السن والشرف أزرأيا به . قلت : لا والله ما أزرأيا به ولسكنهما زاداه ، وأنت قائل شيتاً فقله . قال :

والله لا تذكر حديثي حتى يأتي ما هو آت . قلت : والله لا أذكره . قال : الذي رأيت أصابني فإني جئتُ هذا العالم فسألتُه عن أشياء . قلت : أخبرني عن هذا النبي الذي يُنتظر ؟ قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمتُ فن أيّ العرب ؟ قال : هو من أهل بيت تحبّه العرب . قلت : فيما بيتُ تحبّه العرب . قال : لاهم إخوانكم وجيرانكم من قريش . قال فأصابني والله شيء ما أصابني منه قط . وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة ، وقد كنت أرجو أن أكون أنا هو .

قلت : فإذا كان ما كان فصفه لي ؟ قال : هو شابّ حين دخل في الكهولة بدنه أمره ، أنه يجتنب الحارم والمظالم ، ويصل الرحم ويأمر بصالحاتها ، وهو منحوج ليس ينزاع شرفاً كريماً الطرفين ، متوسط في العشرة أكثر جنده من اللائسكة . قلت : وما آية ذلك ؟ قال : قد رجف بالشام منذ هلك عيسى بن مريم ثمانون رجفة كلها فيهم^(١) مصيبةٌ عامّةٌ ، وبقيةٌ رجفةٌ عامّةٌ ، فيها مصيبةٌ يخرج على أثرها . قال أبو سفيان : قلت : وإن هذا هو الباطل ، لئن بعث الله رسولاً ، لا يأخذه إلا شريقاً مُسبباً .

قال : والذي يُخلف به إن هذا لكذا يا أبا سفيان . هل لك في البيت .

فبينما حتى مرّ بنا الثقل ، فرحلنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة ليلتان ، أدركنا الخبر من خلفنا : أصاب الشام بعدكم رجفةٌ دمر أهلها وأصابتهم فيها مصيبةٌ عظيمة .

قال : كيف ترى يا أبا سفيان ؟ قلت : أرى والله ما أظنّ صاحبك إلا صادقاً . وقد منّا مكة فقضيتُ ما كان معي ، ثم انطلقتُ حتى جئتُ أرض الحبشة

(١) كذا في الوفا وابن كثير : فيها .

تاجراً ، فسكنت بها خمسة أشهر ، ثم أقبلتُ حتى قدمت مكة فبينما أنا في منزلي ، جاءني الناس يسألون عليّ ، حتى جاءني في آخرهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعندى هِنْدٌ جالسةٌ تلاعب صببية لها ، فسلم عليّ ورحّب بي وسألني عن سفري ومقدّمى ، ثم انطلق . فقلت : والله إن هذا الفتى لمعجبٌ ، ما جاءنا أحدٌ من قريش له معنى بضاعة ، إلا سألتني عنها وما بلغتُ والله إن له معنى لبضاعة ، ما هو بأغذاهم عنها ، ثم ما سألتني فقلت : أو ما علمت بشأنه ؟ قلتُ وفزعته : ما شأنه ؟ قالت : والله إنه ليزعم أنه رسول الله . قال : فوقذني ذلك وذاكرني قولَ النصراني ، ووجتُ حتى قالت لي : مالك ؟ فانتبهتُ وقلتُ : إن هذا والله لهو الباطل ، لهو أعقل من أن يقول هذا . قالت : بلى والله إنه ليقوله ، ويؤتى عليه وإن له لصحابة^(١) معه على أمره . قلت : هو والله باطل .

فخرجت فبينما أنا أطوف إذ لقيته ، فقلت : إن بضاعتك قد بلغتُ وكان فيها خيرٌ ، فأرسلُ إليها فخذها ، ولست آخذُ فيها ما آخذُ من قومك . قال فإني غير آخذها حتى تأخذ مني ما تأخذ من قومي . قلت : ما أنا بفاعل . قال : فوالله إذا لا آخذها . قلتُ : فأرسل إليها . فأخذتُ منها ما كتبتُ آخذ ، وبعثتُ إليه ببضاعته .

ولم أنشب أن خرجتُ تاجراً إلى اليمن فقدمتُ الطائف فنزلنا على أمية ، فتغديتُ معه ثم قلتُ : يا أبا عثمان ، هل تذكر حديث النصراني ؟ قال : أذكره . قلتُ : فقد كان قال : ومن ؟ قلتُ : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . ثم قصصت عليه خبر هِنْد . قال : فالله يعلم أنه تصيب عرقاً ثم قال : يا أبا سفيان لعنه ، وإن صِدْقته كهيته ، ولئن ظهر وأنا حيٌّ لأبليّن الله في نصرته عُذراً .

ومضيتُ إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هناك استهلاله ، وأقبلتُ حتى قدمتُ

(١) ط : لصاحبه .

الطائف فنزلنا على أمية بن أبي الصلت . قلت : قد كان من هذا الرجل ما قد
بلذك وسمعت . قال : قد كان . قلت : فأين أنت ؟ قال : ما كنت لأومن
برسولٍ ليس من ثقيف . قال أبو سفيان : فأقبلتُ إلى مكة ووالله ما أنا منه
ببعيد حتى جئته فوجدته هو وأصحابه يُضربون ويُقتلون ، فجعلتُ أقول :
فأين جُده من الملائكة ؟ ا ودخلني ما دخل الناس من النفاسة .

ووقع في هذا الحديث من قول أبي سفيان : أن عتبة بن ربيعة ذو مال ،
ووقع بعد ذلك من قول أبي سفيان أيضاً أنه محوج ، ولا يصح أن يجتمع
الأمران ، وأحدهما غلطٌ من الناقل والله أعلم .
والمشهور من حال عتبة أنه كان فقيراً وكان يقال : لم يسُد من قريش مُمَلقٌ
إلا عتبة وأبو طالب ، فإنهما سادا بغير مال .

وأما أمية بن أبي الصلت فرجلٌ من ثقيف ، لم يرَ من دين أهل الجاهلية ،
ولا وفقه الله للدخول في السمحة الحنيفية .

فكان كما روى عن عروة بن الزبير قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن أمية بن أبي الصلت فقال : أرتي علماء فضيحه .

وكما روى عن الحسن وقتادة أنهما قالَا في قول الله تعالى : « واتلُّ عليهم
نبأ الذي آتينا آياتنا فانسَخ منها فاتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين »^(١) أنه
أمية بن أبي الصلت .

قال ابن إسحاق : واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه ، وينحرون له ، ويمتلكون عنده ، فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنتم بعضكم على بعض .

قالوا : أجل . وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حبرٌ يُظهِف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضرب ولا يدفع !!

يا قوم : التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أتم على شيء .

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الخفيفة دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل فاستحکم في النصرانية ، واتبع السكتب من أهلها .

وذكر الزبير بن بكار بإسناد له إلى عروة بن الزبير قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ورقة بن نوفل . فقال : لقد رأيت في المنام عليه ثياب بيض ، فقد أظن أنه لو كان من أهل النار ، لم أر عليه البياض .

وكان يذكر الله في شعره في الجاهلية ، ويستبحه وهو الذي يقول :

لقد نصحت لأقوامٍ وقلت لهم
أنا النذير فلا يفرزكم أحد

لا تعبدون إلهاً غير خالقكم
فإن دعواكم فقولوا بيدينا حد

سبحان ذى العرش سبحاناً يدوم له
ربُّ البرية فردُّ واحدٌ صمد

سبحان ذى العرش سبحاناً نعوذ له
وقبلُ سبِّحه الجودى والجمدُ
مُسَخَّرٌ كلُّ ما تحت السماء له
لا ينبغي أن يُفادى ملكه أحد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الإلهُ ويودى المالُ والولدُ
لم تُغنِ عن هُرْمَزٍ يوماً خزائنه
وأخلدَ قد حاولتُ عادٌ فما خلدوا
ولا سليمانُ إذ تجرى الرياحُ به
والإنسُ والجنُّ فيما بينهم بُردُ
أين الملوكُ التي دانت لعزيمتها
من كل أوبٍ إليها وافدٌ يَفدُ
حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كذبٍ
لا بُدَّ من وِزْدِهِ يوماً كما وَرَدُوا

وفى هذا الشعر ألفاظ من غير الزبير ، والببيت الأخير كذلك ، وفيه أبيات
تُروى لأمية بن أبي العاصم .

* * *

قال ابن إسحاق : وأما عبيد الله بن جحش فإنه أقام على ما هو عليه من
الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى أرض الحبشة ، ومعه امرأته
أم حبيبة بنت أبي سفيان مُسَلِمَةً ، فلما قدماها تنصّر وفارق الإسلام حتى هلك
هنالك نصرانياً ، وخلف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعده على امرأته أم حبيبة

وكان حين تنصّر يمرّ بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : فقحنا
وصاصأتم . أى أبصرنا وأنتم تلمسون البصر ولم تبصروا بعد .

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصّر وحسنت
منزلاته عنده .

وذكر الزبير : أن قيصر ملكه على أهل مكّة ، وكتب له إليهم . فأنت
قريش أن يدينوا لأحد ، وصاح فيه ابن عمه أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد
والناس في الطواف : إن قريشاً لا تملك ولا تُملك . فضنت قريش على كلامه ،
ومنعوا عثمان ما جاء يطلب ، فرجع إلى قيصر ومات بالشام مسموماً . يقال : سمّه
عمرو بن جندة الغساني الملك ، وكان يقال لعثمان هذا البطريق ولا عقب له .

قال ابن إسحاق : وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية
ولا نصرانية وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان ، والميعة والدم ، والذباح التي
تذبح على الأوثان ونهى عن قتل المؤمنة ، وقال أعبد رب إبراهيم ، وبأدى
قومه بعيب ما هم عليه .

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضی الله عنها : لقد رأيتُ زيد بن عمرو
ابن نفيل شيخاً كبيراً مسدداً ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يا معشر قريش ،
والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيري .
ثم يقول : اللهم لو أني أعلم أيّ الوجوه أحبّ إليك عهدتُك به ، واسكن لا أعلم .
ثم يسجد على راحلته .

وسأل ابنه سعيد بن زيد وابن عمه مخر بن الخطاب بن نفيل رضی الله عنهما
رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟ قال : نعم ، فإنه
يُبعث أمةً وحده .

وقال زيد بن عمرو بن نفيل في فراق دين قومه :
أربأ واحداً أم ألف رباً
أدين إذا تقسّمت الأمور
عزّلت السلات والمزى جميعاً
كذلك يفعل الجأذ الصبور
فلا المزى أدين ولا ابنتيهما
ولا صننى بنى - همرو أزور
ولا غنماً أدين وكان رباً
لنا في الدهر إذ حلّى بسير
مجت وفي الليالى مبهجات
وفي الأيام يعرفها الصير
فإن الله قد أفنى رجالاً
كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبى آخرين ببر قوم
فأيدبل^(١) منهم الطفل الصغير
وبيننا المره يمشى ثاب يوماً
كما يتروح الفئض الطير
ولكن أعبد الرحمن ربى
ليغفر ذنبي الرب الغفور

(١) ربل القوم إذا نموا وكثروا .

فتقوى الله ربكم احفظوها
مق ما تحفظوها لا تبوروا
تري الأبرار دارهم جفان
وللسكار حامية سمير
وخزى في الحياة وإن يموتوا
يلاقوا ما تضيق به الصدور
وقال زيد بن عمرو بن نفيل ، وذكر ابن هشام أن أكثرها لأمية بن
أبي الصلت ، في قصيدة له :

إلى الله أهدى مدحى وثنايا
وقولا رصينا لا يني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه
إله ولا رب يكون مُدائيا
ألا أيها الإنسان إياك والردى
فإنتك لا تخفى من الله خافيا
فإياك لا تجعل مع الله غيره
فإن سبيل الرشيد أصبح باديا
حنانك إن الجن أنت رجاؤهم
وأنت إلهى ربنا ورجائيا
رضيت بك اللهم ربنا فلن أرى
أدين إلهك غيرك الله ثانيا

فَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مَنْ وَرَحْمَةٍ
بَعَثْتَ إِلَىٰ مُوسَىٰ رَسُولًا مُنَادِيًا
فَقُلْتَ لَهُ يَا أَذْهَبْ وَهَارُونَ فَادْعُوا
إِلَى اللَّهِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ طَاغِيًا
وَقَوْلًا لَهُ آأَنْتَ سَوَّيْتَ هَذِهِ
بِلَا وَتَدِي حَتَّىٰ اطْمَأْنَنْتَ كَمَا هِيَ
وَقَوْلًا لَهُ آأَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ
بِلَا تَحْمَدِ أَرْفِقْ إِذَا بَكَ بَانِيًا
وَقَوْلًا لَهُ آأَنْتَ سَوَّيْتَ وَسَطَهَا
مُدِيرًا إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ هَادِيًا
وَقَوْلًا لَهُ مَنْ يُرْسِلُ الشَّمْسَ غُدُوَّةً
فَيُصْبِحُ مَا مَسَّتْ مِنَ الْأَرْضِ ضَاحِيًا
وَقَوْلًا لَهُ مَنْ يُنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى
فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيًا
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رَهْوَسِهِ
وَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيًا
وَأَنْتَ بِفَضْلِكَ مِنْكَ نَجَّيْتَ يُونُسًا
وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْمَافِ حُوتٍ لِيَالِيًا
وَأَنْتَ وَإِنْ سَبَّحْتَ بِاسْمِكَ رَبَّنَا
لَا كَثْرًا إِلَّا مَا غَفَرْتَ خَطَايَا
فَرَبِّ الْعِبَادِ أَلْقِ سَيِّبًا وَرَحْمَةً
عَلَىٰ وَبَارِكْ فِي بَنِي وَمَالِيَا

وقال زيد بن عمرو أيضاً :

أَسَلْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسَلْتُ
لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا
دَحَاهَا فَلَمَّا رَأَاهَا اسْتَوَتْ
عَلَى الْمَاءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالُ (١)
وَأَسَلْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسَلْتُ
لَهُ الْكُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زَلَالًا
إِذَا هِيَ سَيِّقَتْ إِلَى بَلَدٍ
أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سِجَالًا

ويُروى أن زيدا كان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال : ابَيْتِكَ حَقًّا
حَقًّا تَمْبُدًا وَرِقًّا ، عُدْتُ بِمَا عَاذَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ مَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةِ وَهُوَ قَائِمٌ ، إِذْ قَالَ
أَنْفِي لَكَ عَانٍ رَاغِمٌ ، مِمَّا تُجَشِّئُنِي فَإِنِّي بَجَاشِمٌ ، الْبُرُّ أَبْنِي لَا الْخَالِ ، لَيْسَ
مَهْجَرٌ كَمَنْ قَالَ :

ويقال : الْبُرُّ أُنْبِي لَا الْخَالِ .

وكان الخطاب بن نفيل قد آذى زيدا حتى أخرجه إلى أعلى مكة .

(١) رواية البيت في البداية والنهاية .

دَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا

سَوَاءً وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالًا

(٢) الخال : الخيلاء والكبر ، والمهجر : من يسير في الهاجرة ، ومن قال : أي من نام

في القاعة .

وكان الخطابُ عمه وأخاه لأمه ، وكُتِبَ به شباباً من شباب قريش وسفهاً منهم ،
فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة .

فكان لا يدخلها إلا سيراً منهم ، فإذا علموا بذلك آذَنُوا به الخطاب
فأخرجوه وآذوه ، مخافة أن يُفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم
على فراقه .

وكان زيدٌ قد أجمع الخروجَ من مكة ليضرب في الأرض يطلب الحنيفيةَ دين
إبراهيم ، فكانت امرأته صنفية بنت الحَضْرَمِي كلما رآته قد تهباً للخروج أو أرادته ،
آذنت به الخطابُ بن نفيل ، وكان الخطابُ وكُتِبَ به وقال : إذا رأيتيه همَّ بامرٍ
فأذني به .

ثم خرج يطلب دينَ إبراهيم ويسأل الرهبان والأحبار ، حتى باغ الموصِلَ
والجزيرة كلها ، ثم أقبل فبجَلَ الشامَ كلها ، حتى انتهى إلى راهبٍ بمِثْقَةٍ^(١)
من أرض البَلْقَاءِ ، كان ينتهي إليه عِلْمُ النصرانية فيما يزعمون ، فسأله عن
الحنيفية دين إبراهيم ، فقال : إنك لتطالب ديناً ما أنت بواجده من يَحْمَلُك عليه
اليوم ، والسكن قد أظلك زمانٌ نبي يخرج في بلادك التي خرجت منها يُبشِّرُ
بدين إبراهيم الحنيفيةَ ، فالحقُّ به فإنه مبعوث الآن ، هذا زمانه .

وقد كان زيدٌ شامَّ اليهودية والنصرانية فلم يرضَ منهما شيئاً ، فخرج سريعاً
حين قال له ذلك الراهب ما قال ، يريد مكة ، حتى إذا توسطَ بلادَ الحِمْيَرِ هدَّوا
عليه فقتلوه . فقال ورقَةُ بن نوفل يُبْهِكِيهِ :

(١) للبيعة : الأرض المرتفعة .

رَشِدْتَ وَأَنْعَمْتَ ابْنَ عَمْرٍو وَإِنَّمَا
تَجَنَّبْتَ تَنُورًا مِنَ النَّارِ حَامِيًا
بَدَيْتَكَ رَبًّا لَيْسَ رَبًّا كَمِثْلِهِ
وَتَرَكْتَ أُوتَانَ الطَّوَاغِي كَمَا هِيَ
وإِدْرَاكَكَ الدِّينِ الَّذِي قَدْ طَلَبْتَهُ
وَلَمْ تَكُ عَنْ تَوْحِيدِ رَبِّكَ سَاهِيًا^(١)
فَأَصْبَحْتَ فِي دَارِ كَرِيمٍ مُقَامَهَا
تُعْمَلُ فِيهَا بِالْكَرَامَةِ لَاهِيًا
تُلَاقِي خَلِيلَ اللَّهِ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ
مِنَ النَّاسِ جِبَارًا إِلَى النَّارِ هَاوِيًا
وَقَدْ تُذْرِكُ الْإِنْسَانَ رَحْمَةً رَبِّهِ
وَلَوْ كَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ سَهْمِينَ وَاذِيًا^(٢)

قال ابن إسحاق : وكان فيما بانفي عما كان وُضِعَ عيسى بن مريم فيما جاءه
من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
مَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ الرَّبَّ ، ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها
أحدٌ قبلي ما كانت لهم خطيئةٌ ، ولكن من الآن تطيَّبوا ، وظفوا أنهم
يَعْرِضُونَ وأيضاً للرب ، ولكن لا بد من أن تتم الكلمة التي في الناموس ،

(١) من ابن هشام .

(٢) نصب سهمين على الحال من لفظ مقدر مثل : بعد تحت الأرض .

أنهم أبغضوني مجاناً ، أى باطلا ، فلولا قد جاء المنعموناً هذا الذى يرسله الله إليكم من عند الرب ، روح القسط هو الذى من عند الرب خَرَجَ فهو شهيدٌ على ، وأنتم أيضاً لأنكم قديماً كنتم معي ، هذا قلت لكم لكيلا تشكوا .

فَالْمُنْعَمُونَ بالسريانية هو عماد صلى الله عليه وسلم ، وهو بالرومية البرقلميطس .

قال ابن هشام : وبلغنى أن رؤساء تجران كانوا يتوارثون كتاباً عندهم ، فكلما مات رئيس فأفضت الرياسة إلى غيره ختم على ذلك الكتاب خاتماً مع الخواتم التى قبلها ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذى كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يمشى فعثر ، فقال ابده : تمس الأبعد . يريد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبوه : لاتعمل فإنه نبي واسمه فى الوضائع . يعنى السكتب . فلما مات لم تكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الخواتم ، فوجد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسلم فحسن إسلامه وحج .

وهو الذى يقول :

إليك تَعْدُو قَلْبًا وَضِيهًا^(١)
معتريضاً فى بطنها جبينها
مخالفاً دين النصرارى دينها

(١) الودين : بطلان عراس منسوخ من حلد أو شهر . والعلق : غير المحكم . والمعنى أن الإبل هزيلة .

[صفة النبي في التوراة]

وقد جاءت أحاديث حسان بما وقع من صفة النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة ، لم يذكر ابن إسحاق منها (١) شيئاً .

فمن ذلك ما ذكره الواقدي عن عطاء بن يسار قال : لقيتُ عبدَ الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة .

فقال : أجل : والله ، إنه لموصوفٌ في التوراة بصفته في الفرقان :

« يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِزْزاً للأُميين ، أنت عهدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخباب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، وإن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، يفتح بها أعينا عمياً وآذاناً صمماً وقلوباً غلغلاً . »

قال عطاء : ثم لقيت كعبَ الأحبار فسألته فما اختلفنا في حرفٍ !

وذكر الواقدي أيضاً عن النعمان السبتي قال : وكان من أحبار اليهود باليمن ، فلما سمع بذلك النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه فسأله عن أشياء ، ثم قال : إن أبى كان يتمم على سفر يقول : لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبي قد خرج بهثر ، فإذا سمعت به فافتحه .

(١) المطبوعة منهم . وهو خطأ .

فقال نعمان : فلما سمعت بك فتحتُ السُّفْرَ ، فإذا فيه صِفَتُكَ كما أراك الساعة ،
وإذا فيه ما تُحِلُّ وما تُحَرِّمُ ، وإذا فيه أنك خيرُ الأنبياء وأمتك خير الأمم
واسمك أحمد صلى الله عليك وسلم ، وأمتك الحَمَّادون ، قُرْبَانهم دماؤهم
وأناجيلهم في صدورهم ، لا يحضرون قتالاً إلا وجبريلُ معهم ، يتحتمن الله عليهم^(١)
كتمتمن الطير على أفراخه .

ثم قال : إذا سمعتَ به فاخرج إليه وآمين به وصدق به .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يجب أن يُسمع أصحابه حديثه ، فاتاه يوماً
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا نعمان حدثنا .

فابتدأ نعمان الحديث من أوله فرئى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبسم ،
ثم قال : أشهد أنى رسول الله .

ويقال إن نعمان هذا هو الذى قتله الأسود العنسى وقطعه عضواً عضواً وهو
يقول : أشهد أن محمداً رسول الله ، وأنت كذاب مُفْتَرٍ على الله عز وجل .
ثم حرقه بالنار .

(١) ط : لا ليهم وما أنبتة رواية المطبوعة .

ذكر المبعث

قال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله رحمةً للعالمين وكافةً للناس .

وكان الله تعالى قد أخذ له الميثاقَ على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به والتصديق له والنصر له على مَنْ خالفه ، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم ، فأدوا مِنْ ذلك ما كان عليهم من الحق .

فيه يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ : أَأَقْرَضُكُمْ عَلَى ذَائِكُمْ أَصْرِي « أَى ثِقَلَ مَا حَمَلْتُمْ مِنْ عَهْدِي « قَالُوا : أَأَقْرَضْنَا . قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » (١) .

فأخذ الله ميثاقَ النبيين جميعاً بالتصديق له والنصر وأدوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل هذين الكتابين .

وعن عائشة رضی الله عنها أن أولَ ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رؤيا إلا جاءت كأنه سمع الصبح .

وحَبَّبَ اللهُ إِلَيْهِ الْخَلْوَةَ ، فلم يكن شيء أحبَّ إليه من أن يتخلو وحده .

وعن بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله بكرامته وابتدأه بالنبوة ، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى نَحَسَّرَ عنه البيوتُ ويُفَضَى إلى شعاب مكة ويطون أوديتها ، فلا يمرُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . فإلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه وشماله فلا يرى إلا الشجر والحجارة .

فكث كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث .

ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان .

وعن عُبَيْدِ بْنِ مُعْمِرِ بْنِ قَتَادَةَ اللَّيْثِيِّ ، يحدث كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين جاءه جبريل قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحمَّسُ به قريش في الجاهلية ، والتحمَّسُ : التَّبَرُّرُ .

فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يُطْعَم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف [من جواره] ^(١) قبل أن يدخل بيته الكعبة ، فيطوف سبعا أو ما شاء الله ، ثم يرجع إلى بيته .

حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد من كرامته ، وذلك الشهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالاته ورحيم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله

(١) من المطبوعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءني وأنا نائم ^(١) بتمط من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ فغتنني ^(٢) به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ ؟ فغتنني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ماذا أقرأ ؟

ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع .

فقل : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي ، فسكأنما كتبت في قلبي كتابا .

فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

فرفعت رأسي إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيتك كذلك .

فما زلت واقفما أتقدم أمامي وما أرجع ورأني ، حتى بعثت خديجة رسأها

(١) الذي في الروايات الأخرى أن جبريل جاءه في النار وهو يقطن ، فاعل جبريل جاءه مرة في النوم ومرة في اليقظة ، كما ذكر ابن كثير وشراح السيرة .

(٢) غتنني : حبس نفسي . ورواية الواهب اللدنية : فغطني .

في طلبي ، فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرفت عنه راجعا إلى أهلي حتى أتيتُ خديجة فجلستُ إلى نخذها مضيضا إليها^(١) .

فقلت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثتُ رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إليّ .

ثم حدثتها بالذي رأيت ، فقلت : أبشِر يا بن عمي واثبتْ ، فوالذي نفسي خديجة بيده إنى لأرجو^(٢) أن تكون نبيّ هذه الأمة

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها ، وكان قد تنعمّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قدّوسٌ قدّوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنتِ صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموسُ الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لذي هذه الأمة ، فقولي له فليثبتْ .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقى ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة ، فقال له : يا بن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت .

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة : والذي نفسي بيده إنك لذي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ،

(١) أي ماتصفا بها (٢) المطبوعة : أرجو .

وَلَيْتَ كَذَبَتَهُ (١) وَلِتَوُذِيذِهِ وَلِتُخْرِجَنَّهُ وَلِتَقَاتِلَنَّهُ ، وَإِنِّي أَنَا أَدْرَكْتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ
لَأَنْصُرَنَّ اللَّهَ نَصْرًا يَعْلمُهُ .

ثم أذنى رأسه منه فقبّل يا فوخه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى منزله .

ويروى عن خديجة أمها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى ابن عم ،
أستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم . قالت :
فإذا جاءك فأخبرنى به .

فجاءه جبريل كما كان يصنع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا خديجة
هذا جبريل قد جاءنى . قالت : قم يا بن عم فاجلس على نخذى اليسرى .
فقام فجلس عليها . قالت : هل تراه ؟ قال نعم . قالت : فتحوّل فاقعد على نخذى
اليمنى . فتحوّل فاقعد على نخذى اليمنى ، فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . قالت :
فتحوّل فاجلس فى حجري . فتحوّل فجلس فى حجرتها . ثم قالت له : هل
تراه ؟ قال : نعم . فتحسّرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس
فى حجرتها ، ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا .

قالت : يا بن عم اثبت وأبشر ، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان .

ويروى أن خديجة أدخلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وبين درعها
فذهب عند ذلك جبريل .

* * *

(١) الماء هنا السكت .

[بدء نزول القرآن]

وابتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في رمضان .

يقول الله عز وجل : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هُدًى للناس
وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » (١) .

وقال : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » (٢) إلى خاتمة السورة .

وقال : « حم والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا مُنذِرِينَ
فيها يُفَرِّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إنا كُنَّا مُرْسَلِينَ » (٣) .

وقال : « إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ اتَّقَى
الْجُنُوعَانَ » (٤) ، يعنى مُلْتَقَى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركون بهدر ،
وذلك يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

هكذا أورد ابن إسحاق رحمه الله هذه الآيات كالمستشهد بها على ابتداء
التنزيل في شهر رمضان على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي صورة هذا الاستشهاد نظر .

(١) سورة البقرة : ١٨٦

(٢) سورة القدر

(٣) سورة الدخان : ١ — ٤

(٤) سورة الأنفال : ٤٢

فإن ظاهر قوله سبحانه : « شهرٌ رمضانَ الذي أنزلَ فيه القرآنُ » عمومٌ
نزول القرآن بجماعته فيه . وكذلك قوله : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » .
و « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » .

ولم يقع الأمر في إنزاله على رسوله صلى الله عليه وسلم هكذا ، بل أنزله الله
عليه في رمضان وفي غيره مفترقاً ، آياتٍ وسوراً ، بحسب سؤال السائلين ،
أو أحداث المحدثين ، أو ما شاء الله من هداية العالمين .

وقد قيل في قوله تعالى : « شهرٌ رمضانَ الذي أنزلَ فيه القرآنُ » أى الذى
أنزل في شأنه القرآن ، أى نزل الأمر من الله عز وجل بصيامه كتاباً يتلى وقرآناً
لا يدرُس ولا يتلى .

كما يقال : « نزل القرآنُ بالصلاة » أى نزل جزء منه بفرضها و « نزل القرآنُ
في عائشة » وإنما نزلت منه آيات ببراءتها من الإفك .

ومثل هذا الإطلاق موجود في الأحاديث والآثار كثيراً .

وليس معنى قوله : « أنزلَ فيه القرآنُ » أى ابتدئ فيه إنزاله ،
فقد قيل ذلك وليس ببعيد في المفهوم ولا مما تضيق عنه سعة الكلام ، ثم تجرى
ذلك الجرى الآيتين^(١) الاخيرين وهما : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » ،
و « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وإن بعد ذلك فيهما لما ورد من الآثار
المصححة لحكم عمومهما حسبما نذكره بعد ، فما بال الآية الأخرى التى هى :
« وما أنزلنا على عبدنا يومَ الفرقان يومَ التقى الجمعان » تفتطم في هذا النظام ،
وقد أعقبها مُفسراً بأن المعنى بذلك يومُ بدر ، وهو الحق ؟ .

وهل كان يومُ بدر إلا في السنة الثانية من الهجرة ، وبعد اثنتى عشرة سنة

(١) المطبوعة : تجرى ذلك الجرى في الآيتين .

من البعث ونزول الوحي ، أو بعد خمس عشرة سنة ، على ما ورد من الخلاف في مدة مُكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة ، وما زال القرآنُ المكيُّ والمدنيُّ ينزل فيما مضى تلك السنين .

فإن كان ابن إسحاق عني ما ذكرناه عنه ونسبناه إليه فقد بيّنا وجه رَدِّهِ واستوفينا التنبية عليه ، وإن كان عني غير ذلك فقهّر عنه تحريرُ عباسرته أو سقط على الغافل من كلامه ما كان ينبغي لو بقي إلهامه ، فالله تعالى أعلم .

والرجلُ أولى منا بأن يُصيب ويَسلم ، إلا أنه لا يُنكر أن يُفلس هذا البشر .

ونعوذ بالله أن نقصد بهذا الاعتداء على ذي علم أو النقص من ذي حق ، فإن العلماء هم آباؤنا الأقدمون وهداتنا المتقدمون ، بأنوارهم نَسرى فنبصر ونستبصر ، وإلى غايتهم نجري فطوراً نصيل وأطواراً نقصر ، فلمهم دوننا قصبُ السُّبْق ، ولهم علينا في كل الأحوال أعظمُ الحق ، إذا أصابوا اعتدنا ، وإذا أخطأوا استمدنا ، وإذا أفادوا استمددنا ، فجزاهم الله عنا أفضل الجزاء ، ووفّقنا لتوفية حقوق الأئمة والعلماء .

* * *

وبعدُ : فن أحسن ما يتعلق بتلك^(١) الآيات الثلاث التي صدر بها كلامه ، مما يحفظ حكم عمومها ويطباق ظاهر مفهومها ، ما رواه سعيد بن جبّير عن ابن عباس رضی الله عنه أن القرآن أنزل جملة واحدة في شهر رمضان إلى سماء الدنيا ، فجعل في بيت العزة ، ثم أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فشيئاً إلى حين وفاته .

وقيل للشّهي : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، أما كان ينزل في سائر السنة ؟

(١) ط : ما يتقلى في تلك الآيات . وما أثبتته رواية المطبوعة .

قال : بلى ، ولـكن جبريل كان يمرض محمداً صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان ما أنزلَ في ماضى السنَّة فيمحو الله ما يشاء ويُثبت .

قال ابن إسحاق : ثم تتكلم الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن بالله مصدق لما جاءه منه ، قد قبَّلهُ بقبوله وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم .

وللهبوة أُنقالٌ ومؤانة لا يحملها ، ولا يستطيع بها إلا أهلُ القوة والعزم من الرسل بعون الله وتوفيقه ، لما يأتون من الناس وما يُردُّ عليهم مما جاءوا به عن الله عز وجل .

فرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى .

[إسلام خديجة]

وآمنت به خديجة ابنة خويلد ، وصدقت بما جاءه من الله ، وآزرته على أمره .

فكانت أولَ من آمن بالله وبرسوله وصدقت بما جاء منه .

تخفَّفَ الله بذلك عن رسوله ، لا يسمع شيئاً يكرهه من رَدِّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبَّتَه وتخفَّفَ عليه وتصدَّقَه وتهوَّنَ عليه أمرَ الناس .

يرحمها الله .

[فترة الوحي]

ثم فتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي حتى شق عليه وأحزنه .
فجاءه جبريل بسورة « والضحي » ، يُقسم له ربه جل وتعالى ، وهو الذي
أكرمه بما أكرمه به ، ما ودّعه وما قلاه .

فقال : « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » ،
يقول : ما حرّمك فتركك ، وما أبغضك منذ أحببك .

« وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى » أى لَمَّا عِنْدِي مِنْ مَرْجِعِكَ إِلَى
خَيْرٍ لَكَ مِمَّا عَجَبْتُ لَكَ مِنَ السَّكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا .

« وَأَسْوَفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » من الفلج^(١) فى الدنيا والثواب
فى الآخرة .

« أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ
عَائِلًا فَأَغْنَى » .

يُمرّفه ما ابتدأه به من كرامته فى عاجل أمره ، ومثّله عليه فى يُثمه وعيقلته
وضلالته ، واستدقاده من ذلك كله برحمته .

« فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ » أى لا تكن جباراً
ولا متكبراً ولا فحاشاً فظاً على الضعفاء من عباد الله .
« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » اذكرها وادعُ إليها .

(١) الفلج : الفلاح والنصر .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد
به من النبوة سيرة إلى من يطمئن إليه من أهله .

[فرض الصلاة]

وافترضت عليه الصلاة ، فصلى صلوات الله عليه وسلامه ورحمته وبركاته .

قالت عائشة رضي الله عنها : افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله
عليه وسلم أول ما افترضت ركعتين ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله أمّتها في الحضر
أربعا وأقرّها في السفر على فرضها الأول ركعتين .

وعن بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول الله صلى الله
عليه وسلم أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فمزله بتمّيه في ناحية الوادي فأنهجرت
منه عين ، فتوضأ جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ، ليريه كيف
الطهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل
توضأ ، ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته ،
ثم انصرف جبريل فجاء رسول الله خديجة فتوضأ لها ليريه كيف الطهور
للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ ثم صلى بها كما صلى به جبريل
فصارت بصلاته .

وعن نافع بن جبّير بن مُطعم ، وكان كثير الرواية عن ابن عباس ، قال :
لما افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فصلى به الظهر
حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظلّه مثله ، ثم صلى به المغرب
حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق ، ثم صلى به
الصبح حين طلع الفجر .

ثم صلى به الظهر حين كان ظلُّه مثله ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول ، ثم صلى به الصبح مُسْتَفِرًّا غير مُشْرِقٍ .
ثم قال : يا محمد ، الصلاةُ فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس .

[إسلام على بن أبي طالب]

قال ابن إسحاق : ثم كان أول ذكْرٍ من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معه وصدقَ بما جاءه من الله تبارك وتعالى على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وهو ابن عشر سنين يومئذ .

وكان مما أنعم الله به عليه أنه كان في حِجْر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام .

وذلك أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه ، وكان من أيسر بني هاشم : يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلينخف [عنه]^(١) من عياله ، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه . قال العباس : نعم .

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه . فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لى عقيلا فاصنما ما شئتما ، ويقال : عقيلا وطالبا .

فأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليًّا فضمَّه إليه ، وأخذ العباس

(١) من ابن هشام

جمعنا فوضمه إليه ، فلم يزل على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبيا فاتبعه على وآمن به وصدقته ، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شباب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مُسْتَخْفِيَا عن أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أُمْسِيَا رجعا . فكنا كذلك ما شاء الله أن يمكننا .

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان فقال لرسول الله : يا بن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ !

قال : أي عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ورسوله ودين أبينا إبراهيم . أو كما قال صلى الله عليه وسلم . بعثني الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه . أو كما قال .

فقال أبو طالب : أي ابن أخي ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخَلِّصُ إليك بشيء تكرهه ما بقيت .

وذكروا أنه قال لعلي : أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه ؟

فقال : يا أبتِ آمنت برسول الله وصدقت بما جاء به واصلت معه لله واتبعته .

فزهوا أنه قال له : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه .

[إسلام زيد بن حارثة]

قال ابن إسحاق : ثم أسلم زيد بن حارثة السكّبي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أولَ ذَكَرٍ أسلم وصلى بهد علي بن أبي طالب .

وعن غير ابن إسحق أن زيدا أصابه في الجاهلية سبأ^(١) فاشتراه حكيم
ابن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، وقيل بل وهبه لها ، فوهبته خديجة
لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه ، وذلك قبل أن يوحى إليه ، وكان
أبوه حارثة قد جزع عليه جزعا شديدا وبكى عليه حين فقده ، فقال :

بكيتُ على زيدٍ ولم أدِرِ ما قتلُ
أحى فيزجى أم أتى دونه الأجلُ

فوالله ما أدري ولما لسائلُ
أغالكَ بَمَدِي السَّمْلُ أمْ خَالَكَ الْجَبَلُ

ويا ليت شعري هل لك الدهرَ أوبةُ
فحسبي من الدنيا رجوعك لي بيجل^(٢)

تَذَكَّرُنيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
وَتَعْرِضُ ذِكْرَاهُ إِذَا قُرْصُهَا أَقْلُ^(٣)

وإن هبت الأرواح^(٤) هيجنَ ذِكْرَهُ
فيا طولَ ما حُزِنِي عَلَيْهِ وَمَا وَجَلْ

سَأَعْمَلُ نَعْسَ الْعَيْسِ^(٥) فِي الْأَرْضِ جَاهِدًا
وَلَا أَسْأَمُ التَّطَوَّافَ أَوْ تَسَامَ الْإِبِلَ

(١) السبأ : الأسر .

(٢) بيجل : حسي .

(٣) ط وابن هشام : « إذا شربها أفل » وما أبيتهم من الطبوعة .

(٤) الأرواح : جمع ريح .

(٥) نعس العيس : أرفغ سيرها .

حياتي أو تأتي علي مني

فكل امرئ فان وإن غره الأجل

ثم إن أناسا من كلب حجوا فرأوا زيدا فعرفهم وعرفوه ، فأعلموا أباه
ووصفوا له موضعه وعند من هو .

فخرج أبوه حارثة وعمه كعب ابنا شراحيل لفدائه .

وقدما مكة فسألا عن النبي صلى الله عليه وسلم فدخلوا عليه فقالا : يا بن
عبد المطلب بن هاشم يا بن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفككون
العاني وتطعمون الأسير ، جثثك في ابنا عبدك ، فامنن علينا وأحسن إلينا
في فدائه .

قال : من هو؟ قال : زيد بن حارثة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلا غير ذلك؟ قالوا : ما هو؟

قال : أدعوه فأخبره ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارني فوالله
ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدا . قالوا : قد زدتنا على النصف
وأحسننا .

فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء؟ قال : نعم . قال : من هذا؟ قال : أبي
وهذا عمي . قال : فأنا من قد علمت ورأيت محبتي لك فاخترن أو اخترهما .

قال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحدا ، أنت منى مكان الأب والعم .

فقالا : ويحك يا زيد ! أختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك
وأهل بيتك !

قال : نعم ، قد رأيتُ مِنْ هَذَا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه
أحداً أبداً .

فلما رأى ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أخرجه إلى الحِجْر فقال :
يا من حضر ، اشهدوا أن زيدا ابني يَرِثني وأرثه . فلما سمع ذلك أبوه وعمه
طابت نفوسهما ، فانصرفا .

ودُعي : زَيْدُ بنَ محمد ، حتى جاء الله بالإسلام فنزلت : « ادعهم لأبائهم
هو أَقْسَطُ عند الله ^(١) » فدعى من يومئذ زيد بن حارثة .

[إسلام أبي بكر]

قال ابن إسحاق : ثم أسلم أبو بكر بن أبي قُحافة رضى الله عنه ، واسمه
عَتِيق ، وقيل : عبد الله ، وعتيق لقبٌ ، لحسن وجهه وعفته ، فيما قال
ابن هشام .

واسم أبي قُحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة
ابن كعب بن لؤي .

فلما أسلم أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله .

وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلاً مُؤَلِّفاً لقومه محبباً سهلاً ، وكان أنسبَ
قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً
ذا خُلُقٍ ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ،
لعلمه وتجارته وحسن مجالسته .

(١) سورة الأحزاب .

فجاء يدعو إلى الله والإسلام من وقتي به من قومه ممن يفتشاه
ويجلس إليه .

فأسلم بدعائه ، فيما بلغني ، عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد
شمس بن عبد مناف بن قصي ، والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد
المزني بن قصي ، وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث
ابن زهرة بن كلاب ، وسعد بن أبي وقاص ، مالك بن أهيب ، بن عبد مناف
ابن زهرة ، وطلحة بن عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم
ابن مرة .

فجاءهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له
فأسلموا وصلوا .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما بلغني : مادعوتُ أحداً إلى
الإسلام إلا كانت فيه عنده كِبْرَةٌ ونَظْرَةٌ وتردُّدٌ ، إلا ما كان من أبي بكر بن
أبي قحافة ، ما عكم^(١) عنه حين ذكرته له وما تردَّد فيه .

قال : فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلوا وصدقوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاءه من الله .

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة
ابن الحارث بن فهر .

(١) عكم : تحول

وأبو سامة عبدُ الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم .
والأزرقمُ بن أبي الأرقم بن أسد أبي جندب بن عبد الله بن عمرو
ابن مخزوم .
وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جحج بن عمرو بن هصين
ابن كعب بن لؤى .
وأخوه قدامة وعبد الله ابنا مظعون .
وهبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي .
وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد الوزي بن عبد الله بن قرط بن رباح
ابن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى .
واسماته فاطمة بنت عمه الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب .
وأسماء بنت أبي بكر الصديق .
وعائشة بنت أبي بكر الصديق وهي يومئذ صغيرة .
ونهباب بن الأرت حليف بني زهرة .
وعُمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص .
وعبد الله بن مسعود المذلي حليف بني زهرة .
وجماعة سوى هؤلاء سماهم ابن إسحق .

قال : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء ، حتى فشا ذِكْرُ
الإسلام بمسكة وتحدث به .

[الجهر بالدعوة]

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله أن يصدع بما جاءه منه وأن يبأدى الناس

بأمره وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستسّر به إلى أن أمره الله بإظهاره ثلاث سنين ، فيما بلغني ، من مبعثه .

ثم قال له الله : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ^(١) » .

ثم قال : « وأنذِرْ عشيرتك الأقربين ، واخفِضْ جفاحك لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ^(٢) » « وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ^(٣) » .

قال : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم ناس من المشركين وهم يصلون ، فدناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بعير فشجّه .

فكان أول دم هريق في الإسلام .

فلما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعث منه قومه ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها .

فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من همم الله منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون .

وحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه

(١) سورة الحجر ٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) سورة الحجر : ٨٦ .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهرًا له^(١) ، لا يرده عنه شيء .

[بين قريش وأبي طالب]

فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُعْتَبَرُهم من شيء أنكروه عليه ، من فراقهم وعَيَّب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَدَّب عليه وقام دونه فلم يُسَلِّمه لهم ، مشى رجال من أشرفهم إلى أبي طالب ، عُتْبَةُ وشَيْبَةُ ابنا ربيعة بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب ، وأبو البختري بن هشام بن الحارث ابن أسد بن عبد العزى بن قُصَيِّ ، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة ، ونُبَيْهَة ومُدَبَّة ابنا الحجاج ، والمعاص بن وائل ، أو من مشى منهم .

فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سَبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَهَ أعلامنا وضلَّل آباءنا ، فإما أن تكفنه عنا ، وإما أن تخلِّي بيننا وبينه ، فإنك هلى مثل ما نحن عليه من خلافه ، فدكفهم .

فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعو إليه .

ثم شرى^(٢) الأمر بينه وبينهم ، حتى تباعد الرجال وتضاغنوا ، وأكثرت

(١) ابن هشام : مظهرًا لأمره .

(٢) شرى الأمر : اشتد .

قریش ذِکْرَ رسولِ الله صلی الله علیه وسلم بینها ، ففذا مروا فیہ وحضّ بعضهم بعضا علیه .

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سِدًّا وشرفًا ومنزلةً فينا ، وإنا قد اسقنهيئك من ابن أخيك فلم تنه عننا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، حتى تكفَّ عننا أو نُنْزله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . أو كما قالوا .

ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبي طالب فراق قوميه وعداوتهم ، ولم يطيب نفسا بإسلام رسول الله صلی الله علیه وسلم ولا خذلانه .

وذُكر أن أبا طالب حين قالت له قریش هذه المقالة بعث إلى رسول الله صلی الله علیه وسلم .

فقال له : يا بن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، للذي قالوا له فأبى عليّ وعلى نفسك ولا تحمّاني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله صلی الله علیه وسلم أنه قد بدّأ لعمه فيه بدّاء ، وأنه خاذلُه ومُسْلِمُه ، وأنه قد ضَمَفَ عن نصرته والقيام معه ، فقال له : والله يا عمّ لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركتهُ !

ثم استعبر رسول الله صلی الله علیه وسلم فبكى !

ثم قام ، فلما وليّ ناداه أبو طالب فقال : أقبِل يا بن أخي . فأقبل عليه ، فقال : اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلك لشيء أبدا .

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإسلامه ، [وإجماعه لفرأقهم في ذلك وعداوتهم ^(١)] مشوا إليه بمعامرة بن الوليد ابن المغيرة ، فقالوا له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهدُ فتى في قريش وأجمله ، نخذه فلاكَ هَمَلُهُ ونَصْرُهُ واتخذَه ولداً ، وأسلمَ إلينا ابنَ أخيك هذا الذي خالف دينك ودينَ آبائك وفرَّق جماعة قوتك وسقته أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل كرجل .

قال : والله لبئس ما تسوموني ! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيتكم ابني تفتلونه ! هذا والله ما يكون أبداً .

فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفتك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

فقال له أبو طالب : والله ما أنصفتوني ، واسكتك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك . أو كما قال .

لحقب ^(٢) الأمر وجميت الحرب وتدابذ القوم وبادى بعضهم بعضاً .

[إيذاء النبي والمسلمين]

قال : ثم إن قريشاً تذاَمروا بينهم على مَنْ في القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه .

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم

عن دينهم .

(١) من ابن هشام (٢) حقب : اشتد .

وَمَنْعَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ مِنْهُمْ بِعَمَّةِ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَدْ قَامَ أَبُو طَالِبٍ - بَيْنَ رَأْيِ قَرِيْشَا يَصْنَعُونَ مَا يَصْنَعُونَ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَلِّبِ فِدَاعَهُمْ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مَنْعِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقِيَامِ دُونَهُ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ وَقَامُوا مَعَهُ وَأَجَابُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي لَهَبٍ .

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره من جدهم^(١) وحديثهم عليه جعل يمدحهم ويذكر قديمهم وفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم وليتحدوا معه إلى أمره ، فقال :

إِذَا اجْتَمَعْتَ يَوْمًا قَرِيْشٌ لِمَنْخَرٍ
فَعَبْدٌ مَنَافٍ سِرِّهَا وَصَمِيْمُهَا
فَإِنْ حُصِّلَتْ أَشْرَافُ عَبْدٍ مَنَافِهَا
فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيْمُهَا
وَإِنْ فَخَّرْتَ يَوْمًا فَإِنْ عَمِدًا
هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيْمُهَا
تَدَاعَتْ قَرِيْشًا غَنَمُهَا وَسَمِيْمُهَا
عَلَيْنَا فَلَمْ تَظْفِرْ وَطَاشَتْ حُلُومُهَا
وَكُنَّا قَدِيْمًا لَا نُقِرُّ ظِلَامَةً
إِذَا مَا تَنَوَّأَ صُعُرَ الْخُدُودِ نُقِيْمُهَا
وَتَحْمَى جِهَاهَا كُلَّ يَوْمٍ كَرِيْمُهَا
وَنَضْرِبُ عَنْ أَجْحَارِهَا^(٢) مِنْ يَوْمِهَا

(١) ابن هشام : في جدهم معه .

(٢) المطبوعة : أججارها .

بدا انتمش العود الذوي وإنما
بأكنافنا تنذى وتغى أرومها

[الوليد بن المغيرة]

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع عليه نفر من قريش ، وكان ذاسن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحداً ولا تختلفوا فيكذب بمضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً .
قالوا : فأنت يا أبا عبيد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول فيه ^(١) .

قال : بل أنتم فتقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمنة الكاهن ولا سبجيه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : وما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر ، قد رأينا السحار وسحرم ، فما هو بئذنه ولا عقده ^(٢) .

قالوا : فما نقول يا أبا عبيد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله كعذق وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بمقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته .

(١) ابن هشام : به وهو خطأ .

(٢) ابن هشام : بنفسهم ولا عقدهم .

فتفرقوا عنه بذلك ، فعملوا يجلسون بسبيل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر
بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ، وصدرت العرب من ذلك الموسم
بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها .

[قصيدة أبي طالب]

فلما خشى أبو طالب دُهما العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته التي يعوذ^(١)
فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشرف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم
وفيرم في ذلك من شعره أنه غير مُسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تاركه
لشيء أبداً حتى يهلك دونه . وأولها .

لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وُدَّ فِيهِمْ
وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ
وَقَدْ صَارَ حَوْنًا بِالْمَدَاوَةِ وَالْأَذَى
وَقَدْ طَاوَعُوا أَمَرَ الْعَدُوِّ الْمَزَائِلِ
وَقَدْ حَالَفُوا قَوْمًا عَلَيْهِمْ أُظُنُّنَا
يَهْمُضُونَ غِيظًا خَلَقْنَا بِالْأَنَامِلِ
صَبَرْتُ لِمَنْ نَفْسِي بِسَمْرَاءَ تَمْحَجُ
وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِنْ تَرَاثِ الْقَاوِلِ
وَأَحْضَرْتُ^(٢) عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي
وَأَمَكْتُ مِنْ أُنْوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ

(١) المطبوعة : تموذ . (٢) المطبوعة : وأحظرت . وهو خطأ .

قيامًا معًا مستقبليين رتاجه
لدى حيث يقضى حلفه كل نافل
وحيث يُذبح الأشعرون ركابهم
بمضى السيول من إساف ونازل
موشمة الأعضاء أو قهراتها
نخيسة بين السديس ونازل^(١)
تري الودع فيها والرؤخام وزينة
باعتاقها معودة كالمثاكل^(٢)
أعوذ برب الناس من كل طاعن
عليها بسوء أو ملح بهاطل
ومن كاشح بسمي لها بممبية
ومن مُنحقي في الدين ما لم نحاول
وتور ومن أرسى تَبيراً مكانه
وراق ليزقى في حراء ونازل
وبالبيت ، حق البيت ، من بطن مكة
وبالله إن الله ليس بنافل
وبالحجر الأسود^(٣) إذ يمسحونه
إذا اكتنفوه بالضحي والأصائل

(١) موشمة: مملأة . والنصرات جمع نصرة وهي أصل العنق . والمخيسة المذلة . السديس من الإبل : الذي دخل في الثامنة ، والبازل : الذي خرج نابه وذلك لتسع سنين .
(٢) المثاكل : الأخصان التي تثبت عليها النار .
(٣) الأصل : الأسود ، وما أثبتته من ابن هشام .

وَمَوْطِيٌّ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّغَرِ وَطَاءٌ^(١)
عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ
وَأَشْوَاطُ بَيْنَ التَّرْوَتَيْنِ إِلَى الصَّفَا
وَمَا فِيهِمَا مِنْ صَوْرَةٍ وَتَمَائِلٍ^(٢)
وَمَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ رَاكِبٍ
وَمِنْ كُلِّ ذِي نَذْرٍ وَمَنْ كُلِّ رَاجِلٍ
وَبِالشَّعْرِ الْأَقْصَى إِذَا حَمَدُوا لَهُ
إِلَالٍ إِلَى مُنْفَضَى الشَّرَاحِ الْقَوَائِلِ^(٣)
وَتَوَقَّافِهِمْ فَوْقَ الْجِبَالِ عَشِيَّةً
يَقِيمُونَ بِالْأَيْدِي صَدُورَ الرُّوَاهِلِ
وَلَيْلَةَ تَجْمَعِ وَالْمَنَازِلِ مِنْ مِثْيَ
وَهَلْ فَوْقَهَا مِنْ حَرَمَةٍ وَمَنَازِلِ
وَتَجْمَعِ إِذَا مَا الْمُقْرَبَاتِ أَجْرَتَهُ
سَرَاعًا كَمَا يُخْرَجْنَ مِنْ وَقْعِ وَابِلِ
وَبِالْجِرَّةِ الْكُبْرَى إِذَا حَمَدُوا لَهَا
يَوْمُونَ قَذْفًا رَأْسَهَا بِالْجِنَادِلِ
وَكِفْدَةً إِذْ هُمْ بِالْحِصَابِ عَشِيَّةً
تَجْمِيزُ بِهِمْ حَجَّاجُ بَكْرِ بْنِ وَائِلِ

(١) ابن هشام رضية .

(٢) من ابن هشام .

(٣) إلال جبل بعرفة معروف . والشراح القوائيل مسايل الماء المقابلة .

حليقات شداً عقد ما اختلفاً له
وردًا عليه عاطفاتٍ الوسائلِ
وحطيمهم مُنمَّرَ الصفاحِ وسرَّحَه
وشبَّرقه وَخَدَّ النِّعَامِ الجوافلِ^(١)
فهل بَعْدَ هَذَا من مَعَاذٍ لَمَائِدِ
وهل من مُعِينٍ يَتَّقَى اللهُ عَادِلِ^(٢)
يطاع بِدَا الْعِدَى^(٣) وودوا لو أَنَا
تَسَدُّ بِمَنَا أَبْوَابُ تَرْكِ وَكَأْبِلِ
كُذِبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ نَتْرِكُ مَكَّةَ
وَنَظْمِنُ إِلَّا أَمْرِكُمْ فِي بِلَابِلِ
كُذِبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ نُبْزَى^(٤) مَعْدَاً
وَأَمَّا نَطَائِنُ دُونِهِ وَنُفَاخِيزِ
وَنُسْلِهِ حَتَّى نُعَرِّجَ حَوْلَهُ
وَنَذْهَبُ عَنْ أَبْدَانِنَا وَالْحَلَالِ
وَتَهْبِضُ قَوْمٌ فِي الْحَدِيدِ إِلَيْكُمْ
نَهْوَضُ الرَوَايَا تَحْتِ ذَاتِ الصَّلَاحِ^(٥)

(١) الصفاح : جمع صفيح ، وهو عرض الجبل ، والسمر : شجر الطليح ، أصله بضم الميم فسكت لاضرورة ، والسرَّح نوع من الشجر ، والسرِّق : نبات ، والوخد : السير السريع . والنعام الجوافل : المبرعة .

(٢) ابن هشام : عاذل .

(٣) العدى : جمع ماد كقناز وغزى . (٤) نبرى : اساب . وفي الروض الأنف : نبرى . محزمة

(٥) ا وايا : الإبل التي تحمل الماء . والمصلاص : المزايدات التي تصاحل بالماء .

(١٩ — الاكتفاء)

وحى نرى ذا الضمّن يركب رذعه
من الطمن فعل الأُنكب المتعاطل
وإنا لعمرو الله إن جَدَّ ما أرى
لَتَلْتَبِسَنَ أَسِيافِنَا بِالْأَمَانِلِ
بصكفي فتى مثل الشهاب تَبِيدِعُ (١)
أخي ثقةٍ حامى الحقيقة باسئل
وما تَرَكَ قومٍ لا أبالك سـيدا
بحوط الدمارِ غير ذرْبٍ مواكلِ
وأبيض يُسْتَسْقَى الغمام بوجهه
ثمَّالُ اليتامى عِصْمَةٌ للأراملِ
يلوذ به الهلاكُ من آل هاشمِ
فهم عنده في رحمةٍ وفواضلِ
جزى الله عنا عبدَ شمسٍ ونوفلاً
عقوبةً شرّاً عاجلاً غير آجلِ
بمِيزانٍ قسطٍ لا يُخْسِ شعبةً
له شاهدٌ من نفسه غيرُ هائلِ
لقد سَفِهَتْ أحمـلامُ قومٍ تبدّلوا
بني خَلْفٍ قِيضاً بنسا والفياطلِ (٢)

(١) السميع : السيد .

(٢) الفياطل : بنو سهم لأن أمهم الفيطللة . وقِيضاً : عوضاً .

ونحنُ السِّمِيمُ من ذؤابة هاشمٍ -
وآلِ قَمِيٍّ في الخَطُوبِ الأوائلِ .
وسمهمُ ونخزومُ تمالَّوا وألبَّوا
علينا المِدي من كلِّ طِئِلٍ وخاملٍ (١)
فعبداً منافٍ أنتمُ خيرُ قومكم
فلا تُشْرِكوا في أمركم كلَّ واغسلٍ (٢)
امرئى لقد وهنتُمُ ومجزتمُ
وجبتُمُ بأمرٍ تُخطيءُ المُقاصِلِ
فإنَّ نَكَّ قومًا نَتَّيرُ ما صنعتمُ
وتحتابوها لِقِحَّةٍ غيرِ باهلٍ (٣)
فأبلغُ قصيًّا أن سَيُنشَرُ أمرنا
وبشَّرُ قصيًّا بمدنا بالتغاضلِ
ولو طرقتُ إيلاً قصيًّا عظيمةً
إذا ما لجأنا دونهم في المداخلِ
ولو صدقوا ضرباً خلالَ بيوتهم
لكنا أسي (٤) عندَ النساءِ المعافلِ

(١) الطليل : الفاحش ، وهو الاس أيضاً .

(٢) الواغل : المتطفل الدخيل .

(٣) نتثر : تثار ، واللحمة : الناقة ذات الابن . والباهل : الناقة التي لا صرار

على أخلافها فهو مباحة الحاب .

(٤) الأسي : جمع أسوة .

فإن تك كعب من لوى صقنية^(١)
فلا بد يوماً مرة من تزايل
فكل صديق وابن أخت نعدّه
لعمري وجدنا غيبه غير طائل
سوى أن رهطاً من كلاب ابن مرقه
برأوا إلينا من معلقة خاذل
ونعم ابن أخت القوم غير مكذب
زهير حساماً مفرداً من جمائل
أشم من الشم البهائيل ينتمى
إلى حسب في حومة الجسد فاضل
لعمري لقد كلفنا وجداً بأحد
وإخوته^(٢) داب الحب المواصل
فلا زال في الدنيا جمالا لأهلها
وزيناً لمن والاه رب^(٣) المشاغل
فمن مثله في الداس أي مؤمل
إذا قاسه الحكم عند التفاضل
حكيم^(٤) رشيد عادل غير طائش
يوالى إلها ليس عنه بغافل

(١) أي قريبة .

(٢) لم يكن للرسول إخوة مما يبين صنعة هذا الشعر .

(٣) المطبوعة : ذب

(٤) المطبوعة : حكيم .

فأيده رب العبادِ بنصره
وأظهر ديناً حقه غير باطل^(١)
فوالله لولا أن أجيء بسببته
تجرُّ على أشياخنا في القبائل
لَكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ
من الدهر جيداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مُكذَّبُ
لديناً ولا يُعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحدٌ في أرومة
تَقصِّرُ عنها سَورة المتطاولِ
حَدِيثُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمِيَّتِهِ
ودافعت عنه بالذرى والكلالِ^(٢)

وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثر هذه القصيدة^(٣).
قال : وحدثنى من أئق به قال : أفحط أهل المدينة فأثروا رسول الله صلى الله
عليه وسلم فشكروا إليه ذلك ، فصعد المنبر فاستسقى ، فما لبث أن جاء من المطر ما أتاه
أهل الضواحي يشكون منه الفرق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« اللهم حوالينا ولا علينا » .

(١) الطبوعة : غير فاصل .

(٢) الكلال : عظام الصدر . وترتيب القصيدة هنا مخالف لترتيب ابن هشام .

(٣) ويظهر عليه أيضا ركازة الصنم .

فأنجابه السحابُ عن المدينة ، فصار حوالها كالإكليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لمرّه » فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله :

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه
يُمَالُ اليَتَامَى عصمةً للأراملِ

قال : أجل .

[قصيدة أبي قيس بن الأسات]

قال ابن إسحاق : فلما انتشر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرب وبلغ البلدان ، ذُكِرَ بالمدينة ، ولم يك حينئذ من العرب أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذُكِرَ وقَبِلَ أن يُذكَرَ من الأوس والخزرج ، وذلك لِمَا كانوا يسمون من أخبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ومعهم في بلادهم .

فلما وقع ذِكْرُهُ بالمدينة وتحدثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف ، قال أبو قيس بن الأسات الأوسى ، وكان يحب قريشاً وكان يقيم فيهم السنينَ بامرأته أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى ، قصيدةً يعظم فيها الحرمَةَ وينهى قريشاً عن الحرب ويذُكِرُ فضلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذُكِرُهم بلاء الله عنهم ودفعه الفيل عنهم فقال :

يا رابكها إِمَّا عَرَضْتَ فبَلَّغْنَا
مُغْلَغَلَةً^(١) عَنِ نَوْعِيَّ بنِ غَالِبِ

(١) المغلغلة: الداخلة إلى أقصى ما يراد بلوغه منها.

رسول امرى قد راعه ذاتُ يديكم
على الذئبي تحزونِ بذلك ناصبِ
وقد كان عددي للموم ممرس
ولم أقض^(١) منها حاجتي ومآربي
أهيدكم بالله من شر صنعمكم
وشر تباغيكم ودس المقاربِ
وإظهار أخلافِ وبحوى سقيمة
كوخز الأشافي وقمها حق صائب^(٢)
فذكرهم بالله أولَ وهـالـة
وإحلال إحرارِ الظباء الشواربِ^(٣)
وقل لهم والله يحكم حكمه
ذروا الحرب تذهب عنكم في المراحبِ
مق تبتئوها تبتئوها ذميمة
هي الفول للأقصابين أو للأقاربِ
تقطع أرحاما وتهلك أمة
وتبري السديف من سقام وغارب^(٤)
فإياكم والحرب لا تملقنكم
وحوضاً وخيم الماء مرّ المشاربِ

(١) ابن هشام : فلم أقص .

(٢) الأشافي : جمع إشنى ، وهي المثقب والسراد يخرز به .

(٣) الشوارب : الضامرة التي تأتي من بعد لتأمن فيه ، فهي شازبة أي ضامرة من بعد

(٤) السديف : لحم الظهر .

المسافة ، ول المطبوعة : الشوادب .

تُزَيْنُ لِلأَقْوَامِ ثُمَّ يَرَوْنَهَا
بِعَاقِبَةٍ إِذْ بَيَّنَّتْ أُمَّ صَاحِبِ (١)
تُحْرِقُ لَا تَشْوِي (٢) ضَعِيفًا وَتَنْحَقِي
ذَرِيَّ العِزِّ مِنْكُمْ بِالْحَتُوفِ الصَّوَابِ
أَلَمْ تَمْلُؤُوا مَا كَانَ فِي حَرْبِ دَاحِسٍ
فَتَعْتَبِرُوا ، أَوْ كَانَ فِي حَرْبِ حَاطِبِ ؟ (٣)
وَكَمْ قَدْ أَصَابَتْ مِنْ شَرِيفٍ مُسَوِّدٍ
طَوِيلِ العِمَادِ ضَعِيفُهُ غَيْرُ خَائِبِ
وَمَا هُرِيقَ فِي الضُّلَالِ كَأَنَّمَا
أَذَاعَتْ بِهِ رِيحُ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ
يُخْبِرُكُمْ عَنْهَا أَمْرٌ حَقٌّ عَالِمِ
بِأَيَّامِهَا وَاللَّهُ لَمْ يَكُنْ عِلْمُ التَّجَارِبِ

(١) أم صاحب : أي عجوزا كأم صاحب لك .

(٢) لا تشوي : لا تحطىء .

(٣) داحس فارس كان اقيس بن زهير بن جذيمة بن عيس بن بغيض أجراه مع فارس لحذيفة ابن بدر بن عمرو بن زيد بن ذبيان بن بغيض يقال لها الغبراء ، فدمس حذيفة قوما وأمرهم أن يضربوا وجه داحس إن رأوه قد جاء سابقا ، فجاء داحس سابقا فضربوا وجهه ، وجاءت الغبراء ، فلما جاء فارس داحس أخير قيسا الحر ، فوثب أخوه مالك بن زهير فاطم وجه الغبراء ، فقام حمل بن بدر فاطم مالكا . فوَقعت الحرب بين عيس وفزارة .

وأما حرب حاطب ، فهو حاطب بن الحارث بن قيس . بن عمرو بن عوف بن مالك ابن الأوس ، كان قتل يهوديا جارا للخزرج ، فوَقعت الحرب بين الأوس والخزرج فاقتتلوا قتالا شديدا .

فبيموا الحرابَ يلمسُ حربِ واذكروا
حسابكمُ واللهُ خيرُ مُحاسبِ
ولى امرى فاختار^(١) ديناً فلا يكن
عليكم رقيبها غيرُ ربِّ الثوابِ
أقيموا لنا ديناً حنيفاً فاتمُّ
لنا غايةً ، قد يُهتدى بالذوابِ
وأنتم لهذا الناس نورٌ وعصمةٌ
تؤمنون والأحلامُ غيرُ عواذبِ
تصونون أجساداً كراماً عتيقةً
مهذبةً الأنسابِ غيرُ أشائبِ^(٢)
ترى طالبي الحاجاتِ تمحو بيوتكم
عصائبَ هلكى تهتدى بمصائبِ
لقد علم الأفوامُ أن سراتكم
على كل حالٍ خيرُ أهل الجبابِ^(٣)
فقوموا فمصلوا ربكم وتمسحوا
بأركان هذا البيت بين الأخشابِ^(٤)
فعدكم منه بلا ومصدق
غداة أبى يكسوم هادى الكتائبِ

(١) إلغاء هنا زائدة (٢) غير متبادلة .

(٣) الجباب : جبال .

(٤) صلوا : دعوا .

كُتِبَتْهُ بِالسَّهْلِ تُمْنَى وَرَجَاهُ
عَلَى الْقَاذِفَاتِ فِي رَدْوَسِ الْمَنَاقِبِ
فَلَمَّا أَتَاكُمْ نَصْرُ ذِي الْعَرْشِ رَدِّمِ
جَنُودُ اللَّهِ بَيْنَ سَافٍ وَحَاصِبِ
فَوَلُّوا سَرَاعًا هَارِبِينَ وَلَمْ يَوْتِبْ
إِلَى قَوْمِهِ مِلْحُشِبِ غَيْرُ عَصَائِبِ
فَإِنْ تَهَاكُّوْا نَهْلَكُ وَتَهْلِكُ عَصَائِبُ^(١)
يُمَاشِ بِهَا ، قَوْلُ أَمْرِي غَيْرُ كَاذِبِ

[من أذى قريش]

ثم إن قريشا اشتد أمرهم ، للشقاء الذي أصابهم ، في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم .

فَأَغْرَوْا بِرَسُولِ اللَّهِ سَفَهَاءَ فَكَذَّبُوهُ وَأَذَوْهُ وَرَدَّوْهُ بِالشُّعْرِ وَالسَّحَرِ
وَالكُهَانَةِ وَالْجِنُونِ .

ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم مظهرٌ لأمر الله لا يستخفي به ، مُبَادٍ لَهُمْ
بِمَا يَكْرَهُونَ مِنْ قَائِبِ دِينِهِمْ وَاعْتِزَالِ أَوْلِيَاءِهِمْ وَفِرَاقِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ .

فَخَدَّثَ عَمْرُو بْنُ الزَّبِيرِ أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَمْرُو بْنِ الْعَاصِ : مَا أَكْثَرُ
مَا رَأَيْتَ قَرِيشًا أَصَابُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا كَانُوا يَظْهَرُونَ
مِنْ عِدَاوَتِهِ ؟

(١) كذا في وفي ابن هشام : مواسم .

قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم يوماً في الحِجْر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثلَ ما صَبَرْنَا عليه من أمر هذا الرجل قط أسفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم . أو كما قالوا .

فبيناهم في ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبَيْت ، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض القول .

قال : فمرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فمرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أنسمعون يا معشر قريش ؟ أوالذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح^(١) . قال : فأخذت القوم كلُّهُم حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه وصاة^(٢) قبل ذلك ليرفؤه^(٣) بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولاً .

قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحِجْر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتُم ما باغ منكم وما باغكم عنه حتى إذا باداكم بما تسكروهون تركوهوه^(٤) !

فبيناهم في ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل

(١) أى بالهلاك والقتل إن عصيتهم وكذبتم .
(٢) الوصاة : الرصية ، وى الطلوعة : وسائلا .
(٣) برفؤه : سكهه .

واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ، لئذى يقول^(١) من
عَيب آلهتهم . فيقول رسول الله : نعم أنا الذى أقول ذلك .

فلقد رأيتُ رجلا منهم أخذ بمجمع رداءه ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكي
ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله !!

ثم انصرفوا عنه .

فإن ذلك لأشد ما رأيتُ قريشا نالوا منه قط .

(١) ابن هشام : لما كان يقول .

ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب

قال ابن إسحاق : وحديثي رجل من أسلم ، كان واعية ، أن أبا جهل مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ونال^(١) منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك .

ثم انصرف عنه فمد إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً سيفه راجعاً من قنص^(٢) له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على نادر من قريش إلا وقف وسلم وتحديث معهم ، وكان أعزّ فتى في قريش وأشدّه^(٣) شكيمة .

فلما مرّ بالمولاة ، وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته قالت له : يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آتياً من أبي الحكم بن هشام وجاءه هاهنا جالسا فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فاحتل حمزة الغضب ، لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى لم يقف على

(١) المنبوذة : قال . وهو خطأ .

(٢) القنص : الصيد .

(٣) ابن هشام : وأشد .

أحد ، معدًا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع^(١) به .

فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوسَ فضر به بها فشجّه شجةً منكورة ، ثم قال : أنشتمه وأنا^(٢) على دينه أقول كما يقول ، فرُدَّ ذلك على^١ إن استطعت .

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا محمارة ، فإنني والله قد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا .

وتمَّ حمزة على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله من قوله .

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزَّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فسكنوا عن بعض ما كانوا يذالون منه .

[عتبة بن ربيعة يفارض الرسول]

وعن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيدي ، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمور الله يقبل بعضها فتمطيه أيها شاء ويكفُّ عنا ؟

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرُونَ .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه .

(١) المطبوعة : أن يقع .

(٢) المطبوعة : فأنا .

فقام عُتْبَةُ حتى جالس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من السُّطَّة^(١) في العشيِّرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقتَ به جماعتهم وسقطتَ به أحلامهم ، وعيبتَ به آلهتهم ودينهم ، وكفرتَ به من مضى من آباءهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منا بعضها .

فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد مُلْكاً مَلَكَناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً لا تراه ولا نستطيع رده من نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه من أموالنا حتى نُنهرثك منه ، فإنه ربما غلب القابح على الرجل حتى يداوى منه . أو كما قال له .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع مني . قال : أفعل .

قال : « بسم الله الرحمن الرحيم حم ، تنزيلٌ من الرحمن الرحيم . كتابٌ فصَّلَتْ آيَاتُهُ قرآناً عربياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وقالوا قلوبنا في أكنةٍ مما ندعونا إليه وفي آذاننا وقْرٌ ومن بيدينا ويديك حجَابٌ ، ظالم إننا عاملون »^(٢) .

(١) السُّطَّة : الشرف .

(٢) سورة فصَّلَتْ ١ - ٤ .

ومضى ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة^١ أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بضمهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورأى أبا سميت^٢ قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالسكاهة ، يا معشر قريش أطيعوني واجملوها بي ، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت^٣ نبا ، فإن تُصِبه العرب فقد كُفِيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فمُلِككم ملككم وعزّه عزكم وكفتم أسعد^٤ الناس به .

قالوا : سحرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

[قريش تفاوض الرسول]

قال ابن إسحاق : ثم إن الإسلام جعل يفتشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء ، وقريش^٥ تمخّس من قَدَرَت على حبسه وتقتن من استطاعت ففتنته من المسلمين .

(١) ابن هشام : ثم مضى .

ثم إن أشراف قريش^(١) من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند
ظهور الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا ل محمد فكأموه وخاصموه حتى
تُعتذروا فيه .

فبعثوا إليه فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً ، وهو يظن أن
قد بدا لهم فيما كلهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصاً يجب رُشدهم ويبرز
عليه عندهم .

حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لكلامك ، وإنا والله ما نعلم
رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء
وعبثت الدين وشتمت الآلهة وسفقت الأحلام وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر
قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا
حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك
علينا ، وإن كنت تريد مُلكاً مَلَكَناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك
رئياً تراه قد غلب عليك ، وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً ، فربما كان
ذلك ، بذلنا أموالنا في طلب الطّب لك حتى نُبرئك منه أو نُعتذر فيك .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون ، ما جئتُ
بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا المُلْك عليكم ، وإن كان الله
بعثني إليكم رسولا وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ،
فهلنتمكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم

(١) ابن هشام : أسماهم .

في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .
أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابلٍ شيئاً مما عرضنا عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيّقَ بلدًا ولا أقلَّ ماء ولا أشدَّ عيشًا منا ، فسئلنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيرَ عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليغرق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضي من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه [كان^(١)] شيخ صدق فذسألهم عما تقول : أحقُّ هو أم باطل ، فإن صدقوك وصدقت ما سألتك صدقتك وهرفسنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا إلينا كما تقول .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بهذا بُعثت إليكم ، إنما جئتمكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عندك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكدوزاً من ذهب وفضة يفتيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً . أو كما قال .

(١) ط : فإنه شيخ صدق .

فإن تقبلوا ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه حتى
أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء قتل ،
فإننا لا نؤمن بك إلا أن تفعل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله
بكم فعل .

قالوا : يا محمد فما علم ربك أننا سنجلس معك ونسألك عما سألتك عنه
ونطلب منك ما نطلب ، فیتقدم إليك فیتملک ما تراجعنا به ويخبرك ما هو
صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به ؟

إنه قد بلغنا أنك إنما يملك هذا رجلٌ باليامة يقال له الرحمن ، وإنا والله
لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد اعتذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك ،
وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائمهم : نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله . وقال قائمهم : إن نؤمن لك
حق تأتي بالله والملائكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن
أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد
المطلب ، فقال له : يا محمد هرّض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألك
لأنفسهم أموراً لم يعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم
تفعل ، ثم سألك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلك من
الله فلم تفعل . أو كما قال له . فوالله لا أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً

ثم ترقي فيه وأنا أنظر ، حتى تأتيها ، ثم تأتي معك بصك^(١) أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأبم الله لو فمات ذلك ما خلفت أني أصدقك .

ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مهادتهم إياه .

* * *

فلما قام عنهم قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من هيب ديننا وشتم آبائنا وآسفاه أحلامنا وشتم آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجاسن له غداً بحجر ما أطيق حمله . أو كما قال .

فإذا سجد في صلواته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بدو عهد مناف ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينظره ، وغداً رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يندو ، وكان بمكة وقبلته إلى الشام ، فكان إذا صلى صلى بين الركبتين الركن اليماني والحجر الأسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ، وقد غدت قريش فجاسوا في أنديتهم ينظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل

(١) ابن هشام : ثم تأتي معك أربعة .

أبو جهل الحَجَر ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه ، وعوبا
قد يبست يدها على حَجَره حتى قذف الحجر من يده .

وقامت إليه رجال قريش فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قتت إليه
لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عَرَض لي دونه فحلُّ من الإبل
لا والله ما رأيت مثلَ هامته ولا قَصْرته^(١) ، ولا أنيابَه لفحل قط ، فهم .
أن يأكلني .

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذلك
جبريل ، لودنا لأخذه .

فلما قال ذلك لهم أبو جهل قام النضر بن الحارث بن كَلْدَة بن علقمة بن
عبد مناف بن عبد الدار بن أمية ، فقال : يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم
أمرٌ ما أتيتم له بحيلةٍ بعدُ ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدّثنا أرضاكم فيكم
وأصدّقكم حديثنا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغَيْه الشيبَ وجاءكم
بما جاءكم به قلتُم : ساحر . لا والله ما هو بساحر ، قد رأينا السحرة أنفُسهم^(٢)
وعقدهم . وقلتُم : كاهن . لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة تتخالجمهم^(٣)
وسمنا سجعهم . وقلتُم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر وسمنا أصنافه
كلها هزّجه ورجزه . وقلتُم : مجنون . لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما
هو بخنثته ولا وسوسته ولا تخليطه ، يا معشر قريش انظروا في شأنكم فإنه والله
لقد نزل بكم أمر عظيم .

(١) ابن هشام : ولا مثل قصرته ، والقصرة : أصل العنق .

(٢) ابن هشام : السحرة ونفسهم .

(٣) ابن هشام : وتخالجمهم .

[وفد قريش إلى أحبار اليهود]

فلما قال لهم ذلك النَّضْرُ بن الحارث بعثوه وبعثوا معه عُقْبَةُ بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة ، وقالوا لها : سَلِّامُ عن محمد وصِفَّا لهم صفة وأخبرهم بقوله ، فإنهم أهل السكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء .

ففرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لهم أمره وأخبرهم ببعض قوله ، وقالوا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا !

فقاتل لها أحبار يهود : سَلُّوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مُرْسَل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فرَوَّا فيه رأيكم .

سَلُّوه عن فِثْيَةِ ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فإنه كان لهم حديث عجيب .

وسَلُّوه عن رجل طَوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟

وسلوه عن الروح ما هو ؟

فإذا أخبركم بذلك فانهوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل مُتَقَوْل قاصدوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النَّضْرُ بن الحارث وعُقْبَةُ بن أبي مُعَيْط حتى قدما مكة ، فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد .

أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء ، فإن أخبركم عنها فهو نبي ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فرَوَّا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن تلك الأشياء فقال لهم :
أخبركم بما سألتهم عليه غدا . ولم يستثن .

فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمسة
عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل ، حتى أزعج
أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها
لا يخبرنا بشيء مما سألفنا عنه . وحتى أحرن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث
الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .

ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه
عليهم وخبر ما سأله عنه من أمر الغيبة^(١) والرجل الطواف والروح .

فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل حين جاءه : لقد
احتبست عنى يا جبريل حتى سوت خلفا . فقال له جبريل : « وما تنزل إلا
بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيما »^(٢) .

فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه
فيما حدث وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سأله عما سأله
عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله ونكروا
أمره عيانا وأجروا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : لا تسمعوا لهذا القرآن
والغوا فيه لعلكم تغلبون .

أى اجعلوه لغوا وباطلا واتخذوه هزوا لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن
ناظرتهم وخاصةموه غلبكم .

(١) ابن هشام: من أمر الله الغيبة ويسدو أن لفظ الجلالة مقحم هنا .

(٢) سورة مريم ٣١ .

فقال أبو جهل بوما وهو يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق : يا معشر قريش ، يزعم محمد أنما جود الله الذين يمهذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أعظم^(١) الناس عددا وكثرة ، أفيمعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ !

فأنزل الله في ذلك من قوله : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدوتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستثيقن الذين أتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا » إلى آخر القصة .

فلما قال ذلك بعضهم لبعض جعلوا إذا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو يصلي يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له ، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي اشترق السمع دونهم فرقا منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته فظن الذي يستمع أنهم لا يسمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا دونهم أصاح يستمع له^(٢) .

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه : إنما نزلت هذه الآية : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » من أجل أولئك [الذفر]^(٣) يقول : لا تجهر بصلاتك فيفترقوا عنك ، ولا تخافت بها فلا يسمعونها من يجب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم ، اهله يرفعون إلى بعض ما يسمع فينتفع به .

(١) ابن هشام : أكثر .

(٢) المطبوعة : أصاح له يستمع منه . (٣) من ابن هشام .

[أول من جهر بالقرآن]

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبدُ الله ابن مسعود فيما حدّث به عُرْوَةُ بن الزبير قال :

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ما سمعت قريشُ هذا القرآن يُجهر لها به قط ، فن رجلٌ يُسمِعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا . قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه . قال : دَعُونِي فَإِنَّ اللَّهَ سِرْمَعِي .

قال : ففدنا ابنُ مسعود رضى الله عنه حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قال : بسم الله الرحمن الرحيم رافعاً بها صوته « الرحمن ، علّم القرآن » قال : ثم استقبلها يقرؤها ، وتأمّلوها فجعلوا يقولون : ما قال ابنُ أمّ عبدٍ ؟ ثم قالوا : إنه ليأتلو بعض ما جاء به محمد .

فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه وجعل يقرأ حتى بآخ منها ما شاء الله أن يباخ ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه . فقالوا : هذا الذى خشينا عليك فقال : ما كان أعداء الله أهونَ علىّ منهم الآن ، وإن شئتم لأغادِيَنهم بمثلها [غدا]^(١) قالوا : لا ، حَسْبُكَ ، قد أسمعتهم ما يكرهون .

[قريش تستمع إلى قراءة النبي]

وذكر الزهرى أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى من

(١) من ابن هشام .

الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا لجمعهم الطاريق ، فتلأوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلورآكم بعض سفهائكم لأوقعتكم في نفسه شيئاً .

ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، لجمعهم الطاريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة .

ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا لجمعهم الطاريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتماهد لا نعود ، فتماهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

قال الأحنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ اتنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وسملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا^(١) على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : وإنما نبي يأتيه الوحي من السماء !!

(١) تجاذبنا : أقمينا قال السهيلي : وقع في الجمهرة : الجاذبي : المقى على قدميه .

فتى ندرک هذه ؟ والله لا تؤمن به أبداً ولا تصدقه .
فنام عنه الأخنس وتركه .

قال ابن اسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا يَهْزَأُونَ بِهِ : قلوبنا في أكنة لا نفقه ما تقول ، وفي آذاننا وقْر لا نسمع ما تقول ، ومن بيننا وبينك حجاب قد حال بيننا وبينك ، فاهل بما أنت عليه إنا عاملون بما نحن عليه ، إنا لا نفقه عنك شيئاً .

فأنزل الله عليه في ذلك من قولهم : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِدْبَارَهُمْ يُفُورُونَ » (١) .

أى كيف فهموا توحيدك ربك ، إن كنت جعلت على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرا وبينك وبينهم حجاباً بزعمهم ؟ أى أنى لم أفل .

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا » (٢) .

أى ذلك ما تواصوا به من ترك ما بعثك به إليهم .

« انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً » (٣) .

(١) سورة الإسراء ، ٤٦٤٥ .

(٢) سورة الإسراء : ٤٧ و٤٨ .

أى أخطأوا المثل الذى ضربوا لك ، فلا يصيبون به هُدَى ولا يعتمد لهم (١)
فيه قول .

« وقالوا : أنذا كنا عظاماً ورُفَاتَا أَنِنَا لَمَبِعُون خَلَقْنَا جَدِيداً » (٢) .

أى قد جئتَ تخبرنا أنا سنُبَعثُ بعد موتنا إذا كنا عظاماً ورُفَاتَا
وذلك ما لا يكون .

« قُلْ : كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً . أَوْ خَلَقْنَا مَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ
من يعيدنا ؟ قل : الذى فَطَرَ كُمْ أَوَّلَ مَرَّةً » (٣) .

أى الذى خَلَقَكُمْ مما تعرفون ، فليس خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ بَاعِزٍ مِنْ
ذلك عليه .

وسئل ابن عباس رضى الله عنه عن قول الله عز وجل : « أَوْ خَلَقْنَا مَا يَكْبُرُ فِي
صُدُورِكُمْ » ما الذى أراد الله به ؟ فقال : الموت (٤) .

[عدوان قريش]

قال ابن إسحاق : ثم إنهم عَدَوُوا عَلَى مِنْ أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَوُثِّبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى مِنْ فِيهَا مِنَ الْمَسْلُومِينَ ، فَعَمَلُوا
يَحْبِسُونَهُمْ وَيُعَذِّبُونَهُمْ بِالضَّرْبِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَبَرْمُضَاءِ هَكَّةَ إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ ،
مِنْ اسْتَضْعَفُوا مِنْهُمْ ، يَفْتَنُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، مِنْهُمْ مَنْ يَفْتَنُ مِنْ شِدَّةِ الْبَلَاءِ الَّذِي
يَصِيبُهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْتَدُّبُ لَهُمْ وَيَعْصِمُهُ اللَّهُ مِنْهُمْ .

(١) الطبوعة : بهم .

(٢) سورة الإسراء : ٤٩ و ٥٠ و ٥١ .

(٤) أى لو كنتم الموت الذى هو كبير فى صدوركم فلا بدلكم من الفناء . وهو تفسير خامس

فكان بلال بن رباح وهو ابن سخامة لبعض بني جُمَح مَوْلِدًا من مَوْلِدِيهِمْ ، وكان صادق الإسلام طاهر القلب ، فكان أمية بن خلف يخرجه إذا حجيت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو في ذلك البلاء : أَحَدٌ أَحَدٌ .

وكان ورقة بن نوفل يمرّ به وهو يعذب بذلك وهو يقول : أَحَدٌ أَحَدٌ . فيقول : أَحَدٌ أَحَدٌ والله يا بلال ! ثم يقبل على أمية ومن يصنع ذلك به من بني جُمَح فيقول : أحلف بالله لئن قتلتهموه على هذا لأتخذنه حنانا .

أى : لأتخذن قبره منسكاً^(١) ومُسْتَرْحًا ، والحنان : الرحمة^(١) .

حتى مرّ به أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوماً وهم يصنعون ذلك به فقال لأمية : ألا تتقى الله في هذا المسكين ؟

قال : أنت الذى أفسدته فأنتذره . فقال أبو بكر : أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به . قال : قد قبلت . قال : هو لك .

فأعطاه أبو بكر ذلك ، وأخذ بلالاً فأعتقه .

وأعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقبات ، بلال سابعهم .

عامر بن قُمَيْرَة ، وأم عُبَيْس ، وزَيْنَة ، فأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت

(١) المطبوعة : سكننا . وهذا التفسير عن غير ابن هشام .

قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى . فقالت : كذبوا وبيت الله ،
ما تضر اللات والعزى ولا تنفعان . فردَّ الله إليها بصرها .

وأعتق التمهدية وابنتها ، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار ، فرَّ بهما أبو بكر
وقد بمشتهما سيدتهما بطحين لما وهى تقول : والله لا أعتقكما أبدا . فقال
أبو بكر : حِلًّا^(١) يا أم فلان . فقالت : حل أنت أفسدتهم فأعتقهما . قال :
فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد أخذتهما ، وهما حرَّتان ، أرجعا
إليها طحينها . قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟ قال : أو^(٢) ذلك
إن شئتما .

ومرَّ بجارية بنى مؤمل^(٣) حتى من بنى عدى ، وعمر بن الخطاب يذهبها لتترك
الإسلام ، وهو يومئذ مشرك ، فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

وقال له أبوه أبو قحافة : يا بنى أراك تمتق رقاباً ضمافاً فلم أنك إذ فعلت
ما فعلت أعتقت رجلاً جلداء ينعونك ويقومون دوابك ؟ فقال أبو بكر :
يا أبت إنى إنما أريد ما أريد .

فبيته حدث : أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه وفيما قال أبوه : « فأما من أعتقى
وأنتقى وصدق بالحقنى فسنبئسره لا يسرى »^(٤) إلى آخر السورة .

وكانت يدو مخزوم يخرجون بمعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، وكانوا أهل بيت
إسلام ، إذا حجيت الظهيرة يعضونهم برمضاء مكة ، فيهر بهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم فيقول فيما يلتقى : صبرا آل ياسر قد كوه الجنة .

(١) أى تحللى من يملك ، وفى ابن هشام : حل بالضم ، وما هنا أصح .

(٢) ابن هشام : وذلك ، وما هنا أصح .

(٣) ط : بنى نوفل . (٤) سورة الليل .

فأما أمه فقتلوا وهي تآبى إلا الإسلام !

وكان أبو جهل الفاسق الذي يُفَرى بهم ، في رجال من قريش ، إذا سمع بالرجل له شرفٌ ومَنعةٌ قد أسلم أنبّه وأخزاه فقال : تركتَ دينَ أبيك وهو خيرٌ منك ! لفسقهم حيلك وكُفَّيَّان^(١) رأيك وانضمتَ شرفك . وإن كان تاجراً قال : والله لكسدتَ تجارتك ولنهلكن مالك . وإن كان ضميماً ضربه وأغرى به .

وقال سعيد بن جبير لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يَبْلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يُعذرون به في تركِ دينهم ؟

قال : نعم والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجمعونه ويمطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي به حتى يمطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له : اللاتُ والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجمل لير بهم فيقولون له : أهذا الجمل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداء منهم مما يبلغون من جهنمه .

(١) أى لضطئته ونضالته .

ذكر الهجرة إلى أرض الحبشة

قال ابن إسحق : فلما رأى رسولُ الله صلى عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن ينعمهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرضٌ صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه .

نفرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً بدينهم إلى الله .

فكانت أول هجرة كانت في الإسلام .

وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان مع امرأته رُقِيَّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة بن عُمَيَّة بن ربيعة معه امرأته سَهْلَة بنت سَهَيْل ، والزُّبَيْر بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومُهَنَّاب بن مُخَيْر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي معه امرأته أم سلمة ، وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جُحَم ، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب بن نفيل معه امرأته ايلي بنت أبي حنثة ، وسهل بن بيضاء من بني الحارث بن فهر ، وأبو سبرة بن أبي رُهم ، ويقال : بل أبو حاطب ابن عمرو . ويقال : هو كان أول من قدمها .

وكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين ، ثم خرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة منهم من خرج بأهله ومنهم من خرج بنفسه .

فسكان جميعاً من لحق بأرض الحبشة من المسلمين سوى أبقائهم الذين
خرجوا بهم صفاراً أو ولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلاً ، إن كان عمار بن ياسر
فيهم ، وهو يُشكُّ فيه .

[ما قيل من الشعر في الحبشة]

وكان مما قيل من الشعر في الحبشة أن عبد الله بن الحارث بن قيس بن هدي
ابن سعيد بن سهم ، حين أمموا بأرض الحبشة وحمدوا جوار النجاشي ، وعبدوا
الله لا يخافون على ذلك أحداً قال :

يا راکباً بهنّ عنى مُنْغَلَمَةً^(١)

من كان يرجو بلاغ الله والدين

كلّ امرئ من عبّاد الله مضطهد

بهطن مكة مقهور ومفتون

أنا وجدنا بلاد الله واسمة

تُنْجِي من الذل والخزاة والهون

فلا تقيموا على ذل الحياة وخز

ي في المات وقئب غير مأمون

إنّا تبعنا رسول الله وأطرحوا

قول النبي وعألوا^(٢) في الموازين

(١) أي رسالة .

(٢) عألوا : مالوا .

فاجعل عذابك بالقوم الذين بقوا
وعائذاً بك أن يعلوا فيظنوني
وقال عبد الله بن الحارث أيضاً يذكر نفي قريش لإمام من بلادهم ويعاتب
بعض قومه في ذلك :

أبت كيدي لا أكذبك قتالهم
على وتباه على أنامل
وكيف قتالي معشرأ أدبكم
على الحق ألا تأشبهوه^(١) بهاطل
فتتهم عباد الجن من حر أرضهم
فأضحوا على أمر شديد الابلابل
فإن تك كانت في عدي أمانة
عدي بن سعد عن ثقي أو تواصل
فقد كنت أرجو أن ذلك فيكم
بممد الذي لا يطوي بالجمائل^(٢)
وبدلت شيبلاً شيبلاً كل ضعيفة^(٣)
بذي فجر^(٤) ماوى الضعاف الأرامل

وقال عبد الله بن الحارث أيضاً :
وتلك قريش تجحد الله حقه
كما جحدت عاد ومدين والحجر

(١) تأشبهوه : تخاطبوه .

(٢) يطوي : يستمال • والجمائل جمع جمالة وهي الرشوة .

(٣) ابن هشام : كل خبيثة .

(٤) ذو فجر : ذو عطاء كثير وفي المطبوعة : بذي نجر وهو خطأ .

فإن أنا لم أبرق فلا يستغني
من الأرض بربّ ذو فضاء ولا ببحر
بأرضٍ بها عبدُ الإله عمداً
أبين ما في النفس إذ بلغ النقر^(١)

فسمى عبدُ الله المُبرقَ ببيتته الذي قال .

وقال عثمان بن مظعون يعاتب أمية بن خلف وهو ابن عمه ، وكان يؤذيه في
إسلامه ، وكان أمية شريف قومه^(٢) في زمانه ذلك :

أتيم بن عمرو للذي جاء بفضة
ومن دونه الشّرمان والبرك أكتع^(٣)
أخرجني من بطن مكة آمناً
وأسكنتني في صرح بيضاء تُقدع^(٤)
ریشُ نبالاً لا يُوانيك ريشها
وتبري نبالاً ريشها لك أجمع
وحاربت أقواماً كراماً أمزة
وأهلست أقواماً بهم كدت تفرع
ستعلم إن نابتك يوماً ملّة
وأشدك الأوباش ما كدت تصنع

(١) النقر : البحث . نقرت عن الخبر : بحثت .

(٢) ابن هشام : شريفاً في قومه .

(٣) أي عجباً للذي جاء به ، والشّرمان بالسكسر ثنية شرم وهو البحر لأنه أراد البحر

للملح والبحر والعذاب والبرك : ما اطمأن من الأرض واتسع وأكتع : تأكيد .

(٤) تقدع : تكره . وبالذال : تدفع .

وتيم بن عمرو الذي يدعو عثمان هو جريح بن عمرو ، كان اسمه تيمياً^(١) .

[وفد قريش إلى النجاشي]

قال ابن اسحق : فلما رأَت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، اتهموا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدَيْن إلى النجاشي فيردُّهم عليهم ، ليقبضوهم في دينهم ويخرجوهم^(٢) من دارهم التي اطمأنوا بها وآمنوا فيها .

فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقتة ثم بعثوها إليه .

فقال أبو طالب حين رأى ذلك [من رأيهم وما بعثوها فيه^(٣)] أبياتاً يرض النجاشي^(٤) على حسن جوارهم والدفع عنهم :

الآيات شعري كيف في النَّأْيِ جعفرٌ
وعمرُو وأعداء العــــــدُو الأقرابُ
وهل نالت أفعالُ النجاشي جعفرًا^(٥)
وأصحابه أو عاقَ ذلك شاغِبُ
تعلَّمْ أبيتَ اللعنَ أنك ماجدٌ
كريمٌ فلا يشقَّ لديكَ الجانبُ

(١) ابن هشام : الذي يدعو عثمان ، جريح ، كان اسمه تيمياً . وفيها سقط .

(٢) المطبوعة : ويخرجهم .

(٣) من ابن هشام .

(٤) ابن هشام : أبياتاً للنجاشي يحضه .

(٥) الأصل : وهل نال ، وفي المطبوعة : قال . وما ذكرته من ابن هشام .

تعلّم بأن الله زادك بسطةً
وأَسبابَ خيرٍ كلّمها بك لازبُ
وأنتك فيضٌ ذو سِجَالٍ غزيرةٍ
ينال الأعدى نفعها والأقاربُ

وذكر ابن إسحاق من حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت :
لما نزلنا أرض الحبشة [تعنى مع زوجها الأول أبي سلمة]^(١) جاورنا بها خيرَ جار
النجاشي ، أمينا على ديننا وعبداً لله تعالى لا تؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه .

فلما بلغ ذلك قريشاً اتقروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي رجلين منهم
جلاّدين وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يستظرف من متاع مكة ، وكان من
أجيب ما يأتيه منها الأدم^(٢) ، فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقاً
إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمر بن العاص
[وأمرهما بأمرهم]^(٣) وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمّا
النجاشي فيهم ، ثم قدّما إلى النجاشي هداياه ثم أسألاه أن يسلمهم إليهما كما قبل
أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار ،
فلم يبقَ من بطارقتة بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلماه^(٤) وقالوا لكل
بطريق : إنه قد ضوّى إلى بلد الملك منا غلمانٌ سفهاء فارقوا دين قومهم ولم
يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مُبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك
فيهم أشرف قومهم ليردّهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فأشيدوا عليه بأن يسلمهم إلينا
ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

(١) ليست في ابن هشام .
(٢) الأدم : اسم جمع للأديم وهو الجلد أو أحمرة أو المدبوخ منه . (٣) من ابن هشام .
(٤) ابن هشام : قبل أن يكلم النجاشي .

ثم إنهما قرّبا^(١) هداياهما إلى النجاشي فقبلها ، ثم قال له : أيها الملك إنه ضوّى^(٢) إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعزرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي .

فقالت بطارقتة : صدقاً أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمتهم إليها فايردّاهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي ثم قال : لاها الله ، إذا لا أسلمتهم إليهما ولا يسكاد قوم جارروني ونزلوا بلادى واختاروني على من سواى ، حتى أدهوم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جارروني .

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جثتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبيّنا كأننا فى ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ، سألمهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

(٢) ضوى : أرى ولبأ .

(١) ابن مشام : قديماً .

قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ، فقال له : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخام ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قالت : فمددَ عليه أمورَ الإسلام .

فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، وعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرّم الله علينا وأحللنا ما أحلّ لنا ، فمدّا علينا قوماً فمذبذبونا وفتدونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحلّ ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ، ورجونا إلا نُظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم . قال : فأقرأه على . فقرأ عليه صدرأ من « كهيعص » .

فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته ، وبكت أسانفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال له النجاشي : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطأ فوالله لا أسلمهم إليك أبداً ولا يُسكّدون .

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لأتيده عنهم غداً بما أستأصل به خضراءم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ، وكان أبتى الرجلين فينا : لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا .

قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدي .

ثم غداً عليه ، فقال : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما فسألهم عما يقولون فيه .

قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، ولم ينزل بنا مثلها قط .

فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ فقالوا : نقول والله ما قال الله وما جاء به نبينا ، كأننا في ذلك ما هو كائن .

قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون في عيسى بن مريم ؟ قالت : فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاء به نبينا ، يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

قالت : فتناخرت بطارقتة حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شُيُوم بأرضي آمنون ، من سببكم غريم ، من سببكم غريم ، من سببكم غريم ، فما أحب أن لي دبراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم . ويقال دبراً ، وهو الجبل بلسان الحبشة فيما قال ابن هشام .

رُدُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين
ردَّ عليّ مُلْكِي فَأَخَذَ الرشوة فيه ، وما أطاع الفاسَ في فاطمهم فيه .

قالت : نخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقنا عنده
بمخردار مع خير جار .

قالت : فوالله إنا لعلّي ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة يفاذه في مُلْكِهِ .
قالت : فوالله ما هَلَمْتُنَا حَزِينًا حَزِنًا قط كان أشدَّ علينا من حزنِ حَزِينَاهُ
عند ذلك ، تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي فيأتى رجل لا يعرف من
حقنا ما كان النجاشي يعرف منه .

وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النبل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم : مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وقبعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟ قالت :
فقال الزبير بن العوام : أنا . قالوا : فأنت . وكان من أحدث القوم سبباً .

فدفعوا له قرية فجعلها في صدره ثم سبَّح عليها حتى خرج إلى ناحية النبل
التي بها ملأتي القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم .

قالت : فدعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والنمكين له في بلاده .

قالت : فوالله إنا لعلّي ذلك متوقعون إيماناً هو كائن إذ طلع علينا الزبير وهو
يسمى ، فلتع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظهر النجاشي وأهلك الله عدوه
[ومكّن له في بلاده]^(١) .

(١) من ابن هشام .

قالت : فوالله ما علمتُنا فرِحنا فرحة قط مثلها .

قالت : ورجع النجاشي ، وقد أهلك الله عدوه ومكّن له في بلاده واستوسق^(١) عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم [وهو بمكة]^(٢) .

قال الزهري : فحدثتُ عمروة بن الزبير هذا الحديث ، فقال : هل تدرّون ما قوله : « ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الداس فيّ فأطيع الداس فيه » ؟ قال : قلت لا .

قال : فإن عائشة أم المؤمنين حدثتني أن أباه كان ملك قوم ، ولم يكن له ولد إلا النجاشي ، وكان للنجاشي عم له من صلبه اثنا عشر رجلاً ، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة ، فقالت الحبشة بينها : لو أننا قتلنا أبا النجاشي ومأكلنا أخاه ، فإنه لا ولد له غير هذا الغلام ، وإن لأخيه من صلبه اثني عشر رجلاً فتوارثوا ملكه من بعده بقيت الحبشة بعده دهرأ .

فعدوا على أبي النجاشي فقتلوه وملكوا أخاه ، فكثروا على ذلك حينما ونشأ النجاشي مع عمه ، وكان لبيبا حازما من الرجال ، فغاب على أمرهم ونزل منه بكل منزلة ، فلما رأت الحبشة مكانه قالت بينها : والله لقد غاب هذا الفتي على أمرهم ، وإنا لنتخوف أن يملكك علينا ، وإن ملكك علينا آية قتلنانا أجمعين ، لقد عرف أننا نحن قتلنا أباه .

(١) استوسق : اجتمع .

(٢) من ابن هشام .

فشوا إلى عمه ، فقالوا : إما أن تقتل هذا الفتى وإما أن تُخرجه بن بين أظهرنا ، فإننا قد خفناه على أنفسنا .

قال : ويلكم ا قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم ! بل أخرجوه من بلادكم .

قالت : فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم ، فخذفه في سفينة فانطلق به حتى إذا كان العشي من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحائب الخريف فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته .

قال : ففزعنا الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحْمِقٌ ليس في ولده خير ، فمَرَجَ^(١) على الحبشة أمرهم ، فلما ضاق عليهم مام فيه من ذلك قال بعضهم لبعض : تعلموا والله أن مَلِكِكُمْ الذي لا يقيم أمركم غيره لَأَذَى بِعَتْمِ غُدُوَّةٍ ، فإن كان لكم بأسر الحبشة حاجة فأدركوه . قالت : فخرجوا في طلبه وطأب الرجل الذي باعوه منه حتى أدركوه فأخذوه منه ، ثم جاءوا به فعقدوا عليه التاج وأقدموه على سرير الملك فمَلِكُوهُ ، فجاءهم التجار الذي كانوا باعوه منه ، فقال : إما أن تعطوني مالى وإما أن أكلمه في ذلك . قالوا : لا نمطيك شيئاً . قال : إذا والله أكلمه . قالوا : فدونك .

قالت : فجاءه فجلس بين يديه ، فقال : أيها الملك ابنتُ غلاما من قوم بالسوق بستمائة درهم ، فأسلموا إلى غلامى وأخذوا دراهمى ، حتى إذا سرتُ بنلامى أدركونى فأخذوا غلامى ومنعونى دراهمى .

قالت : فقال لهم البجاشى : لَتَمُطَّنَّ دراهمى أو ليضدنَّ غلامه يده فى يده فليذهبن به حيث شاء !

(١) اضطرب واختلط .

قالوا : بل نعطيه دراهمه .

فلذلك يقول : « ما أخذ الله مني رشوة حين ردّ عليّ ما سكي فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه » .

قالت : وكان ذلك أول ما خُبر من صلاحته في دينه وعَدْلُه في حُكْمه .

وعن عائشة قالت : لما مات النجاشي كان يُتحدّث أنه لا يزال يُرى على قبره نور .

وذكر ابن إسحق أيضاً عن جعفر بن محمد عن أبيه ، أن الحبشة اجتمعت ، فقالوا للنجاشي : إنك قد فارقت ديننا . وخرجوا عليه ، فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهُيئاً لهم سفناً وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هُزمت فامضوا حتى تلاحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا .

ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ويشهد أن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلته ألقاها إلى مريم .

ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن ، وخرج إلى الحبشة وصُفوا له ، فقال : يا معشر الحبشة ألسن أحقّ الناس بكم ؟ قالوا بلى . قال : فكيف رأيتم سيرتي فيكم ؟ قالوا : خير سيرة . قال : فما بالسكم ؟ قالوا : قد فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبدٌ . قال : فما تقولون أنتم في عيسى ؟ قالوا : نقول هو ابن الله . فقال النجاشي ، ووضع يده على صدره على قبائه : هو يشهد أن عيسى بن مريم لم يردّ على هذا شيئاً . وإنما يعنى ما كتب .

فرضوا وانصرفوا .

فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما مات النجاشي صلى عليه
واستغفر له .

* * *

قال ابن إسحاق ، ولما قدم عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة على
قريش ، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وردّهما
النجاشي بما يكرهون ، وأسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان رجلاً
ذا شكيمة لا يُرام ما وراء ظهره ، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم وبجمزة حتى عازوا^(١) قريشاً .

وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلى عند السكبة
حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند السكبة وصلينا معه .

وقال ابن مسعود فى رواية الهسكائى^(٢) عن غير ابن إسحاق : إن إسلام
عمر كان فتحةً ، وإن هجرته كانت نهراً ، وإن إمارته كانت رحمةً ،
ولقد كنا وما^(٣) نصلى عند السكبة ، حتى أسلم عمر ، وذكر مثل ما تقدم نصاً
إلى آخره .

(١) عازوا قريشاً : غلبوهم .

(٢) هو : أبو محمد زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائى العامرى السكونى يروى عن ابن
إسحاق المغازى ومن الأعمش وغيرهما روى عنه أحمد بن حنبل وغيره ، وقال : كان صدوقاً ،
وكان القطان وابن المين يضعفانه توفى بالسكوفة سنة ١٨٣ .

(٣) ابن هشام : كنا ما .

ذكر الحديث عن إسلام عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

حدث عبد الله بن عامر عن أمه ، أم عبد الله بنت أبي حنثة قالت :

والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا ،
إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على ، وهو على شيركة ، قالت : وكنا نأتق
منه البلاء أذى لنا وشدة علينا ، فقال : إنه لكانطلاق يا أم عبد الله !

فقلت : نعم ، والله لنخرجن في أرض الله ، آذيتونا وقهرتمونا ، حتى يجعل
الله لنا مخرجاً ! فقال : صحبكم الله !

ورأيت له رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا .

قالت : فجاء عامر بحاجته تلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً
ورقته علينا !

قال : أطعمت في إسلامه ؟ قالت : نعم . قال : لا يُسلم الذي رأيت حتى
يُسلم حمزُ الخطاب ! !

قالت : ياساً منه لمّا كان يرى منه من غلظته وقسوته عن الإسلام .

قال ابن إسحاق : وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة^(١) .

(١) وذلك في السنة الخامسة للبعثة .

قال : وكان إسلامه فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت قد أسلمت ،
وأسلم زوجها سعيد بن زيد ، وهم مُسْتَخْفُونَ بِإِسْلَامِهِمْ مِنْ عَمْرِ ، وكان نعيم بن
عبد الله الدِّعَامُ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ قَدْ أَسْلَمَ^(١) ، وكان يستخفي بإسلامه فرّقاً من قومه ،
وكان خَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِ يُخْتَلَفُ إِلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ الْخَطَّابِ يُقْرَأُ فِيهَا الْقُرْآنَ .

نفرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورَهْطاً
من أصحابه ، قد ذُكِرُوا لَهُ أَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا فِي بَيْتِ عَبْدِ الصَّفَا ، قَرِيباً^(٢) مِنْ
أَرْبَعِينَ بَيْنَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ ، مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَةُ حَمْرَةٌ ،
وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَرِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

فقام نعيم فقال : أين تريد يا عمر ؟ قال : أريد محمداً هذا الصابي الذي
فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وهاب^(٣) دينها وسب آلهتها فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرّك نفسك من نفسك يا عمر ! أتري بني عبد مناف
تاركيك تمشي على الأرض ، وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك
فتقيم أمرهم .

قال : أي أهل بيتي ؟ قال : ختنتك^(٤) وابن عمك سعيد بن زيد وأختك
فاطمة ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

فرجع عمر عائداً إلى أخته وختنته ، وعندهما خَبَّابٌ مَعَهُ صَحِيفَةٌ فِيهَا « طه »

(١) ابن هشام : وكان نعيم بن عبيد الله النعمان زجل من قومه من بني عدى بن كعب
قد أسلم .

(٢) ابن هشام : وهم قريب من .

(٣) ط : وأعاب .

(٤) الحنف بحركة : الصهر وهو المتزوج إليه بنته أو أخته .

يُقرؤها إياها ، فلما سمعوا حَسَّ عمر تنقيب خَبَّاب في تخدع لهم ، أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجماها تحت يفتها ، وقد سمع عمر قراءة خَبَّاب ، فلما دخل قال : ما هذه الهيئمة^(١) التي سمعت ؟ قالا : ما سمعت شيئاً . قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه .

وبطش بختنه سعيد ، فقامت إليه أخته لتسكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم أسألهنك وآمننا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ا

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم وارعوى ، وقال لها : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عايبها . قال : لا تخافي ، وحلف لها بألته ليردنها إليها إذا قرأها .

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي ، إنك نجس على شيركك ، وإنه لا يمشيها إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها « طه » فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمته .

فلما سمع ذلك خَبَّاب خرج إليه فقال : يا عمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر .

فقال له عند ذلك : فدُلني يا خَبَّاب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خَبَّاب : هو في بيت عند الصفاً معه نفر من أصحابه .

(١) الهيئمة : الصوت الخن .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل منهم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف فرجع وهو فرح وهو فرح فقال : يا رسول الله ، هذا عمر ابن الخطاب متوشحاً بالسيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أئذن له فأذن له الرجل .

ونهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في الحجرة فأخذ بمحجزته^(١) أو بمجمع رداءه ثم جبهه جبهة شديدة .

وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة ا

فقال عمر : يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عنده^(٢) .

قال : فسكّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم .

فنفروا من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر ، مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيئدعان رسول الله صلى الله عليه وسلم وينتصفون بهم من عدوهم .

فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر .

* * *

(١) ابن هشام : فأخذ حجزته .

(٢) ابن هشام : جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله .

وقد روى غيرهم أن إسلام عمر فيما تحدّثوا به عنه أنه كان يقول : كنت للإسلام مُبَاْعِدَا وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة^(١) ، فخرجتُ ليلة أريد جلسائي أو أملك في مجلسهم ذلك فلم أجد فيه منهم أحداً ، فقلت : لو أني جئت فلاناً الخمار لعل أجد عنده خمرأ فأشرب منها ، فنجته فلم أجد .

فقلت : فلو أني جئت الكعبة فطقتُ بها سبعمائة أو سبعين^(٢) . فجئت أريد ذلك فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل بيده وبينها الكعبة ، فكان مُصَلِّاه بين الركبتين الركن الأسود والركن اليماني ، فقلت حين رأيته : والله لو أني استمعت لحمد الليلة حتى أستمع ما يقول .

فقلت : لئن دنوت منه لأروّعه ، فجئت من قبل الحجر ، فدخلت تحت ثيابها ، فجعلت أمشي رويداً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قمت في قبلته مُسْتَقْبِلُهُ ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة .

فلما سمعت القرآن رقي له قلبي أفكيتُ ودخاني الإسلام ، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حَسَيْن ، وكانت طريقته حتى يخرج^(٣) الْمَسْمَى ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب وبين دار ابن أُرْهَر .

فتبعته حتى إذا دخل بينهما أدركته ، فلما سمع حسبي عرفني ، فظن أني إنما اتبعته لأؤذيه فنهمني^(٤) ثم قال : ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة ؟ قلت : جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله .

(١) الحزورة : كانت سوق مكة وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه .

(٢) سبعين : يريد كثر الطواف حول الكعبة ، وهو سبع مرات في كل طوفة .

(٣) ابن هشام . حتى يجزعه . (٤) نهمة : زجره .

فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : قد هدك الله يا عمر . ثم مسح صدرى ودعالي بالثبات . ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته .

قال ابن إسحاق : فالله أعلم أى ذلك كان .

وذكر محمد بن عبد الله بن سنجبر الحافظ فى إسلام عمر رضى الله عنه زيادة لم يذكرها ابن إسحاق ، فروى بإسناد له إلى شريح بن عبيد قال : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد فقامت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أتعجب من تأليف القرآن ، فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ : « إنه أقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » قال : فقلت : كاهن علم ما فى نفسه فقرأ : « ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » إلى آخر السورة . قال : فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع .

* * *

قال ابن إسحاق : وحدثنى نافع عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر قال : أى قريش أنقل للحديث ؟ قيل له : جميل بن مئمر الجمحى . فغدا عليه وغدريت أتبع أثره أنظر ما يفعل ، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت ، حتى جاءه فقال له : أما علمت يا جميل أنى أسلمت ودخلت فى دين محمد ؟ ! .

فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه ، واتبعه عمر ، واتبعته أبى ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش - وهم فى أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ .

قال : يقول عمر من خلفه : كذبت واسكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وثاروا إاليه ، فما برح يقاتلهم .

ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم .

قال : وطلّح^(١) فقدد ، وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كذا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا .

فبيناهم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حَبْرَةٍ وقبض مَوْثِيٌّ حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر . قال : فمَهْ ، رجل اختار لنفسه أمراً فإذا تريدون ؟ أترون بني عدى بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم ! هكذا^(٢) عن الرجل . فوالله لكأنما كانوا ثوباً كُشِطَ عنه .

فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبت مَن الرجل الذي زجر القومَ عنك بمكة يومَ أسلمت وهم يقاتلونك ؟ جزاه الله خيراً . قال : أيُّ بني ، ذلك العاص بن وائل السهْمِيّ ، لا جزاه الله خيراً .

وهذا الدعاء عاينه وله مما زاده ابن هشام عن غير ابن إسحاق .

وعن بعض آل عمر قال : قال عمر : لما أسلمتُ تلك الليلة تذكّرت أي الناس^(٣) أشدَّ عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى آتته فأخبره أني قد أسلمت ، قال : قلت أبو جهل . وكان عمر لِحَنْتَمَةَ بنت هشام ابن المغيرة ، فأقبلتُ حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، فنخرج إلى فقال : مرحباً وأهلاً يا ابن أختي ، ما جاء بك ؟ قلت : جئتُك أخبرك أني قد آمنتم بالله وبرسوله محمد وصدّقت بما جاء به .

فضرب الباب في وجهي وقال : قبحك الله وقبح ما جئت به ا .

* * *

(١) طلّح : تعب .

(٢) ابن هشام : هكذا خلوا عن الرجل .

(٣) ابن هشام : : أي أهل مكة .

وفيا رواه يونس بن بكير عن ابن إسحق^(١) أن عمر رضى الله عنه قال حين أسلم :

الحمد لله ذى المنّ الذى وجبت له علينا أياها كُلمها عِبْرٌ
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا صِدْقُ الحديثِ نبيُّ عندهِ الخَيْرُ
وقد ظلمتُ ابنةَ الخطابِ ثم هدى رَبِّي عشيّةً قالوا قد صَبَا عمرُ
وقد ندمتُ على ما كان مِن زَلَلٍ بظلمها حين تُعَلَى عندها الشُّورُ
لَمَّا دَعَتْ رَبَّهَا ذَا العرشِ جاهِدَةً والدمعُ من عَيْنِهَا عَجَلَانُ يَبْتَدِرُ
أيقمتُ أنّ الذى تدعوه خالقها تَكَادُ تسبقني من عِبْرَةٍ دُرٌّ^(٢)
فقلتُ أشهد أنّ الله خالقنا وأنّ أحمدَ فينا اليومَ مُشْتَهَرُ
نبيُّ صِدْقٍ أنى بالحق من ثِقَةٍ وفى الأمانة ما فى عُوْدِهِ خَوَرٌ^(٣)

[كتابة الصحيفة]

قال ابن إسحق : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفتشوا في القبائل ، اجتمعوا واتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن لا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم .

فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة ثم تعاهدوا وتوائقوا على ذلك ، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

(١) لم يذكر ابن هشام هذه الرواية .

(٢) ط : من غيره وهو تعريف .

(٣) ط : وفى عوده حور بفتح العين وسكون الواو .

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شيعته [واجتمعوا إليه^(١)] وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش فظاھرم ، ولقي هندا بنت عتبة بن ربيعة حين طارقت قومه وظاھر عليهم قريشاً ، فقال لها : يا بنت عتبة ، هل نصرت اللات والمزى وفارقت من فارقتما وظاھر عليهما ؟ قالت : نعم ، فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة .

وقال أبو طالب فيما صنعت قريش من ذلك واجتمعوا عليه :

ألا أبذلنا عني على ذات بيننا لؤياً وخُصماً من لؤيِّ بني كعب
 ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كوسى خطاً في أول الكتائب
 وأن عليه في العباد محبة ولا خير^(٢) ممن خصه الله بالحجب
 وأن الذي لصتتم من كتابكم لكم كائن نحساً كراغية الشئب^(٣)
 أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحفر الأثرى ويصبح من لم يجن ذنبا كذى الذئب
 ولا تبتغوا أمر الوشاة وتقطعوا أوامرنا بعد المودة والقرب
 وتستجلبوا حرب عوانا وربما أمر على من ضاقه حلب الحرب^(٤)
 فلسنا ورب البيت نسلم أحداً لعزاء من عَض الزمان ولا كرب
 ولما تبين ما ومنكم سوائف وأيد أنزرت بالقساسة الشئب^(٥)

(١) من ابن هشام .

(٢) القياس هنا أن ينون ما بعد لا ، وإنما حذف التنوين مراعاة لأصل الكلمة لأن خيرا معناه أخير على وزن أفعَل وحذفت الهمزة تخفيفاً وأفعَل لا ينصرف . . انظر الروض الأوفى ٢٧١/١ .

(٣) قال السهيلي : يريد ولد الناقة التي عقرها قدار ، فرغا ولدها ، فصاح لرفغته كل شيء له صوت ، فهالكت ثمود عند ذلك ، فضربت العرب ذلك مثلاً في كل حالكة .

(٤) العوان : التي يتكرر فيها القتال ، وحلب الحرب : وبأهلها . ول ابن هشام : على من ذاقه جلب الحرب ؛

(٥) القساسة : السيوف ، نسبها إلى معدن حديد لبني أسد اسمه قساس الروض ٢٧١/١ .

مُجْمَعَتِكَ ضَنْكَ تَرَى كِسْرَ الْقَنَاءِ

به والنُّسُورَ الطُّخْمَ (١) يُمْكِنُ كَالشَّرْبِ

كَانَ مَجَالَ الْخَيْلِ فِي حَجْرَانِهِ وَمَعْمَعَةَ الْأَبْطَالِ مَعْرَكَةَ الْحَرْبِ
أَلَيْسَ أَبُوْنَا هَاشِمٌ شَدِيدٌ أَرْزَمٌ وَأَوْصَى بَنِيهِ بِالطَّعَانِ وَالضَّرْبِ
وَلَسْنَا نَمَلُّ الْحَرْبَ حَتَّى تَمَلَّنَا وَلَا نَتَشَكَّى مَا قَدِ يَنْوِبُ مِنَ الْفَكْبِ
وَالسُّكْنَى أَهْلُ الْخَفَائِظِ وَالنُّهَى إِذَا طَارَ أَرْوَاحُ السُّكَاةِ مِنَ الرُّغْبِ
فَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا حَتَّى جَاهِدُوا لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ إِلَّا سَرًا ،
مُسْتِخْفِيًا بِهِ مَنْ أَرَادَ صَلَاتَهُمْ مِنْ قَرِيشٍ .

وقد كان أبو جهل ، فيما يذكر ، لقي حكيم بن حزام معه غلام يحمل
قمحا يريد به عمته خديجة وهي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب
فتملق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ فقال له أبو البختري : طعام
كان لعمته عنده ، أفتمنعه إن كان (٢) يأنيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل .

فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البختري لحي بعير
فضربه ، فشجبه ووطنه وطأ شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك
وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيشتموا بهم .
ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً وسراً
وجهرًا ، مبادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس .

[إيذاء قريش للرسول]

فجملت قريش حين منعه الله منها وقام عمه وقومه من بني هاشم
وبني المطلب دونه وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ، يَهْمَزُونَهُ

(١) النُّسُورَ الطُّخْمَ : سود الرءوس . والشرب : الجماعة من القوم يشربون :

(٢) ابن هشام : أفتمنعه أن يأنيها .

ويستمزنون به ويخاصمونہ وجمل القرآن ينزل في قريش بأحاديثهم ، وفيمن نصب لعداوتہ منهم ، فمنهم من سُمِّي لنا ، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامه من ذكر الله من الكفار .

فكان من سُمِّي لنا من قريش من نزل فيه القرآن عمه أبو لهب وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية ، حمالة الحطب ، وإنما سماها الله عز وجل حمالة الحطب لأنها^(١) كانت فيما بلغني تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر .

وكان أبو لهب^(٢) يقول في بعض ما يقول : بَعْدِي مُحَمَّدٌ أَشْيَاءٌ لَا أَرَاهَا يَزْعُمُ أَنَّهَا كَأَنَّهٗ بَعْدَ الْمَوْتِ ، فإِذَا وَضَعَ فِي يَدِيَّ بَعْدَ ذَلِكَ ثُمَّ يَفْتِخُ فِي يَدِيهِ وَيَقُولُ : تَبَّأَ لِسَكَمَا مَا أَرَى فِيكَ شَيْئًا مِمَّا يَقُولُ مُحَمَّدًا

فأنزل الله عز وجل فيهما : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » .

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن أم جميل حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فهر^(٣) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة [ثم قالت^(٤)] :

(١) الأصل : أنها .

(٢) ذكر ابن إسحاق قول أبي لهب هذا عند ذكر امتناعه عن دخول الشعب مع

بني هاشم ، ولكن المؤلف رأى موضعه هنا ، وهو ترتيب حسن .

(٣) الفهر : الحجر الصغير قدر ما يملؤ الكف .

(٤) من ابن هشام .

مُذَمَّمًا عَصَيْنَا وَأَمْرَهُ أَبَيْنَا

وعن غير ابن إسحاق : وِدِينَهُ قَلِينَا .

ثم انصرفت . فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأيتك ؟ فقال :
ما رأيتني ، لقد أخذ الله ببصرها عني .

وكانت قريش إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مذمماً ثم يسبونه ،
فكان عليه السلام يقول : ألا تمجبون ليماً صرّف الله عني من أذى
قريش ! يسبون ويتهجون مذمماً وأنا محمد !

* * *

وأمية بن خلف الجُمَحِي ، كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم
همزه ولمزه ، فأنزل الله فيه : « وَيَلُّ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لَمَزَةٍ » إلى آخر السورة .
والعاصم بن وائل السَّهْمِي ، كان خباب بن الأرت ، قد باع منه سيوفاً
عملها له وكان قيننا بمكة فجاءه يتقاضاه ، فقال له : يا خباب ، أليس يزعم محمد
صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة
أو ثياب أو خدم ؟ قال : بلى . قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب
حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقتك ، فوالله لا تكون أنت
وأصحابك يا خباب آثرَ عند الله منى ولا أعظم حظاً في ذلك !
فأنزل الله في ذلك : « أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأؤتينا مالاً وولداً ،
أطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلَّا سَتَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ
مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ، وَتَرَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا^(١) » .

ولقي أبو جهل ابن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى ، فقال له :
ويحك يا محمد ! لتتركنَّ سبَّ آلهتنا أو لنسبِنَّ إلهك الذي بعثك .

فأنزل الله تعالى : « ولا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ^(١) » .
 فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كَفَّ عن سبِّ آلهتهم وجعل يدعوهم إلى الله .

والنضر بن الحارث بن كلدة ^(٢) ، من شياطين قريش ممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قديم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، فكان إذا جاس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله ودعا فيه إلى الله وحذر قومه ما أصاب الأمم الخالية من نعمة الله ، خلقه في مجلسه إذا قام ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهل فأننا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدِّثهم عن رستم الشيد ^(٣) واسبنديار ^(٤) وملوك فارس ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟ والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين اكتبها كما اكتبتها .

فأنزل الله عز وجل فيه : « وقالوا : أساطيرُ الأولين اكتبها فهي تُمَلَّى عليه بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ^(٥) » وكل ما ذكر فيه الأساطير من القرآن ^(٦) .
 وأنزل أيضاً فيه : « وَبَلِّغْ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَفْكَائِهِمْ ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُمَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ^(٧) » .

(١) سورة الأنعام ١٠٨ .

(٢) ابن هشام : بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي .

(٣) ابن هشام كما في شرح السيرة لأبي ذر : رستم السنديد .

(٤) ابن هشام : اسبنديار .

(٥) سورة الفرقان ٥ ، ٦ .

(٦) أي نزل فيه كل الآيات التي ذكر فيها أمر الأساطير .

(٧) سورة الجاثية ٧ ، ٨ .

وهو القائل : سأ نزل مثل ما أنزل الله ا فيما ذكر ابن هشام .
قال ابن إسحق : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى يوماً
مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث فجلس معهم في المجلس ،
وفيه غير واحد من رجال قريش .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر ، فكلمه رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى أفجحه ، ثم تلا عليه وعليهم : « إنكم وما تعبدون
من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها
وأكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ^(١) » .

ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي
حتى جلس ، فقال له الوليد : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب
أنفا وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم .

فقال ابن الزبير : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسأوا محمدا : أكل
ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود
تعبد عزيراً والنصارى تعبد عيسى بن مريم .

فمجب الوليد ومن كان معه من قول ابن الزبير ، ورأوا أنه
قد احتج وخاصم .

فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : من أحب أن يعبد
من دون الله فهو مع من عبده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته .
فأنزل الله عليه : « إن الذين سبقتم لما الحسنى أولئك عنها مبعدون ،
لا يسمعون حسيها وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون ^(٢) » أي عيسى وعزيراً
ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله ، فاتخذهم
من يعبدون من أهل الضلالة أرباباً من دون الله .

(١) سورة الأنبياء ٩٨ - ١٠٠ . (٢) سورة الأنبياء ١٠١ .

ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ، بل عبادة مُسكِّرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » إلى قوله : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِيَّاهُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كذلك نجزي الظالمين » .

وأنزل فيما ذكر من أمر عيسى أنه يُعبد من دون الله وَهَجَبِ الوايِدِ وَمَنْ حضر من حجته وخصومته : « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » ثم قال : « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخَلُفُونَ ، وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ^(١) » . أى ما وضعت على يديه من إحياء الموتى وإبراء الأَسْقَامِ فكفى به دليلا على عِلْمِ السَّاعَةِ . يقول : « فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » .

والأخنس بن شريق الثقفي حليف بنى زهرة ، وكان من أشرف القوم ومن يُستمع منه ، فكان يصيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويردُّ عليه ، فأنزل الله تعالى فيه : « وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَاءُ بِنَمِيمٍ ^(٢) » إلى قوله « زَنِيمٌ » .

ولم يقل « زَنِيمٌ » لعيب في نسبه ، لأن الله ^(٣) لا يعيب أحداً بنسبه ولا كنه حَقَّقَ بذلك نعمته ليُعرف ، والزَئِمُ العديد للقوم ^(٤) . قال الخطيم ^(٥) [التميمي] ^(٦) في الجاهلية :

زَئِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً
كَمَا زِيدَ فِي عَرَضِ الْأَدِيمِ الْأَكَارِعِ ^(٧)

(١) سورة الزخرف ٥٧-٦١ . (٢) سورة ن ١٠-١٣ . (٣) الأصل : إن الله .
(٤) أى الدعى فيهم . (٥) قال السهيلي : الأعراف أنه لسان .
(٦) من ابن هشام . (٧) الأكارع : الأطراف .

والوليد بن المغيرة ، قال : أُيُنزَلُ على محمد وأُتْرَكُ وأنا كبير قريش وسيدها ، ويُتْرَكُ أبو مسعود وعمرو بن عُمر بن النخعي سيد ثقيف ونحن عظيم قريش^(١) .

فأنزل الله فيه ، فيما بلغني : « وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيمٍ ؟ أهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ أَمْ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ^(٢) » .

وأبُو بن خلف الجُمَحِي وعُقْبَةُ بن أَبِي مُعَيْطٍ ، وكنا مُتَصَافِيَيْنِ حَسَمًا ما بينهما ، فكان عقبة بن أبي معيط قد جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، فبلغ ذلك أبيًّا فأتى عقبة فقال : ألم يبلغني أنك جالستَ محمدًا وسمعت منه ؟ ثم قال : وجهي من وجهك حرام أن أكلمك ، واستغلظت من اليمين ، إن كنت جلستَ إليه أو سمعت منه ، أو لم تأنه فتتفل في وجهه . ففعل ذلك عدوُّ الله عقبة ، فأنزل الله فيه : « وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ، يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَايِلًا ، لَئِن دَأْبُ اللَّهِ لَشَدِيدٌ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا^(٣) » .

ومشى أبي بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم بالٍ قد ارفقت فقال : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرى^(٤) ؟ ثم فته بيده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تسكونان هكذا ، ثم يدخلك النار .

(١) ابن هشام : عظيم القريتين

(٢) سورة الزخرف ٢٠ - ٢٢ .

(٣) سورة الفرقان ٢٧ - ٢٩ .

(٤) ابن هشام : بعد ما أرى .

فأنزل الله فيه : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ
وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ،
الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ^(١) »

واعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما باغى الأسود بن المطالب
والوليد بن المغيرة وأميرة بن خلف والعاص بن وائل وكانوا ذوى أسنان في
قومهم ، فقالوا : يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما تعبده فنشترك نحن وأنت
في الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كذا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن
كان ما نعبد خيراً مما تعبد كمت قد أخذت بحظك منه ا

فأنزل الله فيهم : « قُلْ : يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ،
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ،
لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » .

أى إن كنتم لا تعبدون الله ^(٢) إلا أن أعبد ما تعبدون فلا حاجة لى
بذلك منكم ، لكم دينكم ولى دين .

وأبو جهل بن هشام ، لما ذكر الله شجرة الزقوم مخوفين بها لهم ، قال
يا معشر قريش : هل تدرن ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا .
قال : عَجْوَةٌ يَثْرَبَ بِالزُّبْدِ وَاللَّهُ لئن اسْتَمَكْنَا مِنْهَا لَنَنْزِقَنَّهَا نَزْقًا
فأنزل الله فيه : « إِنَّ شَجْرَةَ الزُّقْمِ طَعَامُ الْأَيْمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي
الْبَطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ ^(٣) »

(١) سورة يس ٧٨ - ٨٠ .

(٢) ابن هشام : لا تعبدون إلا الله . وما هنا أسح .

(٣) سورة الجاثية ٤٣ - ٤٦ .

وأُنزل الله فيه : « والشجرة المأمونة في القرآن ونحو فهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً^(١) »

ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله يكلمه وقد طمع في إسلامه ، فبينما هو في ذلك إذ مرَّ به ابنُ أم مكتوم الأعمى ، فكلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وجعل يستقرئه القرآن ، فشقَّ ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضجره ، وذلك أنه شغلَه عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكثَر عليه انصرف عنه عابساً وتركه ، فأُنزل الله فيه : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنْ اسْتَفْنَى فَآنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَآنْتَ عَنْهُ تَلَمْهَى ، كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ فِي مُحْفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ^(٢) » .

أى : إنما بعثتك بشيراً ونذيراً لم أخصَّ بك أحداً دون أحد ، فلا تمنعه ممن ابتغاه ولا تتصدَّ^(٣) به لمن لا يريد .

[رجوع المهاجرين من الحبشة]

قال ابن إسحاق : وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلاماً أهل مكة فأقبلوا لئلا بلغهم ذلك^(٤) ، حتى إذا ذنوا من مكة بلغهم أن ذلك كان باطلاً ، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوارٍ أو مستخفياً .

وذكر موسى بن عقبة أن رجوع هؤلاء الذين رجعوا كان قبل خروج جعفر وأصحابه إلى أرض الحبشة ، وأنهم الذين خرجوا أولاً قبله ثم رجعوا حين أنزل الله سورة النجم .

(١) سورة الإسراء ٦٠ .
(٢) سورة عبس .
(٣) ابن هشام : ولا تتصددين .
(٤) ابن هشام : لما بلغهم في ذلك .

قال : وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ، ولكنه لا يذكر من خالفه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر به آلهتنا من الشتم والشر .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذام وتكذيبهم وأحزنته ضلالتهم وكان يتمنى هدام ، فلما أنزل الله تعالى سورة « والنجم » قال : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ألقى الشيطان عندها على لسانه كلمات حين ذكر الطواغيت فقال : وإنهن لمن الغرانيق العلى وإن شفاعتن لمى التى تُرتجى .

وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقمت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذات بها أسنتهم وتباشروا بها وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين ابائه . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر « والنجم » سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك ، غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً ، فرفع ملء كفه تراباً فسجد عليه .

فمجب الفريقان كلاهما من اجتماعهم في السجود لسجود رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأما المسلمون فمجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ، ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان على أسنة المشركين .

وأما المشركون فاطمأنت نفوسهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما ألقى الشيطان في أمنية النبي صلى الله عليه وسلم فسجدوا لتعظيم آلهتهم .

وفشت تلك الكلمة في الداس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين ، عثمان بن مظعون وأصحابه ، وحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود

«الوليد بن المغيرة على التراب على كفيه ، وحدثوا أن المسلمين قد أمدوا بمكة .
فأقبلوا سراً وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته ، وقال عز من
قائل : « وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته
فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » ، ليجعل ما يلقي
الشيطان فيمنه للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين انى شقاق
بعيد ، وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ،
وإن الله لهاذى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم .»

فلهذا بين الله قضاءه فبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلاتهم
وعداوتهم للمسلمين فاشتدوا عليهم^(١)

فلهذا الذى ذكره ابن علقمة لم يستطع أحد ممن رجع من أرض الحبشة
أن يدخل مكة إلا بجوارٍ أو مستخفياً ، كما ذكر ابن إسحق .

(١) قصة الفرائيق تلك التى أوردتها المؤلف - رحمه الله - موضوعة ظاهرة الاختلاق
ويمكن أن تنقد بمجرد العقل وبدعيات علم النبوة .

فأولاً : كيف يلقى الشيطان على لسان رسول معصوم كلمات مناقضة لرسائله بل هى
ارتداد عنها ، وإذا كان مؤرخو السيرة ومنهم الكلاعى يذكرون حادثة شق الصدر وأنها
كانت لتطهير النبي من حظ الشيطان ، فكيف يعرفون ، بإمكان تسلط الشيطان على عقل
الرسول ولسانه .

ثم كيف لا يتنبه المشركون لما بعد مدح آلهتهم من ذم وهجوم فى قوله : « إن هى
إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » وقوله : « إن يتبعون
إلا الظن وما تهوى الأفس » ولما ورد بعد من نفي الشفاعة عن الأصنام نفياً قاطعاً فى قوله :
« وكم من ملك فى السموات والأرض لا تنفى شفاعتهم شيئاً » وكيف تسحروهم كلمتان ثم
لا توقظهم آيات طوال تمنى على آلهتهم وتوجههم إلى التوحيد والإيمان .

وقد يكون مقولاً أن يسجد المشركون عند ذكر آلهتهم بالمدح ولكن كيف يسجدون
عند نهاية السورة عند قوله : « فاسجدوا لله واعبدوا » مع أنهم كانوا يرفضون السجود لله
« وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » =

قال : فكان جميع من قدم مكة منهم ثلاثة وثلاثين رجلاً ، دخل منهم بجوار ، فيمين سمى لنا : عثمان بن مظعون الجعفي ، دخل بجوار من الوليد بن المغيرة ، وأبو سلمة بن عبد الأسد بجوار خاله أبي طالب .

فأما عثمان فإنه لما رأى ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء ، وهو ينفذ ويروح في أمان الوليد ، قال : والله إن غدوي ورواحي آتيا بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لضعف كبير في نفسي

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس وفت ذمتك وقد رددت إليك جوارك . قال : ليم يا بن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي ؟ قال : لا وليكني أرضي بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره . قال : فانطلق إلى المسجد فرد علي جوارى علانية كما أجزتكم علانية .

== كذلك كيف يسمع المشركون ما ألقى الشيطان على لسان الرسول ولا يسمع المؤمنون ؟ ! إن كان كذلك فالشيطان هو الذي تكلم ، مما يدخلنا في عالم الأوهام والخرافات ثم إن الاعتماد على آية : « وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » خطأ بالغ فليست الآية تحتمل هذه الرواية ولا تصاح تفسيراً لها أو حديثاً عنها . ثم كيف لا يرتد أحد من المسلمين أو يزلزل حين يعلم أن رسوله قد مدح الأصنام وجعل لها شفاعاً ! !

وغفر الله لعلماثنا الأولين ، فلقد كانوا يخرجون أنفسهم بهذه الرويات ويجهلون لها في اعتناقهم حقاً ، هو حق الذكر ، ولو كانت خرافة أو أسطورة من أخبار الأوائل لما اهتمت لها ، لكننا فرية ضد الإسلام ومكر برسوله عليه السلام .

وقال السهيلي :

« وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة ومن صححه قال فيه أقوالاً ، منها : أن الشيطان قال ذلك وأذاعه والرسول عليه السلام لم ينطق به .

وهذا جيد لولا أن في حديثهم أن جبريل قال لمحمد : ما أتيتك بهذا .

ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها من قبل نفسه وعن بها الملائكة أن شفاعتهن

==

لترجي .

نخرجا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان جاء يردُّ عليَّ جوارى .
قال : صدق ، قد وجدته وفيما كريم الجوار ، ولكنني أحببت أن لا أستجير
بغير الله .

ثم انصرف عثمان ، ولبيد بن ربيعة في مجلس ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ،
فقال لبيد :

* ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلٌ *

قال عثمان : صدقت . قال

وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ

قال عثمان : كذبت ، نعيمُ الجنة لا يزول !

قال لبيد : يا معشر قريش ، والله ما كان يؤذني جليصكم فتى حدّث
هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن هذا سفهه في سفهاء معه فارقوا دينه
فلا تجدن في نفسك منه^(١) .

== ومنها أن النبي عليه الصلاة والسلام قالها حاكياً عن الكفار وأنهم يقولون ذلك ،
فقالها متمجباً من كفرهم .

والحديث على ما خيلت غير مقطوع بصحته »

وقال القاضي عبد الجبار في كتابه « تنزيه القرآن عن المطاعن » ٢٤٣ :
« فإن قيل : فما المراد بقوله : « إلا إذا تمى ألقى الشيطان في أمنيه » وكيف يصح
ذلك على الأنبياء ؟ وجوابنا أن المراد إذا تلا القرآن يلحقه السهو في قراءته وذلك معروف
في اللغة ، فلذلك قال بعده « فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته » ولو كان المراد
غير ما ذكرناه من التلاوة لم يصح ذلك .

فأما ما يرويه الحشوية من أنه صلى الله عليه وسلم ذكر في قراءته أسنامهم وقال إن
الغرائق العلاشفاعتن ترتجى ، حتى فرح الكفار ، فلا أصل له ، ومثل ذلك لا يكون
إلا من دسائس الملحدة » .

(١) سيرة ابن هشام : من قوله .

فردّ عليه عثمان حتى شَرى أمرها ، فقام إليه ذلك الرجل فلعطم عيده
فخَضَرها (١) والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال : أمّا والله
يا بن أخي إن كانت عيذك عمّا أصابها لغنيّة ، لقد كنت في ذمة مديعة .
قال : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله :
ولماني لفي جوار مَنْ هو أعزُّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس .
فقال له الوليد : هلم يا بن أخي إن شئت إلى جوارك ؟
فقال : لا .

وأما أبو سلمة بن عبد الأسد ، فإنه لما استجار بأبي طالب مشى إليه
رجال بني مخزوم فقالوا : يا أبا طالب هذا منعتَ منا ابن أخيك محمداً ، فما لك
ولصاحبنا تمنعه منا ؟ فقال : إنه استجار بي وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمدح ابن
أختي لم أمدح ابن أخي . فقام أبو لهب فقال : يا معشر قريش والله لقد
أكثرتم على هذا الشيخ ما تزلون تؤثّبون عليه في جواره من بين قومه ، والله
لنفتننَّ عنه أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .
فقالوا : بل ننصرف عما تسكره يا أبا عتبة . وكان لهم ولياً وناصرأ على
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبَقُوا على ذلك .

فطمع فيه أبو طالب حين سمعه يقول ما قال ، ورجا أن يقوم معه في شأن
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يجرّضه على ذلك :

وإن امرءاً أبو عتيبة عمه لفي روضةٍ ما إن يسام المظالمياً
أقول له وابن منه نصيحتي أبا مُعتبٍ ثبّت سوادك قائماً
ولا تقبلنَّ الدهرَ ما عشتَ خطّةً تُسبُّ بها إمّا هبطت المواصماً
وولَّ سبيلَ المعجزِ غيرك منهمُ فإنك لم تُخلق على المعجز لازماً

(١) خضرها : ورمها .

وحارب فإن الحرب نصف وإن تری

أخا الحرب بعضی الخسف حتی يسألما
وكيف ولم یجنوا عليك عظيمة ولم یخذلوك غائما أو مغارما
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا وتينا ومخزوما عقوقا ومأتما
بتفريقهم من بعد ودّ وألفة جماعتنا كئیما یبألوا المحارما
كذبتم وبيت الله نبری (١) محمدا ولما تروا يوما لدى الشعب قائما

[ابن الدغنة یحیر أبا بكر]

وكان أبو بكر رضی الله عنه ، كما حدثت عائشة رضی الله عنها ، حين ضاقت
عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تظأهر قريش على رسول الله
صلی الله عليه وسلم وأصحابه ما رأى ، قد استأذن رسول الله صلی الله عليه وسلم
في الهجرة فأذن له ، فخرج مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين لقيه
ابن الدغنة ، أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وهو يومئذ سيد
الأحابيش (٢) فقال : أين يا أبا بكر ؟

قال : أخرجني قومي وآذوني وضيقوا علي . قال : ليم ؟ فوالله إنك
لترين العشرة وتعين على الفوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم ، فارجم
فأنت في جوارى .

فرجم معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش :
إني قد أجزت ابن أبي قحافة فلا يعرضن له أحد إلا یخیر .

(١) نبری : سلب

(٢) الأحابيش : بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والمون بن خزيمه بن مدركة ،
وبنو المصطلق من خزاعة ، سمو الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة .

قالت : فكفُّوا عنه . وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جُحَح
فكان يصلي فيه ، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكي ، فيقف عليه
الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته^(١) .

فشى رجال من قريش إلى ابن الدُّغْنَةِ فقالوا له : إنك لم تُجِرْ هذا
ليؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمدٌ يرقُّ وكانت له هيئةٌ ونحوٌ ،
فدخن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضَعَفْنَا أن يفتمهم ، فائتته فائمه أن يدخل
بيته فليصنع فيه ما شاء .

فشى ابن الدُّغْنَةِ فقال : يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذي قومك ، إنهم
قد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه
ما أحببت .

قال : أو أردُّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟

قال : فاردد عليَّ جوارى . قال : قد رددته عليك .

فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد ردَّ عليَّ
جوارى فشأنكم بصاحبكم .

وعن القاسم بن محمد أن أبا بكر لقيه سقيه من سفهاء قريش وهو عامدٌ
إلى السكبية ، فحذا على رأسه التراب ، فرَّ الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل
فقال أبو بكر : ألا ترى ما يصنع هذا السقيه ؟ قال : أنت فعلت هذا بنفسك
وهو يقول : أي ربُّ ما أحلَّك أي رب ما أحلَّك !

[نقض الصحيفة]

قال ابن إسحق : ثم إنه قام في نقض الصحيفة التي تسكاتبت فيها قريش

(١) ط : هيئته .

على بنى هاشم وبنى المطلب نفرًا من قريش ، ولم يُبَلِّ أحدٌ فيها أحسنَ من
بلاء هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حسل ، وذلك
أنه كان ابنَ أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، فكان هشام
لبنى هاشم واصلاً ، وكان ذا شرف في قومه ، فكان فيما بلغنى يأتى ليلاً
بالبعير قد أوقره طعاماً ، حتى إذا أقبله في فم الشعب^(١) خلع خيطامه من رأسه
ثم ضرب على جنبه ليدخل^(٢) الشعب عليهم ، ويأتى^(٣) به قد أوقره برءاً^(٤)
فيفعل به مثل ذلك .

ثم إنه مشى إلى زهير بن أمية بن المغيرة ، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب ،
فقال : يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتكبح النساء ،
وأخوالك حيث قد علمت لا يُباعون ولا يُبتاع منهم ولا يتكحون
ولا يُتكح إليهم ، أما إنى أحلف بالله ، أن لو كانوا أخوالَ أبى الحكم
ابن هشام ثم دعوتَه إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً .

فقال : ويحك يا هشام ، فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجلٌ واحد . والله لو كان
معى رجل آخر لقمْتُ في نقضها حتى أنقضها . قال : قد وجدت رجلاً .
قال : من هو^(٥) ؟ قال أنا . قال له زهير : أبغتنا ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له : يا مطعم أرضيت أن يهلك بطنان
من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ، أما والله لئن
أمكنتموهم من هذه لتجدتهم إليها منكم سريعا . قال : ويحك فماذا أصنع ؟

(١) ابن هشام : أقبل به فم شعب .

(٢) ابن هشام : فيدخل .

(٣) ابن هشام : ثم يأتى .

(٤) وتروى : بز بالزاي المعجمة .

(٥) ابن هشام : فن هو .

إنما أنا رجل واحد . قال : قد وجدتَ ثانياً . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال :
أبغنا ثالثاً . قال : قد فعلتُ . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية . قال :
أبغنا رابعاً .

فذهب إلى أبي البَيْهَتَرِيِّ بن هشام ، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن
عدى . فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال نعم . قال : من هو ؟ قال :
زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدى وأنا معك . قال : أبغنا خامساً .

فذهب إلى زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه وذكر له
قرابتهم ومكانهم^(١) . فقال : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من
أحد ؟ قال : نعم . ثم سئى له القوم .

فَاتَعَدُّوا خَطَمَ الْحَجَّوْنَ^(٢) ليلاً بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك فأجمعوا
أمرهم وتماهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها . وقال زهير : أنا
أبدؤكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير عاياه حُلة ، فطاف بالبيت
سبعاً ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنا كل الطعام ونلبس الثياب
وبنو هاشم هُنْدَكِي لا يباعون ولا يبتاع منهم ا والله لا أقعد حتى تُشَقَّ
هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل ، وكان فى ناحية المسجد : كذبتَ والله لا تُشَقُّ .

قال زَمْعَةُ بن الأسود : أنت والله أ كذب ، ما رضينا كتابتها حين
كُتبت . قال أبو البَيْهَتَرِيِّ : صدق زَمْعَةُ ، لا نرضى ما كتب فيها

(١) ابن هشام : وحقهم .
(٢) خطم الحججون : مقدمه .

ولا نقره به . قال المُطعم بن عدى : صدقما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها . [و] قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك . فقال أبو جهل : هذا أمرٌ قُضى بليل تشوُّور فيه بغير هذا المكان . وأبو طالب جالس في ناحية المسجد ، وقام المُطعم إلى الصحيفة بشتمها فوجد الأَرْضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم . وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة ، فشأت يده فيما يزعمون .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب : يا عم إن الله قد سلط الأَرْضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسماً هو الله إلا أثبتته فيها ونفت منها القطيعة والظلم والبهتان . قال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم . قال فوالله ما يدخل عليك أحدٌ . ثم خرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني كذا وكذا ، فهلم صحيفتكم فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا ، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخي . قال القوم : رضيينا . فتماقدوا على ذلك ، ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فزادهم ذلك شراً فعند ذلك صنع الرهط في نقض الصحيفة ما صنعوا .

قال ابن إسحق : فلما مُزقت الصحيفة وبطل ما فيها قال أبو طالب فيما كان من أمر أولئك الذين قاموا في نقضها يمدحهم :
ألا هل أتى بحرٍ بنا صنع ربنا على نأيهم والله بالناس أروء^(١)
فمن خبرهم أن الصحيفة مُزقت وأن كل ما لم يرضه الله مُفسدٌ

(١) يريد بالبحر هنا من هاجر إلى الحبشة من المسلمين . وأروء : أرفق .

تراوحها إفكٌ وسحرٌ مجمع ولم يُلفَ سحراً آخر الدهر يصمدُ
جزى الله رهطاً بالخبجون تقابعوا على ملائ يَهْدِي الحزيم ويُرشدُ^(١)
قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم مَقَاوِلَةٌ بل هم أعزُّ وأجمدُ
أعان عليها كلُّ صقرٍ كأنه إذا ما مشى في رفرِفِ الدرعِ أحرَدُ^(٢)
جَرِيٌّ على جُلِّ الخطوب كأنه شهابٌ بكفِّي قابسٍ يتوقدُ
من الأكرمين من لؤيِّ بن غالب إذا سيمَ خَسَفًا وجهه يترَبدُ
طويلُ الدجاد خارجٌ نصف ساقه على وجهه نُسَقَى الغمام وتَسعدُ
عظيمُ الرماد سيدٌ وابن سيدٍ يحضُّ على مَقَرِي الضيوف ويَحشدُ
ويبنى لأبناء المشيرة صالحاً إذا نحن طَفْنَا في البلاد ويمهدُ
أَلظُّ^(٣) بهذا الصلح كلُّ مُبرأٍ عظيمُ اللواء أمره تمَّ يُحمدُ
قَضَوْا ما قَضَوْا في ليلهم ثم أصبحوا
على مَهَلٍ وسائر الناس رُقِدَ
همُ رجِعوا سهلَ بن بيضاء^(٤) راضياً
وسُرَّ أبو بكر بها ومحمدٌ
متى شُرِّك الأتوامُ في جُلِّ أمرنا وكنا قديماً قبلها نَتوددُ
وكنا قديم لا نُقرُّ ظلاماً وندرِك ما شئنا ولا نَشددُ

(١) أسقط المؤلف من القصيدة أبيتاً ذكرها ابن هشام . انظر ابن هشام ٢ / ١٨ .
(٢) رفرِفِ الدرع : ما فضل منه . وأحرد بطنى المشى من نقل الدرع .
(٣) أَلظُّ : أقام ولزم .
(٤) هو سهل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن ضبة بن الحارث بن فهر والبيضاء أمه .

فيا كقصى هل لكم في نفوسكم وهل لكم فيما يجيء به غد
فاني وإياكم كما قال قائل لَدَيْكَ الْبَيَانُ لَوْ تَكَلَّمْتَ أُسْوَدُ

أُسْوَدُ هنا اسم جبل كان قُتِلَ فيه قتيل لم يعرف قاتله ، فقال أولياء المقتول
هذه المقالة ، يعنون بها أن الجبل لو تكلم لأبان عن القاتل ولعرف بالجاني ،
واسكنه لا يتكلم ، فذهبت مقالته تلك مثلاً .

[حديث الطفيل بن عمرو الدوسي]

قال ابن إسحاق : فكان^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يرى من
قومه يبذل لهم النصيحة ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه ، وجعلت قريش حين
منعه الله منهم يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

فكان طفيل بن عمرو الدوسي [وكان رجلاً شاعراً لبيداً]^(٢)
يحدث أنه قديم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، فشى إليه رجال
من قريش فقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين
أظفرنا قد أعضل بنا ، فرق جماعتنا وشئت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق
[به]^(٣) بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين
زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه
ولا نسمع منه^(٤) .

قال : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكله ،

-
- (١) ابن هشام : وكان
(٢) ابن هشام : وكان الطفيل .
(٣) ليست في ابن هشام .
(٤) ابن هشام : ولا يستمع منه شيئاً .

حتى حشوتُ في أذنيَّ حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفًا^(١) فَرَفًا من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمع .

قال : فغدرت إلى المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة ، فقامت قريباً منه ، فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي : وائسكل أمي أو الله إنى لرجل لبيب شاعر وما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنني أن أسمع من هذا الرجل [ما يقول]^(٢) ، فإن كان الذي يأتي به حسناً قَبِلْتَهُ ، وإن كان قبيحاً تركته .

فكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت : يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا [للذي قالوا]^(٣) ، فوالله ما برحوا يخوفوني أمرك حتى سددتُ أذنيَّ بكرسُفٍ لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني [قولك]^(٣) فسمعت قولاً حسناً ، فاعرض عليَّ أمرك .

فعرض عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام وتلا عليَّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبي الله إنى امرؤ مطاع في قومي وإنى راجع إليهم وداعيتهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لي آيةً تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوم إليهم . فقال اللهم اجعل له آية .

فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت على ثنية^(٤) نُظِلَّني على الحاضر

(١) الكرسف : القطن .

(٢) من ابن هشام .

(٣) من ابن هشام .

(٤) ابن هشام : بنية . والثنية : الفرجة بين الجبلين .

وقع نور بين عينيّ مثلُ المصباح . قلت : اللهم في غير وجهي ، إني أخشى أن يظنوا أنها مُثَلَّة وقعت في وجهي لفراق دينهم . قال : فتحوّل فوق في رأس سَوطِي ، فجعل أهل الحاضر يتراءون ذلك النورَ في سوطي كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جئتهم .

فلما نزلتُ أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً ، فقلت : إليك عنى يا أبت فلستُ منك ولستَ مني . قال : لِمَ يا بني ؟ قلت : أسلمتُ وتابعت دينَ محمد . قال : أي بني فديني دينك . فقلت : فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ، ثم تعال حتى أعلمك ما علمت . فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ، ثم جاء فعرضتُ عليه الإسلام فأسلم

ثم أتتني صاحبتني فقلت لها : إليك عنى فلستُ منك ولستَ مني . قالت : لِمَ بأبي أنت وأمي ؟ قلت : فرّق بيني وبينك الإسلام وتابعت دينَ محمد . قالت : فديني دينك . قلت : فاذهبي إلى حِنَا ذِي الشَّرِي . - قال ابن هشام : ويقال حمى ذِي الشَّرِي - فتطهرى منه ، وكان ذو الشري صنماً لدوس والحنا^(١) حمى حموه له ، به وشل^(٢) من ماء يهبط من جبل . فقالت : بأبي أنت وأمي ، أنخشي على الصبية من ذِي الشري شيئاً ؟ قلت : لا أنا ضامن لذلك . فذهبتُ فاغتسلتُ ثم عادت فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمت .

ثم دعوتُ دَوْسًا إلى الإسلام فأبأوا ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقلت : يا نبي الله إنه غلبني على دوس الزُّنَا فادع الله عليهم . فقال : اللهم اهدِ دَوْسًا ، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

(١) ابن هشام : والحمى .

(٢) الرشل : القليل .

فلم أزل بأرض دوس أدعوم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق ، ثم قدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معي من قومي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، ثم لحقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر فأستهم لنا مع المسلمين .

ثم لم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا فتح الله عليه مكة قلت : يا رسول الله ابعتني إلى ذى الكفّين صنم عمرو بن حنمة حتى أحرقه .

قال ابن إسحاق : نخرج إليه فحمل وهو يوقد عليه النار يقول :

يا ذا الكفّين^(١) لست من عبادِكَ

ميلادنا أقدم من ميلادِكَ

أنا^(٢) حشوت النار في فؤادِكَ

ثم رجع ، فكان بالمدينة حتى قبض الله رسوله ، فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين فسار معهم حتى فرغوا من طليحة ومن أرض نجد كلها ، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن طفيل فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة فقال لأصحابه : إني قد رأيت رؤيا فاعبروها لي . رأيت أن رأسي حلق ، وأنه خرج من في طائر ، وأنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها وأرى ابني يطلبني طلباً حثيثاً ثم [رأيت]^(٣) حبس عني .

قالوا : خيراً . قال : أمّا أنا فقد أولّيتها . قالوا : ماذا ؟ قال : أمّا حلق

رأسي فوضّعه ، وأمّا الطائر الذي خرج من في فروحي ، وأمّا المرأة التي

(١) الكفّين : أصله بالتشديد تخفف للضرورة .

(٢) ابن هشام : إني .

(٣) من ابن هشام .

أدخلتني في فرجها فالأرض تُخْفَر لي فأغيب فيها ، وأما طلبُ ابني إياي
ثم حَبَسُهُ عني فأني أراه سَيَجْهَدُ أن يصيبه ما أصابني .

فقتل رحمه الله شهيداً باليامة ، وجرح ابنه جراحة شديدة ثم استقل^(١)
منها ثم قتل عام اليرموك في زمن عمر شهيداً .

[أعشى قيس]

وذكر ابن هشام أن أعشى بن قيس بن ثعلبة خرج إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام ، وقال قصيدة يمدحه فيها ، نذكرها بعد .
فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله
عن أمره ، فأخبره أنه جاء يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُسلم .
فقال له : يا أبا بصير إنه يجرم الزنا . فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر مالى
فيه من أرب . فقال : يا أبا بصير : فإنه يجرم الخمر . فقال : أما هذه
فو الله إن في النفس منها كغلاآت ، ولكني منصرف فأترؤى منها طامى
هذا ثم آتية فأسلم .

فانصرف فمات في عامه ذلك ولم يعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
هذا ما ذكر ابن هشام في قصة الأعشى ، وظاهره يقتضى أن قصده كان
إلى مكة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها حينئذ لم يهاجر بعد .

ويعارض هذا الظاهر ما ذكر من تحريم الخمر ، فإن أهل النقل يجمعون
على أن الخمر إنما حُرمت بالمدينة بعد أن مضى بدر وأحد ونزل تحريمها في
سورة المائدة وهي من آخر ما نزل من القرآن ، فإن صحَّ أن خروج الأعشى
كان قبل الهجرة كما في ظاهر الخبر فلمسل المشرك الذي لقيه وأخبره عن

(١) ابن هشام : استقل . والمعنى أفانك وشق .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريم الخمر ، أراد بهذا القول تذييره عن الإسلام وإبعاده عنه ، مع ما كان من كراهية رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً للخمر وتنزيهه الله إياه عنها .

ألا تراه ليلة الإسراء لما عُرِضَتْ عَلَيْهِ آيَةُ الخمر واللبن اختار اللبن فقيل له هُدَيْتَ لِلْفِطْرَةِ ، لو أخذت الخمر غَوَتْ أُمَّتُكَ . والإسراء إنما كان بِمَكَّةَ في صدر الإسلام .

وقد يمكن أن يكون قَصِدَ الأَعشى إلى المدينة بعد الهجرة وبعد تحريم الخمر فللقاه بعضُ المشركين من قريش ممن لم يكن أسلم بعد .
ولعل هذا هو الأولى بدليل قوله في قصيدته الآتية بعد :

ألا أيهدا السائلى أين يَمَّتْ فإن لها في أهل يَثْرَبَ مَوْعِدًا
والله أعلم بالحقيقة في ذلك كله .

والقصيدة التي مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

ألم تغتمض عينك ليلة أَرَمَدَا وبتَّ كما بات السليمُ مُسَمِّدَا
وما ذاك من عِشْقِ النساءِ وإنما تفاسيتَ قبل اليوم خَلَّةَ مَهْدَدَا
ولسكن أرى الدهرَ الذى هو خائنٌ إذا أصلحت كغفَى عاد فأفسدَا
كهولا وشباناً فقدتُ وثروة فله هذا الدهرُ كيف ترددا
وما زلتُ أبغى المالَ مُذْ أنا يافعٌ وليداً وكَهلاً حين شِبتُ وأمرَدَا
وأبتذلُ العيسَ المراقيلَ تَعْتَلَى مسافة ما بين النُّجَيْرِ فَصَرَخَدَا (١)
ألا أيهدا السائلى أين يَمَّتْ فإن لها في أهل يَثْرَبَ مَوْعِدَا
فإن تسألنى عنى فإيا رَبِّ سائلٍ حَفِيٌّ عن الأَعشى به حيثُ أضعَدَا

(١) المراقيل : المسرعة . والنجير وصرخد موضعان باليمن والجزيرة .

أَجَدَّتْ بِرَجْلَيْهَا النَّجَاءَ وَرَاجَعَتْ يَدَاهَا خِيفًا لَيْمًا غَمِيرَ أَحْرَدَا (١)
 وَفِيهَا إِذَا مَا هَجَّرَتْ عَجْرَفِيَّةً إِذَا خَلَّتْ حِرْبَاءَ الظُّهيرةِ أَصِيدَا (٢)
 وَأَلَيْتُ لَا أَوِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَفَى حَتَّى تَلَاقِي مُحَمَّدَا
 مَتَى مَا تُنَاخِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ تُرَاحِي وَتُلْقِي مِنْ قَوَاضِيهِ نَدَا
 نَبِيًّا يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِي (٣) فِي الْبِلَادِ وَأُنْجِدَا
 لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تَغِيبُ وَنَائِلٌ وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانِعَهُ غَدَا
 أَجَدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيَّ الْإِلَهِ حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بَزَادٍ مِنَ الثَّقَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزُودَا
 نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمَثَلِهِ فَتُرْصِدَ الْمَوْتَ الَّذِي كَانَ أَرْصِدَا
 فَيَاكَ وَالْمَيْتَاتِ لَا تَقْرَبَنَّهَا وَلَا تَأْخُذَنَّ سَهْمًا حَدِيدًا لِقُصِيدَا
 وَذَا النُّصْبِ الْمَنْصُوبِ لَا تَنْدُسُ كَنَّهُ وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ وَاللَّهِ فَاعْبُدَا (٤)
 وَلَا تَقْرَبَنَّ حَرَّةً كَانَتْ سِرِّهَا عَلَيْكَ حَرَامًا فَانْكَحَنَّ أَوْ تَأْبُدَا
 وَذَا الرَّحْمِ الْقَرِيبِي فَلَا تَقْطَعَنَّه لِعَاقِبَةٍ وَلَا الْأَسِيرَ الْمُقَيَّدَا
 وَسَبِّحْ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَحْمَدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهِ فَاحْمَدَا
 وَلَا تَسْخَرَنَّ مِنْ بَائِسٍ ذِي ضَرَارَةٍ وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَالَ لِعَرِّ مُخْلِدَا

(١) الخفاف : أن تلوى يديها في السير من النشاط . والأحرد : الذي يلتقل في السير .
 (٢) هجرت : أي سارت في الهجرة وهي شدة الحر ، والعجرفية : نسبة إلى العجرفة
 في السير والحرباء : دويبة يدور بوجهه مع الشمس حيث دارت . والأصيد : مائل العنق .
 (٣) قال ابن دريد : وغار الرجل في غور تهامة ، إذا دخله ، ولا يقال أغار ، فإنه
 خطأ ، قال الأعمش : أبي يرى مالا ترون وذكره . لعمرى غار في البلاد وأنجدا . ومن
 روى : « أغار لعمرى » فقد لمن وأخطأ . الاشتقاق / ١٨ .
 (٤) أصله : فاعبدن بالنون الخفيفة فوقف عليها بالألف ، وكذا فيما يأتي من الأفعال .
 (م ٢٤ - الأكتفا)

[مع أبي جهل وركانة]

قال ابن إسحاق : وقد كان عدوُّ الله أبو جهل [بن هشام ^(١)] مع عداوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وبُغضه إياه وشدته عليه يذله الله له إذا رآه .

حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي ، وكان واعيةً قال : قديم رجل من إراش بإبيل له مكة ، فابتاعها منه أبو جهل فمطله بأثمانها ، فأقبل الإراشي حتى وقف على نادر من قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم . جالس في ناحية المسجد ، فقال : يا معشر قريش ، من رجل يؤذيني ^(٢) على أبي الحكم بن هشام ، فإني غريب ابن سبيل وقد غلبني على حتى .

فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل ؟ لرسول الله صلى الله عليه وسلم - يهزأون به لِمَا يملون بيده وبين أبي جهل من المداوة - اذهب إليه فهو يؤذيك عليه .

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام غلبني على حق لي قبله وأنا غريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤذيني عليه ، يأخذني حتى منه ، فأشاروا لي إليك فخذني حتى منه يرحمك الله .

قال : انطلق إليه . وقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قام معه قالوا الرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ما يصنع .

قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضرب عليه بابه . فقال : من هذا ؟ فقال : محمد ، فاخرج إلي . فخرج إليه وما في وجهه من رائحة ، لقد انتقع لونه ، فقال : أعط هذا حقه . قال : نعم لا يبرخ حتى أعطيه الذي له .

(١) من ابن هشام .

(٢) يؤذيني : يسبني .

فدخل نخرج إليه بحقه فدفعه إليه ، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاء الله خيراً ، فقد والله أخذ لي حتى .

وجاء الرجل الذي بعثوا معه فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟

قال : هجياً من المَجَب ! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه نخرج إليه وما معه روحه ، فقال : أعط هذا الرجل حقه . قال : نعم ، لا يبرح حتى أخرج إليه حقه . فدخل نخرج إليه بحقه فأعطاه إياه .

ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا : وبلك ! مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط .

قال : ويحك ! والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي وسمعتُ صوته فملتُ رعباً ، ثم خرجتُ إليه وإن فوق رأسه لفجلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرتُه^(١) ولا أنيابه لفجل قط ، والله لو أبئتُ لأكفي .

وذكر الواقدي عن يزيد بن رومان قال : بيننا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالساً في المسجد معه رجال من أصحابه أقبل رجل من بني زبيد يقول : يا معشر قريش كيف تدخل عليكم المسادة أو يُجَلَّب إليكم جَلَب أو يَحُلُّ تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرَمكم . يقف على الحِلَق حَلَقَة حَلَقَة .

حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن ظلمك ؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال كانت خيرة إبله ، فسامه أبو جهل ثلث أثمانها ثم لم يسمه بها لأجله سائم ، قال : فأكسدت عليّ سلعتي وظلمني . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأين أجمالك ؟ قال : هي هذه بالحزورة .

(١) القصرة : أصل العنق .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم معه وقام أصحابه ، فنظر إلى جمال فرأى جمالا فُرِّها . فساوم الزبيدي حتى أحقه برضاه ، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فباع جملين منها بالثمن ، وأفضل بميرا باعه وأعطى أراملا بني عبد المطلب ثمنه ، وأبو جهل جالس في ناحية من السوق لا يتكلم . ثم أقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عمرو إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابي فتري منى ما تسكره . فجعل يقول : لا أعود يا محمد لا أعود يا محمد .

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عليه أمية بن خلف ومن حضر من القوم ، فقالوا : ذلت في يدى محمد ، فإما أن تكون تريد أن تقبعه وإما رعبٌ دخلك منه . قال : لا أتبعه أبداً ، إن الذى رأيتم منى لمّا رأيتم معه ، لقد رأيتم رجلا عن يمينه وشماله معهم رماح يشراعونها إلى ، لو خالفته لسكانت إياها . أى لا أتوا على نفسى .

* * *

وذكر محمد بن إسحاق عن أبيه قال : كان رُكّانة بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب أشدّ قريش ، فبخلاً يوماً برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شعاب مكة ، فقال له : ياركانة ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال : لو أعلم أن الذى تقول حق لا تبعتك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرايت إن صرعتك أنعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم . قال : فقم حتى أصارعك . فقام إليه ركانة فصارعه^(١) ، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه لا يملك من نفسه شيئاً .

ثم قال : عدّ يا محمد . فعاد فصارعه . فقال : يا محمد إن ذا للعجب أتصرعنى !! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبع أمرى .

(١) ابن هشام : يصارعه .

قال : ما هو ؟ قال : أدعوك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني . قال : ادعها . فدعا بها ، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : ارجعي إلى مكانك ، فرجعت إلى مكانها .

فذهب ركافة إلى قومه فقال : يا بني عبد مناف ساحروا بصاحبكم أهل الأرض ، فوالله ما رأيت أشحر منه قط . ثم أخبرهم بالذي رأى وصنع (١) .

* * *

قال ابن إسحاق : ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى ، يقال إنهم من أهل نجران ، حين بلغهم خبره من الحبشة .

فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه وكلوه وسألوه ، وأرجال من قريش في أنديةهم حول السكبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا [القرآن] (٢) فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان بوصف لهم في كتابهم من أمره .

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبتكم الله من ركبنا بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تعلمن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه ! ما نعلم ركباً أحق منكم . أو كما قالوا .

فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجأهناكم ، لئنا ما نحن عليه واسم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً .

(١) ابن هشام : والذي صنع .

(٢) من ابن هشام .

فيقال والله أعلم : فيهم نزلت هؤلاء الآيات : « الذين آتيناكم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون .

وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلاماً عليكم لا نبتغي الجاهلين^(١) .

قال : وقد سألت ابن [شهاب^(٢)] الزهري فقال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهم نزلن في النجاشي وأصحابه . والآيات من المائدة قول الله عز وجل : « ولتجدن أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فأكتبنا مع الشاهدين^(٣) . »

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المسجد فجلس إليه المستضعفون من أصحابه ، حناب وعمار وأبو فكيهة يسار وصهيب وأشباهم هزئت بهم قريش وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، هؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا .

فأنزل الله تعالى فيهم : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم

(١) سورة القصص ٥٢ — ٥٥ .

(٢) من ابن هشام .

(٣) سورة المائدة ٨٢ ، ٨٣ .

مِنْ شَيْءٍ ، فَتَطْرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
لِيَقُولُوا : أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ،
وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١) .

وهؤلاء أيضاً ومن قال بقولهم هم الذين عَنَى اللهُ سبحانه بقوله : « وقال الذين
كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سببونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون
هذا إفكٌ قديمٌ ^(٢) » .

قال ابن إسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني كثيراً
ما يجلس عند المروة إلى متبينة غلام نصراني يقال له جبرٌ ، عبْدٌ لبني الحضرمي ،
وكانوا يقولون : والله ما يعلم محمدًا كثيراً مما يأتي به إلا جبرٌ النصراني ، فأنزل
الله في ذلك من قولهم : « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلّمه بشرٌ ، لسانُ
الذي يُلحِدون إليه أعجميٌّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مُبينٌ ^(٣) » .

وكان العاص بن وائل إذا ذكِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
دَعُوهُ ، فإنما هو رجل أبتَر ، لو قد مات لقد انقطع ذكره فاسترحم منه ،
فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصلِّ لربك
وانحر ، إن شانئك هو الأبتَر » أي أعطيناك ما هو خير من الدنيا وما فيها .
والكوثر العظيم . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الكوثر الذي أعطاك
الله ؟ قال : نهر كما بين صنعاء إلى أيلة آيته كعدد نجوم السماء ترده طير لها

(١) سورة الأنعام ٥٢ — ٥٤ .

(٢) سورة الأحقاف ١١ .

(٣) سورة النحل ١٠٣ .

أعناق كأعناق الإبل . قال عمر بن الخطاب : إنها يا رسول الله لناعمة .
قال : آكلها أنعم منها .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً إلى الإسلام ، فقال له زمنة بن
الأسود والنضر بن الحارث والأسود بن عبد يفيوث وأبي بن خاف والماص بن
وائل : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الداس ويرى معك ؟ فأنزل الله .
في ذلك : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر
ثم لا يُنظرون ، ولو جلدناه ملكاً لجلدناه رجلاً وللبسنا عليهم
ما يلبسون^(١) » .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوليد بن المغيرة وأميمة بن خلف .
وأبي جهل ، فهمزوه واستهزؤا به ، فغاضبه ذلك ، فأنزل الله عليه : « ولقد
استهزى برسُل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون^(٢) » :

(١) سورة الأنعام ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الأعمام ١٠ .

ذكرُ الحديث عن مَسْرَى رسول الله

صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق : ثم أُسْرِيَ^(١) برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس من إيلياء ، وقد فشا الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها .

فكان من الحديث فيما بلغني عن مَسْرَاه صلوات الله عليه وسلامه عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ومعاوية بن أبي سفيان وأم هاني بنت أبي طالب والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزهري وقتادة وغيرهم من أهل العلم ما اجتمع في هذا الحديث ، كلُّه يحدث عنه بعض ما ذكر من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أُسْرِيَ به صلى الله عليه وسلم .

وكان في مَسْرَاه وما ذكر عنه بلا ولا وتمحيص وأمر من الله في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق .

(١) لم يذكر ابن إسحاق تحديداً للسنة التي وقع فيها الإسراء ، وقد تعرض لذلك ابن كثير في البداية والنهاية ٣ / ١٠٨ فقال : « ذكر ابن عساکر أحاديث الإسراء في أوائل البعثة ، وأما ابن إسحاق فذكرها في هذا الموطن ، بعد البعثة بنحو من عشر سنين . وروى البيهقي من طريق موسى بن عقبة عن الزهري أنه قال : « أُسْرِيَ برسول الله (ص) قبل خروجه إلى المدينة بسنة . . ثم روى الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن أسباط ابن نصر عن إسماعيل السدي أنه قال : فرض على رسول الله ص الخس بيت المقدس ليلة أُسْرِيَ به قبل مهاجره بستة عشر شهراً . فعلى قول السدي يكون الإسراء في شهر ذي القعدة ، وعلى قول الزهري وعروة يكون في ربيع الأول . . ثم ذكر عن جابر وابن عباس قالا : ولد رسول الله (ص) عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء وفيه هاجر وفيه مات . وفيه انقطاع . ثم ذكر أن المقدسي أورد حديثه لا يصح سنده أن الإسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب ، والله أعلم . »

وكان من أمر الله على يقين ، فأسرى به كيف شاء وكما شاء ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التي يصنع بها ما يريد .

فكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبُرَاق ، وهي الدابة التي كانت تُحْمَلُ عليها الأنبياء قبله ، تضع حافرها في منتهى طرفها ، فَحُمِلَ عليه^(١) ، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السموات والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء عليهم السلام قد جمعوا له ، فصلّى بهم ثم أتى بثلاثة آية ، إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء ، قال : فسمعت قائلاً يقول : إن أخذ الماء فغرق^(٢) وغرقت أمته ، وإن أخذ الخمر فغوى وغوت أمته ، وإن أخذ اللبن هُدِي وهُدِيَت أمته . قال : فأخذت إناء اللبن فشربت ، فقال له جبريل : هُدِيَت وهُدِيَت أمتك يا محمد .

قال : وحُدِثت عن الحسن أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا أنا نائم في الحِجْر^(٣) جاءني جبريل فهمزني بقدمه ، فجلست فلم أر شيئاً ، فعدت لمضجعي ، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئاً ، فعدت لمضجعي الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بمضدي ، فقامت معه فخرج بي إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض ، بين البغل والحمار ، في فخذه جناحان يحْمَز^(٤) بهما رجليه ، يضع يديه في منتهى طرفه ، فحملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته .

(١) ابن هشام : عليها .

(٢) ابن هشام : غرق .. غوى .

(٣) ابن هشام : إذ جاءني

(٤) أي يدفع .

وفي حديث قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما دنوت منه لأركبه شمس^(١) فوضع جبريل يده على معرفته^(٢) ثم قال : ألا نستحي يا براق مما تصنع ! فوالله ما ركبتك عبدٌ لله قبل محمد أكرم عليه منه . فاستحيا حتى أرفض عرقاً ثم قرأ حتى ركبته .

وفي حديث الحسن من انتهاء جبريل بالذي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس وإمامته فيه بمن وجده عنده من الأنبياء ، على جميعهم السلام ، نحو ما تقدم من ذلك في حديث ابن مسعود .

قال : ثم أتى بإناءين في أحدهما خمر وفي الآخر لبن ، فأخذ إناء اللبن وترك إناء الخمر ، فمسأله جبريل : هديت للفطرة وهديت أمتك وحرمت عليكم الخمر .

وذكر تحريم الخمر هنا غريب جداً ، والذي عليه العلماء أن الخمر إنما حرمت بالمدينة بعد سدين من الهجرة .

قال الحسن : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر . فقال أكثر الناس : هذا والله الإمر^(٣) البين ، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مذبرة وشهرا مقبلة ، أفيزهد ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة !

قال : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر ، فقالوا : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ! يزعم أنه جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة . فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ها هو ذلك في المسجد يحدث به الناس .

(١) شمس : امتنع ولم يمكن أحدا من ظهره .

(٢) المعرفة : اللحم الذي يلبث عليه شهر العرف .

(٣) الإمر : العجيب المنكر .

فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يوجبكم من ذلك ؟
فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار
فأصدقه ، فهذا أبعد مما تمجبون منه .

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله
أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال . يا نبي الله
فصِّفه لي فإني قد جئته .

قال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرِّع لي حتى نظرت إليه .
فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت
أشهد أنك رسول الله . كلما وصف له منه شيئاً قال : صدقت أشهد أنك رسول الله .
حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : وأنت
يا أبا بكر الصديق . فيومئذ سماه الصديق .

قال الحسن : وأنزل الله فيمن ارتد عن إسلامه لذلك : وما جعلنا الرؤيا
التي أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة في القرآن ونحو فهم فما يزيدم
إلا طغياناً كبيراً^(١) .

فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما دخل
فيه من حديث قتادة .

قال ابن إسحق : وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول :
ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم والسكن الله أسرى بروحه .

وكان معاوية بن أبي سفيان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : كانت رؤيا من الله صادقة .

(١) سورة الإسراء ٦٠ .

فلم يُنكر ذلك من قولها لقول الحسن إن هذه الآية نزلت في ذلك ، قول الله : « وما جئنا الرؤيا التي أرىناك إلا فتنةً للناس » ولقوله تعالى في الخبر عن إبراهيم إذ قال لابنه « يا بني إني أرى في المنام أنني أذبحك ^(١) » ثم مضى على ذلك ، فعرفت أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظاً ونياماً .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تنام عيني وقلبي يقظان .

فإنه أعلم أي ذلك كان قد جاءه وعين فيه ما عين من أمر الله ، على أي حالتيه كان نائماً أو يقظان ، كل ذلك حق وصدق ^(٢) .

وزعم الزهري عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رآهم في تلك الليلة ، صلوات الله على جميعهم ، فقال :

أما إبراهيم فلم أر رجلاً أشبهه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه ، وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أفتى ^(٣) كأنه من رجال شذوذة ،

(١) سورة الصافات ١٠٢ .

(٢) هذه التسوية من ابن اسحق بين كلا الرأيين عجيبة جداً ، فإن مذهب جمهور السلف والخلف أن الإسراء كان ببدنه وروحه صلوات الله وسلامه عليه ، ولو كان مناماً لما نادر كفار قريش إلى التشكيب به واستبماده إذ ليس في ذلك كبير أمر ، فدل على أنه أخبرهم بأنه أسرى به يقظة لا مناماً ، والقرآن قال : « سمعان الذي أسرى بعبده » فالعبء عبارة عن الروح والجسد ، وكذلك التسبيح إنما يكون عند الآيات العظيمة الخارقة .

قال ابن كثير : وقد توقف ابن اسحق في ذلك وجوز كلا الأمرين من حيث الجملة ، والمكن الذي لا يشك فيه ولا يتماهى أنه كان يقظان لا محالة . وليس مقتضى كلام عائشة رضي الله عنها أن جسده صلى الله عليه وسلم ما فقد وإنما كان الإسراء بروحه أن يكون مناماً ، كما فهمه ابن اسحق ، بل قد يكون وقع الإسراء بروحه حقيقة وهو يقظان لا نائم . . .

ثم قال : « ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء طبق ما وقع بعد ذلك ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وقد تقدم مثل ذلك في حديث بدء الوحي أنه رأى مثل ما وقع له يقظة مناماً قبله ، ليكون ذلك من باب الإرهاس والتوطئة والتثبيت والإيناس والله أعلم » انظر البداية والنهاية ٣ / ١١٣ — ١١٤ .

(٣) ضرب : أي خفيف اللحم . وجعد : متكسر الشعر ، وأفتى : مرتفع فصبة الأنف .

وأما عيسى بن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل ، سَبَطُ الشعر كثير خيلان الوجه كأنه خرج من ديماس^(١) تحال رأسه يَقْطُر ماء وليس فيه^(٢) ماء ، أشبه رجالكم به عُرْوَة بن مسعود الثقفي .

قال ابن هشام : وكانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر عمر مولى غُمَرَة عن إبراهيم بن محمد بن علي بن أبي طالب قال : كان علي إذا نعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لم يكن بالطويل الممَّط^(٣) ولا القصير المتردد ، كان ربة من القوم ، ولم يكن بالجمد القَطَط^(٤) ولا بالسَّبَط كان جمدا رَجُلًا^(٥) ، ولم يكن بالمطهم ولا المسكالم^(٦) ، وكان أبيض مُشرباً أذعج العيين أهدب الأشفار جليل المشاش والكتند^(٧) دقيق المسربة^(٨) أجرد شثن الكفين^(٩) والقدمين ، إذا تمشى تقلع كأنما يمشى في صَبَب ، وإذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين أجود الناس كفا وأجراً الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وأوفى الناس بذمة واليئهم عريكة وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبلة ولا بعده مثله ، صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق : وكان فيما بلغني عن أم هاني بنت أبي طالب رضی الله عنها أنها كانت تقول : ما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو في

(١) السبط : المسترسل غير الجمعد ، والخيلان جمع خال وهو الشامة السوداء . والديماس : الحمام .

(٢) ابن هشام : به .

(٣) الممط : الممتد .

(٤) القَطَط : الشديد جمودة الشعر .

(٥) مسرح الشعر .

(٦) المطهم : العظيم الجسم والمسكالم : المستدير الوجه في صغر

(٧) المشاش : عظام رموس المفاصل ، والكتند ما بين الكتفين .

(٨) المسربة : الشعر الذي يمتد من الصدر إلى السرة .

(٩) الأجرد : قليل شعر الجسم . وشثن الكفين : غليظهما .

في بيتي ، نام عندي تلك الليلة (١) فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهيننا (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هاني لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم قد صليت معكم صلاة الغداة الآن كما ترين .

ثم قام ليخرج فأخذت بطرف رداؤه ، فتسكّفت عن بطنه وكأنه قُبْطِيَّةٌ (٣) مطوية ، فقلت : يا نبي الله لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك ، قال : والله لأحدثنهموه . فقلت لجارية لي حبشية : ويحك اتبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تسمعي ما يقول للناس وما يقولون له .

فلما خرج إلى الناس أخبرهم فمجبوا وقالوا : ما آية ذلك يا محمد ، فإننا لم نسمع بمثل هذا قط ؟ قال : آية ذلك أني مررت ببعير بني فلان بوادي كذا (٤) ، فأنفروهم حسّ الدابة ، فندّلم ببعير فدلتهم عليه وأنا موجه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان (٥) مررت ببعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ولم ينام فيه ماء قد غطوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن غيرهم الآن تصوب من البيضاء (٦) ، ثنية التميم ، يقدّمها جل أوزق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء (٧) .

فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجبل ، كما وصف لهم ، وسألهم

(١) ابن هشام : نام عندي تلك الليلة في بيتي .

(٢) أهينا : أيقظنا .

(٣) ثياب من كتان تنسج بعصر منسوبة إلى القبط على غير قياس .

(٤) ابن هشام : كذا وكذا .

(٥) ضجنان : جبل بناحية تهامة .

(٦) تصوب : تنزل من عل ، والبيضاء : عقبة قرب مكة .

(٧) أي مختلفة الألوان .

عن الإناء فأخبرهم أنهم وضعوه مملوءاً ماءً ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه
مُغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماءً ، وسألوا الآخرين وهم بمكة فقالوا : صدق
والله ، لقد أنقَرنا في الوادى الذى ذكر وندنا لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل
يدعونا إليه حتى أخذناه .

[المـعـراج]

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم ، عن أبي سعيد الخدري رضى الله
عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما فرغت مما كان
في بيت المقدس أتيت بالمعراج ، ولم أزل شيئاً قط أحسن منه ، وهو الذى يمدُّ
إليه يديكم عينيهِ إذا حُضِر .

فأصعدنى صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له :
باب الحفظة ، عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل تحت يديه اثنا عشر
ألف ملك تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حدّث بهذا الحديث :
« وما يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ^(١) » .

فلما دخل بي قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : محمد . قال : أو قد بُعِثَ ؟
قال : نعم ، فدعا [لى ^(٢)] بخير وقاله .

قال : وحدثني بعض أهل العلم عن حدثه عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، قال : ثم تلمتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا ، فلم يَلْتَمَنِي
ملك إلا ضاحكاً مستبشراً ، يقول خيراً ويدعوه ، حتى لقيت ملكاً من
الملائكة فقال مثل ما قالوا ودعا بمثل ما دعوا به ، إلا أنه لم يضحك ، ولم

(١) سورة المدثر ٣١ .

(٢) من ابن هشام .

أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره ، فقلت لجبريل : من هذا الملاك الذى قال لى مثل ما قالت الملائكة ولم يضحك ولم أر منه من البشر مثل الذى رأيت منهم . فقال جبريل : أما إنه لو كان ضحك إلى أحد قبلك أو كان ضاحكا إلى أحد بعدك لضحك إليك ، ولكنه لا يضحك ، هذا مالك صاحب النار .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت لجبريل ، وهو من الله بالمكان الذى وصف لكم « مطايع ثم أمين » ألا تأمره أن يرينى النار ؟ فقال بلى ، يا مالك أر محمدأ النار ، فكشف عنها غطاءها فقارت حتى ظننت لتأخذن ما أرى . فقلت لجبريل : مره فليردّها إلى مكانها . فأمره ، فقال لها : اخيبي فرجعت إلى مكانها الذى خرجت منه ، فما شبّهت رجوعها إلا وقوع الظل ، حتى إذا دخلت من حيث خرجت ردّ عليها غطاءها .

قال أبو سعيد الخدرى فى حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلا جالسا تعرض عليه أرواح بنى آدم ، فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيرا ويُسّرّ به ، ويقول : روح طيبة خرجت من جسد طيب ، ويقول لبعضها إذا عرضت عليه أفت ، ويعبس بوجهه ، روح خبيثة خرجت من جسد خبيث .

قال : قلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك آدم تعرض عليه أرواح ذريته ، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سُرّ بها وإذا مرت به روح الكافر منهم أنف منها وكرهها .

قال : ثم رأيت رجلا لم مشافر كمشافر الإبل ، فى أيديهم قطع من نار كالأنفهار^(١) يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدهام ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما .

(١) الأنفهار : جمع فهر وهو الحجر الصغير قدر ما يملأ الكف .

ثم رأيت رجالاتهم بطون لم أر مثلها قط ، بسبيل آل فرعون ، يَمرون عليهم كالإبل المَهْيومة^(١) حين^(٢) يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ ، يَطَّأُونَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْ مَكَانِهِمْ ذَلِكَ . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء . أكلة الربا .

ثم رأيت رجالاتهم بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن ، يأكلون من الغث الممتن ويتركون السمين الطيب ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحلَّ الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن .

ثم رأيت نساء معلقات بِثُدِيِّهِنَّ ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من آيس من أولادهم .

قال : ثم صعد بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالدة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا .

قال : ثم أصعد^(٣) بي إلى السماء الثالثة فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر ، قلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب ثم أصعد بي إلى السماء الرابعة ، فإذا فيها رجل ، فسألته من هو ؟ فقال : هذا إدريس . قال : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا » .

قال : ثم أصعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهمل أبيض الرأس واللحية عظيم العُنُون^(٤) لم أرَ كهلاً أجمل منه . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الحبيب في قومه : هرون بن عمران .

(١) أي المطاش .

(٢) ط : حتى .

(٣) ابن هشام : أصعدني .

(٤) العننون : اللحية .

قال : ثم أصعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها رجل آدمٌ طويلٌ أفتى كأنه من رجال شنوءة فقلت : من هذا يا جبريل ؟ قال هذا أخوك موسى بن عمران . ثم أصعد بي إلى السماء السابعة فإذا كهيل جالس على كرسى إلى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة ، لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

ثم دخل بي الجنة فرأيت فيها جارية لعمساء^(١) فسألتها لمن أنت ؟ وقد أعجبتني حين رأيتهما ، فقالت : يزيد بن حارثة . فبشّر بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زيدا^(٢) .

ومن حديث عبد الله بن مسعود أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن في دخولها : من هذا يا جبريل ؟ فيقول : محمد . فيقولون أو قد بُعث ؟ فيقول : نعم . فيقولون حيّاه الله من أخ وصاحب . حتى انتهى به إلى السماء السابعة ، ثم انتهى به إلى ربه^(٣) ، ففرض عليه خمسين صلاة كل يوم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأقبلت راجعاً فلما سررت بموسى بن عمران ، ونعمّ الصاحبُ كان لكم ، سألتني : كم فرض عليك من الصلاة ؟ فقلت خمسين صلاة في كل يوم . قال : إن الصلاة ثقيلة وإن أمتك ضعيفة ، فارجع إلى ربك فسأله أن يخفف عنك وعن أمتك . فرجعت فسألت ربِّي فوضع عنى عشرأ ، ثم انصرفت فررت على موسى فقال لي مثل ذلك ، فرجعت

(١) العس : حمرة في الشفاء تضرب إلى السواد .

(٢) ابن هشام : زيد بن حارثة .

(٣) يحسن هنا الفهم المجازي بما يتفق مع العقيدة الإسلامية في البعد عن التجسيم والتشبيه .

فسألت ربي فوضع عنى عشراً ثم لم يزل يقول لى مثل ذلك كلما رجعت إليه ، فأرجع فأسأل حتى انتهيت إلى أن وضع عنى ذلك إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة .

ثم رجعت على^(١) موسى فقال لى مثل ذلك ، فقلت : راجعتُ ربي وسألته حتى استحييت منه ، فما أنا بفاعل .
فن أذاهن منكم إيماناً واحتساباً لمن كان له أجر خمسين صلاة .

[عاقبة المستهزئين]

قال ابن إسحق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله صابراً محتسباً مؤدياً إلى قومه النصيحة ، على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء ، وكان عظماء المستهزئين خمسة نفر من قومه ، وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم : الأسود بن المطلب الأسدى ، أبو زمعة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى قد دعا عليه إيماناً كان يبلغه من أذاه واستهزائه به فقال : اللهم أعم بصره وأتكلله ولده .

والأسود بن عبد يغوث الزهري والوليد بن المغيرة الخزومي ، والماص ابن وائل السهمي ، والحارث بن الطلائجة الخزاعي .

فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله عليه : « فاصدغ بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون^(٢) »

فأتى جبريلُ عليه السلام رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبیت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ، فرَّب به الأسود

(١) ابن هشام : إلى .

(٢) سورة الحجر ٩٤ — ٩٦ .

ابن المطلب فرمى^(١) في وجهه بورقة خضراء فعمي ، وسيأتي بعدُ أنه أصيب له يوم بدر ثلاثة من ولده ، ابناه زمعة وعقيل وابن ابنه الحارث بن زمعة ، فاستوفى الله سبحانه بذلك فيه لرسوله صلى الله عليه وسلم إجابة لدعوته عليه بالعمى والشكل .

ثم مر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حياً^(٢) .

وعن غير ابن إسحق أنه لما نزل : « إنا كفيناك المستهزئين » نزل جبريل عليه السلام فخفا ظهر الأسود بن عبد يغوث الزهري ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خالي خالي فقال له جبريل : خله عنك ، ثم حناه حتى قتله .

قال ابن إسحق : ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر سبيله^(٣) ، فانتقض به فقتله .

ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شبارقة^(٤) فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته .

ومر به الحارث بن الطلائع فأشار إلى رأسه فامتخص قيحاً فقتله .

قال : وكان نفر الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته أبو لهب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدي بن حصينة ، وابن جهماء الثقفي وابن الأضواء الهذلي ، وكانوا جيرانه لم يُسلم أحد منهم إلا الحكم .

(١) أي جبريل .

(٢) الحين محرّكة : انتفاخ البطن من داء .

(٣) سبله : فضول ثيابه .

(٤) الأصل : شبرقة . وما ذكرته عن ابن هشام . والشبارقة : شجرة عالية .

فكان أحدهم فيما ذكر لي يطرح عليه رَحِمَ الشاة وهو يصلي ، وكان أحدهم يطرحها في بُرْمته^(١) إذا نصبت له حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجراً^(٢) يستتر به منهم إذا صلى .

فكان صلى الله عليه وسلم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العمود فيقف به على بابه ثم يقول : يا بني عبد مناف أي جوار هذا ؟ اثم يلقيه في الطريق .

[وفاة خديجة وأبي طالب]

قال ابن إسحاق : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد^(٣) ، فتقابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلاك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام^(٤) ، يسكن إليها ، وبمهلك أبي طالب عمه ، وكان له عضداً وحريزاً في أمره ومدعة وناصرراً على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع فيه^(٥) في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفينة من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي

(١) البرمة : قدر من حجر .

(٢) أي حائطاً .

(٣) كان الأنسب ، أن يذكر وفاة أبي طالب وخديجة قبل الإسراء . كما ذكره البيهقي وغير واحد . وقد روى عن عروة أن خديجة توفيت قبل أن تفرض الصلاة ، كما روى عن الزهري أنه قال : توفيت خديجة بمكة قبل خروج رسول الله (ص) إلى المدينة وقبل أن تفرض الصلاة . قال البيهقي : وزعم الواقدي أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين عام خرجوا من الشعب ، وأن خديجة توفيت قبل أبي طالب بخمسة وثلاثين ليلة .

(٤) البداية والنهاية : الابتلاء .

(٥) ابن هشام : تطمح به .

تبكي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك . ويقول بين ذلك : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب .

قال : ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله قال (١) بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا فإننا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا .

فشوا إلى أبي طالب فكلموه ، وهم أشرف قومه ، عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأممية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب في رجال من أشرفهم ، فقالوا : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه وخذ له منا وخذ لنا منه ليسكنفنا عما ونسكنفنا عنه وليدعنا وديننا ونودعه ودينه .

فبعث إليه أبو طالب فجاء فقال : يا بن أخي هؤلاء أشرف قومك قد اجتمعوا بك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم كلمة واحدة تعطونها تمسكون بها العرب وتدين لكم بها العجم . فقال أبو جهل : نعم وأبيك ، عشر كلمات ، قال : تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه .

قال : فصفقوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لمعجب .
ثم قال بعضهم لبعض : والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً مما تريدون ،

(١) ابن هشام : قالت قريش بعضها لبعض .

فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم ويبدئه . ثم تفرقوا .
فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا بن أخي ما رأيتك
سألتهم شططاً . فلما قالها طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فجعل يقول
له : أى عم ، فأنت فقلتها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة . فلما رأى
حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه قال : يا بن أخي والله لولا مخافة
الشبهة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى وأن تظن قريش أني إنما قتلتها جزءاً
من الموت لقلتها ، لا أقولها إلا لأشرك بها .

فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفيعه فأصغى إليه
بأذنيه ، فقال : يا بن أخي والله لقد قال أخى الكلمة التي أمرته أن يقولها .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أسمع .

وخرج مسلم بن الحجاج في صحيحه من حديث المسيب بن حزن قال :
لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد
عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المخيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ياعم قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل
وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ .

فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة
حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول
لا إله إلا الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه
عنيك . فأنزل الله عز وجل : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا
للمشركين ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم »^(١)

وأنزل في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين ^(١) » .

وفي الصحيح أيضاً أن العباس قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبا طالب كان يَحُوطُك ويَنصُرُك ويفضِب لك ، فهل ينفعه ذلك ؟ قال : نعم ، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح .

وفيه أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عن أبي طالب ، فقال : لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيُجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلى منه دماغه .

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً أَبُو طَالِبٍ ، وَهُوَ مُتَمَلِّمٌ بِمَعْلَمَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغَهُ »

ويروى أن أبا طالب لما حضرته الوفاة جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : يا معشر قريش ، أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع وفيكم المقدم الشجاع والواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا احتزتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية فإن فيها مرضاة للرب وقواماً للمعاش وثباتاً للوطاة ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل وزيادة في العمد ، واركوا البغي والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجببوا الداعي وأعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والمات ، عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، فإن فيها محبة في الخالص ومكرمة في العام ^(٢) ، وإني أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) تظهر على الخطبة أثر الصنعة في هذه الألفاظ .

والصديق في العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاء بأمر
قبيله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن ، وأيم الله لكأنى أنظر إلى
صعاليك العرب وأهل البرِّ في الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا
دعوته وصدّقوا كلمته وعظّموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت فصارت
رؤساء قريش وصناديدها أذنانها ودورها خراباً وضعفاؤها أرباباً وإذا أعظمهم
عليه أحوَجُهُم إليه ، وأبعدهم منه أخطأهم عنده ، قد محضته العرب
وإدادها وأعطته قيادها ، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم ، كونوا له ولاية
ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد منهم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد
يهديه إلا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز^(١)
ولدافعت عنه الدواهي .

(١) الهزاهز : الحروب والشدائد .

ذكر خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف

بعد مهلك عمه أبي طالب

قال ابن إسحاق : ولما هلك أبو طالب ونالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم تكن تنال منه في حياته ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وحده يلتمس النصرة من ثقيف وللمنعة بهم من قومه ، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله .

فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم ، وهم إخوة ثلاثة ، عبد ياليل ومسهود وحبيب ، بنو عمرو بن عمير بن عُدَّة بن غيرة بن عوف بن ثقيف ، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جحج .

فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام على من خالفه من قومه .

فقال له أحدهم : هو يَمْزُطُ^(١) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وجدَ أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لأأكلك أبداً ! لأن كنتَ رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام ، وأنت كنت تكذب على الله ما ينبغي لى أن أكلك .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم : فيما ذكر لي ، إذا فعلتم ما فعلتم فاكموا على . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه فيذُرهم^(٢) ذلك عليه .

(١) أي ينزعها ويرى بها .

(٢) يذُرهم : يجرهم .

فلم يفعلوا ، أغرّوا به سفاههم وعبيدهم يسُبّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس .

قال موسى بن عقبة : وقعدوا له صفيين على طريقه ، فلما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين صفتيهم جمل لا يرفع رجليه ولا يضمهما إلا رضخوهما بالحجارة ، حتى أدموا رجليه .

وزاد سليمان التيمي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بمضديه فيقيمونه ، فإذا مشى رجوه وهم يضحكون !
قال ابن عقبة : نخلص منهم ورجلاه تسيلان دما فعمد إلى حائط من حوائطهم فاستظل في ظل حَبَلَة^(١) مده وهو مكروب مُوجِع ، وإذا في الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، فلما رأها كره مكانهما لما يعلم من عدائهما لله ورسوله .

وذكر ابن إسحاق أن الحائط كان لهما وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اطمان ، يعنى في ظلّ الحَبَلَة قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربّي ، إلى من تكلّني إلى بعيدٍ يتجهمني ، أم إلى عدوِّ ملكته أمرى ، إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

قال : فلما رآه ابنا ربيعة ، تحركت له رجمهما ، فدعّوا غلاماً نصرانياً يقال له : عدّاس فقالا له : خذ قِطْعاً من هذا العنب ، فضمه في هذا الطبق ،

(١) الحَبَلَة : شجرة العنب .

ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه . ففعل عدّاسٌ ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : بسم الله ثم أكل ، فنظر عدّاسٌ في وجهه ثم قال له : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أى البلاد أنت يا عدّاس وما دينك ؟ قال : نصرانى وأنا من أهل نينوى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك أخى كان نبياً وأنا نبيٌّ . فأكبّ عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه . فلما جاءها عداس قال له : ويلك ، مالك تقبل رأسى هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : باسيدي ما فى الأرض شيء خير من هذا لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبيٌّ . قالوا : ويحك يا عدّاس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه .

وقد خرّج البخارى ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : هل أنى عليك يوم كان أشدّ عليك من يوم أحد ؟

فقال : لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد بائيل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردتُ ، فانطلقت على وجهى وأنا مهجوم ، فلم أستفقُ إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأس فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلمتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فنادانى وقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ فقال : يا محمد ذلك لك ، فما شئت ؟ إن شئت

أن أطبق عليهم الأخشبين^(١) . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً .

وذكر ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عن أهل الطائف ، ولم يجيبوه إلى مدعاهم إليه من تصديقه وأصرته ، سار حتى أتى مكة ثم بعث إلى الأخنس بن ثريق ليُجيره ، فقال له : أنا حليف والحليف لا يُجير . فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال : إن بني عامر لا يُجيرُ على بني كعب . فبعث إلى المطعم بن عدي فأجابه إلى ذلك ، ثم تسأح المطعم وأهل بيته ، وخرجوا حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ادخل . فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله^(٢) .

ولأجل هذه السابقة التي سبقت المطعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدرٍ : لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء اللذني ، لتركتهم له .

* * *

وفي انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم لكفرهم ، راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف مرَّ به الذفر من الجن الذين ذكر الله تعالى في كتابه ورسول الله صلى الله عليه وسلم بدخلة قد قام من جوف الليل يصلي ، فرآه أولئك الذفر من الجن فيما ذكر ابن إسحاق قال : وهم فيما ذكر لي سبعة نفر من جن أهل نصيبين ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته وأوا إلى قومهم مذرّين قد آمدوا وأجابوا إلى ما سمعوا فقصَّ الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم قال عز من قائل :

(١) الأخشبان : جبلان حول مكة .

(٢) ليس في سيرة ابن هشام التي بين أيدينا ذكر لخبر هذا الجوار . . . وامله

سقط منها .

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمِنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنَّا مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمِنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزِلَ لَكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ^(١) . »

ذِكْرُ عَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

نفسه على قبائل العرب

قال ابن إسحاق : ثم قَدِمَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم مكةَ وقومه أشدَّ ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلاً مستضعفين من آمن به .

فكان رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم يَعْرِضُ نَفْسَهُ فِي الْمَوَاسِمِ إِذَا كَانَتْ هَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ نَبِيُّ مُرْسَلٍ ، وَيَسْأَلُهُمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُ وَيَمْنَعُوهُ حَتَّى يَبَيِّنَ عَنِ اللَّهِ مَا بَعَثَهُ بِهِ (١) .

قال ربيعة بن عباد الدؤلي : إني أنلامُ شاب مع أبي بيمى ، ورسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بني فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به ، وخَلَقَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ وَضِيءٌ لَهُ غَدِيرَتَانِ ، عَلَيْهِ حُلَّةٌ عَدَنِيَّةٌ ، فَإِذَا فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَمَا دَعَا إِلَيْهِ قَالَ ذَلِكَ الرَّجُلُ : يَا بَنِي فَلَانَ إِنْ هَذَا يَدْعُوكُمْ إِلَى أَنْ تَسْلَخُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى مِنْ أَعْنَاقِكُمْ ، وَخُلَفَاءِكُمْ مِنَ الْجَنِّ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ أُقَيْشٍ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ ، فَلَا تَطِيعُوهُ وَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُ .

قال ربيعة : فقلت لأبي : من هذا الرجل الذي يتبعه ويردُّ عليه ما قال ؟

قال : هذا عمُّ عبد العزى بن عبد المطلب ، أبو لهب .

وعن غير ربيعة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم أتى كِنْدَةَ فِي مَنَازِلِهِمْ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ ، وَأَتَى كَلْبًا فِي مَنَازِلِهِمْ إِلَى بَطْنِ مَنْهُمْ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو عَبْدِ اللَّهِ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ .

(١) في سيرة ابن هشام : حتى يبين لهم الله ما بعثه به . وهي مضطربة ،

وما هنا مستقيم .

حتى إنه ليقول لهم : يا بني عبد الله : إن الله عز وجل قد أحسن اسمَ أبيكم .
خلم يقبلوا منه ما عرض عليهم . وعرض نفسه على بني حنيفة فلم يك أحدٌ
من العرب أقبح رَدًّا عليه منهم .

وذكر الواقدي بإسناد له عن عاصم بن سالم الحنفي ، وكان قد أسلم في آخر
عُمَر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : نسأل الله عز وجل أن لا يُخزمنَا
الجنة ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءنا ثلاثة أعوام بـكَاظ
وبمجنَّة وبذى المَجَاز يدعوننا إلى الله عز وجل وأن نمنع له ظهره حتى يبلغ
رسالات ربه ، ويشترط لنا الجنة ، فما استجبنا له ولا ردَدنا جميلًا ، لقد
أخشفنا عليه وحلمَ عنا .

قال عامر : فرجعت إلى حَجْرٍ^(١) في أول عام فقال لي هُوذة بن علي : هل
في موسمكم هذا خبرٌ ؟ فقلت : رجل من قريش يطوف على القبائل ، يدعوهم
إلى الله وحده ، وإلى أن ينعوا ظهره حتى يبلغ رسالة ربه ولم الجنة . فقال
هوذة : من أي قريش ؟ قلت : هو من أوسطهم نسباً من بني عبد المطلب .
قال هوذة : أهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ قلت : هو هو .
قال : أما إن أمره سيظهر على ماها هنا ، فقلت : ها هنا قط من بين البلدان ؟
قال : وغير ماها هنا .

ثم وافيتُ السنة الثانية فقدمتُ حَجْرًا ، فقال : ما فعل الرجل ؟
فقلت : رأيتُه على حاله في العام الماضي . قال : ثم وافيت في السنة الثالثة وهي
آخرُ ما رأيتُه ، وإذا بأمره قد أمر ، وإذا ذِكْرُه كثير في الناس ، وأسمع
أن الخزرج تبعته ، فقدمت حَجْرًا ، فقال لي هوذة : ما فعل الرجل ؟ فقلت :
رأيت أمره قد أمر ورأيت قومه عليه أشدَّاء . فقال هوذة : هو الذي
قلت لك ، ولو أنا تبعناه كان خيرًا لنا ، ولكننا نضِنُّ بملكنا . وكان قومه
قد توجَّهوا وملكوه .

(١) حجر : موضع في ديار بني حنيفة .

قال عامر : فرَّ بي سَلِيط بن عمرو العامري ، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هوزة ، فضيَّنته وأكرمته وأخبرني من خبر هوزة ، أنه لم يسلم ، وقد ردَّ ردًّا دون ردِّ . قال : فأخبرت سَلِيطاً خبري لهوزة ، فأخبره سَلِيطُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأسلمَ عامرُ بن سلامة ، ومات هوزة . ابن علي سنة ثمان من الهجرة كافرأ على نصرانيته .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عيس إلى الإسلام فلم يقبلوا . قال أبو وابصة العبسي فيما ذكر الواقدي : جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا بمنى ، فدعانا إلى الله ، فوالله ما استجبنا له ، وما خيرَ لنا ، وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسي فقال لنا : أحلف بالله لو صدقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحلَّ به وسط رحالنا لكان الرأي . فقال له القوم : من بين العرب نفعل هذا ؟ قال : نعم من بين العرب ، فأحلف بالله ليظهرن أمره ، حتى يبلغ كلَّ مَبْلَغ . فقال له القوم : دعنا منك لا تترضنا لما لا يقبل لنا به . وطمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في ميسرة ، فكلمه ، فقال ميسرة : ما أحسن كلامك وأنوره ، ولكن قومي يخالفونني ، وإنما الرجل بقومه . فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج القوم مغادرين إلى أهلهم ، فقال ميسرة ميلوا بنا إلى فذك فإن بها يهود ، نسألهم عن هذا الرجل . فمالوا على يهود ، فأخرجوا سيفراً لهم فوضموه ، ثم درسوا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، الأحمى العربي يركب الحمار ويحتزى بالكسرة ، وليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بالجمد ولا بالسَّبط ، في عينيه حمرة مشربُّ اللون . قالوا : فإن كان هذا الذي دعاكم فأجيبوه ، وادخلوا في دينه ، فإننا نحسده ولا نقبه ولنا منه في مواطن بلاء عظيم ، ولا يبقى في العرب أحدٌ إلا اتبعه أو قتله ، فسكونوا ممن يقبمه . قال ميسرة : يا قوم والله ما بقي شيء إلا أن هذا الأمر بين . قال القوم : نرجع إلى الموسم ونلقاه ، ورجع القوم .

إلى بلادهم ، فأبى ذلك عليهم رجالهم ، فلم يقبعه أحدٌ منهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً وحيج حجة الوداع لقيه ميسرة ، فعرفه فقال : يا رسول الله والله ما زلتُ حريصاً على اتباعك منذ يوم رأيتك أنخنتَ بنا حتى كان ما كان ، وأبى الله عز وجل إلا ما ترى من تأخر إسلامي ، وقد مات عامةُ النفر الذين كانوا معي ، فأين مدخلهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات على غير الإسلام فهو في النار . فقال ميسرة : الحمد لله الذي تنقذني . فأسلم ، فحسن إسلامه ، وكان له عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه مكان .

وعن ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم يقال له بَيْتَجْرَةَ ابن فِرَاس : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب ، ثم قال له : أرايت إن تابعتك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيسكون لنا الأمر من بعدك ؟

قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء .

قال : أفنُهْدِفُ^(١) نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا إلا حاجة لنا بأمرك .

فلما صدر الناسُ رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم أدركته السنُّ حتى لا يقدر أن يوافي معهم موسمهم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألمهم عما كان في موسمهم ، فقالوا جاءنا فتى من قريش ثم أحدُّ بنى عبد المطلب يزعم أنه نبي ، يدعوننا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

(١) ابن هشام : أفنُهْدِفُ .

فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ، هل لنا من تلافٍ ،
هل لذنابها^(١) من مَطْلَب ؟ والذي نفس فلان بيده ما تقو لها إسماعيل قط
وإنها لحق ، فأين رأسكم^(٢) كان عنكم ؟ !

وزاد الواقدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قام عن بني عامر
وانصرف إلى راحلته ايركبها أتاه ببيئحة ، ونسبه الواقدي : ببيئحة بن عبد الله
ابن سلمة ، ورجلان معه فخنسوا به راحلته حتى سقط عنها ، ويقال قطعوا
بطان راحلته .

قال : فقامت امرأة منهم يقال لها ضباعة بنت قرط ، وكانت قد أسلمت
وكانت تحت عبد الله بن جدعان ، فكهرته ففارقها وخلف عليها بدمه
هشام بن المغيرة وهي أم ابنه سلمة ، وصاحت : يا بني عامر أبؤذي محمد
وأنا شاهدة ؟ ! فقام إليهم غطيف وغطفان ابنا سهيل وعذرة بن عبد الله بن
سلمة بن قشير ، فضربوهم حتى هزموهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين صنعوا ما صنعوا : اللهم بارك على هؤلاء ، والعن هؤلاء الآخرين . فأسلم
الذين بارك عليهم جميعاً ومات الذين لعن وهم كفار .

وذكر الواقدي أيضاً من حديث جهنم بن أبي جهنم أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقف على بني عامر يدعوهم إلى الله فقام رجل منهم فقال له : هجبا لك
والله ، أعيالك قومك ثم أعيالك أحياء العرب كلها ، حتى تأتيها وتردد علينا مرة
بعد مرة ! والله لأجعلنك حديثاً لأهل الموسم .

ونهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان جالساً فكسر الله عز وجل
ساقه ، فجعل يصيح من رجليه ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه .

(١) دئل يضرب للفوت .

(٢) ابن هشام : فأين رأيكم .

قال الواقدي بإسناد ذكره : وأتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم غسانَ في منازلهم بمسكاظ ، وهم جماعة كثيرة ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

قال : وأن تمنعوا لي ظهري حتى أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة .
فقال رجل منهم : هذا والله يا قوم الذي تذكر الفصاري في كتبها والذي يقولون : بقي من الأنبياء نبي اسمه أحمد ، فتمالوا نؤمن به ونقبه ففكون من أنصاره وأوليائه ، فإنهم يزعمون أنه يظهر على ما بلغ الخلف والحافر ، فيجتمع لنا شرف الدنيا مع ما يكون بعد الموت .

قال القوم : فنكون نحن أول العرب دخل في هذا الأمر فتنصب لنا العرب قاطبةً ويبلغ ملوك بني الأصغر فيخرجوننا من ديارهم ، ولكننا نفق عنه وننظر ما تصنع العرب ، ثم ندخل فيما يدخل فيه الناس .
قال الرجل : يا محمد تأبى عشيرتي أن يتبعوا قولى فيك ، ولو أطاعونى رشدوا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذه القلوب بيد الله عز وجل .
فانصرف عنهم ثم عاد بعد ذلك إليهم فدعاهم إلى الإسلام فقالوا : نرجع إلى من وراءنا ثم نلقاك قابلاً .

فرجعوا فوفد منهم نفر إلى الحارث بن أبي شمر ، فذكروا له أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال الحارث : إياكم أن يتبعه رجل منكم ، إذا يبئد ملكي من الشام ويتهمني هرقل .

قال : فأمسكوا عن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قال : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى محارب بن خصفة بمسكاظ فوجدهم في محالهم فيهم شيخ منهم وهو جالس في أصحابه ، فنزل رسول الله

صلى الله عليه وسلم عن راحلته ودعا إلى الله وطلب المذمة حتى يبلغ رسالات ربه ، فردّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفبجح الرد وقال له : هجباك يا أبى قومك أن يتبعوك ، وتأتى إلى محارب تدعوهم إلى ترك ما كان عليه آبؤهم ! اذهب فإنه غير مُتّبِعك رجل من محارب آخر الدهر .

وَيُقْبَلُ إِلَيْهِ سَفِيهِهِ مِنْهُمْ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ مَا فِي بَطْنِ نَاقَتِي هَذِهِ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا ؟ فَلَمَعَرَى إِنَّكَ لَتَدْعَى مِنَ الْعِلْمِ أَكْبَرَ مِمَّا سَأَلْتَنِي عَنْهُ ، تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يُوْحَى إِلَيْكَ وَيُكَلِّمُكَ .

فَأَسْكَتَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ سَلْمَةُ بْنُ قَيْسٍ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا قَرِيبًا مِنْ مَنْزِلِهِمْ ، فَأَرَادَ أَنْ يَطْرَحَهُ فِي الْبَيْتِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنَجَّحَى عَنِ الْبَيْتِ ، فَجَعَلَ سَلْمَةُ يَقُولُ : لَوْ وَقَعْتَ فِي الْبَيْتِ اسْتَرَحَ مِنْكَ أَهْلُ الْمَوْسِمِ .

وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِزِمَامِ رَاحِلَتِهِ يَقُودُهَا وَهُمْ يرمونها بِالْحِجَارَةِ حَتَّى تَوَارَى عَنْهُمْ وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ لَوْ شِئْتَ لَمْ يَكُونُوا هَكَذَا ، وَإِنْ قُلُوبُهُمْ بِيَدِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ هَذَا عَنْ سَخَطِ بكَ عَلَيَّ فَلَاكَ الْعُتْبَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ .

وَذَكَرَ قَاسِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ حَزْمِ الْعَوْفِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَعْزِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ خَرَجَ وَأَنَا مَعَهُ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ؛ حَتَّى دَفَعْنَا إِلَى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْعَرَبِ فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَسَلَّمَ وَكَانَ رَجُلًا نَسَابَةً وَمَقْدَمًا فِي كُلِّ خَيْرٍ ، فَقَالَ : يَمُنُّ الْقَوْمُ ؟ قَالُوا : مِنْ رِبِيعةٍ . قَالَ :

هو من أى ربيعة؟ أمن هاتمتها أم من لهازمها^(١)؟ قالوا: بل من هاتمتها العظمى،
قال: وأى هاتمتها العظمى أتم؟ قالوا: ذهل الأ كبر.

فذكر الحديث فى مناسبة أبى بكر إياهم ومُقاولته لهم، وانبراء دَغْفَل
ابن حَنْظَلَة النسابة إليه من بينهم وهو يومئذ غلام حين بَقَلَ^(٢) وجهه،
وموافقته لأبى بكر، حتى اجتذب أبو بكر زمامَ الداقة ورجع إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو حديث مشهور تركته لشهرته، مع أن المقصود
فيها بعده.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: ثم دَفَعْنَا إلى مجلس آخر عليهم
السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم وكان مقدماً فى كل خير، فقال:
من القوم؟ قالوا: من شَيْبَان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى النبى صلى الله
عليه وسلم فقال: بأبى أنت وأبى هؤلاء غُرَّرَ فى قومهم. وفيهم مفروق بن
عمرو وهانىء بن قبيصة والثئى بن حارثة والدعمان بن شريك، وكان مفروق
ابن عمرو قد غلبهم جمالا ولسانا، وكانت له غديرتان تسقطان على تربيتيه^(٣)
وكان أدنى القوم مجلسا من أبى بكر.

فقال له أبو بكر: كيف العمد فىكم؟ قال له مفروق: إنا لنزيد على
ألف ولن تقلب ألف من قلة. فقال أبو بكر: فكيف المنعة فىكم؟ قال:
علينا الجهدُ ولكل قوم جد^(٤)، قال أبو بكر: فكيف الحربُ بينكم وبين
عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشدُّ ما نكون غضباً حين نلتقى، وإنا لأشدُّ

(١) اللهازم: جميع لزمة بكسر اللام والزاي، وهى عظم ناتية والحي تحت الأذن
وحما لهزمتان والمراد: الأطراف.
(٢) بقل: خرج شعره.
(٣) الترائب: عظام الصدر.
(٤) الجد: الخط:

مانكون لقاء حين نغضب ، وإنما لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على اللقاح
فالنصر من عند الله ، يُدبِلنا سرّةً ويُدبِل علينا ، لعلك أخو قريش ؟
فقال أبو بكر : أو قد بلغكم أنه رسول الله ؟ فهاهوذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، فإلام تدعو يا أخا قريش ؟
فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله ، وإلى أن تُثوونى وتنصرونى ،
فإن قريشاً قد ظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن
الحق ، والله هو الغنى الحميد .

فقال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟
فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّكُمْ
عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إِمْلَاقٍ
نحن نرزقكم وإيَّاهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا
النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تَعْقِلُونَ » (١) .

فقال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (٢) .

فقال مفروق : دعوتَ الله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن
الأعمال ، ولقد أفك قومٌ كذبوك وظاهروا عليك ، وكأنه أراد أن يشركه في
الكلام هانىء بن قبيصة .

(١) سورة الأنعام .

(٢) سورة النحل .

فقال : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

فقال هانىء : قد سمعتُ مقاتلَكَ يا أخا قريش ، وإني أرى أن تره كنا ديننا واتباعنا إياك على دينك ، لِمَجْلَسِ جَلَسْتَهُ إِلَيْنَا لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ ، زَلَّةٌ فِي الرَّأْيِ وَقَلَّةٌ فِي الْعَاقِبَةِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الزَّلَّةُ مَعَ الْعَجَلَةِ ، وَمِنْ وَرَائِنَا قَوْمٌ نَكْرَهُ أَنْ نَعْقُدَ عَلَيْهِمْ عَقْدًا ، وَاسْكُنْ تَرْجِعَ وَتَرْجِعْ وَتَنْظُرَ وَتَنْظُرَ . وَكَأَنَّهُ أَحَبُّ أَنْ يَشْرَكَهُ فِي الْكَلَامِ الْمُثْنِي بْنُ حَارِثَةَ فَقَالَ : وَهَذَا الْمُثْنِي بْنُ حَارِثَةَ شَيْخُنَا وَصَاحِبُ حَرِّبْنَا .

فقال المثنى : قد سمعتُ مقاتلَكَ يا أخا قريش ، والجوابُ هو جوابُ هانىءِ ابنِ قبيصة في تركِ ديننا واتباعنا إياك لمَجْلَسِ جَلَسْتَهُ إِلَيْنَا لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ وَإِنَّمَا مَنزِلُنَا بَيْنَ صَرِيحِي^(١) الْيَمَامَةِ وَالسَّمَامَةِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا هَذَانِ الْعَصْرِيَانِ ؟ فَقَالَ : أَنَهَارُ كَسْرِي وَمِيَاهُ الْعَرَبِ ، فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَنَهَارِ كَسْرِي فَذَنْبُ صَاحِبِهِ غَيْرُ مَغْفُورٍ وَعِذْرُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ ، وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَنَهَارِ الْعَرَبِ فَذَنْبُ صَاحِبِهِ مَغْفُورٌ وَعِذْرُهُ مَقْبُولٌ ، وَإِنَّا إِنَّمَا نَزَلْنَا عَلَى عَهْدٍ أَخَذَهُ عَلَيْنَا كَسْرِي أَلَا نُحَدِّثُ حَدَثًا وَلَا نُؤْوِي مُحَدِّثًا ، وَإِنِّي أَرَى أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ هُوَ مِمَّا تَكْرَهُهُ الْمَلُوكُ ، فَإِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ نُؤْوِيكَ وَنَنْصُرَكَ مِمَّا يَلِي مِيَاهَ الْعَرَبِ فَعَلْنَا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله ان ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، رأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويُفرشكم نساءهم أتسبِّحون الله وتقدسونه ؟

فقال النعمان : اللهم لك ذا .

(١) المصري : الماء المجتمع . النهاية ٢ / ٢٨٥ .

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنا أرسلناك شاهداً ومُبَشِّراً
ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسيراً جاً مَنيراً » .

ثم نهض النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي فقال : يا أبا بكر يا أبا حَسَن
أية أخلاق في الجاهلية ما أشرفها ! بها يدفع الله بأسَ بضعهم عن بعض
وبها يتعاجزون فيما بينهم .

* * *

قال ابن إسحق : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره
كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ويعرض
عليهم نفسه وما جاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة ، ولا يسمع بقادم قدم^(١)
مكة [من العرب]^(٢) له اسم وشرف إلا تصدَّى له فدعاه إلى الله وعرض
عليه ما عنده .

وقديم سُوَيْدُ بن صامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجاً أو مُعْتَمِراً ،
فتصدَّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له
سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي .

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان ،
يعنى حكمة لقمان .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها عليّ فعرضها عليه . فقال :
إن هذا الكلام حَسَنٌ والذي معي أفضل من هذا ، قرآنٌ أنزله الله عليّ
هو هدى ونور .

(١) ابن هشام : يقدم .

(٢) من ابن هشام .

فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعُد منه ، وقال : إن هذا القول حسن .

ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلتُه الخزرج قبل بُعَاث .

فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قُتل وهو مُسلم . وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل ، جَلَدَه وشِعْرَه وشرفه ونسبه وهو القائل :

أالرُبِّ من تدعو صديقاً ولو ترى مقاتله بالغيب ساءك ما يفتري^(١)
مقاتله كالشهد ما كان شاهداً وبالغيب مأثور^(٢) على نُفْرَةِ النجرِ
يسرك باديه ونحت أديمه تميمه غش تبثري^(٣) عقب الظهر
تبين لك العيمان ما هو كاتم من الغلِّ والبنضاء بالظفر الشزيرِ
فرشني بخير طال ما قد برّبتني وخير الموالى من يرش ولا يهري

* * *

ولما قدم أبو الحَيَسر أنسُ بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياسُ بن معاذ يلتتمسون الحِلْفَ من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وما ذلك ؟ قال : أنا رسول الله بمثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب . ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

(١) يفتري : يفتري .

(٢) المأثور : السيف الموشى .

(٣) تبثري : تقطع .

فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حَدَّثَنَا : أئى قوم ، هذا والله خير لكم مما جئتم له .

فياًخذُ أبو الحَيْسِر حَفَنَةً مِنَ الْبَطْحَاءِ فَضْرَبُ بِهَا وَجْهَ إِيَّاسٍ وَقَالَ : دَعْنَا مَدَك ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ جِئْنَا لَنُغِيرَ هَذَا .

فصمّت إِيَّاس . وَقَامَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَانصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَكَانَتْ وَقْعَةٌ بَعَثَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالنَزْرَجِ .

ثُمَّ لَمْ يَلْبِثْ إِيَّاسُ أَنْ هَلَكَ ، فَأَخْبَرَ مَنْ حَضَرَ مِنْ قَوْمِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ أَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا يَسْمَعُونَهُ يَهْتَلِلُ اللَّهُ وَيُكَبِّرُهُ وَيُحْمَدُهُ وَيُسَبِّحُهُ حَتَّى مَاتَ .

فَمَا كَانُوا يَشْكُرُونَ أَنْ قَدِمَاتِ مُسْلِمًا ، لَقَدْ كَانَ اسْتِشْعَارَ الْإِسْلَامِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ حِينَ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا سَمِعَ .

بَدءُ إِسْلَامِ الْأَنْصَارِ

وَذِكْرُ الْعَقَبَةِ الْأُولَى

قال ابن إسحاق : فلما أراد الله إظهارَ دينه وإعزازَ نبيه وإنجازَ موعوده له ،
خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار
فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند
العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا :
نفرٌ من الخزرج . قال : أين موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون
أكلَّكم ؟ قالوا : بلى .

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .
وكان مما صنع الله به^(١) في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم ،
وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شريك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد
عزَّروهم^(٢) ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوثاً
الآن قد أظلم زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال
بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود ،
فلا يسبقنكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلاء
وقالوا له : إنا تركنا قومنا ، ولا قومَ بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فإن
يجمعهم الله عليك فلا رجلَ أعزُّ منك . ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد
آمَنوا وصدقوا .

(١) ابن هشام : بهم .

(٢) ابن هشام : عزروهم . وعزروهم : غلبوهم

وهم فيما ذكر لي ، ستة نفر من الخزرج : منهم من بنى الفجار أسعد بن زُرارة أبو أمامة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عفراء . ومن بنى زُرَيْق رافع بن مالك بن الديجلان ، ومن بنى سلمة قُطبة بن عامر بن حديدة ، وعُقبة بن عامر بن نابی ، وجابر بن عبد الله بن رثاب .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعواهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم يَبْقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذِكرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فيهم من الستة المسمين قبلُ : أبو أمامة وعوف ورافع وقُطبة وعُقبة ، ومن غير الستة من الخزرج أيضا : ذَكَوان بن عبد قيس بن خَلْدَةَ الزُّرقي وعُبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة من بنى غُصَيَّة من بنى حليف لهم ، والعباس بن عُبادة بن نَضَلَةَ العَجَلاني ، ومعاذ بن الحارث بن رفاعة ، وهو ابن عفراء ، ومن الأوس : أبو الهيثم بن مالك بن التَّمِيهان ، وعُوَيْم بن ساعدة ، فلقوه بالعُقبة ، وهي المقبة الأولى .

قال عُبادة بن الصامت : كنت ممن حضر المقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلا ، بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء^(١) وذلك قبل أن تُفرض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأني بَهْتَانَا نَفَرِيه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف .

قال : فَإِنْ وَقَّيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةُ ، وَإِنْ غَشَّيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا [فَأَصَبْتُمْ بَعْدَ

(١) هي البيعة المذكورة في القرآن في قوله تعالى : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يسرن بالله شيئا ولا يسرفن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف » .

في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سُتِرْتُمْ عليه إلى يوم القيامة^(١) [فأمركم إلى الله ،
إن شاء عذَّب وإن شاء غفر .

قال ابن إسحاق : فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
معهم مُصَنَّبَ بنِ مُحَيْرِ بنِ هَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ عَبْدِ الدَّارِ بنِ قُصَيِّ ، وأمره
أن يُقْرَأَهم القرآنَ ويعلِّمَهُم الإسلامَ ويفقهَهُم في الدين ، فسكان مصعب يسمي
المقرئ بالمدينة ، وكان مَنزِلُهُ على أسعد بن زُرارة بن عدس أبي أمامة ،
وكان يصلي بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمَّهُ بعضٌ .

(١) سقطت هذه الجملة من ابن هشام .

إسلام سعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْرِ على يدي

مُصَنَّبِ بنِ عَمِيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَمَّنْ سَمِعَ مِنْ شَيْوِخِهِ أَنَّ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ خَرَجَ بِمُصَنَّبِ بْنِ عَمِيرٍ يَرِيدُ بِهِ دَارَ بَنِي الْأَشْهَلِ وَدَارَ بَنِي ظَفَرٍ ، فَدَخَلَ بِهِ حَائِطًا مِنْ حَوَائِطِ بَنِي ظَفَرٍ ، فَجَلَسَا فِيهِ وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِمَا رِجَالٌ مِنْ أَسْلَمَ .

فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ وَأَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدَا قَوْمِهِمَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ وَكُلَاهُمَا مُشْرِكٌ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ ، قَالَ سَعْدٌ لِأَسِيدٍ : لَا أَبَالُكَ أَنْ تَأْتِيَ بِنِي هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ الَّذِينَ أَتَيْتَا دَارَيْنَا لِيَسْقِيَهُمَا ضِعْفَانَا فَازْجُرَاهُمَا وَإِنَّهُمَا عَنْ أَنْ يَأْتِيَا دَارِيْنَا ، فَإِنَّهُ لَوْ لَا أَنَّ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ مَنَى حَيْثُ عَلِمْتَ كَفَيْتَكَ ذَلِكَ ، هُوَ ابْنُ خَالَتِي وَلَا أَجِدُ عَلَيْهِ مَقْدَمًا .

فَأَخَذَ أَسِيدٌ حَرَبَتَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِمَا ، فَلَمَّا رَأَى أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ قَالَ لِمُصَنَّبِ : هَذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَكَ فَاصْطَبِقْ اللَّهَ فِيهِ .

قَالَ : فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا فَقَالَ : مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَيْنَا تَسْفِهَانِ ضِعْفَانَا ، اعْتَزَلَانَا إِنْ كَانَتْ لَكُمَا بَأْنَفْسِكُمَا حَاجَةٌ .

فَقَالَ لَهُ مُصَنَّبِ : أَوْ تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ ، فَإِنْ رَضَيْتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفِّ عَنكَ مَا تَسْكُرُهُ .

قَالَ : أَنْصَفْتَ ثُمَّ رَكَزَ حَرَبَتَهُ وَجَلَسَ إِلَيْهِمَا ، فَكَلَّمَهُ مُصَنَّبٌ بِالْإِسْلَامِ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، فَقَالَا فِيمَا يَذْكَرُ عَنْهُمَا : لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسْتَهْلِهِ .

ثُمَّ قَالَ : مَا أَحْسَنَ هَذَا وَأَجْمَلَ ، كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينِ ؟ قَالَ لَهُ : تَغْتَسِلُ فَيَتَهَلَّلُ وَتَطَهَّرُ ثَوْبَيْكَ ثُمَّ تَتَشَهَّدُ الْحَقَّ ثُمَّ تَعْتَلِي .

فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين
ثم قال لهما : إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله
إليكما الآن ، سعد بن معاذ .

ثم انصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد
مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما وقف على الدادى قال له سعد : ما فعلت ؟ قال قلت الرجلين فوالله
ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نعمل ما أحببت . وقد حدثت
أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه
ابن خالتك ليخفروك .

فقام سعد مُنْضَباً مهادراً متخوفاً للذي ذكر له من بنى حارثة ، فأخذ
الحربة من يده ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئاً .

ثم خرج إليهما فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد أن يسمع
منهما ، فوقف عليهما متشتتا ثم قال : يا أبا أمامة والله لولا ما بيني وبينك من
القربة ما رُميت هذا منى ، أتغشانا في دارينا بما نكره !

وقد قال أسعد لمصعب بن عمير : أي مصعب ، جاءك والله سيد من
وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان .

فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته
وإن كرهته عزلتنا عنك ما تكره .

قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام
وقرأ عليه القرآن .

قالا : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسلطه ،
ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أتمت أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟

قالا : تغتسلُ فتطهرُ ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين .
فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق وركع ركعتين ، ثم أخذ
حربته فأقبل حامدا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حُضَيْر ، فلما رآه قومه مقبلا
قالوا : نحذف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟
قالوا : سيدنا أفضلنا رأيا وأيمننا نهيبةً . قال : فإن كلام رجالكم ونساءكم
حرام على حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

قال : فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مُسَلِّمًا
أو مُسَلِّمةً . ورجع مُصنَّب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس
إلى الإسلام ، حتى لم يبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ،
إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف ، وتلك أوسُ الله ،
وهم من الأوس بن حارثة

وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأشلت وكان شاعرا لهم قائدا يسمعون
منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله
عليه وسلم ومضى بدر وأحد والخندق ، وقال فيما رأى من الإسلام وما اختلف
الناس فيه من أمره :

أربَّ الناسِ أشيالا أَلَمْتُ يُلَفُّ الصَّعبُ منها بالذُّلولِ

أربَّ الناسِ إِمَّا إن ضَلَلْنَا^(١) فيسِّرُنَا لمعروفِ السَّبيلِ

فلولا ربُّنَا كُنَّا يهودًا وما دِنُ اليهودِ بذى شُكولِ^(٢)

(١) ابن هشام : أما إذ ضللنا .

(٢) يعنى أنه لا نظير له من الحق ، والفكول جمع شكل وهو المثل والشبيه .

ولولا ربُّنا كنا نصارى مع الرهبان في جَبَلِ الْجَلِيلِ (١)
ولكنا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا حَنِيفًا دِينُنَا عَنْ كُلِّ جَيْلٍ
نَسُوقِ الْهَدَى تَرْسُفُ مُذْعَفَاتٍ مُسَكَّشَةً الْمَنَاكِبِ فِي الْجُلُولِ (٢)

ذكر العقبة الثانية

قال ابن إسحاق : ثم إن مُصَنَّبَ بن عُمَيْرٍ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ ، وَخَرَجَ مَنَ خَرَجَ
مِنَ الْأَنْصَارِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ حُجَّاجٍ قَوْمِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ حَتَّى قَدِمُوا مَكَّةَ ،
فَوَاعَدُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَقْبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ النَّشْرِيقِ ،
حِينَ أَرَادَ اللَّهُ مَا أَرَادَ مِنْ كِرَامَتِهِ وَالنَّصْرَ لِدِينِهِ وَإِعْزَازَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ
وَإِذْلَالَ الشَّرْكِ وَأَهْلَهُ .

حَدَّثَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ الْعَقْبَةَ وَبَايَعَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : خَرَجْنَا فِي حُجَّاجٍ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ صَلَّيْنَا
وَقَفُّنَا ، وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ سَيِّدُنَا وَكَبِيرُنَا ، فَلَمَّا وَجَّهْنَا لِسْفَرِنَا وَخَرَجْنَا
مِنَ الْمَدِينَةِ قَالَ لَنَا الْبَرَاءُ : يَا هَؤُلَاءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي
أَتَوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لَا . فَقُلْنَا : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ الْآدَعِ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ
مِنِّي بَطْنِي ، يَعْنِي السَّكْبَةَ ، وَأَنْ أَصَلِّيَ إِلَيْهَا . فَقُلْنَا : وَاللَّهِ مَا بَلَّغْنَا أَنْ نَبِيدَ
يَصِلُ إِلَّا إِلَى الشَّامِ ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نَخَالَفَهُ . فَقَالَ : إِنِّي لُمُصَلِّ إِلَيْهَا . فَقُلْنَا لَهُ :
لَسْنَا لَا نَفْعَلُ .

فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ وَصَلَّى إِلَى السَّكْبَةِ ، حَتَّى
قَدِمْنَا مَكَّةَ ، فَلَمَّا قَدِمْنَاهَا وَقَدْ كُنَّا عَيْبِنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعْنَا ، قَالَ لِي : يَا بْنَ أَخِي انْطَلِقْ
بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَسْأَلَهُ عَمَّا صَنَعْتُمْ فِي سَفَرِي هَذَا

(١) قال السهيلي : الجليل بالميم الشام ، وهذا الجبل من جبال الشام معروف بهذا الاسم .

(٢) الجلول : جمع جل وهو ما تلبسه الدابة لتحصن به .

فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء لما رأيت من خلافكم إياي فيه .
فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا لا نعرفه لم نره قبل ذلك ،
فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عنه فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا . فقال :
هل تعرفان العباسَ عمه ؟ قلنا : نعم . وقد كنا نعرف العباسَ كان لا يزال
يقدم علينا تاجراً . قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس .

فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس
معه ، فسلمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس : هل
تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه
وهذا كعب بن مالك .

فوالله ! ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشاعر ؟ قال : نعم .
فقال له البراء بن معرور : يا نبي الله إني خرجت في سفري هذا وقد هداني
الله للإسلام ، فرأيت ألا أجعل هذه البنيّة مني بظلمٍ ، فصليت إليها ، وخالفني
أصحابي في ذلك ، حتى وقع في نفسي منه شيء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟
قال : قد كنت على قبيلةٍ لو صبرت عليها .

فرجع البراء إلى قبيلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معنا إلى الشام .
قال : وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات ، وليس كما قالوا ،
نحن أعلم به منهم .

قال كعب : ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام ، أبو جابر ،
سيد من ساداتنا أخذناه معنا وكنا نسكت من معنا من المشركين أمرنا ،
فكلمناه وقلنا : يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ،

وإنا ترغّبُ بك أن تكون حطبا للدار غدا . ثم دعونا إلى الإسلام وأخبرناه
بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا العقبّة ، فأسلمَ وشهد معنا وكان نقيبا .
فمنما تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا
لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلل تسلل القطا مُستخفين ، حتى اجتمعنا
في الشعب عند العقبّة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نساءنا ،
نُسَيبة بنت كعب أم مُحارة ، إحدى نساء بنى مازن بن النجار ، وأسما بنت
عدي بن عمرو بن نابي ، أم منيع ، إحدى نساء بنى سلمة ، فاجتمعنا في الشعب
ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا معه عمه العباس وهو يومئذ
على دين قومه إلا أنه أحبّ أن يحضر أمرَ ابن أخيه ويتوثق له .

فلما جلس كان أول متكلم العباسُ فقال : يا معشر الخزرج - وكانت العرب
إنما يسمون هذا الحيّ من الأنصار الخزرج ، خزرجها وأوسها - إن محمداً منا
حيث قد علمتم وقد منعه من قومه ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزٍّ من
قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أتى إلا الانحياز إليكم والحق بكم ، فإن كنتم
ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه فأنتم وما تحمّلتهم
من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوهُ وخاذلوه بعد الخروج به إليكم
فن الآن فدعوه ، فإنه في عزو ومنعة من قومه وبلده .

فقلنا له : قد سمعنا ما قلت . فتكلّم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك

ما أحببت .

فتكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب
في الإسلام ، ثم قال : أبايكم على أن تمنعوني مما^(١) تمنعون منه نساءكم وأبنائكم .
فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع

(١) ط : بما .

منه أزرنا^(١) فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب وأهل الخلة ورثناها كبراً عن كابر .

فاعترض القول ، والبراء يتكلم ، أبو الهيثم بن التيهان فقال : يارسول الله إن بيدنا وبين ارجال حبالا ونحن قاطعوها ، يعنى اليهود ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

قال كعب : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً يكونون^(٢) على قومهم بما فيهم .

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، من الخزرج : أبو أمامة أسعد بن زُرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رَوَاحَة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء بن مَعْرور ، وعبد الله بن حَرَام ، وعُبادة ابن الصامت وسعد بن عبادة بن دُلَيْم ، والمنذر بن عمرو . ومن الأوس : أسيد ابن حُضَيْر ، وسعد بن خَيْشَمَة ورفاعة بن عبد المنذر .

قال ابن هشام : وأهل العلم يُعدّون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ولا يعدون رفاعة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كنفلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي . قالوا : نعم .

وحدث عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عبادة بن نضلة ، أخو بني سالم بن عوف :

(١) الأزر : النساء أو الأنفس .

(٢) ابن هشام : ليكونوا .

يا معشر الخبزج : هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال :
إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم
إذا نهكت أموالكم مصيبةً وأشرافكم قتلًا أسأتموه فن الآن ، فهو والله
إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه
إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك
يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة .

قالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

قال عامر : والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله صلى الله
عليه وسلم في أعناقهم . وقال غيره : ما قاله إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء
أن يحضرها عبد الله بن أبي بن سؤل فيكون أقوى لأمر القوم . فإله أعلم
أى ذلك كان .

قال ابن إسحق : فبهو النجار يزعمون أن أبا أمية أسعد بن زرارة كان أول
من ضرب على يده ، وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان .

وفي حديث معبد بن كعب عن أخيه عبد الله عن أبيه قال : كان أول
من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور ، ثم بايع
القوم ، فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة
بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجبابج ، وهي المنازل ، هل لكم في مذمم
والصبياء معه قد اجتمعوا على حربكم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أرب العقبة هذا ابن أرب ،
ويقال ابن أرب ، أسمع أئى عدو الله ، أما والله لأفرغن لك .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفضوا إلى رحالكم . فقال له العباس

ابن عُبَادَةَ بن نَضْلَةَ : والذي بعثك بالحق إن شئت لنمينا على أهل مِثْيَ
بأسيافنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أومر بذلك ، ولكن ارجعوا
إلى رحالكم . فرجعنا إلى مضاجعنا فمنا عليها .

فلما أصبحنا غدت علينا جيلة قريش حتى جاءونا في منازلنا ، فقالوا :
يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من
بين ظهورنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى في العرب أبغض
إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث من هنالك من مشركي قومنا يخلفون بالله ما كان من هذا شيء ،
وما علمناه . وصدقوا ، لم يعلموه ، وبعضنا ينظر إلى بعض .

ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام الخزومي ، وعليه نعلان له جديدان
فقلت له كلمة ، كأنني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا : يا أبا جابر ما تستطيع
وأنت سيّد من سادتنا أن تتخذ مثل نمل هذا الفتى من قريش ١٩ فسمعها
الحارث فغلمهما من رجليه ، ثم رمى بهما إلى قول : والله لقتلتكما .

قال : يقول جابر : مَهْ أَحْفَظْتَ وَالله الفتى ، فاردد إليه نعليه . قلت :
والله لا أردّهما ، قَالِ وَالله صالح والله لئن صدق القال لأسلبينه .

وفي حديث غير كعب أنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال مثل
ما قال كعب من القول ، فقال لهم : إن هذا لأمرٌ جسيم ، ما كان قومي
ليتفوتوا عليّ بمثل هذا ، وما علمته كان . فانصرفوا عنه .

ونفر القاس من مِثْيَ ، فتنطس^(١) القوم الخبر ، فوجدوه قد كان ،
وخرجوا في طلب القوم ، فأدركوا سمدة بن عبادة بأذاخر والمنذر بن عمرو

(١) التنطس : المبالغة في النظر في الأمور .

أخا بنى ساعدة ، وكلاهما كان نقيبا ، فأما المنذر فأهجز القوم ، وأما سعد
فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسج^(١) رَحْلِهِ ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة ،
بضربونه ويجذبونه بُجْمَتِهِ^(٢) ، وكان ذا شَعْرٍ كَثِيفٍ .

قال سعد : فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع نفر من قريش ، فيهم رجل
وضي لا أبيض شَمَشَاع^(٣) حاو من الرجال .

قال فقلت في نفسي : إن بك عند أحد من القوم خير فمعد هذا .
فلما دنا مني ، رفع يده فلكني لكفة شديدة ، فقلت في نفسي : لا والله ،
ما عندهم بعد هذا من خير .

فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى إلى رجل من معهم ، فقال :
ويحك ! أما بينك وبين أحد من قريش تجارة ولا عهد ؟ فقلت : بلى والله لقد
كنت أجز بـجُبَيْرِ بْنِ مُطَيْمِ تِجَارَةٍ وَأَمْنَعُهُمْ مِمَّنْ أَرَادَ ظَلَمَهُمْ بِبِلَادِي ،
وللعارث بن حرب بن أمية . قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر
ما بينك وبينهما .

قال : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما عند الكعبة ، فقال لهما :
إن رجلا من الخزرج الآن يُضْرَبُ بِالْأَبْطَحِ لَيْتَمِيفِ بَكا ويذكر أن بيده وبينكما
جوارا . قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة . قالا : صدق والله ، إن كان
ليجز لنا تجارنا ويمنعهم أن يُظلموا ببِلادِهِ .

قال : فجاءا فخلصا سعدا من أيديهم ، وكان الذي لكم سعدا سهيل

ابن عمرو .

(١) النسج : الصراك الذي يشد به الرجل .

(٢) الجمة : شعر الرأس المجتمع .

(٣) الشمشاع : الطويل الحسن .

قال ابن هشام : والذى أوى له أبو البختري بن هشام .
قال ابن إسحق : فكان أول شعر قيل في الهجرة بيتين قالهما ضيرار بن
الخطاب بن مرداس أخو بني محارب بن فهر . قال :

تداركت سعدًا عدوة فأخذته وكان شقاة لو تداركت مُنذرًا
ولو نلتَه ظَلَّتْ هناك جراحة وكان حقيقا أن يُهان ويُهدرًا
فأجابه حسان بن ثابت فقال :

لست إلى عمرو^(١) ولا المرء مُنذرٍ إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرًا
فلولا أبو وهبٍ لمرت قصائدُ على شرف البرقاء^(٢) يهوين حُسْرًا
أنفخر بالكتان لَمَّا لبسته وقد تلبس الأنباط رِيظًا مُقصرًا^(٣)
فلا تكُ كالوشنان يَحلمُ أنه بقرية كسرى أو بقرية قيصَرًا
ولا تكُ كالشكلى وكانت بمزل عن الشكلى لو كان الفؤادُ تفكرًا
ولا تكُ كالشاة التي كان حَقْفها بحفر ذراعها فلم ترضَ تحفرا
ولا تكُ كالأوى فأقبل نحره ولم يخشهُ سهمٌ من النبل مُضمرا
فإننا ومن يهدي القصائدَ بحونا كمُسْتَبضعٍ تمرا إلى أرضٍ خيبرًا

* * *

قال : فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها ، وفي قومههم بقايا من شيوخ
لهم على دينهم من الشرك ، منهم عمرو بن الجموح ، وكان ابنه معاذ شهد
العقبة وبايع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عمرو سيداً من سادات

(١) ابن هشام : سعد .

(٢) البرقاء : موضع بالبادية .

(٣) الريط : الملاحف البيض .

بنى سلمة وشريفًا من أشرفهم ، وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يقال له مناة كما كانت الأشراف يصنعون ، يتخذها إلهًا يعظمه ويطهره^(١) ، فلما أسلم فتيان بنى سلمة ، ابنة معاذ ومعاذ بن جبل ، في فتیان منهم ممن أسلم وشهد العقبة ، كانوا يُدْجُونَ بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في بعض حُقَرِ بنى سلمة وفيها عِدْرُ الناس ، مَدَكَّسًا على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال : ويلكم مَنْ عَدَا على آلمتنا هذه الليلة ! ثم يقدو يلمسه ، حتى إذا وجده غسله وطرَّه وطيَّبه ، ثم قال : أما والله لو أعلم مَنْ فعل بك هذا لأخزيته .

فإذا أمسى ونام عمرو عَدَوْا عليه ففعلوا به مثل ذلك ، فيقدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيَّبه ، ثم يقدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أكَثَرُوا عليه استخرجوه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطرَّه وطيَّبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له : إني والله ما أعلم من يصنع بك ماترى ، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عَدَوْا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بنى سلمة فيها عِدْرٌ من عِدْرِ الناس ، وغدا عمرو بن الجوح فلم يجده في مكانه فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر مَدَكَّسًا مقرونًا بكلب ميت ، فلما رآه أبصر^(٢) شأنه ، وكلمه مَنْ أسلم من قومه فأسلم رحمه الله وحَسُنَ إسلامه ، فقال حين أسلم وعرف

(١) ابن هشام : يتخذها إلهًا تعظمه ويطهره .

(٢) ابن هشام : وأبصر . وما هنا أصح .

من الله ما عرف ، يذكر^(١) صنمه ذلك وما أبصر من أمره ، ويشكر الله
الذى أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كمت إلهاً لم تكن أنت إوكاب وسطاً بئر في قرن^(٢)
ثفت لملقناك إلهاً مستند^(٣) الآن فثشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلى ذى المنن الواهب الرزاق ديان الدين^(٤)
هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون فى ظلمة قبر مرتين

[الإذن بالقتال]

قال ابن إسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة
لم يؤذن له فى الحرب ولم يحمل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله تبارك
وتعالى والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت
من اتبعه من قومه حتى فتدوم عن دينهم ونفوسهم عن بلادهم ، فهم من بين
مفتون فى دينه وبين معذب فى أيديهم وبين هارب فى البلاد منهم ، منهم
بأرض الحبشة ، ومنهم بالمدينة وفى كل وجه .

فلما عتت قريش على الله وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ،
وكذبوا نبيه وعذبوا ونفوا من عبده ووحدته وصدق نبيه واعتصم بدينه ،
أذن الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال والامتناع
والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم .

(١) ابن هشام : وهو يذكر .

(٢) القرن : الجبل .

(٣) مستند : ذليلاً مستعبداً .

(٤) الدين : جمع دينة وهى العادة ، ويقال لها أيضاً دين . ويجوز أن يكون أراد
بالدين : الأديان أى هو ديان أهل الأديان ، ولكن جمعها على الدين لأنها ملل ونحل . انظر
الروض الأنب .

فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والفعال لمن بَغَى عليهم ، فيما بلغني عن هروة بن الزبير وغيره من العلماء ، قول الله تبارك وتعالى : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظَلَمُوا وَإِنْ لَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَعْرِهِمْ لَغَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمُ الْأَرْضَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ^(١) » .

ثم أنزل الله عليه : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ » أي حتى لا يُفتن مؤمن عن دينه « وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » أي وحتى يُعبد الله لا يُعبد غيره ^(٢) .

(١) سورة الحج ٣٩ - ٤١ .

(٢) ابن هشام : مع غيره .

بَدَأَ الْهَجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ

قال ابن إسحاق : فلما أذن الله تبارك وتعالى لرسوله في الحرب ، وبأيمه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والثمرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللاحق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً يأمنون بها .

فخرجوا أرسالا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

فكان أول من هاجر إليها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش من بنى مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد ، هاجر إليها قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدم مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً .

قالت أم سلمة : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه وحمل معي ابني سلمة في حجرى ، ثم خرج بي يقود بعيره ، فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ؟

قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه ، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة فقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا . فتجادبوا بئى سلمة بينهم حتى خلعوا يدها وانطلق به بنو عبد الأسد .

وحبسنى بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجى أبوسلمة إلى المدينة ، ففرقت بينى وبين زوجى وبين ابنى ، فسكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنة أو قريباً منها . حتى مرّ بي رجل من بنى عمى فرأى ما بى فرحنى فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون من هذه المسكينة^(١) ! فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

فقالوا لى : الحق بزواجك إن شئت . وردّ بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابنى ، فارتحلت بعميرى ثم أخذت بنى فوضعتة فى حجورى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة وما معى أحد من خلق الله ، قلت : أتبلغ بمن أقيمت حتى أقدم على زوجى .

حتى إذا كنت بالتميم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، أخوا بنى عبد الدار ، فقال : إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ قلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أو ما معك أحد ؟ قلت : لا والله ، إلا الله وبى هذا ! قال : والله مالك من مترك . فأخذ بخطام البعير يقودنى معه يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه كان إذا بلغ المنزل أباخ بى ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت استأخر بعميرى فخط عنه ثم فیده فى الشجر ، ثم تدعى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا ذنا الرواح قام إلى بعميرى فرحله ثم استأخر عنى فقال اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بعميرى أتى فأخذ بخطامه فتادنى حتى ينزل بى .

فلم يزل يصعب ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظرنا إلى قرية بنى عمرو ابن عوف وكان أبوسلمة بها ، قال : زوجك فى هذه القرية فادخلها على بركة الله .

(١) ابن هشام : ألا تخرجون هذه المسكينة . وذكر بحقوق الكتاب أن الأصل : ألا تخرجون من هذه المسكينة . فيكون ما هنا أولى وأصح .

ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

فكانت أم سلمة تقول : ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً كان أكرم من عثمان بن طلحة !

* * *

قال ابن إسحاق : ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة عامرُ ابن ربيعة حليف بني عدى بن كعب ، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة ابن غنم ، ثم عبد الله بن جحش بن رئاب من بني غنم بن دودان بن أسد بن خزيمه حليف بني أمية بن عبد شمس ، احتمل بأهله وبأخيه أبي أحمد عبّيد ابن جحش ، وكان أبو أحمد رجلاً ضريراً البصر يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعراً وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب .

ففلقت دارُ بني جحش هجرةً ، فرَّ بها عُتْبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام فنظر إليها عقبه نَحْفِقِ أبوها يَبَاباً^(١) ليس فيها ساكن ، فتنفس الصعداء ثم قال :

وكلُّ دارٍ وإن طالَّتْ سلامتها يوماً ستُدْرِكها الفسكُ والبُؤسُ^(٢)

ولما خرج بنو جحش من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة أخى بني عامر بن لؤي ، فذكر ذلك عبد الله بن جحش ، لما بلغه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً في الجنة خيراً منها ؟ قال : بلى . قال : فذلك لك .

(١) يبابا : قفرا .

(٢) الحوب هما : الحزن والوحشية .

فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة كله أبو أحمد في دارهم
خائباً عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الناس لأبي أحمد : يا أبا أحمد
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن ترجعوا في شيء أصيب منكم
في الله . فأمسك عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

وكان بنو غنم بن دودان أهل الإسلام قد أوعبوا (٢) إلى المدينة مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم هجرة رجالهم ونساءهم ، فقال أبو أحمد بن جحش
يذكر هجرة بنى أسد بن خزيمه من قومه إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله ،
وإيمانهم في ذلك حين دُعوا إلى الهجرة :

لو حلفت بين الصفا أم أحمدٍ ومروّتها بالله برّت يمينها
لنحن الأولى كفا بها ثم لم نزل بمكة حتى عاد غنا سمينها
بها خيمت غنم بن دودان وانبتت وما أرعدت غنم وخفّ قطينها
إلى الله تمدو بين مثنى وواحدٍ ودين رسول الله بالحق دينها
وقال أبو أحمد أيضاً :

لما رأني أم أحمد غادياً بدمية من أخشى بغيب وأزهب
تقول فيما كنت لا بدّ فاعلا فيمم بنا البلدان ولتناً يثرب
فقلت لها : ما يثرب بمظنة وما بشأ الرحمن فالعبد يرّكب
إلى الله وجهي والرسول ومن يقيم إلى الله يوماً وجهه لا يحيب
فكم قد ترّكنا من حميم مُناصحٍ وناصحٍ تبكي بدمعٍ وتندب
ترى أن وترّا نأينا عن بلادنا ونحن نرى أن الرغائب نطلب

(١) خبر اغتصاب دار بنى جحش عن غير ابن إسحاق .

(٢) أي هاجروا جميعاً لم يبق منهم أحد .

دعوتُ بني غنمٍ لحقنِ دماهمُ وللاحقُ لَمَّا لاح للناسِ ملحَبٌ^(١)
 أجاوبوا بحمدِ اللهِ لَمَّا دعاهمُ إلى الحقِّ دايعٍ والنجاريحِ فأزعَبُوا
 وكنا وأصحاباً لنا فارقوا الهدى أعانوا علينا بالسلاحِ وأجلَبُوا
 كفوجينِ أمَّا منهما فموقِّقٌ على الحقِّ مهديٌّ وفوجٌ معذبٌ
 طغوا وتمنَّوا كذبةً وأزائمهم عن الحقِّ إبليسٌ نجابوا وخيَّبوا
 ورُغناً^(٢) إلى قولِ النبيِّ محمدٍ فطاب ولاةُ الحقِّ منا وطيبُوا
 نمتُ بأرحامِ إليهمِ قريبةً ولا تُقربَ بالأرحامِ إذ لا تُقربُ
 فأى ابنِ أختٍ بعدنا يأمَنُكم وأيةُ صِهْرٍ بعد صِهْرِي يُرَقِّبُ^(٣)
 ستعلمُ يوماً أينما إذ تزايلوا وزيل أمر الناسِ لاحقٌ أضوبُ

* * *

ثم خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعيَّاش بن أبى ربيعة الخزومى ،
 حتى قدما المدينة .

قال عمر رضى الله عنه : لَمَّا أوردنا الهجرةَ إلى المدينة اتعدتُ أنا وعيَّاش
 ابن أبى ربيعة وهشام بن العاص التناضبَ من أضاةِ بنى غنمٍ فوق بَرَفٍ^(٤) ،
 وقلدا : أينما لم يُصبحَ عندها فقد حُبِسَ فليَمضِ صحاباهُ . فأصبحتُ أنا
 وعيَّاش عندها وحُبِسَ عنا هشامُ وفُتِنَ فافتتن .

(١) ملحَب : طريق واضح .

(٢) ابن هشام : ورغنا . ومنماها رجمننا .

(٣) ابن هشام : ترَقَّب .

(٤) التناضب : يقال هو اسم موضع ، ومن رواه بالكسر فهو جمع تنضب وهو شجر
 واحدته تنضبة . وأضاة بنى غنم : موضع على عشرة أميال من مكة ، وسرف موضع على
 ستة أميال من مكة .

فلما قدّمنا المدينة نزلنا بقباء ، وخرج أبو جهل والحارث أخوه إلى عياش ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا فقالا له : إن أمك نذرت ألاّ تمسّ رأسها بمشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك .
فروقّ لها ، فقلت له : يا عياش والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ! ولو قد اشتد عليها حرّ مكة لا استظلت .

فقال : أبرّ قسّم أمي ولي هناك مالٌ فأخذه .

قلت : والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا ، فلآك نصفُ مالي ولا تذهب معها .

فأبى عليّ إلا أن يخرج معها ، فلما أبى إلا ذلك قلت : أمّا إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها نجيبةٌ ذكّول ، فالزم ظهرها فإن رابك من القوم ربّ فأنجُ عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : والله يا أخي^(١) لقد استغلظتُ بغيري هذا أفلا تُتقيني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى . قال : فأناخ وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدّوا عليه فأوثقوه رباطاً ثم دخلا به مكة ، وقتناه فافتتن !

وفي غير حديث عمر أنهما دخلا به مكة نهاراً مؤثماً ثم قال : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفهيئنا هذا .

قال عمر رضي الله عنه في حديثه : فكنا نقول : ما اللهُ بقابلٍ من افتتن

(١) ابن هشام : يا بن أخي . وما هنا أصح لقوله قبل : وكان ابن عمهما وأخاهما

صَرَفاً ولا عَدَلاً ولا توبة ، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لهلاء أصحابهم
وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم
المدينة أنزل الله تبارك وتعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم : « قل يا عباديَ
الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوبَ
جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربِّكم وأسلموا له من قبل أن
يأتِيكم العذابُ ثم لا تنصرون * واتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أنزل إليكم من ربِّكم
من قبل أن يأتِيكم العذابُ بغتةً وأنتم لا تشعرون ^(١) » .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فسكرتها بيدي في صحيفة وبعثتُ
بها إلى هشام بن العاص .

قال : فقال هشام : لما أتفتي جعلتُ أقرؤها بذي طوى ^(٢) أصمّدها فيها
وأصوَّب ولا أفهمها ، حتى قلت : اللهم فهمنيها . فألقى الله في قلبي أنها إنما
نزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا . فرجعتُ إلى بعيرى فجلست
عليه ، فلحقتُ برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

هذا ما ذكر ابن إسحق في شأن هشام .

وذكر ابن هشام عن يثق به أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
وهو بالمدينة : من لي بعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص ؟ فقال الوليد
ابن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما . فخرج إلى مكة فقدمها
مستخفياً ، فلقى امرأة تحمل طعاماً ، فقال لها : أين تريدن يا أمة الله ؟ فقالت :

(١) سورة الزمر .
(٢) موضع بأسفل مكة .

أريد هذين المسجونين^(١) . تعنيهما . فتمبها حتى عرف موضعيهما ، وكانا محبوسين في بيت لاسقف له ، فلما أمسى تسور عليهما ثم أخذ مروة^(٢) فوضعهما تحت قيديهما ثم ضربهما بسيفه فقطعهما ، فكان يقال لسيفه ذو المروة لذلك .

ثم حملهما على بعيره وساق بهما فعثر فدميت إصبعه فقال :

هل أنتِ إلا إصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سبيلِ الله ما لقيتِ

ثم قدم بهما المديفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

ثم تتابع المهاجرون أرسالا فنزل طلحة بن عبيد الله وصهيب بن سنان على خبيد بن إساف . ويقال : بل نزل طلحة على أسعد بن زُرارة .

قال ابن هشام : وذُكر لي أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكا حقيراً فكثُر مالكُ عندنا وبلغتَ الذي بلغته ، ثم تريد أن تخرج بمالك وفسك ! والله لا يكون ذلك .

فقال لهم صهيب : أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخولون سبيلي ؟ قالوا : نعم . قال فإني قد جعلتُ لكم مالي .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ربح صهيبٌ ربح

صهيب !

* * *

قال ابن إسحاق : وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخلف معه أحد بمكة من المهاجرين ، إلا من حُبِس أو فتن ، إلا على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق .

(١) ابن هشام : المحبوسين (٢) أى حجرا .

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فيقول له : لا تمجّل ، لعل الله يجعل لك صاحباً . فيطمع أبو بكر أن يكونه .

[مؤامرة قريش]

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كانت^(١) له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا أنه مُجمِع^(٢) لحربهم .

فاجتمعوا له في دار الندوة ، وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، يتشاورون ما يصنعون في أمره .

فاعترض لم إبليس في هيئة شيخ جليل عليه بَت^(٣) ، فوقف على باب الدار في اليوم الذي اتعدوا له ، ويسمى يوم الزحمة ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم يسمع ما تقولون وعسى أن لا يُعدمكم منه رأياً ونصحاً . قالوا أجل فادخل . فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشرف قريش وغيرهم .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، وإنما والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً .

فدشاوروا ثم قال قائل : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والناطقة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم .

(١) ابن هشام : قد صارت (٢) ابن هشام : قد أجمع .

(٣) البيت : الطليسان من الخز وغيره .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه
كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه .
فلاؤشكوا أن يذبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يظلموكم
على أمركم ، ما هذا لكم برأى فانظروا في غيره .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ،
فإذا خرج عنا فوالله ما نبألى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه
فأصلحنا أمرنا وأقتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حُسن
حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال لما^(١) يأتي به ؟ والله لو فعلتم
ذلك ما أمنت أن يحل على حتى من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله
وحديثه حتى يتأبموه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يبطأكم بهم فيأخذ أمركم من
أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد ، أديروا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل : والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعدئ .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم .

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ،
ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل
واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن^(٢) فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل
جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل
فمقلناه لهم .

(١) ابن هشام : إذا . (٢) ابن هشام : بما

فقال الشيخ النجدي : القول ما قاله الرجل ، هو الرأي لا رأى غيره^(١) .

فنفرق القوم على ذلك وهم يُجمعون له .

فأتى جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبيت هذه الليلة

على فراشك الذي كنت تبيت عليه .

فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يَرُصِدونه حتى^(٢) ينام

فيذهبون عليه^(٣) ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلي بن

أبي طالب : تم على فراشي وتَسَجَّ بِبُزْدِي هذا الحضرمي الأخضر فَنَمَ فيه

فإنه لن يَخْلُصَ إليك شيء تسكره منهم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

ينام في بُرْده ذلك إذا نام

فاجتمعوا له وفيهم أبو جهل ، فقال وهو على بابه : إن محمدا يزعم أنكم

إن تابتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم

فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان لكم فيه ذبح ،

ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تُحْرَقون فيها

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب في يده

ثم قال : نعم أنا الذي أقول ذلك^(٤) أنت أحدم .

وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه ، وجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم

وهو يقول هؤلاء الآيات : « يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين

(١) ابن هشام : هذا الرأي الذي لا غيره .

(٢) ابن هشام : متى .

(٣) المروف من أخلاق العرب أنهم كانوا لا يفتالون خصمهم في داره نائما ، والراجع

أنهم ينتظروه حتى يخرج .

(٤) ابن هشام : أنا أقول ذلك .

على صراطٍ مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، لتُنذِرَ قوماً ما أُنذِرَ آبائهم فهم غافلون ، لقد حَقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون^(١) .

حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ولم يبقَ منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب . فأنهم أتوا من لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمدًا . قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفلا ترون ما بكم ؟ !

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يطلعون فيرون علياً في الفراش متسججياً بُرد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون : والله إن هذا ل محمد نائمًا عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام على عن الفراش ، فقالوا : والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا .

فكان مما أنزل الله من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له قول الله سبحانه : « وإذ يَمْكُرُ بك الذين كفروا ليُشْبِتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ أو يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ بِمَكْرِ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ^(٢) » .

وَأذِنَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ لِنَبِيِّهِ فِي الْمُهْجَرَةِ .

ذِكْرُ الْحَدِيثِ عَنْ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

مُهَاجِرِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ

حَدَّثَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ لَا يَخْطِيُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفِي النَّهَارِ ، إِمَّا بُكْرَةً وَإِمَّا عَشِيَّةً ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي أُذِنَ اللَّهُ فِيهِ لِرَسُولِهِ فِي الْمُهْجَرَةِ وَالخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ مِنْ بَيْتِي ظَهَرَانِي قَوْمَهُ ، أَنَا نَا بِالْمُهْجَرَةِ فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ : مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلَّا مِنْ حَدِيثٍ (١) .

فَلَمَّا دَخَلَ تَأَخَّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ سَرِيرِهِ ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَابْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا أَنَا وَأَسْمَاءُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَخْرَجَ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ . فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِيْمَا هُمَا ابْتِغَايَ ، وَمَا ذَاكَ فِذَاكَ أَبِي وَأُمِّي ؟

فَقَالَ : إِنْ اللَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْمُهْجَرَةِ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : الصُّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : الصُّحْبَةُ .

قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ أَحَدًا يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ !

نَمَّ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنْ هَاتَيْنِ الرَّاحِلَتَيْنِ قَدْ كُنْتُ أَعَدَدْتُهُمَا لِهَذَا .

(١) ابن هشام : إلا لأمر حدث .

وكان أبو بكر رجلاً ذا مالٍ فكان حين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، فقال : لا تَعْجَلْ لعلَّ الله يجعل لك صاحباً ، قد طمع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعنى نفسه ، فابتاع راحلتين ، فخبسهما في داره يملفهما إعداداً لذلك .

فاستأجر عبد الله بن أريقط رجلاً من بنى الدَّيْل بن بكر وكان مشركاً ، يداًئهما على الطريق ، ودفعما إليهما راحلتيهما فكانتا عنده يرعاها ليعادها .

قال ابن إسحاق : ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج أحدٌ ، إلا على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق ، وآل أبي بكر .

أمَّا على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس ، ولم يكن بمكة أحد عنده شيءٌ يَحْتَشِي عليه إلا وضعه عنده لِمَا يَعْلَم من صدقه وأمانته .

فلما أجمع صلى الله عليه وسلم الخروجَ أتى أبا بكر نخرجا من خوخة لأبي بكر في ظَهْر بيته ، ثم عمداً إلى غار بثور ، جهل بأسفل مكة ، فدخلاه .

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاراً ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، فكان يفعل ذلك ، وأمر عامر بن فهيرة موله أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريهما عليهما إذا أمسى في الغار ، فكان عامر يرعى في رُعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا غداً عبدُ الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة ، تقبَّع عامر أثره بالغنم حتى يُعْفَى عليه ، وكانت أسماء بلى أبي بكر تأنيهما من الطعام بما يصلحهما .

وذكر ابن هشام عن الحسن بن أبي الحسن قال : انتهى رسول الله

وأبو بكر إلى الغار ليلاً فدخل أبو بكر قبله فلمس الغار لينظراً فيه سبعة أوحية ،
بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه . ولما فقدت قريش رسول الله صلى الله
عليه وسلم طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبمئذ الاتفاقة يتبعون أثره في كل وجه ،
فوجد الذي ذهب قبل نور أثره هناك ، فلم يزل يتبعه حتى انقطع له لما انتهى
إلى نور . وشق على قريش خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، وجزعوا
لذلك فطفتوا يطلبونه بأنفسهم فجا قرّب منهم ، ويرسلون من يطلبه فيما بعد
عنهم ، وجعلوا مائة ناقة لمن رده عليهم ، ولما انتهى إلى فم الغار ، وقد كانت
العنكبوت ضربت على بابه بعشاشٍ بعضها على بعضٍ ، بعد أن دخل رسول
الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكروا ، قال قائل منهم : ادخلوا الغار ، فقال أمية
ابن خلف : وما أربؤكم إلى الغار ؟ إن عليه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد !
قالوا : فذهى النبي صلى الله عليه وسلم يومئذٍ عن قتل العنكبوت ، وقال :
إنها جند من جنود الله .

وخرّج أبو بكر البزار في مسنده من حديث أبي مُصعب المكي قال :
أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك ، يحدّثون : أن النبي
صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة بات في الغار ، أمر الله تبارك وتعالى شجرة
فنبتت في وجه الغار ، وأمر الله عزّ وجلّ حمامتين وحشيتين فوقفتا بقم الغار ،
وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر
أربعين ذراعاً ، معهم قسيهم وعصيهم ، فتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين ،
فرجع فقال لأصحابه : ليس في الغار شيء ، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن
ليس فيه أحد .

فسمع قوله النبي صلى الله عليه وسلم فعرف أن الله قد درأ بهما عنه فشمت
عليهما^(١) وفرض جزاءهما وأُخذت في حرّم الله ففرّخن . أحسبه قال : فأصل

(١) شمت عليهما : دعا لهما بخير .

كلّ حمامٍ في الحرم من فراخهما .

وذكر قاسم بن ثابت فيما تولى شرحه من الحديث أن الله أنبت الرّاءة على باب الغار لما دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه قال : وهى شجرة معروفة .

قال غيره : تسكون مثل قامة الإنسان ، ولها زهر أبيض تُحشى به الخدّ للبيده وخفته .

وحكى الواقدي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل الغار ، دعا بشجرة كانت أمام الغار ، فأقبلت حتى وقفت على باب الغار ، فحجبت أعين الكفار وهم يطوفون في الجبل .

وقال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصر ما تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما !

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في الغار ثلاثاً ، حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببيعيريهما ، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسننرتيهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاماً ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس فيها عصام ، فتحلّ نطاقها فتجعله عصاماً ، ثم تعلقها^(١) به ، فكان يقال لها ذات النطاق لذلك فيما ذكر ابن إسحاق .

وأما ابن هشام فدكر أنها إنما يقال لها ذات النطاقين ، وهو المشهور عنها رضى الله عنها ، وذكر أنه سمع غيره واحداً من أهل العلم يقسره بأنّها شقت نطاقها باثنين ، فملقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر .

قال ابن إسحاق : فلما قرّب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله صلى الله

(١) ابن هشام : ثم علقها به .

عليه وسلم قدّم له أفضلهما ، ثم قال : اركب فداك أبي وأمي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لا أركب بعيراً ليس لي . قال : فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي . قال : لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا . قال : قد أخذتها بذلك . فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر خلفه مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما في الطريق .

قال : فحدثت عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل ، فقالوا : أين أبوك يا بنة أبي بكر ؟ قلت : لا أدري والله . فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لطمة طرح منها قرطبي ، ثم انصرفوا فمكثنا ثلاث ليالٍ ما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب وإنّ الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله ربّ الناس خيرَ جزائه رفيقين حلاًّ خيمتي أمّ معبدٍ
هما نزلا بالبئر ثم تروحا فأفليح من أمسى رفيق محمدٍ
ليهنّ بني كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين برّ صددٍ

قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن وجهه إلى المدينة .

[قصة أم معبد]

وعن غير ابن إسحاق وهو عندنا بالإسناد من طرق^(١) ، أن أمّ معبد هذه امرأة من بني كعب من خزاعة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) قال ابن كثير : واضتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا .

حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة ودليلهما الليثي عبد الله بن الأريقط مرشواً على خيمتي أم معبد الخزاعية وكانت امرأة بَرُزَة جَلْدَة^(١) نَحْتِي بِفِداء القبة ثم تَسْقِي وتطعم ، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها فلم يصيبوها عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مُرْمِلِينَ مُسْتَنِينَ^(٢) فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر الخيمة فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خَلَفَهَا الْجُهْدُ عن الغنم . قال : هل بها من لبن ؟ قالت : هي أَجْهَدُ من ذلك . قال : أتأذنين أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبي أنت وأمي إن رأيتَ بها حَلَباً فاحلبها . فدعا بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها وسمى الله ودعا لها في شاتها فتفاجت^(٣) عليه ودرت واجترت ، ودعا بإناء يُرَبِضُ^(٤) الرهطَ فحلب فيه ثَجًّا حتى علاه لبنها ، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخراً ، ثم أراضوا^(٥) ، ثم حلب فيه ثانياً بعد بدءه حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها وباعها وارتحلوا عنها .

فَقَلَّ ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعزاً هجافاً يتساوكن^(٦) هزلاً ضيخاهن قليل^(٧) ، فلما رأى أبو معبد الابنَ هجب وقال : من أين لكِ هذا الابن يا أم معبد ؛ وَالشَاء عازب حِيال ولا حَكُوب في البيت ؟ قالت : لا والله ، إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا . قال : صفيه لي يا أم معبد :

(١) البرزة : المرأة الغفيرة تبرز للرجال وتتحدث معهم ، وهي المرأة التي أسأت وخرجت عن حد المحجوبات . والجلدة : القوية .
(٢) مرملين : نفد زادهم فافتقروا ، ومستنين : أصابتهم السنة وهي الجذب .
(٣) التفاج : المبالغة في تفريج ما بين الرجلين . النهاية ٣ / ٩٩ .
(٤) يربض الرهط : يرويه بعض الرى ، من أراض الحوض إذا صب فيه من الماء ما وارى أرضه . النهاية ٢ / ١١٨ .
(٥) أراضوا : شربوا علا بعد نهل . أو صبوا اللبن على اللبن .
(٦) يتساوكن : يتمايلن من الضعف .
(٧) كذا بالأصل ، وفي الوفا لابن الجوزي ٢٤٣ : مخهن قليل .

قالت : رأيت رجلا ظاهراً الوضأة أبلج الوجه حسن الخلق لم يعيه نُجْلة
ولم تُزْرِ به صَعْلَةٌ^(١) وسيمٌ قسيمٌ في عينيه دَعَجٌ وفي أشغاره غَطَفٌ^(٢) وفي عنقه
سَطَعٌ^(٣) وفي صوته سَحَلٌ^(٤) وفي لحيته كثافة ، أزجٌ أقرنٌ^(٥) إن صمّت فعليته
الوقار وإن تكلم سَمًا وعَلَاهُ البهاء ، أجمل وأُبهاء من بعيد وأحسنه وأَجَله
من قريب ، حلو المنطق فَضْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ كأنَّ مَنْطِقَهُ خِرْزَاتٌ نَظْمٌ يتحدّرن
رَبْعَةٌ لا يَأْسُ مِنْ طُولٍ ولا تَقْتَحِمُهُ العَيْنُ مِنْ قِصَرٍ ، غُضْنٌ بَيْنَ غِصْنَيْنِ فهو
أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا وأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا ، له رفقاء بِحَقُونٍ به إن قال أنصتوا لقوله
وإن أمر تَبَادَرُوا لأمره محفود محشود لا عابس ولا مُفَنَّدٌ .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قریش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر
بمكة ، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدتُ إلى ذلك سبيلا .
وأصبح صوتٌ بمكة عالٍ يسمعون الصوت ولا يدرون مَنْ صاحبه ،
وهو يقول :

جزى الله ربُّ الناس خيرَ جزائه رفيقين قَالَا خيمتي أمَّ مَعْبِدِ
هما نزلها بالهدى فاهتدت به^(٦) فقد فاز مَنْ أَسَى رفيقَ محمدِ
فيا قُصَى ما زوى الله عنكم به من فَعَالٍ لا تُجَارَى وسُوْدَدِ

(١) النجلة : عظم البطن واسترخاؤه والصملة : الدقة والنحول يقال صعلت الناقة إذا
ضمرت . وقيل : أرادت أنه لم يكن منتفخ الحاصرة جدا ولا ناحلا جدا . النهاية لابن الأثير
٢ / ٢٩٣ .

(٢) الغطف : أن يطول شعر الأجنان ثم ينعطف . ويروى بالعين كما يروى بالواو .
(٣) سَطَعٌ : ارتفاع وطول .
(٤) الصحل : كالبحجة ، وأن لا يكون حاد الصوت .
(٥) الزجيج : تقوس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد . وأقرن : مقرون الحواجب .
(٦) البداية والنهاية : هما نزلتا بالبر وارتحلا به .

لِيَهْنِ بِنِي كَعْبٍ مَقَامُ فَتَانِهِمْ وَمَقْعَدَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصِدِ
سَلُّوا أَخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا فَإِنْسِكُمْ إِن تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاها بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ لَهُ بِصَرِيحِ ضَرْةٍ الشَّاةِ مُزِيدٍ (١)
فغادرها رَهْمًا لَدَيْهَا لِحَالِ بِرَدِّهَا فِي مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ
فلما سمع بذلك حسان بن ثابت جعل يجاوب الهاتف ويقول :

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالٌ عَنْهُمْ نَبِيهِمْ وَقُدِّسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَقْتَدِي
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عَقُولُهُمْ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدِّدِ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبِّهِمْ وَأَرْشَدَهُمْ ، مَنْ يَنْتَبِعِ الْحَقَّ يُرْشِدِ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالُ قَوْمٍ تَسَكَّمُوا عَمَى وَهْدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمَهْتَدِي
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُمْ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبِ رَكابٌ هُدَى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَقُولُ كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدِ
وَإِنِّ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةٌ غَائِبِ فَتَصْدِيقُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الْفَدِ
لِيَهْنِ أبا بَكْرٍ سَمَادَةٌ جَدُّهُ بِصَحْبَتِهِ ، مَنْ يُسْعِدِ اللَّهَ يُسْعِدِ

* * *

وذكر أبو منصور محمد بن سعد الماوردي بإسناده إلى قيس بن النعمان
قال : لما انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه يستخفيان في الغار
مرًا بعدد يرعى غنًا فاستسقىاه من اللبن فقال : والله مالي شاةٌ تُحَلَّبُ ، غير
أن هاهنا عناقًا (٢) حلت أول الشاء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
انذنا بها . فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ثم حلب عَسًا (٣)
فسقى أبا بكر ، ثم حلب آخر فسقى الراعى ، ثم حلب فشرب .

(١) الضرة : أصل الضرع .

(٢) العناق : هي الأنثى من أولاد الغن ما لم تم لها سنة .

(٣) العس : القدح الضخم .

فقال العبد : من أنت ؟ فوالله ما رأيت مثلك قط !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتراك إن حدثتكم تسكتن علي ؟
قال : نعم . قال : فإني محمد رسول الله . قال : أنت الذي تزعم قريش أنك
صابي ؟ قال : إنهم ليقولون ذلك . قال العبد : فإني أشهد أنك رسول الله
وأن ماجئت به الحق ، وأنه ليس يفعل فعلك إلا نبي . ثم قال العبد : أتبعك ؟
قال : لا ، حتى تسمع بدا أنا قد ظهرنا .

وخرّج البرقاني^(١) [في مصالحته^(٢)] من حديث البراء بن عازب
رضي الله عنهما ، وأورده الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما^(٣) من حديثه
قال : اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رَحْلاً^(٤) بثلاثة عشر درهماً ،
فقال أبو بكر لعازب : مُرِ البراء أن يحمّله إلى أهلي . فقال له عازب : حتى
تحدثني كيف صنعت أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجتما
والمشركون يطلبونكم . قال :

(١) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب البرقاني الحواري النقيبه المحدث
الأديب الصالح له التصانيف المشهورة روى عن الدارقطني وخلق كثير روى عنه أبو بكر
الخطيب وقال لم ترق بشيوخنا أثبت منه . توفي مستهل رجب من سنة خمس وعشرين وأربعمائة
وكانت ولادته سنة ست وثلاثين وثلاثمائة الباب ١ / ١١٣ .

(٢) المصاحفة : هي ضرب من علو السند ، وهي أن تقع المساواة لشيخك لالك ،
فيقع ذلك لك مصاحفة . كما قال ابن الصلاح . والمساواة كما قال ابن الصلاح أيضا : أن يقل
العدد ولسنادك لا إلى شيخ مسلم وأمثاله ولا إلى شيخ شيخه بل إلى من هو أبعد من ذلك
كالصحابي أو من قاربه وربما كان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يقع بينك وبين
الصحابي مثلا من العدد مثل ما وقع من العدد بين مسام وبين ذلك الصحابي فتكون بذلك
مساويا لمسلم مثلا في قرب الاسناد وعدد رجاله .

لإذا وقعت هذه المساواة للشيخ وقع ذلك مصاحفة لتلميذه إذ يكون كأنه لقي مسلما في ذلك

الحديث لسكونه قد لقي شيخه المساوي لمسلم انظر الباعث الحثيث ١٨٣ .

(٣) البخاري ٢ / ١٩٥ مختصرة جدا باختلاف عما هنا .

(٤) ابن كثير : سرجا .

ارتحلنا من مكة فأحسنا^(١) يومنا وليلتنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة ، فرميت ببصرى هل أرى من ظل ناوى إليه ، فإذا أنا بصخرة فانهيت إليها^(٢) فإذا بقية ظل لها ، فنظرت بقية ظلها فسويته وفرشت لرسول الله صلى الله عليه قروةً وقلت : اضطجع يا رسول الله . فاضطجع .

ثم ذهبت أنظر ما حوله هل أرى من الطلب أحداً فإذا أنا براعى غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها مثل الذى أريد ، يعنى الظل . فسألته فقلت : لمن أنت يا غلام ؟ قال : لفلان ، رجل من قريش سماه ، فعرفته ، فقلت : هل فى غنمك من لبن ؟ قال : نعم . قلت : هل أنت حالب لى ؟ قال : نعم . فاعتقل شاةً من غنمه فأمرته أن ينفض ضرعها من الغبار ، ثم أمرته أن ينفض كفيه ، فقال هكذا ، فضرب إحدى يديه على الأخرى فحلب لى كشيبة^(٣) من لبن وقد رويت معى لرسول الله صلى الله عليه وسلم إداوة على فمها خرقة ، فصببت على اللبن حتى برد أسفله ، فانهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استيقظ ، قلت : يا رسول الله اشرب . فشرب حتى رضيت ، وقلت : قد آن الرحيلُ يا رسول الله .

فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحدٌ منهم غير سُرّاقة بن مالك ابن جُعشم على فرس له ، فقلت : هذا الطلبُ قد لحقنا يا رسول الله . وبكيت ، قال : لا تحزن إن الله معنا !

قال : فلما دنا فكان بيننا وبينه قدرُ رحمين أو ثلاثة قلت : هذا الطلبُ يا رسول الله قد بلّغنا . وبكيت . قال : ما يبكيك ؟ فقلت : أما والله ما على نفسى أبكى ، ولسكنى أبكى عليك .

(١) ابن كثير : خرجنا فأدبلنا فأحسنا .

(٢) ابن كثير : فأهويت إليها .

(٣) الكشيبة : قدر الحلة .

فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اكفناها بما شئت ،
فساخنت فرسه في الأرض إلى بطنها ، فوثب عنها وقال : يا محمد قد علمتُ
أن هذا عملك فادعُ الله أن يدجيني مما أنا فيه ، فوالله لأعمينَّ على مَنْ ورأى
من الطلاب ، وهذه كفتاتي فخذ منها سهماً فإنك ستعمر على إبلى وغنمى
بمكان كذا وكذا . فخذ منها حاجتك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حاجة لي في إبلك . ودعاه ،
فانطلق راجعاً إلى أصحابه .

وفي حديث البخارى ومسلم : فجعل لا يلقى أحداً إلا قال : قد كفيتكم
ما هنا . فلا يلقى أحداً إلا ردّه . قال : ووفى لنا .

[حديث سُرَاقَة]

وعن سُرَاقَة بن مالك بن جُشم فيما أورده ابن إسحق قال : لما خرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش
فيه مائة ناقة لمن ردّه عليهم .

قال : فبينما أنا جالس في نادى قومى أقبل رجل منا حتى وقف علينا
فقال : والله لقد رأيتُ رَكِيبَةً ثلاثة مرثوا على آفنا ، إني لأراهم محمداً وأصحابه .

قال : فأومأتُ إليه ، يعنى أن اسكت ، ثم قلت : إنما هم بنو فلان
يتبهمون ضالّة لهم . قال : لعله . ثم سكت .

فسكّنتُ قليلاً ثم قتت فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرسى فقيدتُ إلى بطن
الوادى وبسلاحى فأخرج لي من دُبُر حَجْرَتى ، ثم أخذت قِدَاحى التى
أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى ، ثم أخرجت قِدَاحى ، فاستقسمت بها
نفرج السهم الذى أكره : لا يضره . وكنت أرجو أن أردّه على قريش
فأخذ المائة .

فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشتد بي عثري فسقطتُ عنه ، فقلت :
ما هذا ؟! ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره :
لا يضره . فأبيتُ إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فبينما فرسى يشتد بي عثري
فسقطتُ عنه فقلت : ما هذا ؟! ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج
السهم الذي أكره : لا يضره . فأبيت إلا أن أتبعه فركبت في أثره ، فلما بدا
لي القومُ عثري فرسى وذهبت يداها في الأرض وسقطتُ عنه ، ثم انتزع يديه
عن الأرض وتبعها دخان كالإعصار ، فعرفتُ حين رأيتُ ذلك أنه قد مُنع
منى وأنه ظاهرٌ .

فناديت القومَ : أنا سراقه بن جُشم ، انظروني أكلكم ، فوالله لا أريكم
ولا يأتكم منى شيء تكرهونه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضى الله عنه : قل له :
ما تبغى ؟ قال : تكتبوا لي كتاباً يكون آيةً بيني وبينك . قال اكتب
يا أبا بكر . فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خزقة^(١) ثم ألقاه إلي ،
فأخذته فجعلته في كنفاتي ، ثم رجعت فلم أذكر شيئاً .

حتى إذا كان فتحُ مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرغ من
حُدَيْن والطائف خرجتُ ومعى الكتاب لألقاه فلقيته بالجعرانة^(٢) فدخاتُ
في كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون : إليك إليك
ماذا تريد ؟

فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، والله لكأني

(١) ابن هشام : خزقة .

(٢) الجعرانة : ماء بين الطائف ومكة ، وهي إلى مكة أقرب .

أنظر إلى ساقه في غرزه كأنها ججارة^(١) ، فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت :
يا رسول الله هذا كتابك لي ، أنا سراقه بن جعشم . فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : يومٌ وفاءٍ وبرٍّ اذن^(٢) . فذنوتُ فأسلمتُ . ثم تذكرت شيئاً
أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فما أذكر ، إلا أني قلت : يا رسول الله
الضالة من الإبل تنغشى حياضى وقد ملأتهن لإبلى ، هل لي من أجر في أن
أسقيها ؟ قال : نعم ، في كل ذات كبد حرّى أجر^(٣) .

ثم رجعت إلى قومي فسئلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتى .
وفي حديث آخر عن غير ابن إسحق أن سراقه بن مالك بن جعشم هذا
كان شاعراً مجيداً ، وأنه قال يخاطب أبا جهل بن هشام بعد انصرافه عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أبا حَسَمٍم والله لو كنت شاهداً لِأَمْرِ جَوَادِي إِذ تَسُوخُ قَوَائِمُهُ
علمت ولم تشكك بأن محمداً رسولٌ ببهانٍ فمن ذا يقاومه
عليك بكف القوم عنه فإننى أرى أمره يوماً ستهبذو معالمة
بأمرٍ يودُّ الناسُ فيه بأسرهم بأنَّ جميع الناس طراً يسألوه
وذكر ابن إسحق^(٣) من رواية يونس بن بكير عنه شعراً نسبته إلى
أبي بكر الصديق^(٤) رضى الله عنه ، يذكر فيه مسيره مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقصة الغار وأمر سراقه ، وهو :

(١) الججارة : شحم النخل . يريد بياضها .

(٢) ابن هشام : ادله .

(٣) لم يرد هذا الخبر في ابن هشام ، إذ أن ابن هشام إنما أثبت رواية البكائى عن

ابن إسحق .

(٤) روى السهيلي أن عائشة رضى الله عنها قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال

بيت شعر في الإسلام .

قال النبي ولم يَجْزَعِ يوقرنى^(١) ونحن في سُذْفَةٍ من ظُلْمَةِ النارِ
 لا تَخْشَى شيئاً فإن الله ثالثنا وقد توكلتُ لى منه بإظهارِ
 وإنما كُنَيْدٌ مَنْ نَخْشَى بواوره كيدُ الشياطين كادته لكفارِ
 والله مهلكهم طراً بما كَسَبُوا وجاعلُ المنتهى منهم إلى النارِ
 وأنت مُرٌّ تَحِلُّ عنهم وتاركهم إِمَّا غُدُوًّا وإِما مُدْلِجٌ سارى
 وهاجرٌ أرضهم حتى يكون لنا قومٌ عليهم ذوو عزٍّ وأنصارِ
 حتى إذا الليلُ وارثنا جوائِبسه وسدَّ دون من نَخْشَى بأستارِ
 سار الأَرَبِ قَطُ يَهْدِينا وَأَنْيَقُهُ يَمِينِ بِالقَرَمِ نَعِيماً نَحْتُ أَكْوارِ^(٢)
 يَمَسِّفُنْ عَرْضِ الثدَايا بَعْدَ أَطولها وكلُّ سَهْبٍ رِفاقِ التُّربِ مَوَّارِ^(٣)
 حتى إذا قلتُ قد أنجِدُنْ عارضها من مُدْلِجِ فارسٍ في منصبِ وارِ^(٤)
 يُرْدِي به مشرفُ الأقطارِ مُعْتَمِرٌ

كالسَّيِّدِ ذى اللَّبِدةِ المُستَأْسَدِ الضارِ^(٥)

فقال كرتوا فقلنا إن كرتنا من دونها لك نصرُ الخالقِ البارِ
 إن يخسف الأرض بالأحوى وفارسه فانظر إلى أربعٍ في الأرض غَوَّارِ^(٦)
 فَمِيلٌ لِمَا رَأَى أرساغَ مُقَرَّبِهِ قد سُبْحَنَ في الأرضِ لم تُحْفَرِ بِمِحْفارِ
 فقال هل لكم أن تطلقوا فرسى وتأخذوا مَوثِقِي في نُصْحِ أسرارِ

(١) يوقرنى : يطمئننى ، يقال : جنان واقر : لا يستخفه الفزع .

(٢) الأبيق : جمع ناقة . والقرم : السيد : وينعين : يمدون .

(٣) يمسفن : يقطعن . والسهب : الفلاة . والموار : المضطرب المتحرك

(٤) أنجدن : ارتفعن . والوارى : الشديد ، من ورى الزند ، خرجت ناره

(٥) يردى : يجرى . ومشرف الأقطار : مرتفع النواحي . والسيد : الأسد .

(٦) الأحوى : الأسود . ويريد الفرس . والأربع : المواضع .

وأصرف الحى عنكم إن لقيتهم وأن أعور منهم عين عوار
فادع الذى هو عنكم كف عدوتنا يطلق جوادى وأنتم خير أبرار
فقال قولاً رسول الله مهتلاً يارب إن كان منه غير إخفار
فدعجه سالماً من شر دعوتنا ومهزّه مطلقاً من كلام آثار
فأظهر الله إذ يدعو حوافره ونار فارسه من هول أخطار^(١)

وسراقة بن مالك هذا الذى أظهر الله فيه هذا العلم العظيم من أعلام
نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قد أظهر الله فيه أثراً آخر من الآثار
الشاهدة له عليه السلام بأن الله أطلعه من الغيب فى حياته ما ظهر مصداقه
بعد وفاته .

روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن ، أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك : كيف بك إذا لبست سوارى
كسرى ؟

قال : فلما أتى عمر رضى الله عنه بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه
دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها .

وكان سراقة رجلاً أزب^(٢) كثير شعر الساعدين ، وقال له : ارفع
يديك فقل : الله أكبر الحمد لله الذى سلّهما كسرى بن هرمز الذى كان

(١) روى أبو نعيم هذه القصيدة من طريق زياد بن محمد بن اسحق فذكرها مطولة
جدا ومع ذلك فسماها الصنعة والتكاف بادية عليها ، وليس بها طابع العصر الأول .
(٢) وذلك سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه السلام . قال ابن كثير : وذلك أول
التاريخ الإسلامى كما اتفق عليه الصحابة فى الدولة العميرية . وروى حديث البخارى عن ابن
عباس : بعث النبي (ص) لأربعين سنة ، فكثت فيها ثلاث عشرة يوحى إليه ، ثم أمر
بالمهجرة فهاجر عشر سنين ، مات وهو ابن ثلاث وستين سنة .
(٣) الأزب : الكثير الشعر .

يقول : أنا رب الفسّس وألبسهما سراقَةَ بن مالك بن جُعشم أعرابياً من
بنى مُدْج ! !

ورفع بها عمر رضى الله عنه صوته .

* ● *

قال ابن إسحق ، وذكر إسناداً رفعه إلى أسماء بنت أبي بكر ، قالت :
لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج معه أبو بكر احتمل
أبو بكر ماله كله ، خمسة ألف أو ستة ، فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد
ذهب بصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجمكم بماله مع نفسه . فقلت : يا أبت
إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كتوة كان أبى يضع
ماله فيها ، ثم وضعتُ عليها ثوباً ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضَع يدك على
هذا المال . قالت : فوضع يده عليه ثم قال : لا بأس إذا كان ترك لكم هذا
فقد أحسن ، وفى هذا بلاغٌ لكم .

ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، والسكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

* * *

وذكر ابن إسحق الطريقَ التى سَلَكَ برسول الله صلى الله عليه وسلم
وبأبى بكر الصديق رضى الله عنه دليله عبدُ الله بن أرْبِطِط ، والمناقل التى سار
بهما عليها إلى أن قَدِمَ بهما قُبَسَاء على بنى عمرو بن عوف لاثنتى عشرة
ليلة خلت من ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحى وكادت
الشمس تعمدل .

وقال غير ابن إسحق : قَدِمَ لثمانِ خلون من ربيع الأول .

وقال ابن السكّبي : خرج من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول ،
ووصل المدينة يوم الجمعة لاثنتى عشرة منه . فالله تعالى أعلم .

[دخول النبي المدينة]

وذكر ابن إسحاق من حديث عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة قال :
حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا^(١) :
لما سمعنا بمخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة توكفنا^(٢) قدومه ،
فكنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظره ، فوالله ما نبرح حتى
تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلاً دخلنا ، وذلك في أيام حارة .

حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم
يبق ظل دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا
البيوت ، فسكان أول من رآه رجل من يهود وقد رأى ما كنا نصنع وأنا
ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته :
يا بني قتيلة هذا جدكم قد جاء .

فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر
في مثل سببه ، وأكثرتنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ،
وركبه الناس ، وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك .

قال ابن إسحاق : فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون على
كلثوم بن هذم ، أخى بنى عمرو بن عوف . ويقال : بل نزل على سعد
ابن خيثمة .

ويقول من يذكرون نزوله على كلثوم أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج

(١) الأصل : قال .

(٢) قال الزمخشري : ومن الهجاز : فلان يتوكف الأخبار نحو : يستقطر الأخبار .

والهوى : ترقبناه وانتظرناه .

من منزل كلثوم جالس للذاس في بيت سعد بن خيثمة ، لأنه كان عزباً
لا أهل له ، فمن هناك يقال نزل عليه . وكان يقال لمبيت سعد : بيت
العزب^(١) ، لأنه كان منزل المهاجرين منهم . فالله أعلم أى ذلك كان .
ونزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على خبيد بن إساف ، أحد
بنى الحارث بن الخزرج بالشفح ، ويقال على خارجة بن زيد بن أبي زهير منهم .

* * *

وأقام على بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها ، حتى أدى عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للذاس ، حتى إذا فرغ
منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل معه .

فكان على رضى الله عنه - وإنما كانت إقامته بقاء ليلة أو ليلتين -
يقول : كانت بقاء امرأة مسلمة لا زوج لها ، فرأيت إنساناً يأتيها من جوف
الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطئها شيئاً معه فتأخذه .

قال : فاستزبتُ شأنه ، فقلت لها : يا أمة الله ، من هذا الذى يضرب
عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطئك شيئاً لا أدري ما هو ، وأنت
امرأة مسلمة لا زوج لك ؟

قالت : هذا سهل بن حنيف ، قد عرف أنى امرأة لا أحد لى ، فإذا
أمسى عدنا على أوئان قومه فكسرها ثم جاءنى بها فقال : احتطبي بهذا !
فكان على رضى الله عنه يأتى ذلك فى أمر سهل بنت حنيف ، حين^(٢)
هلك عنده بالمراق .

* * *

(١) فى شرح السيرة لأبى ذر : الأعزب .

(٢) ابن هشام : حتى .

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء في بني عمرو ابن عوف يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسّسَ مسجدهم ثم أخرجهم الله تعالى من بين أظهرهم يوم الجمعة .

وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك^(١) ،
فأله أعلم .

فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي ، وادي رانونا ، فكانت أول جمعة صلاها في المدينة .

فأتاه عتيبان بن مالك وعباس بن عبادة بن نضلة ، في رجال من بني سالم ، فقالوا : يا رسول الله ، صلى الله عليك ، أقيم عندنا في العدة والمنة والمنعة .
قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . لفاقته . نخلوا سبيلها .

فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وقروة ابن عمرو ، رجال من بني بياضة ، فقالوا : يا رسول الله هلم إلينا إلى العدة والمنة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة نخلوا سبيلها .

فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه سعد ابن الربيع وخارجة بن زيد بن أبي زهير وعبد الله بن راحة ، رجال من بلحارث^(٢) ، فقالوا يا رسول الله هلم إلينا إلى العدة والمنة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . نخلوا سبيلها .

فانطلقت حتى إذا مرت بدار بني عدى بن النجار وهم أخواله دنيا

(١) ترددت روايات الزيادة عن ذلك بين أربع عشرة ليلة وثمان عشرة ليلة
والثنتين وعشرين .

(٢) ابن هشام : ملئ بني الحارث بن الخزرج .

أمّ عبد المطلب سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم ، اعترضه سَلَيْطُ بن قيس وأبو سَلَيْطُ أُسَيْرَةُ بن أبي خارِجَةَ ، في رجال منهم ، فقالوا : يا رسول الله هلم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة . قال . خلوا سبيلها .

حتى إذا أتت دارَ بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجده ، وهو يومئذ مِرْبَدٌ لفلانين يتيمين من بنى مالك بن النجار ، في حِجْرٍ مُعَاذِ بن عفراء فلما بركت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل وتبدت ، فسارت غير بعيد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضح لها زمامها لا يتدنىها به ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تحلّجت ورزمت ووضعت جِرائنها^(١) فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتمل أبو أيوب رحّله فوضعه في بيته .

[بناء المسجد]

ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بنى مسجده ومساكنه ، وسأل عن المِرْبَدِ لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهيل وسهيل ابني عمرو ، وهما يتيان له وسأرضيهما منه ، فاتخذ مسجداً .

فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُدبني ، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل المهاجرون والأنصار ودأبوا . فقال قائل من المسلمين :

لئن قمَدنا والنبيّ يَعْمَلُ لَدَاكَ مِنَّا العمل المضللّ

* * *

(١) تحلّجت . تحركت وانزجرت . ورزمت : أقامت من الكلال . والجران ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن حلقها .

وحدّث أبو أيوب قال : لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل في الشغل وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت له : يا نبي الله بأبي أنت وأمي إني لأكره وأُعظّم أن أكون فوقك وتسكون تحتي ، فإظهر أنت فسكن في العلو ونزل نحن فسكون في الشغل . فقال : يا أبا أيوب ، إن أرقت بما وبمن يغشانا أن نسكون في سفلى البيت .

فلقد انكسر حُبُّ لنا فيه ماء ، فقامت أنا وأم أيوب بقطيفة ما لنا لحاف غيرها نَنشَفُ بها الماء ، تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء فيؤذيه .

فكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه ، فإذا ردّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه ، نبتغي بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بمشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً ، فردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر ليده فيه أثراً ، فجئته فزِعاً فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة . قال : إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجى ، فأما أنتما فكلوه . فأكلناه ولم نضع له تلك الشجرة بعد .

* * *

قال ابن إسحاق : وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ، ولم يُوعب أهل هجرة من مكة بأهلهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، إلا أهل دُورِ مَسَمُون .

بنو مَظْمُون من بني جُحَيْح ، وبنو جُحَيْش بن رَبِئَاب ، حلفاء بني أمية ،

وبنو البُكَيْر من بني سعد بن ليث ، حلفاء بني عدى بن كعب ، فإن دورهم غلقت بمكة هجرة ، ليس فيها ساكن .

[أول خطبة للذي بالمدينة]

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة ، بُني له فيها مسجده ومساكنه .

قال : وكانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن - نعوذ بالله أن نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل - أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله أئبصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها رايح ، ثم ليقولن له ربه ، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟

فليظنن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم ليظنن قدامه فلا يرى غير جهنم .

فن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال ابن إسحاق : ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس مرة أخرى فقال : . إن الحمد لله أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله

تبارك وتعالى ، قد أفلح من زَيَّنَه اللهُ في قلبه ، وأدْخَلَه في الإسلام بمد الكفر ،
فاختاره^(١) على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ،
أحبوا ما أحبَّ اللهُ أحبوا اللهُ من كل قلوبكم ، ولا تملأوا كلامَ اللهِ وذِكْرَه ،
ولا تقسُّ عنه قلوبكم ، فإنه من كلِّ ما يخلق اللهُ يختار ويصطفى ، فقد سمَّاه
[اللهُ]^(٢) خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث
ومن كل ما أوتى الناس الحلال والحرام ، فاعبدوا اللهُ ولا تشركوا به شيئاً
واتقوه حق تقاته ، وصدقوا اللهُ صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح
الله بينكم ، إنَّ اللهُ يقضب أن يُنكث عهده ، والسلام عليكم .

[الإخاء ، وموادعة اليهود]

قال ابن إسحق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين
المهاجرين والأنصار وادع فيه يهودَ وعاهدم وأقرهم على دينهم وأموالهم ،
واشترط عليهم وشرط لهم .

وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ،
فقال فيما بلغنا - ونمود بالله أن نقول عليه ما لم يقل : تآخروا في الله أخوين
أخوين . ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخى . فكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الذي
ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلي بن أبي طالب أخوين .

ثم سمى ابن إسحق نقرأ من آخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
من أصحابه تركنا ذكراً اختصاراً .

(١) ابن هشام : واختاره .

(٢) من ابن هشام .

[وفاة أسعد بن زُرارة]

قال : وهلك في تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زُرارة ، والمسجدُ هبني ، أخذته الذبحة أو الشمقة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بئس الميتم أبو أمامة ليهود ولمنافق^(١) العرب ، يقولون : لو كان نبياً لم يمت صاحبه ! ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً .

ولما مات أبو أمامة اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو أمامة نقيبهم ، فقالوا : يا رسول الله إن هذا كان مداً حيث قد علمت ، فاجعل منا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم أخوالي وأنا أولى بكم ، فأنا نقيبكم . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخص بها بعضهم دون بعض . فكان من فضل بني النجار الذي يمدون على قومهم أن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نقيبهم .

[الأذان]

قال ابن إسحق : فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمرُ الأنصار ، استحكم أمر الإسلام فقامت الصلاة وفُرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود وفُرض الحلال والحرام وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحث من الأنصار الذين تبوأوا الدارَ والإيمان .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها إنما يجتمع إليه الناس للصلاة في مواقيتها^(٢) بغير دعوة ، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) ابن هشام : ومنافق .

(٢) ابن هشام : حين مواقيتها .

أن يحمل بُوقاً كبوق يهود الذي يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس فنُحِت ليُضرب به للمسلمين للصلاة .

فبينما هم على ذلك رأى عبدُ الله بن زيد أخو بلحارث بن الخزرج النداء ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف ، مرَّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده ، فقلت : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوسَ ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعوا به إلى الصلاة . قال : أفلا أدلتك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حتى على الصلاة ، حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح ، حتى على الملاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فلما أخبر بها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : إنها لرؤيا حقّ إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذّن بها فإنه أندى^(١) صوتاً منك .

فلما أذّن بها بلالٌ سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجرّ رداءه وهو يقول : يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيتُ مثل الذي رأى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فله الحمد^(٢) .

وذكر ابن هشام عن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب بينما هو يريد أن يشتري خشبتين للناقوس عندما ائتمر^(٣) به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذ رأى في المنام أن لا تجعلوا الناقوسَ ، بل أذّنوا بالصلاة .

(١) أندى : أهد .

(٢) ابن هشام : فله الحمد على ذلك .

(٣) ائتمر : هم به .

فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بالذي رأى ، فسا راعه
إلا بلالٌ يؤذُن ، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بذلك . فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره : سبّك^(١) بذلك الوحي .

* * *

قال ابن إسحاق : فلما اطمانت برسول الله صلى الله عليه وسلم داره
وأظهر الله بها دينه وسرّه بما جمع من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته
قال أبو قيس صيرمة بن أبي أنس أخو بني عدي بن النجار ، يذكر
ما أكرمهم الله تبارك وتعالى به من الإسلام ، وما خصهم به من نزول
رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم :

ثوى في قريشٍ بضعَ عشرةَ حجةً	يذكر لو يلقى صديقاً موثقاً ^(٢)
ويتعرض في أهل المواسم نفسه	فلم ير من يؤوى ولم ير داعياً
فلمّا أنانا أظهر الله دينه	فأصبح مسروراً بطيبة راضياً
والنبي صديقاً واطمانت به النوى	وكان له عوناً من الله هادياً ^(٣)
يقص لنا ما قال نوح لقومه	وما قال موسى إذ أجاب للمناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً	قريباً ولا يخشى من الناس نائياً
بذلنا له الأموال من جُلّ مالنا	وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
وتعلم أن الله لا شيء غيره	وتعلم أن الله أفضل هادياً

(١) ابن هشام : قد سبّك .

(٢) نوى : أقام . والحججه : العام . والمواثي : المساعد .

(٣) النوى : العمد . وى ابن هشام : عوناً من الله بادياً .

نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمَصَافِيَا
أَقُولُ إِذَا أَدْعُوكَ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ تَبَارَكْتَ قَدْ أَكْثَرْتَ لاسْمِكَ دَاعِيًا^(١)
أَقُولُ إِذَا جَاوَزْتَ أَرْضًا مَخُوفَةً حَنَانِيكَ لَا تُظْهِرْ عَلَيَّ الْأَعْدَابَ^(٢)
فَطَأَ مُعْرَضًا إِنْ الْخُوفَ كَثِيرَةٌ وَإِنَّكَ لَا تُبْقِي لِنَفْسِكَ بَاقِيَا
فَوَاللَّهِ مَا يَدْرِي الْفَتَى كَيْفَ يَتَّقِي إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهَ وَاقِيَا
وَلَا يَجْعَلِ النَّخْلُ الْمَقِيمَةَ رَبِّهَا إِذَا أَصْبَحْتَ رَبِّيًّا وَأَصْبَحَ ثَاوِيًا^(٣)
وَكَانَ أَبُو قَيْسٍ هَذَا رَجُلًا قَدْ تَرَهَّبَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَدَسَ السُّوْحَ وَفَارَقَ
الْأَوْثَانَ وَاغْتَسَلَ مِنَ الْجَنَابَةِ وَتَطَهَّرَ مِنَ الْخَائِضِ مِنَ النِّسَاءِ وَهَمَّ بِالنَّصْرَانِيَّةِ
ثُمَّ أَمْسَكَ عَنْهَا وَدَخَلَ بَيْتًا لَهُ فَاتَّخَذَهُ مَسْجِدًا لَا يَدْخُلُ فِيهِ طَامِثٌ
وَلَا جُنُبٌ وَقَالَ : أَعْبُدُ رَبِّي إِبْرَاهِيمَ . حَتَّى قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، وَكَانَ قَوًّا آلًا بِالْحَقِّ . مَعْظَمًا
لِلَّهِ فِي جَاهِلِيَّتِهِ يَقُولُ فِي ذَلِكَ أَشْعَارًا حَسَنًا ، هُوَ الَّذِي يَقُولُ :

يَقُولُ أَبُو قَيْسٍ وَأَصْبَحَ غَادِيَا أَلَا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ وَصَاتِي فَافْعَلُوا
أَوْصِيَكُمْ بِاللَّهِ وَالْبِرِّ وَالتَّقَى وَأَعْرَاضَكُمْ وَالسَّبْرُ بِاللَّهِ أَوْلُ
وَإِنْ قَوْمُكُمْ سَادُوا فَلَا تَحْسُدْهُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ الرِّيَاسَةِ فَاعْدِلُوا
وَإِنْ نَزَلَتْ إِحْدَى الدَّوَاهِي بِقَوْمِكُمْ فَأَنْفَسِكُمْ دُونَ الْعَشِيرَةِ فَاجْعَلُوا

(١) البيعة : مكان العبادة . وهي في الأصل : معبد النصارى .

(٢) حنانيك : رحمتك .

(٣) ابن هشام : ولا تحفل النخل المقيمة . . ومعنى البيت غير واضح . واهل مراده .

رَبِّهَا : أصلها .

وإن نابَ غُزْمٌ فادخَّ فارقوم^(١) وما حَمَلوكم في اللَّمَّاتِ فاحملوا
وإن أتمُّ أَمْعَرْتُمْ^(٢) فتعفَّنوا
وإن كانَ فضلُ الخَيْرِ فيكم فأفضِّلوا

وقال أبو قيس أيضاً :

سَبَّحُوا اللَّهَ شَمْرُقَ كُلِّ صَبَاحٍ طلعت شمسُه وكلُّ هِلَالِ
عالمِ السَّرِّ والبيانِ لديننا ليس ما قال ربُّنا بضلالِ
وله العَظِيمُ تَسْتَدِيرُ^(٣) وتَأْوِي في وكورٍ من آمَناتِ الجِبَالِ
وله الوحشُ بالفَلَاةِ تراها في حِقَافِ وفي ظلالِ الرمالِ^(٤)
وله هَوْدَتُ يَهُودُ ودانت كلُّ دينٍ إذا ذَكَرْتَ عُضالِ^(٥)
وله شَمْسُ^(٦) النصارى وقاموا كلُّ عَبيدٍ لِدَيْهِمْ^(٧) واحتفالِ
وله الرَاهِبُ الحَبِيسُ تراه رَهَنَ بُؤْسٍ وكانَ ناعِمَ بالِ
يا بَنِي الأرحامِ لا تَقْطَعوها وصلُّوها قصيرةً من طِوالِ
واتقوا اللَّهَ في ضِمَافِ اليَتامى ربِّما يَسْتَحِلُّ غَيرُ الحلالِ
واعلموا أنَ لِلْيَتِيمِ وَلِيًّا طالما يَهْتَدِي بخيرِ السُّؤالِ

(١) ط : فارقوم .

(٢) أَمْعَرْتُمْ : افتقرتم .

(٣) ابن هشام : تستريد .

(٤) الفلاة : الصحراء . والحفاف : جمع حقف ، وهو الرمل العظيم المستدير .

(٥) العضال : الشديد .

(٦) شمس : تعبد .

(٧) ابن هشام : لريم .

ثم مالَ اليتيم لا تأكلوه إن مالَ اليتيم برطاه والي
يا بنيَّ النجومَ لا تنزلوها إن خزلَ النجومَ ذو عُمَالٍ^(١)
يا بنيَّ الأيامَ لا تأمَسوها واحذروا مَكْرَهَا وَمَرَّ اللَّيَالِي
واعلموا أن أمرها لنفاد الخلق ما كان من جديدٍ وبالي
واجمعوا أمركم على البر والتقوى وترك الخلفنا وأخذ الحلال

* * *

قال ابن إسحاق : ونصب^(٢) عند ذلك أحرارُ يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم المداوة بغيًا وحسدًا وضيقًا لما خصَّ الله العربَ من أخذه رسوله منهم . وانضاف إليهم رجالٌ من الأوس والخزرج ، ممن كان عسى^(٣) على جاهليته فكانوا أهلَ نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام واتخذوه جُنَّةً من القتل ، وناقوا في السر فكان هوام مع يهود لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وجحودهم الإسلام .

وكانت أحرار يهودهم الذين يسألون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ويتمنونه ويأتونه باللَّبس ليلبسوا الحق بالباطل ، [إلا ما كان من عبد الله ابن سلامٍ ومُخَيَّرِيقٍ]^(٤) فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه إلا قليلا من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها .

(١) النجوم : الأصول وتناولوها : تقطعوا . العقال : داء في رجل الدابة ، إذا مشى ظلم ساعة ثم انبسط - ورواية البيت في ابن هشام :
يا بني النجوم لا تنزلوها .. إن خزل النجوم ذو عقال
وفسر السهيلي النجوم بالحدود بين القرى .. وأرى أن ما هنا أصح .
(٢) ابن هشام : ونصبت .
(٣) عسى : غلظ ، أي كبر وتقدم به السن .
(٤) ليست في ابن هشام .

[إسلام عبد الله بن سلام]

وكان من حديث عبد الله بن سلام وإسلامه ، وكان خبيراً عالمياً قال :
لما سمعتُ برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفتُ صِفَتَهُ واسمَهُ وزمانَهُ الذى
كُفِرَ بتوكِّف^(١) له ، فكُنتُ مُسِيرًا لذلك صامتاً عليه حتى قَدِمَ المدينة .

فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدمه
وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة ،
فلما سمعتُ الخبر بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرتُ ، فقالت لي
عمتي حين سمعت تسكبيرتى : حبيبك الله ! لو كنت سمعت موسى بن عمران
قادمًا ما زدت ا

فقلت لها : أى عمّة ، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه ، بُعث
بما بعث به .

فقالت : أى ابن أخى ، أهو النبی الذى كُفِرَ نُخْبِرَ أنه يُبعث مع نفس
الساعة ؟ فقلت لها : نعم . فقالت : فذاك إذا .

قال : ثم رُحِت^(٢) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمتُ ثم رجعت
إلى أهلى فأمرتهم فأسلموا وكتمتُ إسلامى من يهود .

ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إن يهود
قومٌ بُهتتِ ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبتنى عنهم ،
ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يملوا بإسلامى ، فإنهم
إن علموا به بهتوني وعابوني .

(١) توكف : انتظر .

(٢) ابن هشام : ثم رجعت .

قال : فأدخلني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض بيوته ، ودخلوا
عليه فكلّموه وسألوه ثم قال لهم : أي رجل الحَصِينُ بن سلام فيكم ؟ فقالوا
سيدنا وابن سيدنا وحَبْرنا وعالمنا .

فلهما فرغوا من قولهم خرجتُ عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود اتقوا الله
واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعملون أنه رسول الله ، تجدونه مكتوباً
عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فإني أشهد أنه رسول الله وأومِن به وأصدِّقه
وأعرفه . قالوا : كذبت . ثم وقعوا بي ا

فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يا نبي الله ^(١) أنهم قوم
مُبْهت أهل غدر وكذب وفجور ؟ ا

قال : فأظهرتُ إسلامي وإسلامَ أهل بيتي ، وأسلمت عمتي خالدة
فحصن إسلامها .

[إسلام مخيريق]

قال ابن إسحاق : وكان من حديث مُخَيْرِيق ، وكان حَبْرًا عالمًا غنياً ^(٢)
كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته
وما يجد في علمه ، وغلب عليه إلفُ دينه فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم
أحدٍ ، وكان يوم السبت ، قال : يا معشر يهود والله إنكم لتعملون أن
نصنرَ محمد عليكم لحق . قالوا : إن اليومَ يوم السبت . قال : لا سبت عليكم ^(٣)
ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم [وأصحابه] ^(٤)

(١) ابن هشام : يا رسول الله .

(٢) ابن هشام : وكان رجلاً غنياً .

(٣) ابن هشام : لكم .

(٤) ليست في ابن هشام ،

بأحدٍ ، وعهد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد يصنع فيها ما أراه الله .

فلما اقتتل الداس قاتل حتى قُتل ، وقبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمواله ، فعامةُ صدقاته بالمدينة منها .

وكان صلى الله عليه وسلم فيما بلغني يقول : نخير بق خيرُ يهود .

[العداوة]

قال : وحدثني عبد الله بن أبي بكر قال : حدثت عن صفية بنت حيي أنها قالت : كنت أحبُّ ولد أبي إليهِ وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما مع ولد لهما إلا أخذاني دونه ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدا عليه أبي وعمي مُغَلَّسَيْن فلما يرجعا حتى كان مع غروب الشمس ، فأتيا كائنين كسلايين ساططين يمشيان الهويئى فهششتُ إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي : أهو هو ؟ قال نعم والله . قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم . قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيتُ .

وكان^(١) هذان الأخوان الشقيان من أشد يهود للعرب حسدا لما خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، فكانا جاهدين في ردِّ الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله عز وجل فيهما : « ود كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كلِّ شيء قدير^(٢) » .

(١) ليست عن ابن هشام .

(٢) سورة البقرة ١٠٩ .

وَمَرَّ شَأْسُ بْنُ قَيْسٍ ، وَكَانَ شَيْخًا قَدِ عَسَى^(١) عَظِيمَ الْكُفْرِ ، شَدِيدَ الضُّغْنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ ، عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ فِي مَجْلِسٍ قَدِ جُمِعَ فِيهِمْ يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ ، فَمَازَاهُ مَا رَأَى مِنْ أَلْفَتِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَالَ : قَدِ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ ، لَا وَاللَّهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ مَلُؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ .

فَأَمَرَ شَابَاً مِنْ يَهُودٍ كَانَ مَعَهُ فَقَالَ : اعْمُدْ إِلَيْهِمْ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ ثُمَّ إِذْ كَرَّ يَوْمَ بُعَاثَ وَمَا كَانَ فِيهِ وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنَ الْأَشْعَارِ . وَكَانَ يَوْمًا قَدِ اقْتَتَلَتْ فِيهِ الْأَوْسُ وَالخَزْرَجِ وَكَانَ الظَّفَرُ فِيهِ الْأَوْسِ ، وَكَانَ عَلَيْهَا يَوْمئِذٍ حُضَيْرٌ أَبُو أُسَيْدٍ ، وَعَلَى الْخَزْرَجِ عَمْرُو بْنُ النُّعْمَانَ الْبَيْسَاضِي فَقُتِلَا جَمِيعًا .

فَفَعَلَ الشَّابُّ مَا أَمَرَهُ بِهِ شَأْسٌ ، فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا حَتَّى تَوَاتَبَ رَجُلَانِ مِنَ الْحَيِّينِ عَلَى الرَّكْبِ وَهِيَ أَوْسُ بْنُ قَيْظَلَى وَجَبَّارُ ابْنِ صَخْرٍ فَتَقَاوَلَا ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِنْ شِئْتُمْ رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَذْعَةً . وَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ مِنْهُ جَمِيعًا وَقَالُوا : قَدِ فَعَلْنَا مَوْعِدُكُمْ الظَّاهِرَةَ - وَهِيَ الْحَرَّةُ - السَّلَاحَ السَّلَاحَ .

فَخَرَجُوا إِلَيْهَا ، وَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى جَاءَهُمْ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُ اللَّهُ أَيْدِعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفِّ بِهَ بَيْنَكُمْ^(٢) .

(١) عسى : أسن .

(٢) ابن هشام : بين قلوبكم .

فعرّف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيدة من عدوهم فبكوا وعانق
الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيدَ عدو الله شأس بن قيس .
فأنزل الله تبارك وتعالى في شأن شأس (١) وما صنع : « قل يا أهل الكتاب
لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (٢) .

وأنزل الله في أوس بن قَيْظِي وَجَبَّارِ بْنِ صَخْرٍ ومن كان معهم من
قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُ وَمَن يَمْتَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ
جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (٣) .

* * *

قال (٤) : وحدثت عن سعيد بن جبير أنه قال : أتى رهط من يهود
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن

(١) ابن هشام : في شأس .

(٢) سورة آل عمران ٩٩ .

(٣) سورة آل عمران ١٠٠ — ١٠٣ .

(٤) ترك المؤلف ذكر كثير من حوادث اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذكرها ابن هشام ٢ / ٢٠٤ — ٢٢٠ .

خَلَقَهُ ؟ قال : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقم لونه ، ثم ساورهم^(١) غضباً لربه ، فجاء جبريل فسكته فقال : خَفُّضْ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَجَاءهُ مِنَ اللَّهِ بِجَوَابٍ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

فلما تلاها عليهم قالوا : فصيف لنا يا محمد كيف خلقه ؟ كيف ذراعه كيف عضده ؟

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول وساورهم ، فأتاه جبريل فقال له مثل ما قال أول مرة ، وجاءه من الله تبارك وتعالى بجواب ما سأله عنه ، يقول الله جل وعلا : « وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٢) » .

* * *

ودخل أبو بكر الصديق رضی الله عنه بيت المدراس^(٣) على يهود ، فوجد منهم ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فينحاص وكان من علمائهم وأخبارهم ، ومعه خبر من أخبارهم يقال له أشيع .

فقال أبو بكر لفينحاص : ويلك^(٤) اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده ، نجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل .

(١) ساورهم : واتهمهم .

(٢) سورة الزمر ٦٧ .

(٣) بيت المدراس : البيت الذي يتدارس فيه اليهود كتبهم .

(٤) ابن هشام : ويحك .

فقال فنحاص لأبي بكر : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر فضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت رأسك أى عدو الله .

فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، إنه زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال فضربتُ وجهه .

فجحد ذلك فنحاص وقال : ما قلت ذلك .

فأنزل الله عز وجل فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبى بكر : « لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق ^(١) »

ونزل فى أبى بكر وما بلغه فى ذلك من الغضب : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ^(٢) » .

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٦ .

[المذافقون]

وكان ممن انضاف إلى يهود من المذافقين من الأوس والخزرج فيما
ذكروا والله أعلم :

من الأوس : جُلَّاسُ بنُ سُؤَيْدِ بنِ الصَّامِتِ من بنى حَبِيبِ بنِ عمرو
ابن عوف ، وهو القائل : - وكان ممن نخف عن غزوة تبوك : لئن كان هذا
الرجل صادقاً لنحن شريراً من الخمر .

وكان في حجره عُمَيْرُ بنُ سَعْدِ ، خَلَفَ جُلَّاسُ عَلَى أمه بعد أبيه ، فقال له
عمير : والله يا جُلَّاسُ إنك لأحب الناس إلى وأحسُّهُ عندي وأعزُّهُ عَلَيَّ
أن يصيبه شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحك ،
ولئن صممت عليها ليهلكن دِينِي ، ولإحداهما أيسرُ عَلَيَّ من الأخرى .

ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال جُلَّاسُ ،
فخلف جلاس لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالله لقد كذب عليَّ عمير
وما قلت ما قال .

فأنزل الله فيه : « يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا
بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتُّوا بِمِثْلِ مَا قَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَمْذِبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » (١) .

فزعموا أنه تاب فحسنت توبته حتى عُرف فيه الإسلام والخير .

وأخوه الحارث بن سُؤَيْدِ ، قَتَلَ المَجْدَر بنَ ذِيادِ البَلَوِيِّ .

وذلك أن المجذَر - فيما ذكر ابن هشام - قتل أباه سويد بن الصامت في بعض الحروب إذ كانت بين الأوس والخزرج ، فلما كان يوم أحد طلب الحارث غرةً المجذرية قتله بأبيه ، فقتله .

وذكر ابن إسحاق أن سويداً إنما قتله معاذ بن عفراء غيلةً في غير حرب ، رماه بسهم فقتله قبل يوم بُعث .

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون قد أمر عمر ابن الخطاب بقتل الحارث إن هو ظفر به ، ففاته فكان بمكة ، ثم بعث إلى أخيه جُلاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه . فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : « كيف يَهْدِي اللهُ قوماً كَفَرُوا بما دَامُوا إِيمَانَهُمْ وشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ^(١) » إلى آخر القصة .

ونبتلُّ بن الحارث من بني ^(٢) ضبيعة بن زيد بن مالك ، وهو القائل :
إنما محمد أذنٌ من حديثه شيئاً صدَّقه .

فأنزل الله تعالى : وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(٣) »

وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر : « من أحبَّ أن

(١) سورة آل عمران ٨٦ .

(٢) كذا بالأصل وهو خطأ ، فنبتل كما ذكر ابن هشام : من بني لوزان بن عمرو ابن عوف ، أما الذي من بني ضبيعة بن زيد بن مالك فهو بمجاد بن عثمان بن عامر . ابن هشام :

١٦٨ / ٢ .

(٣) سورة التوبة ٦١ .

ينظر إلى الشيطان فليَنظر إلى نَبْتَل بن الحارث « وكان جسيماً أَدَكَمٌ ^(١) »
ثائر شعر الرأس أحمر العينين . وذكر أن جبريل أتى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال : إنه يجلس إليك رجل أَدَكَمٌ ثائرُ شعر الرأس أسنَع
الخدَّين ^(٢) أحمر العينين كأنهما قدِران من صُنْفَر ^(٣) كَبِيدِه أغلظ من كبد
الحمار ، ينقل حديثك إلى المنافقين ، فاحذره .

وعمر بن خَدَّام ، وعبد الله بن نبتل ، وجارية بن عامر بن العَطَّاف
وابناء زيد ومجَّع وهم ممن اتخذ مسجد الضرار .

وكان مجَّعٌ ، غلاماً حَدَّثنا قد جمع من القرآن أكثره ، وكان يصلي بهم
فيه ، فلما كان زمان عمر بن الخطاب كلَّم في مجَّع ليصلي بقومه بنى عمرو
ابن عوف في مسجدهم ، فقال : لا ، أو ليس بإمام المنافقين في مسجد الضرار ؟
فقال له مجَّع : يا أمير المؤمنين والله الذي لا إله إلا هو ما علمتُ بشيء
من أمرهم ، ولكنني كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا لا قرآن معهم ،
فقدموني أصلي بهم وما أرى أمرهم إلا على أحسن ما ذكروا .
فزعوا أن عمر رضى الله عنه تركه فصلَّى بقومه .

* * *

ومن الخزرج ، ثم من بنى عوف : عبد الله بن أبي بن سلُول ، وكان
رأسَ المنافقين وإليه يجتمعون .

وهو الذي قال في غزوة بنى المُصْطَلِق : لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ

(١) الأدم : الأسود الطويل .

(٢) الأسنَع : الناحب .

(٣) الصنْفَر : النجاس .

الأعزُّ منها الأذلُّ . وسيأتى ذكر ذلك مستوفياً وبيان سببه عند الانتهاء إلى غزوة بني المصطلق ، إن شاء الله تعالى .

وقدِم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيدُ أهلها عبد الله ابن أبيّ هذا ، ولا يَحْتَلِف عليه في شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين .

حتى جاء الإسلام ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع ، أبو عامر عبد عمرو بن صَيْفِيّ بن النعمان أحد بني ضُبَيْعَةَ بن زيد ، وهو أبو حَنْظَلَةَ الْغَسِيلُ يومَ أُحُد ، وكان قد ترهَّب ولبس المسوح فكان يقال له الراهب ، فشَقِيًّا بشرفهما !

أمَّا عبد الله بن أبيّ فسكان قومه قد نظموا له انْخَرَزَ لِيَتَوَجَّوه وَيَمْلِكُوهُ عليهم ، فجاءهم الله تبارك وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ، فلما انصرف عنه قومه إلى الإسلام ضَعِنَ ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه مُسَكًّا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصِيراً على نفاق وضيغن .

وحدَّث أسامةُ بن زيد حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ركب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادَةَ يعودُه من شَكْوِ أوصابه على حمار عليه حافٌّ (١) فوقه قطيفة فدَكِيَّة (٢) نَحَطَمَهُ (٣) بحبل من ليف وأرْدَفَنِي خَلْفَهُ ، فرَّ بعبد الله بن أبيّ وحوله رجال من قومه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تَدَمَّعَ أن يجاوزَه حتى ينزل ، فنزل فسَلَّمَ ثم جلس فتلا القرآن ودعا إلى الله وذكر به وحذر وبشّر وأنذر ، وعبدُ الله زامٌ

(١) ابن هشام : لكاب .

(٢) فدكية : منسوبة إلى فدك وهي قرية بالحجاز قرب المدينة .

(٣) ابن هشام : نَحَطَمَهُ .

لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً ، فاجلس في بيتك فمن جاءك فخذته إياه ، ومن لم يأتك فلا تنسّه^(١) به ولا تأته في مجلسه بما يكره .

فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المساهين : بلى فأغشينا به واثنا في مجالسنا ودورنا ويوتنا ، فهو والله ما نحب وما أكرمنا الله به وهدانا له .

فقال عبد الله حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

مَتَى يَسْكُنُ مَوْلَاكَ خَصْمَكَ لَمْ تَزَلْ^(٢) تَذِيكَ وَيَصْرَعَكَ الَّذِينَ تَصَارِعُ
وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَعَا حَهُ وَإِنْ جُدَّ يَوْمًا رِيْشُهُ فَتَهَوَّ وَاقِعُ

قال : وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على سعد بن عبادة وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبي ، فقال : والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً : لكأنك سمعت شيئاً تسكره ؟ قال : أجل . ثم أحبره بما قال ابن أبي . فقال سعد : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لتتوجّه ، فإنه آتري أن قد سلّبتك ملكاً

* * *

وأما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فقال : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ قال : جئت بالحقيقية دين إبراهيم . قال : فأنا عليها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لست عليها^(٣) .

قال : إنك أدخلت يا محمد في الحقيقية ما ليس منها . قال : ما فعلت

(١) ابن هشام : فلا تنسّه . وهي رواية .

(٢) ابن هشام : لا تزال .

(٣) زاد في ابن هشام : « قال بلى » .

ولكني جئتُ بها ببيضاء نقيّة . قال : الكاذب أماته الله طريداً غريباً
وحيداً . يعرض برسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : أَجَلٌ ، فن كذّب يفعل الله ذلك به .

فكان هو ذلك عدو الله ، خرج إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً
للإسلام ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لا تقولوا : الراهب ، ولكن قولوا الفاسق .

فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج إلى الطائف ، فلما
أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريداً غريباً وحيداً ا

* * *

قال ابن إسحق : وكان ممن تَعَوَّذَ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره
وهو منافق من أحرار يهود ، من بنى قَيْدَمَاعَ : سَعْدُ بن حَنْبَلٍ ، ونَعْمَانُ
ابن أَوْفَى ، وعثمان بن أَوْفَى ، وزيد بن اللُّصَيْتِ ، وهو الذي قال حين ضلّت
ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى ،
أين ناقته ا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودُلَّ على ناقته وجاءه الخبر بما
قال عدو الله في رَحْلِهِ : « إن قائلًا قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو
لا يدرى أين ناقته ، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلني الله عليها
فهى في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها » .

فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم وكما وصف .

* * *

وكان هؤلاء المنافقون المسمون وغيرهم ممن لم يُسَمَّ بِمُحْضِرُونَ المسجدَ
فيستعمون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهمزون بدينهم .

فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً .

فقام أبو أيوب خالد بن زيد إلى عمرو بن قيس أحد بنى غنم بن مالك ابن النجار ، وكان صاحب آلتهم في الجاهلية ، فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد ، وهو يقول : أنخرجني يا أبا أيوب من مرثد بنى ثعلبة !

ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن ودبيعة أحد بنى النجار فلبّبه بردائه ثم نثره كثيراً شديداً ثم لطم وجهه وأخرجه^(١) من المسجد وهو يقول : أف لك منافقاً خبيثاً ، أذراجك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو ، وكان طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقاده بها قوفاً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد ، ثم جمع عمارة يديه فلذمه^(٢) بهما في صدره لذمة خر منها . قال : يقول : خدشني يا عمارة ! قال : أبعدك الله يا منافق ، فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك ، فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقام أبو محمد ، رجل من بنى النجار ، وكان بدرياً ، إلى قيس بن عمرو فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد . وكان قيس غلاماً شاباً لا يعلم في المنافقين شاب غيره .

وقام رجل من بلخندرة^(٣) يقال له عبد الله بن الحارث إلى رجل يقال له الحارث بن عمرو وكان ذا جمة فأخذ بجمته يسحباً سحباً عنيفاً على ما مر به من الأرض حتى أخرجه من المسجد .

(١) ابن هشام : ولطم وجهه ثم أخرجه .

(٢) اللدم : الضرب ببطن الكف .

(٣) بلخندرة : بنو الخندرة ، وهم رهط أبي سعيد الخدري .

قال : يقول المنافق : لقد أغلظت يا بن الحارث . فقال له : إنك أهلٌ لذلك يا عدو الله لِمَا أنزل الله فيك ، فلا تقرب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنك نجس .

وقام رجل من بنى عمرو بن عوف إلى أخيه ذُوَيْبِ بْنِ الْحَارِثِ فَأَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ إِخْرَاجًا عَنِيفًا وَأَقْفَمَهُ وَقَالَ : غَابَ عَلَيْكَ الشَّيْطَانُ وَأَمْرُهُ .
فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجهم .

ففي هؤلاء من أحبار يهود والمنافقين من الأوس والخزرج نزل صدرُ سورة البقرة إلى المائة منها ، فيما بلغني والله أعلم^(١) .

[وفد نصارى نَجْرَانَ]

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وفدٌ نصارى نَجْرَانَ ، سقون راكبًا ، فدخلوا عليه المسجد حين صَلَّى العَصْرَ عليهم ثياب الخبَرَاتِ جُبَّ وَأَرْدِيَّةَ ، فِي جَمَالٍ رَجَالُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ مِنْ رَأْمٍ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا رَأَيْنَا بَعْدَهُمْ وَفَدَاءُ مِثْلَهُمْ .

وحانت صلاتهم فقاموا يصلُّون في المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دَعُوهُمْ . فصلُّوا إلى المشرق ، وكان فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرفهم ، في الأربعة عشر منهم ثلاثة نفرٍ إليهم يؤول أمرهم : العاقبُ أميرُ القومِ وذو رأيهم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدُّون إلا عن رأيه ، واسمه عبد المسيح ، والسيدُ بمكالمهم^(٢) وصاحب رَحْلِهِمْ ومجتهمهم واسمه الأيهم ،

(١) استمرس ابن هشام صدر سورة البقرة الذي ذكر فيه المنافقون واليهود . انظر

١٧٧/٢ — ١٩٤ .

(٢) أى القائم بأمرهم .

وأبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل أسقطهم وخبرهم وإمامهم وصاحب
مدرّاسهم وكان أبو حارثة هذا قد تشرّف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن
علمه في دينهم ، فكان ملوكهم قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له السكنائس
وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم .

فلما وجّهوا^(١) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران جلس
أبو حارثة على بغلة له موجّها وإلى جنبه أخ له يقال له كوز بن علقمة ، ويقال
كرز بن علقمة ، فمئرت بغلة أبي حارثة فقال كوز : تمس الأبعد ، يريد
رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له أبو حارثة : بل أنت تمست . قال :
ولم يا أخى ؟ قال : والله إنه للذي الذي كنا ننتظره . فقال له كوز : فما يملك
منه وأنت تعلم هذا ؟ اقال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا ومولونا
وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافة ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى .
فأضمر عليها منه أخوه كوز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك ، فهو كان
يحدّث عنه هذا الحديث .

وكان أبو حارثة هذا ممن كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم هو والمعاقب
والسيد ، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف من أمرهم [في عيسى
عليه السلام^(٢)] ، يقولون هو الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ،
ويقولون هو ولّد الله كبّرت . كلمة نخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ،
ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذّهب كلّ إله بما خلق وأعمالاً
بعضهم على بعض . سبحان الله عمّا يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى
عمّا يشركون . ويقولون هو ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد .

(١) ابن هشام : رجعوا . وما هنا أقرب .

(٢) سقطت من ابن هشام وهي متعينة .

ففي كل^(١) هذا من قولهم قد نزل القرآن مُدْحِضًا حُجَجَهُمْ وَمُبْطِلًا دَعَاوِيَهُمْ ، والله يقول الحقّ وهو يَهْدِي السَّبِيلَ .

قال الله العظيم : « لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيحُ بنُ مريمَ ، وقال المسيحُ : يا بني إسرائيل اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إنه مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وما للظالمين من أنصارٍ » .

« لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثلاثٌ ثلاثيةٌ ، وما مِن إله إلا إلهٌ واحدٌ ، وإن لم يذنبوا عَمَّا يقولون لِيَمْسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ، أفلا يتوبون إلى اللهِ ويستغفرونه واللهُ غفورٌ رحيمٌ ، ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلا رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انظُرْ كيف نبين لهم الآياتِ ثم انظر أنى يُؤْفَكُونَ^(٢) » .

وقال عزّ من قائل : « وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ وقالت النصارى المسيحُ ابنُ اللهِ ذلك قولهم بأفواههم يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنى يُؤْفَكُونَ ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً مِن دونِ اللهِ والمسيحُ بنُ مريمَ ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يُشْرِكُونَ^(٣) » .

* * *

ولمّا كلموا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإسلام ، فقال له

(١) دفع الآراء والتعليق عليها لم يذكره ابن هشام .

(٢) سورة المائدة ٧٢ — ٧٥ .

(٣) سورة التوبة ٣٠ — ٣١ .

حَبْرَانِ مَنْ كَلَّمَهُ مِنْهُمْ : قَدْ أَتَيْنَا . فَقَالَ لَهَا : إِنَّكُمْ لَمْ تُسَلِّمَا فَأَسَلِمَا . فَقَالَا :
بَلَى قَدْ أَتَيْنَا قَبْلَكَ .

فَقَالَ : كَذَبْتُمَا ، يَدْعُوكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ دَعَاؤَ كَمَا لَلَّهِ وَلَدَا وَعِبَادَتُكُمَا الصَّلِيبَ
وَأَكَلِكُمَا الْخَنزِيرَ .

قَالَا : فَمَنْ أَبُوهُ يَا مُحَمَّدُ ؟

فَصَمَّتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَجِبْهُمَا .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ وَاخْتِلَافِ أَمْرِهِمْ [كَلَهُ] ^(١) صَدْرَ سُورَةِ
آلِ عِمْرَانَ إِلَى بَعْضِ وَثَمَانِينَ آيَةً مِنْهَا .

فَأَفْتَتِحَ السُّورَةَ بِتَنْزِيهِهِ نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ مِمَّا ^(٢) قَالُوا ، وَتَوْحِيدِهِ إِيَّاهَا بِأَنْخُلُقِ
وَالْأَمْرِ ، رَدًّا عَلَيْهِمْ مَا ابْتَدَعُوا مِنَ الْكُفْرِ وَجَعَلُوا مَعَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ لِيُعَرِّفَهُمْ
بِذَلِكَ ضَلَاتِهِمْ . فَقَالَ جَلَّ قَوْلُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ : « أَلَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ ، مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

ثُمَّ اسْتَمَرَ سُبْحَانَهُ فِيمَا شَاءَ مِنَ التَّبْيِينِ لَهُمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ وَالْإِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ ،
وَإِرْشَادِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى سَبِيلِ الضَّرَاعَةِ إِلَيْهِ بِأَنْ لَا يُزَيِّغَ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ إِذْ
هَدَاهُمْ ، وَأَنْ يَهَبَ لَهُمْ مِنْ لَدُنْهِ رَحْمَةً ، وَمَا وَصَلَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ الْحَقُّ وَذِكْرُهُ
الْحَكِيمُ .

(١) من ابن هشام .

(٢) ابن هشام : عما .

ثم استقبل لهم أمر عيسى وكيف كان بدء ما أراد به ، فقال : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذريةً بعضها من بعض والله سميعٌ عليم »

ثم ذكر امرأة عمران ونذرها لله ما في بطنها محررا ، أى تمبده له سبحانه لا ينتفع به لشيء من الدنيا ، ثم ما كان من وضعها مريم وتمويذها إياها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم .

يقول الله تبارك وتعالى : « فتقبلها ربهما بقبولٍ حسنٍ وأنبتتهما نباتا حسنا وكفلهما زكريا » أى ضمها وقام عليها بمد أبيها وأما .

ثم قص خبرها وخبر زكريا وما دعا به وما أعطاه ، إذ وهب له يحيى ، ثم ذكر مريم وقول الملائكة لها : « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » .

يقول الله جل وعز : « ذلك من أنباء الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ وما كنتَ لديهم إذ يُلقونُ أقلامهم أكتبهم يَكفُلُ مريم » أى يستهيمون عليها ، أيهم يخرج سهمه يكفلها . « وما كنتَ لديهم إذ يختصمون » أى ما كنت معهم إذ يختصمون فيها .

يخبره بخفي ما كتّموا عنه من العلم ، تحقيقا لنبوته وإقامة للحجة عليهم^(١) بما يأتهم به مما أخفوا منه .

ثم قال تعالى : « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه

(١) ابن هشام : لتحقيق نبوته والحجة عليهم .

اسمهُ المسيحُ عيسى بنُ مريمَ ، وجيهاً في الدنيا والآخرةِ ومن المُتَرَبِّينَ ، وَبِكَلِمَاتِكُمُ
النَّاسَ فِي الْهَيْدِ وَكِهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ .

أى هكذا كان أمره لا ما يقولون فيه ، وإن هذه حالاته التي يتقلب بها
في عمره كتقلب بنى آدم في أعمارهم صغاراً وكباراً ، إلا أن الله خصه بالكلام
في مَهْدٍ آيَةً لِنُبُوَّتِهِ ، وتعميراً للعباد لمواقع قدرته .
« قَالَتْ : رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي وَكَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسُنِي بَشَرٌ ؟ قَالَ كَذَلِكَ
اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . »

أى يصنع ما أراد ويخلق ما يشاء من بشر أو غير بشر . [ويصور في الأرحام
ما يشاء وكيف يشاء بَدَنًا كَرًّا وَبغير ذَكَرٍ (١)] .
« إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ » .

ثم أخبرها بما يريد به من كرامته وتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة
المنزلة على موسى قبله والإنجيل المنزل عليه ، وجعله رسولا إلى بنى إسرائيل ،
مؤيداً من الآيات بما هو صادر عن إذنه موقوف على مشيئته تحقيقاً لما أراد من
نبوته ، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وغير ذلك
مما أيده الله به من المعجائب المصدقة له ، وأمره إياهم بتقوى الله وطاعته
وقوله لهم : « إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ » تَبَرُّبًا مِنَ الَّذِي يَقُولُونَ فِيهِ وَاحْتِجَاجًا
لِرَبِّهِ عَلَيْهِمْ . « فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » أى هذا الهدى قد حملتكم
عليه وجئتكم به .

« فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا
بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » .

(١) ليست في ابن هشام .

ثم ذكر رَفَعَهُ إِيَّاهُ إِلَيْهِ حِينَ اجْتَمَعُوا لِقَاتِهِ ، فَقَالَ : « وَمَسْكُرُوا
وَمَسْكُرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

ثم أخبرهم وردَّ عليهم فيما أقرؤا لليهود بصَلْبِهِ ، كَيْفَ رَفَعَهُ وَطَهَّرَهُ مِنْهُمْ
فَقَالَ : « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْفَعْكَ وَإِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . ثم القصة
حتى انتهى إلى قوله : « ذَلِكَ أَنْتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ .
إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » .

أى قد جاءك الحق من ربك فلا ترنأين به ولا تمترين فيه ، وإن قالوا
كيف خلق عيسى من غير ذكر فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة
من غير أنثى ولا ذكر ، فكان كما كان عيسى لحماً ودماً وشعراً وبشراً ،
فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب من هذا .

« فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » أى من بعد ما قصصت
عليك من خبره وكيفية أمره ^(١) « فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا
وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلُ لِمَنَّا عَلَى الْكَافِرِينَ » .
نبتهل : ندعو باللعنة ، ونبتهل أيضاً نجتهد بالدعاء ^(٢) .

« إِنْ هَذَا لَهَوَ الْقَصَصِ الْحَقُّ » أى ما أخبرتك به من أمر عيسى
« وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَوَ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

(١) ابن هشام : وكيف كان أمره .

(٢) ابن هشام : فى الدعاء .

أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .
فدعاهم إلى النِّصْفِ وقطع عنهم الحجة .

* * *

فلما أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ من الله عز وجل في شأن عيسى وقصْلُ القِضَاءِ بيده وبينهم بما أُمر به من مُلَاعَنَتِهِمْ إِنْ رَدُّوا ذَلِكَ عَلَيْهِ ، دعاهم إلى ذلك ، فقالوا يا أبا القاسم دَعْنَا نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيكَ بِمَا نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ فِيهَا دَعْوَتَنَا إِلَيْهِ .

فانصرفوا عنه ثم خَلَوْا بِالْعَاقِبِ ، وكان ذارأيهم ، فقالوا : يا عبد المسيح ما ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمداً لَنَبِيِّ مُرْسَلٍ ، ولقد جاءكم مِنْ خَيْرِ صَاحِبِكُمْ بِالْحَقِّ ، ولقد علمتم ما لا عَن قَوْمٍ نَبِيًّا قَطُّ فَبِقِي كِبِيرِهِمْ وَلَا تَنْبَتِ صَغِيرِهِمْ ، وإِنَّهُ لِلْإِسْتِثْصَالِ مِنْكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ أَتَيْتُمْ إِلَّا إِلْفَ دِينِكُمْ وَالْإِقَامَةَ عَلَى أَتَمِّ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ فِي صَاحِبِكُمْ فَوَادِعُوا الرَّجُلَ وَانصِرِفُوا^(١) إِلَى بِلَادِكُمْ .

فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا أَلَا أُلَاعِنُكَ وَأَنْ نَتْرَكَكَ عَلَى دِينِكَ وَنَرْجِعَ إِلَى دِينِنَا ، وَلَسْكَنْ أِبْعَثَ مَعَنَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ تَرْضَاهُ لَنَا يَحْكُمُ بَيْنَنَا فِي أَشْيَاءِ اخْتَلَفْنَا فِيهَا مِنْ أَمْوَالِنَا ، فَإِنْ لَمْ يَرْضَى .
فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : انْتَوْنِي الْعِشْيَةَ أِبْعَثْ مَعَكُمْ الْقَوِيَّ الْأَمِينَ .

فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما أحببتُ الإِمَارَةَ قَطُّ حَيًّا

(١) ابن هشام : ثم انصرفوا .

إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فُرِخت إلى الظهر مهجراً ، فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ثم نظر عن يمينه ويساره فجعلت أتطاول له ليرانى ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح ، فدعاه فقال أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه .

قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة .

[مرض المهاجرين بالمدينة]

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم حتى جهدوا فما كانوا يصلون إلا وهم قُمود ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم فخرج عليهم صلوات الله عليه وهم يصلون كذلك ، فقال لهم : اعدوا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم . فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماس الفضل !

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ممن أصابته الحمى وكذلك مؤلياه عامر بن فهيرة وبلال ، قالت عائشة : فدخلت أعودهم قبل أن يضرب عليهما الحجاب وهم في بيت واحد وبهم ما لا يعلمه إلا الله من الوعك ، فدنوت من أبي بكر فقلت له : كيف تجددك يا أبت ؟ فقال :

كلُّ امرئٍ مُصَبِّحٌ في أهله واللوتُ أدنى من شراكِ نَعْلِهِ

فقلت : والله ما يدري أنى ما يقول ، ثم دنوت إلى عامر فقلت ، كيف

تجددك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدتُ الموتَ دون ذَوْقِهِ^(١) إنَّ الجبانَ حَتَفَهُ مِنْ فَوْقِهِ

(١) ابن هشام : قبل .

كلُّ امرئٍ مجاهدٌ بطوقه كالثورِ يحمي جلدَه بروقه
قالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع
عقيرته وقال :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً^(١) وحوالي إذخرتُ وجليلُ
وهل أرددنَّ يوماً مياهِ مجنَّةٍ وهل يبدؤنَّ لي شامةً وطفيلُ
قالت عائشة : فذكرتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعتُ منهم ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم حبِّبْ لنا المدينةَ كما حبَّبتَ
[إلينا]^(٢) مكةَ أو أشدَّ ، وباركْ لنا في مدَّها وصاعها ، وانقلْ وباءها إلى
مَهَبَةٍ . وهي الجحفة .

انتهى الجزء الأول من كتاب « الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة
الخلفاء » بحمد الله ، ويليه الجزء الثاني وأوله : « شروع رسول الله
صلى الله عليه وسلم في حرب المشركين ، وذكر مغازيه التي أعزَّ الله بها
الإيمان والمؤمنين » .

(٢) من ابن هشام .

(١) ابن هشام : بفتح

تصويبات

الصواب	السطر	الصفحة
مُضَرِّ	١٦	٤١
وَخَانَتْ	٨	١٢٣
وَأَمْسَكَتُ	١٨	٢٨٦
ثَبِيرًا	١٣	٢٨٧
اِخْتَلَفَا	١	٢٨٩
لَا تَشْوِي	٣	٢٩٦
يَخْبِرْكُمْ	١١	٢٩٦
بِحَدِّ	١٩	٤١٤
رَحْمَةٍ	١٢	٢٩٠
أَلْجَمَّارَةَ	هامش	٤٥٤